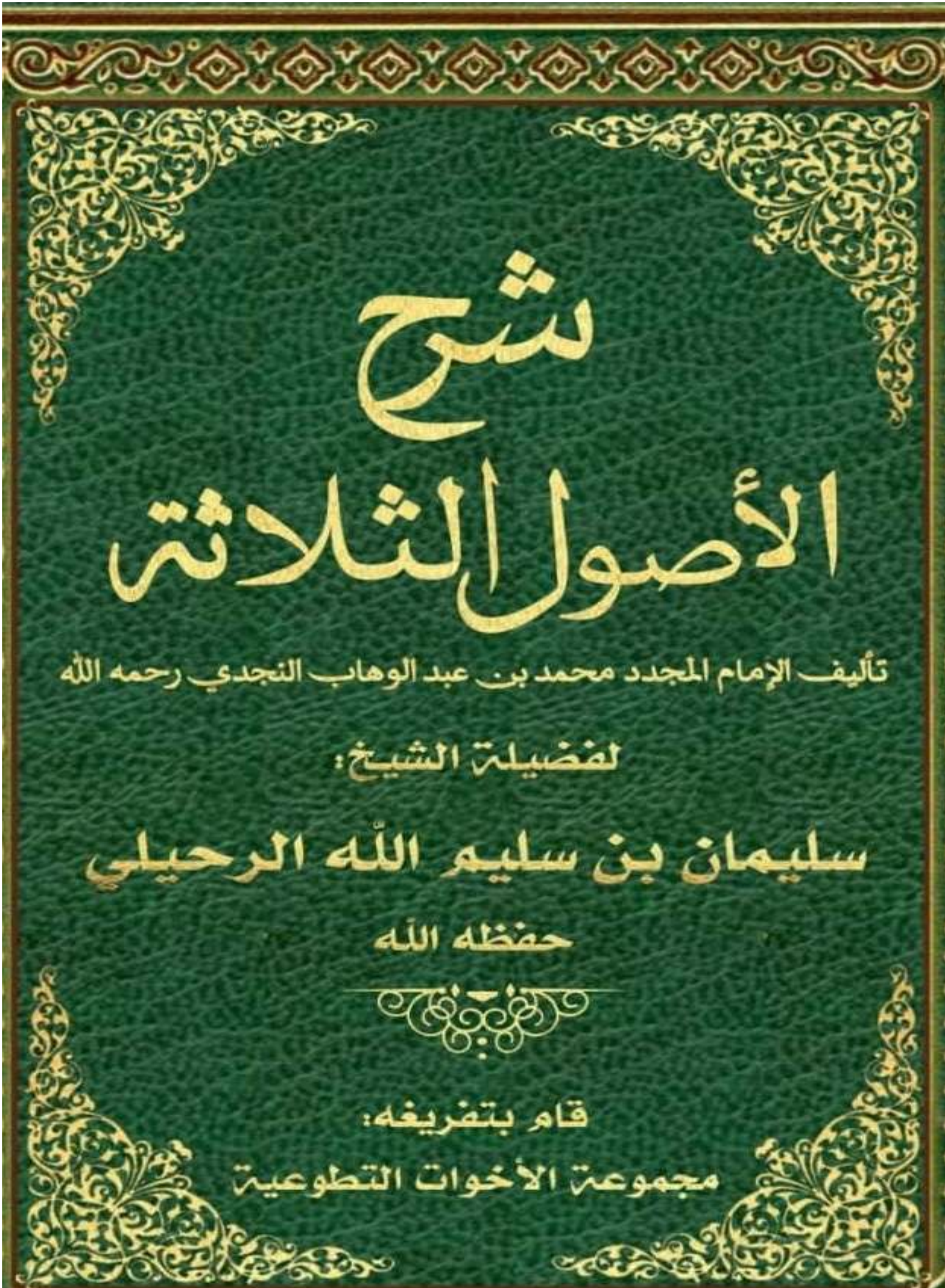

شرح
الأصول الثلاثة
تأليف الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب النجدي رحمه الله
لفضيلة الشيخ:
سليمان بن سليم الله الرحيلي
حفظه الله
قام بتفريغه:
مجموعة الأخوات التطوعية


بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٣٨


✍**تنبيه:** الشيخ لم يُراجع التفريغ
الشرح مفرغ حرفيًا ولا يوجد تعديل عليه إلا في مواضع نادرة يقتضيها المقام.
تم التفريغ بواسطة: مجموعة الأخوات التطوعية
ab29alg@gmail.com

مُقدِّمة الشَّرح:

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فمعاشر الإخوة الكرام نواصل إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ درسنا في شرح الأصول الثلاثة، وهذا الكتاب "الأصول الثلاثة" كتاب عظيم، هذا الكتاب حوى ما يجب على المسلم أن يتعلمه من توحيد ربّ العالمين، وبالعلم به العلم الشرعي المقترن بالعمل.

وهذا التوحيد الذي ذكره الشيخ رَحْمَهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في هذا الكتاب من عمِل به تحققت له سعادة الدنيا والآخرة والنجاة عند فتنة القبر، نعوذ بالله من عذاب القبر وفتنته، إذ مدار هذا الكتاب على الأسئلة الثلاثة العظيمة التي يُسألها المرء في قبره: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ هذه الأسئلة التي هي مدار هذا الكتاب، ولن يُوفق إلى الحق فيها والجواب النافع إلا من اعتقدها اعتقادًا جازمًا وكان من أهلها؛ حيث ثبت أن العبد منا يُفتن في قبره فتنة عظيمة، يُفتن في تلكم الحفرة الضيقة التي يدخلها الإنسان وحيدًا ولا يكون معه فيها إلا العمل الذي كان قد قدمه، فإن الميت يتبعه ثلاثة: أهله، وماله، وعمله فيرجع اثنان ويبقى الثالث، يرجع أهله وماله ويبقى عمله، في تلك الحفرة الضيقة التي علم الصالحون شأنها فقطع أمرها قلوبهم، كان الخليفة الراشد عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه الذي قال فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا فَعَلَهُ بَعْدَ الْيَوْمِ»[1]، يقولها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويبشره

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٦٤٩و٧٣٨)، والترمذي (٣٧٠١)، والحاكم (٤٥٥٣) وقال: صحيح الإسناد، وحسنه الإمام الألباني رَحْمَهُ اللهِ في "المشكاة" (٦٠٦٤).

بالجنة ومع ذلك فإن ذلكم الصالح كان إذا وقف على قبر يبكي حتى يبُلَّ لحيته رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه فيقال له: «تذكر الجنة والنار ولا تبكي وتبكي من هذا ؟» فيقول رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ**» وقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ**»[1]، يقوله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ**» في تلكم الحفرة، وذلكم المكان، وفي ذلكم الحال يُفتن العبد منا في قبره بهذه الأسئلة، فقد جاء في حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ**» وذكر حديثه إلى أن قال: «**فَإِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ، إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ مدبرين**»، وهنا جاء في الحديث أن الميت يسمع خفق نعال أصحابه، وجاء في حديث آخر أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنزع النعال عند المشي بين القبور[2]، وجمع المحققون بين هذا وهذا بأن النهي إنما هو وارد لمن مشى بين القبور فكان يمشي بين القبور، وأما هذا الحديث فمحمول على المشي في الطرقات المعدة بين القبور، فمن مشى في الطرقات المعدة بين القبور لا يلزمه أن يخلع حذاءه ونعله، أما إذا دخل بين القبور ومشى بين القبور فإنه منهي عن لبس نعله.

يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ، إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ مدبرين فيأتيه مَلَكَانِ شَدِيدَا الِانْتِهَارِ فَيَنْتَهِرَانِهِ وَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ له: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ؟**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤٥٤)، والترمذي (٢٣٠٨)، وابن ماجه (٤٢٦٧)، والبيهقي (٦٨٥٦)، والحاكم (٧٩٤٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وحسنه الإمام الألباني في "صحيح الجامع" (٥٦٢٣) و"المشكاة" (١٣٢).

(٢) أخرجه أحمد: (٢٠٧٤٨)، وأبو داود: (٣٢٣٠)، والنسائي: (٢٠٤٨)، وابن ماجه: (١٥٦٨)، والبيهقي: (٧٠٠٨)، والحاكم (١٣٨٠و١٣٨١)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي وأقرهما الألباني كما في "الإرواء" و"صحيح الأدب المفرد" برقم: (٨٢٩).

فَيَقُولَانِ له وَمَا دِينُكَ؟ فيقول: دِينِيَ الْإِسْـــلَامُ، فَيَقُولَانِ له: مَا هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقولان: وما عملك؟ فيقول: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُهُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أن صَدَقَ عبدي فأَفْرِشُوا لهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ وافتحوا له بابًا إلى الجنة، فيأتيه من روحها وطيبها، وَيُفْسَحُ لَهُ في قبره مَدَّ بَصَرِهِ ويأتيه رَجُلٍ حَسَـنِ الْوَجْهِ حَسَـنِ الثِّيَاب طَيِّبِ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِـرْ بِالَّذِي يَسُـــرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتُ تُوعَدُ، فَيَقُولُ له: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ؟ فيقول: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا كُنْتَ سَرِيعًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ بَطِيئًا عَنْ مَعْصِـــيَةِ اللَّهِ فَجَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا» هذا العبد المؤمن الذي قرأ كتاب الله، وصـــدق، وآمن، واعتقد هذا الاعتقاد العظيم، وقال النبي صَـــلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّمَ: **«وإن العبد الكافر»**، وفي رواية: **«وإن العبد الفاجر»** إلى قوله: **«فَإِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ، إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ مدبرين فيأتيه مَلَكَانِ شَدِيدَا الِانْتِهَارِ فَيَنْتَهِرَانِهِ وَيُجْلِسَانِهِ فيجلس فزعًا مشغوفا، فَيَقُولَانِ: لَهُ مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ له: فمَا تقول فِي هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فلا يهتدي لاســـمه»** مع أنه كان يعرفه في الدنيا **«فيُقال: محمد، فيقول: هاهٍ هاهٍ لا أدري، ســـمعت الناس يقولون ذلك، فيُقال: لا دريت ولا تلوت،فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّـــمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَأَفْرِشُـــوا له مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَـــمُومِهَا وَيُضَـــيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْـــلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِـــرْ بِالَّذِي يَسُـــوؤُكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ فَيَقُولُ: وأَنْتَ مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ فوالله ما علمتك إلا كنت بطيئًا عن طاعة الله ســـريعًا إلى معصـــية الله»** إلى آخر قوله صَـــلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّمَ، هذا الحديث العظيم رواه أبو داود والحاكم، وصـــححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وأقرها الألباني، وصححه الإمام ابن القيم ونقل تصحيحه عن جمع من

الحفاظ، لذا كان متعينًا على كل مسلم أن يحرص على ما في هذا الحديث، وأن يفهم معانيه، وأن يعمل بما جاء فيه.

هذا الكتاب فيه أهم أمور التوحيد، ولا شك أن التوحيد أهم ما ينبغي أن يهتم به المسلم وأن يعتني المسلم بتحقيقه، أغلى ما عند المسلم دينه، وأغلى دين المسلم توحيد رب العالمين، لا شك أن التوحيد أهم ما ينبغي أن تعتني بتحقيقه أيها المبارك، وأول ما ينبغي أن يُدعى إليه هو توحيد رب العالمين، كيف لا وهو أصل رسالة الرسل، وهو الأمر الذي اتفقت عليه شرائع الأنبياء من غير اختلاف بينها، ودعا إليه الأنبياء جميعًا، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[1] ما من رسول ولا نبي بعثه الله عَزَّ وَجَلَّ إلا ودعوته لقومه أن يعبدوا الله، أن يوحدوا الله، وأن يجتنبوا الطاغوت، فمهمة الأنبياء وهي أشرف المهمات: أمر العباد بتوحيد رب العالمين والتحذير من الشرك؛ فالتوحيد هو قضية المؤمن الكبرى، والقاعدة الأساس عند الموفق، وهو روح الإسلام؛ ولذا ظل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حياته كلها يدعو إلى توحيد رب العالمين إلى أن مات صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وورثه من بعده صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وتوحيد الله وإفراد الله بالعبادة هو الأمر الذي خُلق من أجله الجن والإنس كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾[2] وقد فسر علماء الأمة قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أي: إلا ليوحدون، فيعبدوا الله عَزَّ وَجَلَّ موحدين؛ ولذا أيها المبارك يجب على المسلم أن يقيم حياته كلها على التوحيد، أن تكون حياته كلها مبنية على توحيد رب العالمين، أن يقيم صلاته على التوحيد،

---

(١) سورة النحل: (٣٦).

(٢) سورة الذاريات: (٥٦-٥٨).

وأن يُقيم نسكه على التوحيد، وأن يكون محياه على التوحيد، وأن يكون مماته على التوحيد: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[1].

التوحيد هو عماد الدين، وأول الدين وآخره، وظاهر الدين وباطنه، قامت عليه الأدلة ونادت عليه الشواهد وأوضحته الآيات وأُسست عليه الملة، وانقسم الناس بسببه إلى شقي وسعيد، وهو الأمر الذي يجب أن يرسخ في القلوب قبل الدخول في الأوامر والنواهي، ولذا لعظم منزلة التوحيد كان الذي يُضاده أعظم الذنوب، فأعظم الذنوب على الإطلاق الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والشرك هو الذنب الأوحد الذي لا يغفر الله عَزَّ وَجَلَّ لصاحبه إن مات عليه كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[2] كان ضد التوحيد الظلم الأعظم وذلك لعظيم منزلة التوحيد كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ على لسان لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3]، وكانت حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلها دعوة للتوحيد، ومحاربة الشرك، فلا انصرف عن ذلك وهو في مكة بين الكفار والمشركين، ما ترك الدعوة إلى التوحيد وهو في حال الضعف وأهل الشرك في حال القوة، ما أخّر التوحيد لمصلحة ولا أخر التوحيد لأمر من الأمور بل كان يدعو إلى التوحيد، ولم يقل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن الدعوة للتوحيد تفرق الناس، لم يقل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنني سأقبل من أهل مكة ما يعدونني به من مُلك ونحوه ثم بحسن أخلاقي ينتشر التوحيد، أبى كل شيء إلا أن يدعو لتوحيد رب العالمين، وما توانى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك أبدا، ولا كسل عن ذلك أبدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا انصرف عنه أيضًا وهو في مسالك الهجرة وهو

(١) سورة الأنعام: (١٦٢ – ١٦٣).

(٢) سورة النساء: (٤٨).

(٣) سورة لقمان: (١٣).

في طريقه إلى المدينة وهو خارج مطارد يطرده العدو حثيثًا ومع ذلك ما غفل عن الدعوة إلى التوحيد، فقد كان النبي صَــلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ يدعو إلى التوحيد في طريقه إلى مدينة الهجرة؛ كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصًا على التوحيد ما ترك الدعوة إلى التوحيد وأمره ظاهر في المدينة بين أنصـــاره وأعوانه، ولا أغلق باب التوحيد بعد فتح مكة، ولم يقل: إن المؤمنين قد وحدوا فلا داعي للدعوة إلى التوحيد بل كان صَــلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ يدعو إلى التوحيد، بقي صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ معليًا لراية التوحيد؛ ولذا فإن الواجب على كل داعية بل الواجب على كل مسـلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتمثل هدي النبي صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ في ذلك، فلا دعوة نافعة من كل وجه إلا إذا كانت كذلك: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1] هذه ســبيل النبي صَــلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ، وهذه ســبيل الدعوة الصــحيحة الراشــدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ينبغي لطالب العلم بل ينبغي للمســلم أن يعرف للتوحيد مقامه كما عرف له النبي صَــلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ مقامه، ينبغي على المســلم أن يُنزل التوحيد مكانته العلية التي جعلها له رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن يدعو إلى الاهتمام بالتوحيد، وأن يحبب أمة محمد صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ في التوحيد، وأن يرغبهم في التوحيد، وأن يحثهم على دراســـة التوحيد حتى تكون الأمة على طريقة راشدة وتكون الأمة على أمر عظيم.

ونحن في شــرحنا لهذا الكتاب ســنقف وقفات مع مســائل عظيمة من مســائل التوحيد أوردها الشـــيخ رَحِمَهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وجعلها دررًا في هذا الكتاب، فنبدأ مســتعينين بربنا متوكلين عليه بقراءة ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(١) سورة يوسف: (١٠٨).

قال الْإِمَامِ الْمُجَدِّدِ الشيخ الإسلام مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَحِمَةُ اللهُ عليه: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ".

الشَّرْح:

قال الشيخ: "**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**"؛ ابتدأ شيخ الإسلام رَحْمَهُ اللهِ كتابه بالبسملة، فبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم ونعم البداية، وفي ذلك اقتداء بكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإنه مبدوء بالبسملة بإجماع علماء الأمة؛ كذلك ابتدأ الشيخ رَحْمَهُ اللهِ كتابه مقتديًا بالحبيب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كُتبه إذ أن كُتب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلها مبدوءة بالبسملة، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبتدئ كتبه بالبسملة، يقول الحافظ ابن حجر رَحْمَهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: **((هكذا كان يبدأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الملوك ببسم الله الرحمن الرحيم كما جاء في صحيح البخاري في: "كتاب التفسير" حيث جاء فيه: «ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ»))**[١]، فهذا الكتاب بدأه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببسم الله الرحمن الرحيم، بل ذكر الحافظ ابن حجر[٢] أن كتب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُمعت فوجدت كلها مبدوءة ببسم الله الرحمن الرحيم.

وهنا فائدة: وهي أن المقروء يُسن أن يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم، المقروء من الكتب ونحوها السنة أن يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم، أما المسموع من الخطب والمحاضرات والدروس فالسنة أن تُبدأ بالحمدلة فإن خطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جُمعت فكانت كلها

(١) رواه البخاري، باب: بدء الوحي، برقم: (٧).

(٢) كتاب الفتح" (٨/٢٢٠).

مبدوءة بالحمدلة، ولذلك إذا كان الإنسان يكتب فالسنة أن يبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم، أما إذا كان يتكلم ليُسمع ويُسمع كلامه فالسنة في حقه أن يبدأ بالحمد لله رب العالمين، هذه سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذن المستقِر في سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الكتب أن تُبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم، وشيخ الإسلام[1] وهو المتمسك بسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدأ كتابه ببسم الله الرحمن الرحيم، كما أن الشيخ رَحِمَهُ اللهِ بدأ كتابه ببسم الله الرحمن الرحيم مستأنسًا بالحديث الذي يروى في ذلك وهو أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ ببسم الله فَهُوَ أَقْطَعُ**»[2]، هذا الحديث ضعيف ولا يصح إسناده؛ لكن أهل العلم يذكرونه من باب الاستئناس لا من باب الاستدلال فلا يستدلون به ابتداء؛ ولكن يستأنسون به بعد أن دلت الأدلة على أن السنة في الكتب أن يبدأ فيها ببسم الله الرحمن الرحيم، كما أن علماءنا ذكروا أنه يُسن في الكتب أن تبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم؛ لأنها تُقرأ وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[3] فأمر أن يُقرأ باسمه، فتُكتب بسم الله الرحمن الرحيم من أجل أن تُقرأ؛ لأن هذه الكتب تقرأ.

فإن قال قائل: إن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بدأ بالبسملة ولم يذكر الحمدلة قال: "**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**" فلماذا صنع هذا؟ **قلنا**: هذا صنيع مسلوك عند علماء الإسلام، فإن كثيرًا من علماء الإسلام يبدؤون كتبهم بالبسملة ولا يعقبونها بالحمدلة كما فعل الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ذلك، وكما فعل الإمام مالك في "الموطأ" ذلك، وكما فعل الإمام

---

(١) يقصد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهِ ورضي عنه.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ: الخطيب في "الجامع لأخلاق الراوي" (١٢١٠)، ومن طريقه السمعاني في "أدب الإملاء" (ص٥١).
قال الإمام الألباني رَحِمَهُ اللهِ: وهذا سند ضعيف جدا "، انظر بقية كلامه رَحِمَهُ اللهِ في الإرواء: (ح ١).

(٣) سورة العلق: (١).

عبد الرزاق ذلك في "مصـــنفه"، وغير ذلك من الكتب الكبار التي يبتدؤها الأئمة ببســـم الله الرحمن الرحيم ولا يعقبوها بالحمدلة، وبهذا نعرف أيها الإخوة أنه لا إنكار على من بدأ كتابه بالبسملة ولم يعقب ذلك بالحمدلة بل هذا صنيع مسلوك معروف عند أئمة الإسلام الكبار، بل إنه يظهر والله أعلم أن هذا صنيع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كتبه، فإن كتب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يوجد فيها إلا البداءة بالبسملة ولم يوجد فيها الحمدلة بعد البسملة، فهذا صنيع لا إشكال فيه.

أما قول المصـــنف رَحِمَهُ اللهِ: **"بِسْـــمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"** ونحن نقول هذه الجملة مرارًا لكن هل تعقلنا معناها؟ هل عرفنا ما معنى قولنا: **"بِسْـــمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"**؟ أم أننا نمرها على ألسنتنا كسائر أحوالنا في الأذكار من غير أن نتبصر المعاني؟ وهذا في الحقيقة حال كثير منا اليوم، يذكرون الأذكار بل يقرؤون القرآن ولا يعرفون المعاني؛ بعض أمة محمد صَـــلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ لا يتدبر في كتاب الله، ولا يتدبر في الأذكار وإنما جعلوا القرآن يُتلى بمناسـبة الجنائز فإذا مات الميت تليت الآيات ويُســمع بدون أن يُتدبر وهذا ســبب عظيم من أســباب تأخر هذه الأمة، وإذا أرادت الأمة العزة والعودة إلى المكانة العلية فعليها أن ترجع إلى تدبر كتاب ربها بفهم سلف الأمة، فإنه لن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها كما قاله إمام دار الهجرة الإمام مالك رَحِمَهُ اللهِ.

قول الشـيخ رَحِمَهُ اللهِ: **"بِسْـمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"**، الباء كما تعلمون حرف جر، والمجرور لابد له من متعلَّق يتعلق به، ومتعلق الجار والمجرور هنا اختلف العلماء في تقديره:

فمن أهل العلم من قدره فعلًا مؤخرًا مناســبًا، يعني: قدره فعلًا وجعله متأخرًا، وجعل الفعل مناســبًا لكل حال فليس فعلًا واحدًا وإنما يختلف باختلاف الفعل، فمثلًا: عندنا هنا بدأ المصنف الكتاب فقال: **"بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"** فماذا نقدر؟ نقدر قوله: "بسم الله الرحمن الرحيم أكتب الكتاب"، فإذا أراد الإنسان أن يدخل المسجد فقال: بسم الله الرحمن الرحيم أو

بسم الله فإن المقدَّر: "بسم الله أدخل المسجد"، وإذا خرج فقال: بسم الله فإن المقدر: "بسم الله أخرج من المسجد"، وهكذا في كل حال، وهذا أحسن التقديرات؛ لماذا؟ يقدَّر المحذوف فعلًا؟ لأن الأصل في الأعمال الأفعال، وبسم الله تُقال عند الشروع في العمل، والأصل في العمل الفعل فهو أولى من أن نقدره اسمًا.

أيضًا يقدر مؤخرًا، لماذا لا يقدر مقدمًا فيقال: أكتب الكتاب بسم الله؟ قالوا: لا، الأحسن أن يقدر مؤخرًا فلا يكون متقدمًا، لماذا؟ قالوا: لأن التأخير يفيد فائدتين:

الفائدة الأولى: التبرك بالبداءة باسم الله فيكون الأمر مبدوءً ببسم الله.

والفائدة الثانية: إفادة الحصر، لأن العلماء يقولون: تقديم الجار والمجرور يفيد الحصر فإذا قدم الجار والمجرور أفاد الحصر.

وقدروه مناسبًا ولم يقدروه فعلًا واحدًا دائمًا؛ لأنه أدل على المراد وأحسن في المعنى. ومن أهل العلم من قدر تقديرات أخرى؛ لكن هذا هو أَولاها.

"بِسْمِ اللهِ"؛ **"اسم"**: اسم مفرد وهو مضاف، ولفظ الجلالة: **"الله"** مضاف إليه، والعلماء يقولون قاعدة: "الاسم المفرد إذا أضيف يعم"، فعندنا هنا اسم مفرد أضيف إلى لفظ الجلالة فهو يعم جميع الأسماء كأنك قلت: بجميع أسماء الله أبدأ، بجميع أسماء الله أكتب، فهو يعم جميع الأسماء.

"الله" اسم من أسماء الله الحسنى وهو عند كثير من العلماء اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإن كان **الراجح** فيما يظهر لي والله أعلم أن اسم الله الأعظم ليس محصورًا في اسم بل هو موجود في أسماء الله جميعها، وهذا الاسم لا يطلق إلا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فلا يسمى به إلا الله، لم يسم به قط إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا الاسم كما يقول علماؤنا: تتبعه الأسماء ولا يتبع الأسماء، فيقال: الرحمن الرحيم السميع العليم من أسماء الله، ولا يقال: الله من

أسماء الرحمن، فالأسماء تتبعه ولا يتبع الأسماء، وهذا هو الذي ورد في القرآن فإنه دائمًا يُبدأ باسم الله ثم تتبعه بقية الأسماء.

و**"الله"**: هو المألوه، والمألوه هو المعبود المستحق لإفراده بالعبادة كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1]، ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ ما معنى الله؟ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ أي: اعبد الله موحدًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

"بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ": **"الرَّحْمَنِ"**: اسم من أسماء الله وهو مختص بالله عَزَّ وَجَلَّ لا يطلق في الإسلام إلا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا يسمى به أحد، و**"الرَّحْمَن"** معناه: المتصف بالرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء وعمت كل حي، فرحمة الله عَزَّ وَجَلَّ واسعة تسع كل شيء وتعم كل حي، فهذا معنى الرحمن؛ المتصف بالرحمة الواسعة العظيمة.

أما **"الرَّحِيمِ"** **"بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"**، وأنت هنا ستلحظ ملحظًا عجيبًا؛ جُمع بين الرحمن والرحيم هنا وكلاهما متعلق بالرحمة ولهذا سر عجيب في المعنى؛ و**"الرَّحِيم"**: اسم لله عَزَّ وَجَلَّ ويطلق أيضًا على غيره في الإسلام كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ عن رسوله: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[2] فوُصف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكونه رحيمًا، فهذا الوصف يطلق على الله عَزَّ وَجَلَّ ويطلق على غيره، ومعنى **"الرَّحِيمِ"**: المتصف بالرحمة الواصلة، فالرحمن: المتصف بالرحمة الواسعة، والرحيم: المتصف بالرحمة الواصلة، وهذا سر الجمع بين الرحمن والرحيم، فالله عَزَّ وَجَلَّ رحيم

---

(١) سورة طه: (١٤).

(٢) سورة التوبة: (١٢٨).

رحمن وسعت رحمته كل شيء ويوصل رحمته إلى من يشاء، وهذا المتعلِّق بالرحيم: الرحمة الواصلة، ورحمة الله يوصلها الله إلى من يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما قال الله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوصل رحمته إلى من يشاء، ولذلك قال العلماء الرحمن: هو ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع الخلق من المؤمنين وغير المؤمنين، والرحيم: هو ذو الرحمة الخاصة بالمؤمنين؛ الواصلة، والله يوصل رحمته لعباده المؤمنين.

قال رحمة الله عليه: "اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ".

الشَّرْح:

قال: "**اعْلَمْ**" والعلم هو: إدراك الشــيء على حقيقته إدراكًا لا يتطرق إليه شــك، ومراد الشيخ بتصدير الكلام بهذه الكلمة أمران:

الأمر الأول: أن تعلم أن ما في هذا الكتاب يجب اعتقاده اعتقادًا جازمًا، ولا يجوز أن يتطرق إليه الشك.

الأمر الثاني: أن يشـــعرك بأن المذكور في الكتاب مهم جدًا، فإن العلماء لا يقدمون كلمة "**اعْلَمْ**" إلا عند الأمور العظيمة، فإذا وجدت في كلام أهل العلم "**اعْلَمْ**" فانتبه فإن المذكور من الأمور العظيمة التي لا يستغنى عنها ولا يسع المسلم أن يجهلها.

قـال: "**اعْلَمْ رَحِمَـكَ اللهُ**" انظر إلى هـذه الجملة وانظر إلى وقعها في القلـب؛ "**اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ**" دعاء للقارئ والسامع بالرحمة، وهذا الدعاء كما يقول العلماء يخاطب القلوب وله أثر عجيب في القلوب، وهذا الدعاء مشعر بالشفقة والرحمة، اعلم أيها المؤمن وأنا أكتب إليك أني أكتب هذا الكتاب رحمة بك وشفقة عليك؛ فلا يشعر بالتعالي، ولا يشعر بالتعاظم، وإنما يشعر بالرحمة والإحسان، وهذا له أثر عظيم في القلوب، وهذا الأسلوب أسلوب عظيم ينبغي أن يتنبه له طلاب العلم؛ وهو أن الداعية ينبغي أن يختار في أسلوبه ما يخاطب القلوب ويكسر الحاجز بينه وبين الناس فيقدم العبارات اللطيفة الدالة على الرحمة، هذا الأســـلوب ينبغي أن يســـتعمله الداعي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا من أســـاليب الأنبياء عَلَيْهِمِ السَّلَام، وسنتكلم عن هذا الأسلوب يوم غد إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ.

قد وقفنا عند قول الشـيخ رَحِمَهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: **"اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ"**، وقلنا إن قول الشـيخ رَحِمَهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: **"رَحِمَكَ اللهُ"** خطاب مناســـب للمقام وهو يخاطب القلوب ويؤثر فيها، وهذا هو المنهج الذي ينبغي أن يتبعه الداعي إلى الله سُــبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإن الداعي إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قصده أن يوصل الحق إلى الخلق، فيتخذ من الأساليب ما يحقق ذلك بشرط أن يكون مشـروعًا، فيختار من الأســاليب المشــروعة ما يناســب المقام والمقال، والداعية إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إنما يدعو الخلق رحمة بهم ونصحًا لهم؛ ولذا فإن من المناسب أن يُبين لهم ذلك وهذا هو منهج أهل العلم، وقد أخذه العلماء من منهج الأنبياء عَلَيْهِم السَّــلاَم قال تعالى عن نوح عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1]، ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فـبين عَلَيْهِ السَّــــلَام لقومه أن دعوته لهم إنما هي لخوفه عليهم من عذاب يوم عظيم من عذاب يوم القيامة، وبدأ بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ فخاطبهم بهذا الخطاب الذي يدل على أنه منهم وهذا قريب إلى القلوب، وقال هود عَلَيْهِ السَّــــلَام: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ فأنا عندما أبلغكم إنما أنا ناصح وأنا ناصح أمين، والآيات في هذا كثيرة جدًا، والأحاديث عن النبي صَــلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ في هذا الباب كثيرة جدًا، ولا شــك أن مخاطبة المدعو بما يثير عاطفته بالأســاليب الشـرعية والعبارات الشـرعية أقرب إلى الاسـتجابة وأبعد عن النفرة، ولذلك بدأنا إمامنا رَحِمَهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كلامه بقوله: **"اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ"**، فما معنى قولنا: **"رَحِمَكَ اللهُ"**؟ معنى: **"رَحِمَكَ اللهُ"** أي: أفاض عليك من رحمته، والدعاء بالرحمة للحي يقول العلماء: إما أن يُفرد، وإما أن يُقرن بالمغفرة، إما أن يُقال: رحمك الله، وإما أن يُقال: رحمك الله وغفر لك، فإن

(١) سورة الأعراف: (٥٩).

أفرد فله معنى، وإن قرن بالمغفرة فله معنى آخر، فإن أفرد وقيل: رحمك الله فمعناه: الاســـتغفار أي: غفر الله لك ذنوبك، هذا إذا أفرد؛ أما إذا قرن فقيل: غفر الله لك ورحمك فمعنى هذا: غفر الله لك ما مضى من الذنوب وعصمك، وحفظك فيما يأتي من أيامك، فالمغفرة: غفر الله لك أي: غفر الله لك ما مضـــى من الذنوب وســـترها، ورحمك أي: حفظك فيما يأتي من أيامك، وعصمك فيها من السوء.

قال المصنف رَحْمَهُ اللهِ كما قرأ علينا الشيخ ياسين البارحة: **"اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا"** والضـمير هنا: ضـمير جمع وأورده الشيـخ لفائدة مع أن الكلام يصح لو قال: أنه يجب؛ لكن قال: **"يَجِبُ عَلَيْنَا"** وبضمير الجمع من أجل أن يدل أن هذا الوجوب على جميع المكلفين ذكرهم وأنثاهم، حرهم وعبدهم، فكل مكلف يجب عليه أن يتعلم هذه المسائل، وهذه المسائل أول وأَولى ما يجب من العلم، وهي أَولى ما يدخل في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»**[1] و**"كُلِّ مُسْلِمٍ"** يشمل الذكر والأنثى، والحر والعبد، والمعلوم أن علماءنا يقولون: إن طلب العلم منه ما هو فرض عين ومنه ما هو فرض كفاية، وطلب العلم الذي هو فرض عين: طلب ما يصـــح به الدين، وفرض الكفاية: طلب ما يكمل به الدين، فإن العلم نوعان: نوع يصــــحح به العبد دينه وهذا فرض عين على كل مكلف، ونوع يكمل به العبد دينه وهذا فرض كفاية، وأَولى ما يصــــحح به الدين هذه المســـائل التي يذكرها الشيخ.

قال الشـــيخ: **"اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا"** والواجب كما قال علماؤنا: ما يثاب فاعله امتثالًا ويستحق تاركه قصدًا مطلقًا العقاب، ومجال شرح هذه العبارة في أصول الفقه.

---

(١) رواه ابن ماجه، برقم: (٤٢٢)، والبيهقي في الشعب: (١٦١٢-١٦١٣)، وأبو يعلى في (المسند: ٤٠٣٥-٢٨٣٧)، وصحح هذا الشطر الإمام الألباني رَحْمَةِ اللهِ في (صحيح الترغيب والترهيب: رقم ٧٢) و"تخريج مشكلة الفقر" (٨٦)، و"المشكاة" (٢١٨)، و"الضعيفة" تحت الحديث (٤١٦).

يقول المصنف رحمةُ الله عليه: " اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَع مَسَائِلَ".

الشَّرْح:

المســائل: جمع مسألة وهي منحوتة من السؤال، كأن هذه المسائل جواب عن سؤال، وهي والله جواب عن أعظم الأسئلة، فإنها جواب عن الأسئلة التي سيسأل عنها العبد في قبره كما تقدم معنا في حديث البراء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وهذه المســائل الأربع شملت الدين كله، ولذا هي قواعد حقيقة أن يهتم بها المسلم، وأن يحفظها، وأن يصغي لها، وكيف لا يُصغي لها المؤمن ولا ينتبه لمعناها وهي في الدنيا أنفع له من الطعام والشراب، وهي سبب نجاته عند لقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فحقيق بالمسلم المبارك أن يصغي لهذه المسائل، وإمامنا رَحْمَهُ اللهِ رحمة واسعة جعل هذه المسائل كالمقدمة للأصول الثلاثة فذكرها بين يدي الأصول الثلاثة كالمقدمة والإجمال لما يأتي في الأصول الثلاثة.

قال رحمةُ الله عليه: "الأُولَى: الْعِلْمُ: وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بالأَدِلَّةِ".

الشَّرْح:

قال: "**الأُولَى**" أي: المسألة الأولى "**الْعِلْمُ**" فكأن قائلًا قال له ما العلم؟ ففسر العلم بأنه: "**مَعْرِفَةُ اللهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بالأَدِلَّةِ**"، فهذا هو أعلى العلم، وأعظم العلم وأول العلم؛ أن يعرف العبد ربه، وأن يعرف نبيه، وأن يعرف دينه بالأدلة، فإن قال لنا قائل: ما الدليل على هذا التفسير؟ قلنا: إن الشيخ رَحِمَهُ اللهِ أخذ ذلك من حديث البراء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في السؤال في القبر فإن هذا يدل على أن هذا هو أعظم ما ينبغي أن يتعلمه المسلم، ولا يكفي العلم المجرد بل لا بد من العلم مع الاعتقاد والعمل، لا يكفي أن يعلم العبد الله، وأن يعرف الله، وأن يعرف النبي محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأن يعرف دين الإسلام بدون اعتقاد بل لا بد من الاعتقاد، ولا بد من العمل فإن المنافقين عرفوا الله وعرفوا نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعرفوا دين الإسلام وقالوه بألسنتهم؛ لكنهم لم يعتقدوه بقلوبهم فلم ينفعهم، وقد سمعنا في حديث البراء بن عازب أن الرجل الفاجر عند السؤال يقول: «**هَاهٍ هَاهٍ لَا أَدْرِي سمعتُ النَّاسَ يَقُولُون ذَلَكَ فَقُلته**»، فهو كان يقول ولكن ليس عن اعتقاد وإنما كان ذلك محاكاة للناس، ولذا قال المصنف رَحِمَهُ اللهِ: "**الْعِلْمُ: وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ**" معرفة الله تكون بالقلب بأن يعلم المسلم بقلبه معتقدًا اعتقادًا جازمًا لا شك فيه أن الله عَزَّ وَجَلَّ ربه، وهذه المعرفة تستلزم القبول بشرعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والإذعان، والانقياد، والتسليم، والتحكيم، فواجب على المسلم أن يعرف ربه، أن يعرف ربه بأفعاله فيعرف أن ربه الذي خلقه ورزقه ورباه بنعمه وخلق جميع المخلوقات وهذا ما يعرف عند علمائنا بتوحيد الربوبية الذي هو توحيد الله بأفعاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويعرف ربه عَزَّ وَجَلَّ بألوهيته وأنه الإله الحق الذي لا يستحق العبادة سواه لا

ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولا ولي صالح، ولا بشر معظم، ولا جن، ولا صنم ولا غير ذلك فلا معبود بحق إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يجب أن يعلم المسلم بهذا؛ يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1] وسيأتي هذا إن شاء الله، ويعرف ربه أيضًا بأسمائه وصفاته، فيعرف أسماء الله ويعرف صفات الله التي ثبتت في الكتاب والسنة، يعرفها ويثبتها ويؤمن بها كما سيأتي إن شاء الله؛ وهذه المعرفة يجب أن تكون عن الأدلة فلا ينفع فيها التقليد المحض بدون اعتقاد، ولا ينفع فيها اتباع كلام الناس بدون اعتقاد ولذلك قال إمامنا رَحِمَهُ اللهِ:**"هُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بالأَدِلَّةِ"** قوله رَحِمَهُ اللهِ: **"بالأَدِلَّةِ"** يرجع إلى الثلاث المعارف: إلى معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام، فيجب أن تكون معرفتك لله بالأدلة لا بالتقليد المحض الذي لا ينتج اعتقادًا.

❖ **وهنا يا طلاب العلم يا معاشر المؤمنين مسألتان يجب فقههما حتى لا تزل القدم في هذا الباب:**

المسألة الأولى: هي مسألة وجوب أن يتعلم المكلف هذه الأمور بالأدلة وعدم جواز التقليد فيها، وهذه المسألة عند علمائنا تعرف بمسألة الطريق.

والمسألة الثانية: مسألة حكم من قلد في هذه الأمور هل يصح اعتقاده أو لا يصح؟ وهذه تعرف عند علمائنا بمسألة الغاية، فالاعتقاد له طريق والاعتقاد هو الغاية، ومن شُراح الأصول الثلاثة من قال: إن قول الشيخ هنا: **"بالأَدِلَّةِ"** وافق فيه المعتزلة؛ وهذا سوء فهم، ومنهم من قال: إن هذه الأمور يجوز أخذها بالتقليد؛ وهذا سوء علم، وهذان السببان أهم أسباب الانحراف عن الحق: سوء الفهم، وسوء العلم، فإذا أضفت لهما الثالث اجتمعت

---

(١) سورة محمد: (١٩).

الأسباب ألا وهو سوء القصد، فمن ساء قصده انحرف عن الحق، ومن ساء فهمه انحرف عن الحق سـواءً سـاء فهمه في فهم الأدلة الشـرعية كما وقع للخوارج الذين نزلوا الآيات التي في الكفار على المؤمنين، أو ساء فهمه في فهم القواعد الشرعية كما وقع للمكفرة في سوء فهمهم لقاعدة: أن من لم يكفر الكافر فهو كافر، أو سـاء فهمه لكلام أهل العلم فإنه ينحرف عن الحق، أو سـاء علمه سـواء كان جاهلًا فتكلم في المسـائل بجهل، أو كان عالما علمًا لا ينفع فكان جاهلًا وهو يظن أنه عالم كبعض المتزعمة في هذا العصـر يؤلفون الكتب، وينتجون الأشـرطة وإذا نظرت في كلامهم وجدته جهلًا وهم يظنون أنهم أئمة، وهذا هو الجهل المركب عند أهل العلم، ومن سـاء علمه انحرف عن الحق؛ فإذن على طالب العلم، على طالب الحق، على المسلم أن يُحكم هذه الأمور الثلاثة فيراقب القصد فيكون قصده حسنًا، يكون قصده الحق، وينظر في الفهم فيكون فهمه حسـنًا، ومتى يكون حسـنًا؟ إذا كان على فهم السـلف، فهذا هو الفهم الحسن للدين الذي جاء به محمد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وينظر أيضًا في علمه هل هو علم حسن أو سيء، فيحرص على أن يكون حسنًا.

أعود للمسألتين:

المسألة الأولى وهي: هل يجوز للمسلم أن يأخذ هذه الأمور بالتقليد؟

فأقول: الذي عليه جمهور العلماء وجمهور أهل الحديث أنه لا يجوز تعلم المسـائل الكبار بطريق التقليد بل تعلمها بالأدلة فرض عين، فيجب على كل مسلم أن يطلب علمها بالأدلة.

وأما المسـألة الثانية وهي: ما الحكم لو أن مسـلمًا قلد في هذه الأمور ولم يتعلم؟ أخذ ذلك عن العلماء بالتقليد، أو أخذ ذلك عن أهله بالتقليد ولم يتعلم نقول: التقليد هنا كما ذكر العلماء له حالتان:

الحالة الأولى: ألا يُنتج اعتقادًا؛ ولكن الإنسـان يردد ما يردده الناس من غير اعتقاد، وهذا لا ينفع كما جاء في حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

والحالة الثانية: أن يُنتج اعتقادًا فيعتقد ذلك اعتقادًا جازمًا، وهذا عند أهل السـنة والجماعة يصح اعتقاده وهو مسلم خلافًا للمعتزلة، المعتزلة يقولون لا يصح اعتقاده إلا إذا كان عن طريق الأدلة العقلية، أما أهل السـنة والجماعة فيقولون: من اعتقد اعتقادًا صـحيحًا جازمًا صح اعتقاده ولو كان ذلك بطريق التقليد.

إذن هما مسـألتان لا نخلط بينهما، مسـألة التعلم شـيء، ومسـألة الاعتقاد شـيء آخر؛ ولذلك الإمام السفّاريني في منظومته ذكر المسألتين فقال:

وكل ما يطلب فيه الجزمُ فمنع تقليد بذاك حتمُ

يعني: لا يجوز أن يُطلب بالتقليد، ثم قال في المسألة الثانية:

فالجازمون من عوام البشرْ فمسلمون عند أهل الأثرْ

يعني: العوام الذين أخذوا ذلك بالتقليد وجزموا فهم مسـلمون عند أهل السـنة والجماعة، يجب أن نعلم هذا حتى لا نخطئ في فهم المسائل.

شيخ الإسـلام عمّ يتكلم الآن؟ يتكلم عن العلم، عن التعلم، إذن هو يتكلم عن المسـألة الأولى ولم يتكلم عن مسألة الاعتقاد، فيجب على كل مسلم أن يعرف ربه بالأدلة فإن لم يفعل ذلك أثم، فإن اعتقد بالتقليد وصح اعتقاده فهو مسلم عند أهل السنة والجماعة.

والأدلة الدالة على معرفة الله عَزَّ وَجَلَّ هي الآيات الشـرعية والآيات الكونية، فالآيات الشـرعية تدل على الله عَزَّ وَجَلَّ، فكل ما في كتاب الله وكل ما في سـنة رسـول الله صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ يُعرّفنا بربنا وهذا لا شـك فيه، كذلك النظر في الآيات الكونية وفي المخلوقات يدل المسـلم على ربه، ولذلك ماذا يقول الله عَزَّ وَجَلَّ؟ يقول: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ

﴿أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[1] ويقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[2] فمدح الله المؤمنين بماذا؟ مدحهم بتفكرهم في آياته الكونية؛ لأن هذه الآيات الكونية تعرف العبد بربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولذا أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتفكر في خلق الله فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللَّهِ»[3] والحديث ذكره الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهِ وبين أنه حسن؛ إذن يجب على المسلم أن يعرف ربه بالأدلة، ما الأدلة؟ هي الأدلة الشرعية والأدلة الكونية.

---

(١) سورة الذاريات: (٢٠ – ٢١).

(٢) سورة آل عمران: (١٩٠ – ١٩١).

(٣) أخرجه أبو نعيم في "الحلية"، برقم: (٦/ ٦٦-٦٧) عن عبد الله بن سلام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأبو الشيخ في العظمة برقم:

(٤) عن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وحسنه العلامة الألباني رَحْمَهُ اللهِ في صحيح الجامع برقم: (٢٩٧٦).

قال رحمةُ الله عليه: "الْعَمَلُ بِهِ".

الشَّرْح:

هذه المرتبة الثانية من مراتب العلم وهي معرفة النبي صَــلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ، **"مَعْرِفَةُ اللهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ"** ومعرفة النبي تكون بعد معرفة الله عَزَّ وَجَلَّ، أن يعرف العبد رسـوله محمدًا صَــلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنه رسول حقًا وصدقًا، وأن الله أرسله بالهدى ودين الحق، أرسله للعالمين للجن والإنس لا يستثنى من ذلك أحد، لا يخرج أحد عن الشرع الذي جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ، محمد صَــلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ أرســله الله للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1]، ورسـولنا صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ لا يُعرف الدين إلا من طريقه فهو الواسطة بيننا وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في تبليغ رسالة الله، ولن يعرف أحد دين الله حتى يعرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبي ورسول، والنبي باختصار الآن وسيأتي إن شـاء الله كما قال أهل العلم: هو الذي أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، والرسـول هو: الذي أوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه، ومحمد بن عبد الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر بالمرحلتين فقد أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، فنُبِّئ بـــ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ إلا أنه لم يؤمر بالتبليغ فكان نبيًا، ثم أُرســل بقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾[2]، وهذا ســيأتي إن شــاء الله؛ ولكن نذكره الآن بالاختصار للمناسبة، ومعرفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكون بمعرفة اسمه ونسبه وتكون أيضًا بمعرفة سيرته وتكون أيضًا بمعرفة سنته وتكون أيضًا بمعرفة وصفه وهو كونه عبدًا لله ورسولًا، فهو بشري عبد لله مكرّم بالوحي والرسالة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومعرفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليســـت علمًا يُقرأ ويكرر ويُحفظ وإنما معرفة تؤثر في الأعمال، معرفة تُعتقد وتؤثر في عمل

---

(١) سورة الأنبياء: (١٠٧).

(٢) سورة المدثر: (١).

الإنسان، فإذا عرف العبد نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن ذلك يستلزم أن يقبل ما جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الهدى وأن يصدقه في كل خبر أخبر عنه، والمؤمن إذا نُقل إليه خبر عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطريق صحيح وجب عليه أن يصدقه فيه وألا يرد خبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعقله كما يفعله بعض المخذولين؛ كما أن هذه المعرفة تستلزم امتثال الأمر واجتناب النهي؛ والمؤمن العارف بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا جاءه الأمر من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرح به وامتثله وقلبه منشرح وصدره منشرح؛ لأنه جاء عن نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإذا جاءه النهي ترك ما نهى عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقلبه وصدره منشرح، والعلماء يقولون: "ميزان المعرفة أثرها في الأعمال"؛ إذا أردت أن تزن مقدار معرفتك بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فانظر أثر ذلك في أعمالك فإن الأثر في الأعمال هو الذي توزن به هذه المعرفة، وسيأتي إن شاء الله تفصيل ذلك عند تفصيل الأصول.

قال الشيخ: **"وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ"** هذه المرتبة الثالثة: معرفة دين الإسلام، ومن المعلوم كما قلنا أن معرفة دين الإسلام لا تكون إلا بمعرفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك كانت معرفة دين الإسلام بعد معرفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا ترتيب مقصود، معرفة ربك ثم، معرفة نبيك، ثم معرفة دينك ،فهذا الترتيب من الشيخ مقصود؛ والإسلام يجب على العبد أن يعرفه، وسيأتي الكلام إن شاء الله على معنى الإسلام؛ لكن المراد بالإسلام هنا هو ما جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفهمه سلف الأمة، وسأتكلم عن هذا إن شاء الله عند التفصيل وأشرح هذه الجملة.

قال الشيخ: **"بالأَدِلَّةِ"**، وهذه الكلمة كما قلنا ترجع إلى الأمور الثلاثة، **والأدلة**: جمع دليل، والدليل عند أهل العلم هو ما يرشد إلى المطلوب، والأدلة هنا ليست محصورة في الأدلة السمعية بل تشمل الأدلة السمعية، والأدلة الكونية فكلها أدلة تدخل في قول الشيخ: **"بالأَدِلَّةِ"**.

قال الشـــيخ رَحْمَهُ اللهِ: **"الثَّانِيَةُ: الْعَمَلُ بِهِ"** أي: أن المســـألة الثانية التي يجب تعلمها: **"الْعَمَلُ بِهِ"**، وهذه المرتبة الثانية بعد العلم، فالأول العلم والثاني العمل بهذا العلم؛ ولذا كان الســـؤال في القبر عن العلم: من ربك؟ من نبيك؟ ما دينك؟ بهذا المعنى، فالأول العلم، وكان السـؤال عند لقاء الله عَزَّ وَجَلَّ عن العمل، فيُسـأل الإنسـان عند لقاء الله عَزَّ وَجَلَّ عن عمله بالعلم، الإنسـان في قبره يُسـأل عن علمه بهذه الأمور، عند لقاء الله لن تزول قدمه حتى يسـأله الله عَزَّ وَجَلَّ عن علمه ماذا عمل فيه، فيكون السؤال عند لقاء الله عَزَّ وَجَلَّ عن العمل بالعلم؛ والعلم يتبعه العمل، ومن فرط في أحدهما قاده ذلك إلى الخســـران، من كان علمه بلا عمل والعياذ بالله خسر وأقام الحجج على نفسـه، الذي يبتلى والعياذ بالله بتتبع العلوم ولا يعمل بهذا العلم فإنه يخســـر، ويقيم الحجج على نفســـه، ومن كان عمله بلا علم كان علمه بلا فائدة، ففائدة العلم العملُ، ومن كان عمله بلا علم قاده ذلك إلى الضـــلال، وغالب الحال أن يقوده ذلك إلى البدع، إذا عمل الإنســـان بلا علم فإن الغالب أن يســـقط في البدع؛ لأنه لا يعرف، ولذا كان الصـــراط المســـتقيم طريق الأنبياء عليهم الســـلام وهو الجمع بين العلم والعمل، وقد انقسـمت الأمم في هذا الأمر إلى طرفين ووسـط: فطرف علموا ولم يعملوا فكان ماذا؟ غضـب الله عليهم، وهؤلاء هم اليهود، فـاليهود كـان لـديهم علم لكنهم لم يعملوا ســـواءً كان ذلـك بالإعراض الكلي، أو كان ذلك بالتحريف، فاليهود جمعوا بين الأمرين: أعرضـــوا عن بعض ما جاءهم فقتلوا الأنبياء، قتلوا بعض الأنبياء الذين جاءوهم بـالحق فحرفوا التوراة وغيروها وغيروا معانيها كما هو معلوم من حالهم.

إذن طرف علموا ولم يعلموا وهم اليهود فكان نصـــيبهم الغضـــب، والطرف الثاني: هم الذين عملوا بلا علم، عملوا نعم؛ ولكن بلا علم، فكانوا ضـــالين؛ لأنهم ما عرفوا طريق الخير، وكم من مريد للخير لم يدركه، من طلب الخير بلا علم يقوده ذلك إلى الضلال في الغالب؛ لأن الخير لا يعرف إلا عن طريق الأنبياء، والخير في هذه الأمة لا يعرف إلا عن طريق محمد صَـــلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا لا يُعرف إلا بالعلم؛ بأن يتعلم الإنسان ويعرف ما جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وهؤلاء هم النصارى، أعني: الذين عملوا ولم يعلموا، فإنهم كانوا يعملون كثيرًا فهم عاملون ناصبون مجتهدون في العمل، وهم بكاءون ترق قلوبهم، وقلوبهم خاشعة؛ لكن بغير علم، فكانوا من الضالين، ومن ذلك أنهم ابتدعوا الرهبانية وجاءوا بها وجاءوا بأمور كثيرة، ومن أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والله المستعان من يتشبه بهؤلاء أو يتشبه بهؤلاء، فمن أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من يعلم ولا يعمل وفي هذا شبه من اليهود، ومن أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من يعمل؛ لكن على جهل بغير علم ولا بصيرة وبهذا شبه من النصارى، أما الوسط فهو صراط الله المستقيم وهو طريق الأنبياء وطريق أتباعهم الذين يسيرون على طريقهم ألا وهو الجمع بين العلم والعمل، وهو الصراط الذي أمرنا أن نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ إياه مرات كثيرة، الذي جاء في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[1] والذين أنعم الله عليهم هم الأنبياء ومن تبعوا الأنبياء: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهذا تعليم من الله عَزَّ وَجَلَّ لنا.

وقد كان السلف الصالح رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ يحرصون على العلم والعمل، ما كانوا مثلنا يحرصون على تسويد الأوراق ولا يحرصون على العمل لا، بل كانوا يحرصون على العلم والعمل، يقول أبو عبد الرحمن السلمي: **((حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن: عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعمل جميعا))**[2]، فكانوا إذا قرأوا عشر آيات تدبروا معانيها وعملوا بما فيها فكانوا أذكياء، كانوا أتقياء، وهذا هو الطريق الصحيح؛

---

(١) سورة الفاتحة: (٦ – ٧).

(٢) رواه الطبري في تفسيره: (١/ ٨٠).

والعبد إذا علم أنه ســيُســأل بين يدي الله عَزَّ وَجَلَّ عن علمه ماذا عمل فيه فلا بد أن يراقب نفسه ولا بد أن يحاسب نفسه، يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْـــأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ فيه، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ»[١] رواه الترمذي وإسناده صحيح؛ إذن لا بد من العمل، والعلم النافع هو الذي يكون معه العمل، وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ»[٢] رواه مسلم في الصحيح، يستعيذ بالله من علم لا ينفع، والعلم الذي لا ينفع هو الذي لا يعمل به صـــاحبه؛ فعلينا أن نتنبه لهذا، وقد جاء وعيد شديد ينبغي أن لا يغيب عنا، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ. قَالَ: قُلْتُ مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ وَلَا يَفْعَلُونَ وَيَقْرَءُونَ كِتَابَ اللهِ وَلَا يَفْعَلُونَ بِهِ»[٣] وهذا الحديث في الصـــحيحين، «خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ» يعني: تعلموا وعلّموا أيضًـــا ولهم خطب؛ لكن

---

(١) رواه الترمذي، كتاب: صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب: فِي الْقِيَامَةِ، برقم: (٢٤١٧)، وصححه الإمام الألباني رَحِمَهُ اللهُ في صحيح الجامع، برقم: (٧٣٠٠)، وصحيح الترغيب والترهيب، برقم: (١٢٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، باب: التَّعَوُّذِ مِنْ شَرِّ مَا عُمِلَ وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ يُعْمَلْ، برقم: (٢٧٢٢).

(٣) كذا قال شيخنا حَفِظَهُ الله، والحديث ليس في الصحيحين؛ بل أخرجه من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أحمد في " المسند" (١٣٥٤٩)، والبيهقي في "الشعب" (٤٩٦٥) وغيرهم، قال الإمام الألباني رَحِمَهُ اللهُ بعد أن ذكر طرقه في "السلسلة الصحيحة"(١/٥٢٢رقم الحديث:٢٩١): " وجملة القول: أن الحديث بمجموع هذه الطرق صحيح بلا ريب، والحمد لله رب العالمين".

عياذًا بالله من هذا الحال لا يعملون، فيأمرون الناس بالخير ولا يفعلون ذلك الخير، وينهون الناس عن المنكر ويقعون في ذلك المنكر والعياذ بالله، «خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ» زاد البيهقي بإسناد صحيح: «وَيَقْرَؤُنَ القرآن وَلَا يَعْمَلُونَ بِهِ» يقرؤون يحفظون يتلون؛ ولكن لا يعملون بهذا العلم.

إذن العلم النافع هو الذي يكون معه العمل؛ لكن هل العمل بالعلم له حكم واحد؟ الجواب: لا، فحكم العمل يتبع حكم العلم، فإذا كان العلم الذي تعلمه الإنسان فرضًا فالعمل به فرض، تعلم المسلم قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعْفُوا اللِّحَى»[1] «وَأَرْخُوا اللِّحَى»[2]، «وَفِّرُوا اللِّحَى»[3]، أمرٌ للوجوب؛ إذن هذا العلم فرض، واجبٌ على من علم ذلك أن يعفي لحيته، فيجب العمل بهذا العلم وإن لم يفعل أثم، أما إذا كان الذي في العلم مستحبًا فالعمل به مستحب، كما لو تعلم الإنسان مثلًا: نوافل الصيام، نوافل الصلاة، العمل بهذه النوافل في حقه مستحب وليس فرضًا؛ لأنها مستحبات والعمل بالمباحات مباح.

إذن علم الإنسان أن شيئًا مباح فحكم العمل به أنه مباح، إذن لو سألنا سائل ونحن قد تكلمنا عن أهمية العمل مع العلم وأن الإنسان سيسأل في قبره عن علمه، وعند لقاء ربه عما عمل بعلمه، لو سُئلنا ما حكم العمل بالعلم؟ قلنا فيه التفصيل الذي ذكرناه، فإن علم الإنسان فرضًا فالعمل في حقه فرض، الفرض قد يكون بفعل الواجب، وقد يكون بترك المحرم، وإن كان

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، برقم: (٥٨٩٢-٥٨٩٣). ورواه مسلم، برقم: (٢٥٩)؛ من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُما.

(٢) رواه مسلم، برقم: (٢٦٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري، برقم: (٥٨٩٢-٥٨٩٣) واللفظ له، ورواه مسلم، برقم: (٢٥٩)؛ من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُما.

العلم الذي تعلمه مســـتحبًا فيســـتحب أن يعمل به، والمســـتحب يكون بفعل المندوب وترك المكروه؛ لأن ترك المكروه فيه مقام ودرجة الاســـتحباب، وإن علم بمباح فالعمل بالمباح مباح، وهكذا يكون الحكم في تفصيل حكم العمل بالعلم.

قال رحمة الله عليه: الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ.

الشَّرْح:

المسـألة الثَّالِثَةُ: "الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ"، أي: الدعوة إلى العلم، وهذه المسـألة سـنفصـل فيها إن شاء الله في درس الغد مع الصبر؛ لأنها مرتبطة بالصبر ارتباطًا وثيقًا؛ لكن نشير إليها إشارة الآن لنربطها بما سبق ونفصلها غدًا إن شاء الله لنربطها بما سيأتي.

من العمل بالعلم الدعوة إليه، من أعظم أنواع العمل بالعلم أن تدعو إليه، فهذه درجة عظيمة من درجات العمل بالعلم، فإذا علم المسـلم الخير دعا إلى الذي علمه بعد أن يكون قد عمل به؛ لأن في ذلك السـلامة؛ المسـلم يجب أن يتعلم هذه المسـائل، ويجب أن يعمل بها، ويجب أن يدعو إليها على التفصـيل الذي سـيأتي إن شـاء الله، فإذا لم يتعلم أثم، وإذا تعلم ولم يعمل أثم، وإذا تعلم وعمل في نفسـه ولم يدع في ما يجب عليه أثم، وإذا تعلم ودعا ولم يعمل إن كان ذلك في الفرائض أثم، ولذلك جاء في الحديث: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَـى يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثلاثة» وذكر منهم: «وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ»[1] انتبهوا، «وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ» دعا إليه، تعلم ودعا علّم، قال: «فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ» يعني أتي به إلى الله فعرّفه الله عَزَّ وَجَلَّ نعمه عليه، قال: «فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: فما صـنعت فيها؟ قال: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ»، فيقول لله: «تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ»، وقد جاء في رواية: «فِيكَ وعلمته» أيضـًا: «وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، فيُقَالَ: كَذَبْتَ، وإنما تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُـحِبَ عَلَى وَجْهِهِ

(١) أخرجه مسلم، برقم: (١٩٠٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ» إذن هذا تعلم وعلّم، تعلم ودعا لكن لم يعمل؛ لأنه لم يقصـــد بذلك وجه الله، وترك العمل بالكلية دليل سوء القصد، وضعف العمل بالكلية دليل ضعف القصد، ترك العمل بالكلية أن الإنسان والعياذ بالله يعلّم ولا يعمل، يدعو ولا يعمل دليل سوء القصد، وضعف العمل يعني: ليس تركًا بالكلية لكنه ضعف دليل ضعف القصد، النية فيها شيء، تحتاج إلى مراجعة، تحتاج إلى معالجة حتى يستقيم الأمر.

إذن لا بد من الأمور الثلاثة: العلم، والعمل، والدعوة، هذه أركان عظيمة، وسـيأتي إن شاء الله بيان ذلك في الدرس القادم حيث سنربط الدعوة إلى الله بالصبر على ذلك إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ.

يقول المصنف رحمة الله عليه: الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ.

الشَّرْح:

هذه المسألة ختمنا بها مجلسنا البارحة، وقلنا إن هذه المسألة مرتبطة بالمسائل السابقة وبالمسألة الرابعة، هي مرتبطة بالمسائل السابقة من جهة أن الدعوة لا بد فيها من العلم فلا يجوز للإنسان أن يدعو إلى الله بجهل، لا بد أن يكون بعلم، ولا بد مع ذلك من العمل لاسيما فيما يتعلق بالواجبات وترك المحرمات؛ من مصائب الدهر على الإنسان أن يدعو إلى فعل الواجب ولا يفعله، وأن يدعو إلى ترك المحرم ويقع فيه، هذه من المصائب العظيمة، وقد ذكرنا البارحة خطر هذا الأمر؛ كذلك من المصائب أن يدعو الإنسان بلا علم فيقوم ويكون داعيًا إلى الله وهو جاهل، يخرج من الخمارات إلى منابر المساجد، لا يعلم شيئًا ويقال له قم ويفتح الله عليك، تكلّمْ، ويدعو إلى الله بزعمهم بجهل، وهذا في حد ذاته معصية يحتاج أن يتوب منه العبد، فإنه لا يجوز لأحد أن يقول على الله إلا بعلم، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[1] هذه طرق الدعوة الشرعية: أن يدعو الإنسان إلى سبيل الله، لا يدع إلى نفسه، لا ينظر للشرع والدعوة بأعين الناس وإنما ينظر إلى الناس بالشرع، فهو يقول للناس الحق ولا يغير الحق من أجل الناس.

وضابط الذي يدعو إلى الله: أنه ينظر إلى ما يرضي الله فيدعو الناس إليه، فإذا جاء ووجد الناس على شرك دعاهم إلى التوحيد؛ لأنه يعلم أن ذلك واجب عليه وأن ذلك هو الذي يرضي الله وإن كان الناس سينفرون من مجلسه، وإن كان لن تكون له جماهيرية، أما الذي يدعو

(١) سورة النحل: (١٢٥).

إلى نفسه فهو ينظر إلى ما يرضي الناس، يقيس ما يتكلم بأحوال الناس، فإن كان الناس يرضون عن أمر تكلم فيه ولو كان فيه زلل، وإذا كان الناس يغضبهم أمر تركه ولو كان هو المتعين: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ هذا أول قيد في الدعوة، لا بد أن يراقب الداعية قلبه بأن تكون دعوته إلى الله ليس لنفسه، يدعو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ فلا بد في الدعوة من الحكمة، وما هي الحكمة؟ الحكمة هي: البصيرة، والبصيرة تبنى على العلم، فلا يؤتى الإنسان الحكمة وهو لا علم عنده، أعني: الحكمة الشرعية المطلوبة، فالحكمة هي: البصيرة المبنية على العلم.

﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ هي: خطاب الناس بما يلائمهم لا بما يرضيهم وإنما بما يلائمهم ويصلحهم، فبعض الناس يصلحه الوعد فيدعى بالوعد، وبعض الناس يصلحه الوعيد فيُدعى بالوعيد، وبعض الناس يصلحه وهذا الغالب أن يُقرَن بين هذا وهذا فيقرن له بين هذا وهذا، من الناس من يلائمه ويصلحه الرفق فيُرفَق به، ومن الناس من يصلحه ويلائمه الإغلاظ عليه فيغلظ عليه وفي ذلك رفق فإنك عندما تسعى لإصلاح إنسان ببذل الأسباب فهذا غاية الرفق به ولو أغلظت عليه في الظاهر، وكما يقول بعض أهل العلم: "الرفق سهل والإغلاظ صعب"؛ لأن الإغلاظ قد يخالف طبيعة الإنسان وقد يقابله ما يقابله؛ لكن إذا اقتضته المصلحة الشرعية فإن الداعي إلى الله يسلكه؛ إذن الداعي إلى الله يعلم أن الناس يتفاوتون في أفهامهم، ويعلم ما جاء به الشرع فيدعو الناس بما يلائمهم ويصلحهم؛ والموعظة الحسنة هي التي تقع في موقعها وتُنزّل منزلتها ولا يُحمل الناس على طريق واحدة.

﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ لا بد أن نبدأ في الدعوة إلى الله بالمجادلة بالتي هي أحسن، وما هي المجادلة بالتي هي أحسن؟ هي المجادلة بالكتاب والسنة على فهم صحيح سليم مستقيم؛ فهذه الدعوة وهذا ارتباطها بالعلم، والداعي إلى الله سيواجه إذا سلك الطريق التي ذكرناها أمورًا سيحتاج إلى الصبر، ولذلك قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: " **الرَّابِعَةُ**".

قال رحمة الله عليه: " الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ".

الشَّرْح:

هذه هي المسألة الرابعة من المسائل العظيمة التي ينبغي على طالب العلم أن يستصحبها في كل علم، انتبهوا يا إخوة، هذه المسائل الأربع ينبغي أن تستصحبها يا مسلم في كل علم وليست خاصة بهذا الكتاب ولا بهذه المسائل بل كل علم لا بد أن تستصحب فيه العلم، والعمل، والدعوة، والصبر.

والصبر في لغة العرب: الحبس والمنع، يقول العربي: صبرت نفسي على كذا أو عن كذا، أي حبستها على كذا أو حبستها عن كذا، ومنه قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾[1]، ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾ يعني: احبس نفسك معهم.

والصبر في الشرع كما يقول العلماء ثلاثة أقسام:

١) صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها.

٢) وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها.

٣) وصبر على الأقدار حتى لا يتسخطها.

فهذه أنواع الصبر: الصبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها وهو الذي يقول فيه العلماء: الصبر على طاعة الله.

والنوع الثاني: الصبر عن المنهيات من أجل يجتنبها، وهذا هو الصبر عن معصية الله ومحارم الله.

---

(١) سورة الكهف: (٢٨).

والقسم الثالث: الصبر على الأقدار وما يجريه الله على العبد حتى لا يتسخطها.

فالمطلوب من العبد فعله: إما واجب أو مستحب، وهذا هو الطاعات وفعلها لا يتم إلا بالصبر، لا يمكن أن يتم إلا بالصبر؛ والمطلوب تركه من العبد هو المحرمات والمكروهات، وهذه بالنسبة للمحرمات المعاصي، والمكروهات: المطلوب تركها من غير جزم، ولا يمكن ترك الإثنين إلا بالصبر؛ وما يقدره الله على العبد من المصائب ولا بد من وقوعها يحتاج إلى صبر، يقول ابن القيم رَحِمَه اللهِ: **((فقيام عبودية الأمر والنهي والقدر على ساق الصبر لا تستوي إلا عليه كما لا تستوي السنبلة إلا على ساقها))**[1]، والصبر منزلته عظيمة جدًا، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَه اللهِ: **((قد ذكر الله الصبر في كتابه في أكثر من تسعين موضعًا))**[2]، وهذا يدل على عظيم مكانته، قال علماؤنا: الدين كله علم بالحق و عمل به، والعمل به لا بد فيه من الصبر، وطلب علمه يحتاج إلى صبر.

إذن نعلم من هذه الأنواع الثلاثة أن الصبر له أثر كبير في دين الإنسان، والعلم والتعلم يحتاج إلى صبر، والدعوة إلى الله تحتاج إلى صبر، والعمل بالعلم يحتاج إلى صبر، وهناك عبارة جميلة قالها بعض أهل العلم، قال: "من حُرِمَ الصبر حرم العلم"، لن ينال العلم إلا صبور؛ لأن العلم ثقيل ويحتاج إلى صبر، والدعوة إلى الله تحتاج إلى صبر وهي أشد هذه المسائل حاجة للصبر لأن أذية الداعين إلى الخير تقع كثيرا، كثير من الناس يؤذون الدعاة إلى الخير، لماذا؟ لأنهم يخرجونهم من الشهوات ويمنعونهم من الشبهات، والإنسان ميال للشهوات منقاد للشبهات؛ لأن العاطفة تغلبه، والعاطفة تجعله يميل إلى الشهوات والملذات وإلى الوقوع في الشبهات، ولذلك تجد أن كثيرًا من الناس يؤذون العلماء بألسنتهم؛ لأن العلماء يقولون هذا حلال وهذا حرام،

---

(١) كتاب: "عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين"، (ص ٢٩).

(٢) كتاب: "مجموع الفتاوى" (١٠/٣٩)، وهو مروي عن الإمام أحمد رَحِمَه اللهِ تعالى.

حرام كذا حرام كذا، ولا يؤذون الذين يغرُّونهم فيُظهرون لهم أنهم متدينون ولا يحرّمون عليهم إلا قليلًا، لذلك لو نظرت الآن إلى الناس تجد أنهم يقولون ما نريد هؤلاء العلماء المعقّدون الذين كلما قلنا شيئًا قالوا حرام حرام حرام حرام، نريد مثل فلان وفلان؛ لأنهم لا يمنعونهم من الشهوات إلا قليلًا، وأما الشبهات فهم أربابها وأهلها وأسيادها والدعاة إليها وناشروها، فالناس لا ينالونهم في الغالب وإنما ينالون من العلماء أهل السنة الأثبات الذين يمنعونهم من الشهوات المحرمة ويدرؤون عنهم الشبهات المفسدة لعقائدهم وأعمالهم، والأنبياء عليهم السَّلام أوذوا، فكُذب الرسل، ومحمد بن عبد الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا يلقبونه بالصادق الأمين، فلما دعاهم إلى التوحيد قالوا: هو كذاب، هو كاهن، هو ساحر؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله، وحاشاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فآذوه فصبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما صبر أولوا العزم من الرسل حتى جاء نصر الله عَزَّ وَجَلَّ.

والأمر بالصبر قد جاء في القرآن وجاء في السنة، وصبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صبرًا عظيمًا، فها هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قسم قَسْمًا فقال رجل: «**إِنَّ هَذِهِ الْقِسْمَةَ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ تعالى**»، يقوله الرجل لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي كلمة عظيمة في حق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**فأتيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبرته فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه ثم قال: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»** هذا الذي قاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**»[1] والحديث في الصحيحين، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سمع هذه الكلمة المؤذية ما قال إلا هذه الجملة العظيمة، ويا ليت إخواننا طلاب العلم يسلكون هذا الطريق، فإذا جاءهم أن أخاً لهم يعرفونه ويعرفون فضله ويعرفون أنه من طلاب العلم ومن

---

(١) رواه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى عليهما السَّلام، برقم: (٣٤٠٥)، ورواه مسلم، كتاب: الكسوف، باب: إِعْطَاءِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَتَصَبُّرِ مَنْ قَوِيَ إِيمَانُهُ، برقم: (١٠٦٢).

طلاب الحق، إذا جاءهم أنه قد قال فيهم كلمة، لو أن الديدن أن يقول الواحد منا: رحم الله الأنبياء قد أوذوا فصبروا، وإن لام أخاه لامه بطريقة طيبة فقال له مثلًا: بلغني أنك قلت فيّ كذا ويعلم الله أنه ليس بي وأنا أريد فقط أن تعلم أنه ليس بي؛ لكن الشـــيطان يحرص على طلاب العلم أكثر من حرصه على غيرهم، ويحرص على تفريق أهل الحق أكثر من حرصه على غيرهم، فينفخ في نفس هذا وينفخ في نفس هذا حتى يتهاجر أهل الحق على مسائل يسيرة، وعلى أمور دنيوية، وقد يأتي الشـيطان الخبيث فيلبس على طالب العلم فيجعل المسـألة الدنيوية شـرعية في نظره حتى لا يتنبه من غفلته؛ لأن طالب العلم يعلم أنه لا يحل له أن يهجر أخاه فوق ثلاث في أمور الدنيا؛ ولكن إذا كان ذلك بسـبب شـرعي جاز أن يكون فوق ثلاث فيأتي الشـيطان فيلبس على طالب العلم المســألة ويوســوس له أن هذه المســألة شـرعية، وأصــلها في الحقيقة دنيوي؛ أقول هذا لأني من طلاب العلم وأعيش ما يعيشه طلاب العلم، يبلغنا عن إخواننا كلام ونحن نعرف محبتهم، وفضــلهم، وعلمهم، ودعوتهم وأنهم من أهل الســنة من أهل التوحيد، فلا نحسـن التعامل مع هذا الكلام، ولذلك كلامي لنفســي أولًا ولإخواني؛ يا إخوان نحن بحاجة إلى أن نعالج ما قد يكون بيننا، بحاجة عظيمة إلى أن نعالج ما قد يكون بيننا، وما أحوجنا إلى هذا الأمر، وهذه طريقة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي طريقة شرعية.

إذن على المؤمن أن يعود نفسـه على الصـبر، ومخالطة الناس ودعوتهم والصـبر على أذاهم من أعظم المنازل، ما دمت يا عبد الله تخالط الناس بالحق، وتدعوهم إلى الله، وتصـــبر على أذاهم فأنت في منزلة عظيمة، يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْـــبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ، وَلَا يَصْـــبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**»[1] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وصححه جمع من أهل العلم؛ وهذا دليل عظيم على فضـيلة الصـبر، والداعية بحاجة إلى الصـبر لاسـيما الداعية إلى السـنة، فإن الداعية إلى السـنة،

(١) انظر: "السلسلة الصحيحة": (٢/٦٥٢)، حديث رقم: (٩٣٩).

الداعية إلى العودة إلى كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ضوء فهم السلف الصالح رضوان الله عليهم قد يؤذى أذى كثيرًا بل قد يُقال إنه يفرق الصف، وقد يُشتم، وقد يُعتبر شاذًا، وقد يعتبر منبوذًا، وقد يُقال إنه يشتت الكلمة ونحو ذلك من العبارات، فهو بحاجة إلى أن يصبر ويستمر على دعوته، وإن فعل ذلك فإن المرجو له من الله أن يزيده رفعة، وأن يمكّن له، وفي القصص عبرة، هذا أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي كان من رؤوس الفتنة في القول بخلق القرآن وكان معظَّما في زمن الفتنة حتى كان بعض الناس، ومنهم بعض العلماء من كان يُرى قد وضع نعله تحت إبطه فيقال له: مه؟ فيقول: أريد أن أدرك الصلاة مع أحمد، فيقال له مع أحمد بن حنبل؟ فيقول: لا، مع أحمد بن أبي دؤاد؛ والإمام أحمد بن حنبل إمام السنة رَحِمَهُ اللهِ أوذي في فتنة القول بخلق القرآن، وحبس، وضرب، وأهين ولكنه صبر وثبت، وانظروا اليوم، أعداد هائلة من المسلمين تستفيد من علم الإمام أحمد، وتترحم على الإمام أحمد، وتسأل الله للإمام أحمد، وأما أحمد بن أبي دؤاد فمن يعرفه؟ ذاك الذي كان له الصيت وكان وكان وكان، أين هو الآن؟ لا يُعرف إلا في بطون الكتب وعند المتخصصين ولا يُعرف بالخير، عاقبة الصبر حميدة؛ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهِ في زمن غربة في وقته يدعو إلى العودة إلى الكتاب والسنة وعلى أخذ كلام أهل العلم على وفق دلالة الكتاب والسنة، فيؤذى ويسجن في القلعة ويصبر ويتمكن من خصومه الذين حكموا عليه بالسجن وهم يخالفونه في العقيدة فيشفع لهم ألا يؤذَوْا، ويسجن حتى يموت وهو في القلعة، وها هو شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهِ علمه يملأ الدنيا، وأنا أقول معتقدًا وأنا صادق فيما أقول ما من صاحب حق اليوم إلا وللإمام ابن تيمية عليه فضل بعد فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يوجد رجل اليوم من أهل السنة ومن أهل الحق إلا وللإمام ابن تيمية عليه فضل بعد فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وهكذا أئمة الإسلام، فينبغي أن نديم النظر في سِيرهم لأنّا بحاجة إلى الصبر، ونحن في زمن الفضائيات، وزمن المجاهيل، وزمن الغربة، وزمن المتكلمين نحتاج إلى الصبر حاجة شديدة، ومما يعيننا على الصبر بعد الاستعانة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والاطراح بين يديه وسؤاله أن يثبتنا على السنة حتى نموت أن نديم النظر في

سِـير علماء السـنة، وإن الناظر في سـير علماء السـنة واللهِ يرى أن كل ما يؤذى به لا يسـاوي شيئًا أمام ما أوذي به الأسلاف، وهذا يجعل طالب العلم يصبر على ما يناله.

قال رحمة الله عليه: "وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾".

الشَّرْح:

هذه الســورة العظيمة دليل على هذه المســائل الأربع: العلم، والعمل، والدعوة والصــبر، كلها في هذه السورة[1]، وهذه السورة جامعة لأصول الخير؛ أقسم الله عَزَّ وَجَلَّ بالعصر فقال: ﴿وَالْعَصْرِ﴾، **والعصــر**: هو الزمن والدهر الذي تكون فيه الأعمال، فالدهر والزمن هو الذي تكون فيه الأعمال فيكون فيه الربح وتكون فيه الخســارة، إن ســوّد الإنســان زمنه وعصــره بالمعاصـي كان في الخسـران، وإن أنار زمنه بالطاعات كان من أهل الربح، فالله يقسـم بالعصـر ولله سـبحانه أن يقسـم بما شـاء من مخلوقاته، وليس لأحد من خلقه أن يُقسـم إلا به، لا يجوز للمخلوق أن يقســم بنبي، ولا بوالد، ولا بقريب، ولا بحبيب ولا بغير ذلك؛ أقســم الله في أول هذه السورة لتأكيد الأمر وتعظيمه، وتعظيم ما في هذه السورة؛ الله عَزَّ وَجَلَّ صادق في قوله لا يحتاج إلى قسم ولكنه يقسم لتعظيم الأمر في نفوسنا وتأكيد الأمر، أقسم لينبهنا على عظيم ما في هذه السورة، فأقسم الله بالعصر أن جنس الإنسان في خسارة، جنس الإنسان في خسارة في سعيه إلا ما استثناه الله عَزَّ وَجَلَّ، إذا علمت هذا يا عبد الله، إذا علمت أن جنس الإنسان في خسر ما الواجب عليك؟ الواجب عليك أن تسعى في أن تخرج نفسك من هذه الخسارة، أن تكون من أهل الربح.

---

(١) في الأصل: "هذه المسألة" والصواب ما أثبتناه، والله أعلم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1] وهذه مسألة العمل، فهم عملوا، وأفرد الله الذين عملوا الصالحات مع أن العمل من الإيمان تأكيدًا وتنبيهًا على أن العمل الصالح مراد، وسيأتي إن شاء الله الكلام على هذه المسألة عندما نتكلم عن مسألة الإيمان، والعمل، وسنبينها إن شاء الله لمسيس الحاجة إليها.

ثم يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾ وهذه هي مسألة الدعوة إلى الحق، ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ وهذه المسألة الرابعة التي هي الصبر؛ إذن هنا ثلاث مسائل: العمل، والدعوة، والصبر فأين العلم؟ كل ما في السورة يدل على العلم؛ لأن الإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر يحتاج إلى العلم، فهذه السورة قد حوت الأوصاف الأربعة: الإيمان بالله ومنه العمل الصالح، والدعوة إلى الحق والنهي عن خلافه، والصبر، ومع هذه الثلاث العلمُ، فإن العلم قبل ذلك ومعه، وهذه مراتب جهاد النفس، فإن من أعظم الجهاد جهاد النفس، وقد بين الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ مراتب جهاد النفس فقال: **((جهاد النفس أربع مراتب))**، ومن هنا سترون من أين استقى شيخ الإسلام هذه المسائل الأربع التي ذكر.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: **((جهاد النفس أربع مراتب: إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، وهذا هو العلم ومعه الصبر، المرتبة الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، المرتبة الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه، المرتبة الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله))**[2]،

(١) سورة العصر: (١-٣).

(٢) كتاب: "زاد المعاد"، فصل مراتب الجهاد، (٣/٩).

هذا القيد في كلام ابن القيم قيد مهم، يعني: أن يكون صــبره لله، لا يصــبر لينال حظوة، ولا يصــبر ليتمكن، الآن بعض الناس يقولون: من عوامل النجاح الصــبر، المؤمن الموفق يصــبر لله، صبره على كل هذا لله، فيتحمل ذلك لله، ولذلك قيد ابن القيم رَحْمَه اللهِ بهذا القيد: **((ويتحمل ذلك كله لله، فإذا استكمل العبد هذه المراتب الأربع صار من الربانيين))**[1]، وهذه المراتب هي هذه المسائل الأربع التي ذكرها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحْمَه اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

(١) كتاب: "زاد المعاد"، فصل مراتب الجهاد، (٣/٩).

قال رحمة الله عليه: الشَّافِعيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: "لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ".

الشَّرْح:

الشـافعي: هو الإمام المطلبي القرشـي الفصـيح، من آخر من يحتج بلغته، فهو عند أئمة اللغة ممن يحتج به في اللغة [1]، إمام أجمع المسـلمون على إمامته في الفقه والعقيدة، وهو من كبار أئمة أهل السـنة والجماعة في فقههم وعقيدتهم؛ قال رَحْمَهُ اللهِ: **"لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلا هَذِهِ السُّـورَةَ لَكَفَتْهُمْ"**، فإن قال لنا قائل: أين إسـناد هذا القول؟ نقول: إن المعروف عند أهل العلم أن أقوال العلماء تؤخذ بالاستفاضة والشيوع، أقوال العلماء والأئمة لا يشترط لها الإسناد وإنما يكفي فيها الشيوع والاستفاضة ثم يُنظر فيها ويُحكم عليها فقد تقبل وقد ترد، وهذا القول شـائع مسـتفيض عن الإمام الشـافعي فينبغي أن ننظر في معناه فإن كان صحيحًا قبلناه.

معنى قول الإمام الشافعي: **"لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ"** فهمه بعض الناس على أن هذا القول يعني: أن السـورة تكفي عن القرآن فردّوا الجملة من أجل هذا المعنى، قالوا كيف تغني السورة عن القرآن ولا تغني كلمة عن كلمة في القرآن؟ والجواب: أن جملة الشـافعي لا تعني هذا، وإنما تعني: أن هذه السـورة كافية في إقامة الحجة من حيث الجملة على البشـر، فهي بينت طريق الربح والخسـران فبينت الأمور الكلية، والمعلوم أن هذه المنازل الأربعة التي وردت في السـورة لا تنال إلا بالقرآن والسـنة، فمراده رَحْمَه اللهِ أن هذه السـورة العظيمة جمعت أصـول الخير من حيث الجملة، فهي كافية للناس في الحث على التمسك بدين الله، إذا تدبرها العبد كانت كافية له لأن يتمسـك بدين الله ويحرص على العمل بما جاء في

---

(١) انظر: "معجم الأدباء" ترجمة الإمام الشافعي".

الكتاب والسنة، ولا يعني: أنها تغني عما جاء في القرآن أو ما جاء في السنة.

يقول شيخ الإسـلام ابن تيمية رَحِمَه اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: وروي عن الشـافعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: ((**لو فكر النّاس كلهم في ســـورة العصـــر لكفتهم**))، هذه رواية أخرى لمقولة الإمام الشـافعي ذكرها شـيخ الإسـلام ابن تيمية رَحِمَه اللهِ، ((**لو فكر الناس كلهم في سـورة العصـر لكفتهم**)) يعني: لو تفكر الناس في معاني هذه السـورة لكفتهـم للتمسـك بدين الله، يقول شيخ الإسـلام ابن تيمية رَحِمَه اللهِ: ((**وهو كما قال، فإن الله تعالى أخبر أن جميع الناس خاسرون إلا من كان في نفسـه مؤمنا صـالحًا، ومع غيره موصـيًا بالحق موصـيًا بالصـبر**))[1]، فهذه المقولة على المعنى الذي ذكرناه مقولة صحيحة وهي مستفيضة مشهورة عن الإمام الشافعي.

(١) مجموع الفتاوى: (١٥٢/٢٨).

قال رحمة الله عليه: "وَقَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى: بَابُ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ (قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ). قال رحمة الله عليه: الشَّــافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: "لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ".

الشَّرْح:

الإمام البخاري: الإمام المحدث الكبير محمد بن إسماعيل صاحب "الصحيح" آية عظيمة من آيات الله في الحفظ، اشتُهر بالحفظ والعبادة، ومن قرأ صحيحه علم وتيقن أنه من فقهاء الأمة، فهو من الفقهاء الكبار، وتبويب البخاري في الصحيح فيه أسرار علمية وفقهية لا يزال طلاب العلم إلى اليوم يكتشفون المزيد منها، ومن قال: "إن البخاري ليس بفقيه" لا يعرف الفقه في الحقيقة، فإن من عرف الفقه وعرف صحيح البخاري عرف أن صاحبه من فقهاء الأمة الكبار رَحِمَه اللهِ عَزَّ وَجَلَّ رحمة واسعة، وهو مشهور بالصلاح والعبادة رَحِمَه اللهِ.

قال: **"بَابُ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ"** فالعلم مقدم على القول والعمل، والدليل قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ احتج البخاري بهذه الآية على أن العلم سابق للقول والعمل، وهذا دليل أيضا لشيخ الإسلام على أن العلم هو المرتبة الأولى.

قال الشيخ: **"بَابُ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ"** حيث أمر الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعلم ثم العمل حيث بدأ بالعلم فقال: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وهذا دليل على بدء التعلم بالتوحيد، وهذا أعظم العلم، ثم أعقبه بالعمل في قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ»، وفي رواية: «نَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ

بِهِ» [1]، ونحن أمة محمد صَـــلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّمَ نبدأ بما بدأ الله به فنبدأ بالعلم قبل القول والعمل.

ولما فرغ الشـيخ رَحِمَه اللهِ من المســائل الأربع التي جعلها كالمقدمة للأصــول الثلاثة بدأ في الأصـول الثلاثة، شـيخ الإسـلام في تأليف هذا الكتاب سـار على طريقة بديعة؛ فبدأ بالمسـائل الأربع التي هي من الكليات العامة في العلوم، فكأنه يقول: يا طالب العلم إذا أردت أن تتعلم وهذا الكتاب من أوائل ما تتعلمه، فعليك بأربعة أمور احرص عليها: العلم، والعمل، والدعوة، والصبر، فاحرص على هذه المسائل الأربع، ثم فصل رَحِمَه اللهِ الأصول الثلاثة، وهذا ما سنبدأ به إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ في درسنا القادم في مجلس الغد إن شاء الله.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨) وأبو نعيم، وأبو داود، والنسائي في الكبرى: (٢/٨٠)، والدارمي، وابن ماجه، وابن الجارود: (٤٦٩) والدار قطني: (٢٧٠)، والبيهقي: (٧٩/٥) وكلهم قالوا: " أبدأ " إلا ابن ماجه، والبيهقي في رواية فقالا: "نبدأ " وأما الدار قطني فوقع عنده: "فأبدئوا " بصيغة الأمر، وهو رواية لابن خزيمة في "صحيحه" (٢٧٣/١) وهو شاذ، قاله العلامة الألباني رَحِمَه اللهِ، وانظر بقية تخريجه لهذا الحديث في الإرواء رقم: (١١٢٠) فإنه بين سبب شذوذ هذه الرواية.

يقول المصنف رحمة الله عليه: "اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّه يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ هَذِهِ المَسَائِلِ الثَّلاثِ، والْعَمَلُ بِهِنَّ: الأُولَى: أَنَّ اللهَ خَلَقَنا، وَرَزَقَنَا".

الشَّرْح:

هذه الجملة تقدمت معنا: **"اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ"** وتكلمنا عنها.

"أَنَّه يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ" قلنا إن هذا داخل في فرض العين، وأن هذا هو من العلم الذي يجب على كل مسلم ومسلمة، وهذه المسائل الثلاث قال فيها الشيخ: **"الأُولَى: أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا"** أُولى هذه المسائل أن الله خلق الخلق، وأنعم عليهم بالنعم ولم يخلقهم همَلًا، ولم يتركهم عبثًا، ولا سدى؛ ولكنه خلقهم لأمر عظيم وحكمة عظيمة سامية فيها ربحهم وسعادتهم وفوزهم في الدنيا والآخرة، ألا وهي عبادة الله وحده لا شريك له، الله عَزَّ وَجَلَّ خلق الخلق وهذا أمر معلوم، وأنعم عليهم بالنعم وهذا أمر لا يُنكَر، ولم يخلقهم همَلًا، ولا عبثًا، ولم يتركهم سدى كالحيوانات لا يؤمرون، ولا ينهون، بل خلقهم لأمر عظيم فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، وفيه خيرهم في الدنيا والآخرة، وفيه ربحهم في الدنيا والآخرة، وفيه صلاحهم في الدنيا والآخرة، وفيه نجاتهم في الدنيا والآخرة، وقد أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ عن هذا الأمر فقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] فقصر الله عَزَّ وَجَلَّ خلق الجن والإنس على عبادته سبحانه، وعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إنما تكون بتوحيده ولذلك قال العلماء: معنى ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾: ليوحدون، أي: ليفردوا الله عَزَّ وَجَلَّ بالعبادة، ونلحظ هنا ملحظًا وهو أن الله عَزَّ وَجَلَّ ربط عبادته بخلقه للجن والإنس، فربط العبادة بالخلق وذلك لبيان أن الخالق الموجد من العدم هو

(١) سورة الذاريات: (٥٦).

المستحق للعبادة وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالله واحد في أفعاله فواجب أن يوحده العبد في أفعاله يعني: في أفعال العبد لا شريك معه، وهذا ربط عجيب يقود النفس إلى الأمر الفطري ألا وهو أن المتفرد بالخلق واجب أن يفرد بالعبادة، وكثيرًا ما نجد أن الله عَزَّ وَجَلَّ يربط العبادة بالخلق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1] تأملوا في هذه الآية بدأها الله عَزَّ وَجَلَّ بالأمر بالتوحيد وختمها بالنهي عن الشرك وجعل بين ذلك الامتنان بالخلق، فربط الله عَزَّ وَجَلَّ عبادته بالخلق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، ثم ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ ما خلقه للإنسان من نعم: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ ما النتيجة؟ جاء بالفاء ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فنهى عن الشرك وهذا يدل على هذا الربط، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الخالق وهو المنعم فهو المستحق للعبادة لا شريك له، ولا شك أن عبادة الله لا يمكن أن نعرفها إلا من طريق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالعبادات مبناها على التوقيف أي على ما جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا مجمل المسألة الأولى.

يقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهِ: **"أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا وأوجَدَنا مِن العَدَم"** لا شك أن الله هو الخالق وأنه الذي أوجدنا من العدم، وقد دل على ذلك أدلة كثيرة جدًا، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[2] والآيات في ذلك كثيرة جدًا، والعقل يدل على ذلك يدل على أن الله عَزَّ وَجَلَّ

---

(١) سورة البقرة: (٢١-٢٢).

(٢) سورة الأنعام: (٢).

خلقنا، فإنّا خُلقنا ولا شك في هذا، فنحن مخلوقون، ولا بد أنّا قد خُلقنا من شيء، ومن المعلوم أنّا لم نَخلق أنفســنا فلم يبق إلا أن الله عَزَّ وَجلَّ هو الذي خلقنا، وهذا المعنى هو الذي ورد في قول الله عَزَّ وَجلَّ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[1] هذه القسمة: إما أنّا خُلقنا من غير شـــيء، وإما أنّا نحن الخالقون، والأمران باطلان عقلًا فلم يبق إلا أن الله عَزَّ وَجلَّ هو الذي خلقنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الشيخ رَحِمَه اللهِ: **"وَرَزَقَنَا"** هذا القرن العجيب بين الخلق والرَّزق من فقه شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَه اللهِ عَزَّ وَجلَّ ومن تبحره في كتاب الله عَزَّ وَجلَّ فإن هذه هي طريقة القرآن كما سمعنا في الآية التي معنا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ هذا الخلق، ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ هذه نعمة الرزق، فالله عَزَّ وَجلَّ خلقنا ورزقنا، وربط الأمر بعبادته بخلقه ورزقه لنا: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ والأدلة على أن الله عَزَّ وَجلَّ رزقنا كثيرة جدًا كما قال الله عَزَّ وَجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[2] والمعلوم أن العقل يدل على ذلك أيضًـــا، فالطفل في رحم أمه يرزق ولا يتمكن أحد من الوصــــول إليه فمن الذي رزقه؟ الذي رزقه: الذي أوجده، الذي رزقه: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالعقل يدل على أن الله عَزَّ وَجلَّ هو الذي رزقنا.

---

(١) سورة الطور: (٣٥).

(٢) سورة الذاريات: (٥٨).

قال رحمة الله عليه:" الأُولَى: "أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا".

الشَّرْح:

هنا كأن سائلًا سأل فقال: الله خلقنا ورزقنا، فلِم خلقنا ورزقنا؟ هل خلقنا وتركنا هملًا؟ فكان الجواب: **"وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا"** فهو سبحانه خلقنا ورزقنا لأمر عظيم فلم يتركنا سدى لا نؤمر ولا نُنهى بل أمرنا ونهانا وهذا واقع مدرَك يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾[1]، إذا علمتم أنّا خلقناكم ورزقناكم لغاية وأنكم إلينا راجعون فاعبدوا الله عَزَّ وَجَلَّ لا إله إلا هو، هذا معنى الآية.

ويقول سُبْحَانَهُ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾[2] هذا إنكار، الاستفهام إنكاري ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ لا يؤمر ولا يُنهى ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾[3] وهذا تذكير ببديع صنع الله عَزَّ وَجَلَّ وعظيم لطفه بهذا الإنسان، هذا الإنسان الذي يتكبر عن عبادة الله عَزَّ وَجَلَّ ما أصله؟ ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ فهذا من لطف الله عَزَّ وَجَلَّ بهذا الإنسان، ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾[4] من رحم واحد، يأتي هذا ذكر وتأتي هذه أنثى وهذا من

---

(١) سورة المؤمنون: (١١٥ – ١١٦).

(٢) سورة القيامة: (٣٦).

(٣) سورة القيامة: (٣٧ – ٣٨).

(٤) سورة القيامة: (٣٩).

رحم واحد وبطريق واحد، وهذا من لطف الله عَزَّ وَجَلَّ بعباده، جعل منهم ذكرانًا وإناثًا من رحم واحد ومن طريق واحد، من الذي فصل بينهما؟ ومن الذي أعطى هذا خلقه وهذا خلقه؟ إنه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[1] يعني: كان الأول مسلَّما فكان الإلزام ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، فالإنسان راجع إلى الله، خُلق ليؤمر ويُنهى، خُلق ليعبد الله ثم هو راجع إلى الله، فهذا بدؤه وهذا منتهاه، وإذا علم الإنسان أنه خُلق لعبادة الله وأن منتهاه أنه يبعث فكيف يترك عبادة الله ويتعلق بالدنيا؟ هذا بدؤه وهذا منتهاه، فهو خلق ليعبد الله، ثم يبعث ليحاسب، ثم المستقر إلى الجنة أو إلى النار.

---

(١) سورة القيامة: (٤٠).

قال رحمة الله عليه: "بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا".

الشَّرْح:

هذا جواب لسؤال، قال الشيخ: **"وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا"** فكان السؤال: كيف لم يتركنا هملًا؟ فكان الجواب: **"بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا"** ونحن معاشر أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل إلينا أعظم رسله، فالمنة علينا عظيمة، أرسل إلينا محمد بن عبد الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتلو علينا الآيات، ويعلمنا الحكمة، ويزكينا، وينذرنا، ويبشرنا يهدينا الله به صراطه المستقيم، وهذه سنة الله في الناس يبعث إليهم الرسل كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾[1] فلست عجيبًا من الأمر، فهذه سنة الله يبعث للناس الرسل، ولماذا يرسل الرسل؟ كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾[2]؛ إذن الله عَزَّ وَجَلَّ خلق الخلق ولم يتركهم هملًا وذلك بأن أرسل إليهم رسلًا، ما وظيفة الرسل؟ مبشرين ومنذرين لإقامة الحجة على الخلق ولهدايتهم الصراط المستقيم؛ إذن ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أكرمنا بأن أرسل إلينا خاتم رسله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) سورة النساء: (١٦٣).

(٢) سورة النساء: (١٦٥).

قال رحمة الله عليه: "فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ".

الشَّرْح:

الله عَزَّ وَجَلَّ خلقنا ورزقنا، ولم يتركنا هملًا وذلك بأن أرسل إلينا رسوله محمد بن عبد الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليأمرنا وينهانا، ليبين لنا طريق الجنة وطريق النار، فما من شيء يقربنا إلى الجنة إلا بينه لنا وأمرنا به، وما من شيء يقربنا إلى النار إلا بينه لنا ونهانا عنه، فمن أطاعه دخل الجنة؛ لأن طاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طاعة لله يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾[1] فطاعة الله وطاعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طريق الرحمة، ومن كان دون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه يطاع بطاعة الرسول ولذلك يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[2] وأولوا الأمر من جهة الأصل تطلق على العلماء والحكام ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ فكرر الفعل مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لكن مع ولاة الأمر: ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ وفي ذلك إشارة إلى أن من دون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يطاع إلا بطاعة الله وطاعة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنما طاعتهم في المعروف، فلا يطاع إمام، ولا يطاع شيخ، ولا يطاع قائد، ولا يطاع حاكم، ولا يطاع أمير، ولا يطاع والٍ إلا في طاعة الله يعني: في غير المعصية كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ ما لم يؤمر بمعصية فإنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا

---

(١) سورة آل عمران: (١٣٢).

(٢) سورة النساء: (٥٩).

سَـمْعَ وَلَا طَاعَةَ»[1]، والله عَزَّ وَجَلَّ بين لنا أن طريق الرحمة هو طاعة الله وطاعة الرسـول صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمرنا بالمسارعة إلى الرحمة والمغفرة فقال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2] كيف نسـارع ؟ بطاعة الله وطاعة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فطاعة الله وطاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي طريق الرحمة، فمن لم يطع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه لم يطع الله، ومن ادعى أنه يطيع الله وهو لا يطيع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه كاذب كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3]، يقول العلماء: البرهان على طاعةِ الله طاعةُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا تتحقق طاعة الله إلا بطاعة رسول الله صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[4]، فجعل الله عَزَّ وَجَلَّ طاعة رسـوله صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ مع طاعته طريق الجنة، وقال النبي صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَـانِي فَقَدْ عَصَـى اللهَ»[5] متفق عليه، ويقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قيل: ومن يأبى يا رسـول الله، قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصـاني دخل النار» وفي رواية: «ومن عصـاني فقد أبى»[6] رواه البخاري في صـحيحه، فمن أطاع النبي صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ دخل

---

(١) متفق عليه: البُخَارِي (٢٩٥٥)، ومسلم (٤٧٩١) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُما.

(٢) سورة آل عمران: (١٣٣).

(٣) سورة آل عمران: (٣١).

(٤) سورة النساء: (١٣).

(٥) رواه البخاري (٧١٣٧). ومسلم (١٨٣٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٦) رواه البخاري، برقم: (٧٢٨٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الجنة بدليل الكتاب والسنة، وقد جاء عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: «**جاءت الملائكة إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو نائم فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلًا**» أي: إن للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثلًا «**فاضربوا له مثلاً**» ما مثله؟ «**فقالوا: مثله مَثل رجل بنى دارًا وجعل فيها مأدَبة وبعث داعيًا فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل منها، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل**» إلى قولهم: «**فالدار الجنة والداعي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن أطاع محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد أطاع الله ومن عصى محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد عصى الله**»[1]، هذا المثل ضربته الملائكة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالله جعل محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طريقًا إلى الجنة، بعثه داعيًا إليها فمن أجابه واتبع سنته دخل الجنة وأكل من نعيمها، ومن لم يجبه لم يدخل الجنة.

قال الشيخ: "**وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ**" وهذا تقدم معنا في ضمن ما ذكرناه، وأيضًا ورد في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[2] فالذي يعصي الله ورسوله ويتعد حدوده متوعَّد بهذا الوعيد الشديد.

(١) رواه البخاري، برقم: (٧٢٨١).

(٢) سورة النساء: (١٤).

قال رحمة الله عليه: "وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾".

الشَّرْح:

الله عَزَّ وَجَلَّ يأمرنا ويعظنا ويحذرنا في هذه الآية، فالله عَزَّ وَجَلَّ يأمرنا بطاعة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويعظنا بقصة فرعون مع موسى عَلَيْهِ السَّلَام، ويحذرنا من معصية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى لا يكون مصيرنا مصير قوم فرعون، فالله عَزَّ وَجَلَّ يخبر أنه أرسل إلى أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولًا هو محمد بن عبد الله، شاهد عليهم بأعمالهم، ثم قال: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾[1] أي: فلا تعصوه كما عصى فرعون موسى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ يعني: لا تعصوا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى لا تدخلوا النار، ولا تعرضوا أنفسكم للعقوبات الآجلة في الدنيا.

وهذه المسألة العظيمة التي بدأ بها شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ هذه المسائل الثلاث مسألةٌ ممهدة للمسائل التي تأتي بعدها، فما يأتي من المسائل هو كالمرتَّب على هذه المسألة.

(١) سورة المزمل: (١٥ – ١٦).

قال رحمة الله عليه: "الثَّانِيَةُ: أَنَّ الله لا يَرْضَـــى أَنْ يُشْـــرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ".

الشَّرْح:

هذه المسـألة الثانية، وهذه المسـألة الثانية فيها تحقيق للمسـألة الأولى، فالمسـألة الأولى كالمقدمة لهذه المسألة، فالله الذي خلقنا ورزقنا وأنعم علينا بالنعم، وأعظم هذه النعم أن أرسـل إلينا محمد بن عبد الله صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ وأمر بعبادته، لا يرضـى سُـبْحَانَهُ أن يكون معه شـــريك في عبادته، فالعبادة حق لله وحده، فكما أنه تفرد بالخلق وتفرد بالإنعام وأرســـل إلينا محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه لا يرضى أن نشرك معه غيره.

قال الشيخ: " **أَنَّ الله لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ**" و"**أَحَدٌ**" نكرة في سياق النفي فتعم، ثم قال الشيخ: "**لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ**" لا ملك مقرب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا نبي مرســـل فضـــلًا عمن هو دونهما، أعلى المخلوقات: الملائكة المقربون والأنبياء المرسلون، فإذا كان الله عَزَّ وَجَلَّ لا يرضى أن يشرِك العبد معه في عبادته ملكًا أو نبيًا فمن باب أولى من كان دون ذلك، والدليل على أن الله لا يرضـــى أن يُشـــرَك معه غيره أن الله نهى عن الشـرك وما نهى عنه الله فإنه لا يرضـاه، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[1] المســـاجد تُبنى لعبادة الله فلا تدعوا مع الله أحدا، و﴿أَحَدًا﴾ كما قلنا: نكرة في سياق النهي، وسياق النهي وسياق النفي واحد فتعم كل أحد، ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

(١) سورة الجن: (١٨).

ومعنى ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾: لا تدعوا مع الله كل أحد، وقال بعض أهل العلم: إن المقصـــود بالمســـاجدِ في الآية الأرض؛ لأن الأرض جعلت لأمة محمد صَـــلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّمَ مســـجدًا وطَهورا، أي أن الأرض كلها لله، وإذا كانت الأرض كلها لله فمن المســـتحق للعبادة؟ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

وبين الله عَزَّ وَجَلَّ أنه لا يرضى بالشرك والكفر ولا يرضى عن الكافرين كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[1] الله يرضى بالتوحيد ولا يرضى بالكفر والشرك بنص القرآن، وسيأتينا إن شاء الله بيان أن كل ذنب يقع تحت المشيئة إلا الشرك إذا مات عليه صاحبه فإن الله لا يغفره كما سيأتي إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ.

(١) سورة الزمر: (٧).

قال رحمة الله عليه: "الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُــولَ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ".

الشَّرْح:

هذه المسألة الثالثة مسألة متعلقة بأمر عظيم، فنتكلم عن مقدماتها ثم نجعلها مدار درسنا في يوم الغد إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن شأنها شأن عظيم لاسيما في هذا العصر.

بعد أن ذكر الشيخ رَحْمَه اللهِ عَزَّ وَجَلَّ تحقيق التوحيد وبغض الله للشرك تكلم عما يتعلق بالمشركين، فإذا كان الله أمرنا بتوحيده وكان الله لا يرضى عن الشرك، فما موقفنا من المشركين؟ فهذه هي المسألة الثالثة، يقول الشيخ: "**مَنْ أَطَاعَ الرَّسُـولَ، وَوَحَّدَ الله**" هذه الجملة المراد بها الحث على الامتثال كما في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ، تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**» لماذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**»؟ من باب التهييج والحث على الامتثال، فالشيخ هنا يحث على الامتثال فيقول: إن كنت مطيعًا للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موحدًا لله فلا توالي الكفار؛ فهذا فيه حث على الامتثال، ومن جهة أخرى المراد أن يُبين الشيخ أن ذلك من مقتضيات التوحيد، وأن هذه المسألة من مسائل التوحيد الكبار؛ إذن لو قال لنا قائل: لم صدر الشيخ رَحْمَه اللهِ كلامه بقوله: "**أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ**"؟ **قلنا**: **لوجهين**:

الوجه الأول: الحث على الامتثال، تهييج الإنسان ليمتثل كما تقول للشخص مثلًا: إن كنت تحبني فأجب دعوتي، من باب تهييجه ليجيب الدعوة.

والوجه الثاني: لبيان أن هذه المسألة من مقتضيات التوحيد، وأنها من مسائل التوحيد الكبار.

"لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ" **الموالاة**: هي المحبة والنصـــرة والتأييد من أجل الدين، وإن شـاء الله في درسـنا في يوم الغد سـنبين أن محبة الكفار ليسـت درجة واحدة، فمنها ما هو كفر ومنها ما هو معصــية ومنها ما لا يتعلق به التكليف؛ وسـأبين ذلك إن شــاء الله في يوم الغد.

فالمقصـود بالموالاة هنا: المحبة والنصـرة والتأييد للكفار لكفرهم، فلا يجوز للمسـلم أن يحب الكفار لكفرهم، ولا يجوز له أن يحب الكفار لدنيا يرجوها، أو لأمر دنيوي، أو لمعصية في الكافر، وسنفصل هذا ونبسطه إن شاء الله، لا يجوز للمؤمن أن يحب الكافر لكفره وهذه درجة سـنتكلم عنها غدًا إن شـاء الله، ولا يجوز للمسـلم أن يحب الكافر لدنيا، بعض الناس يقول أنا أحب هذا الكافر؛ لأنه يفي بالعهد؛ لأنه شـريكي؛ لأنهم منظمون الكفار منظمون فأنا أحبهم أو أحبه؛ لأنه شـريكي وهو مخلص لي، أو أحبه لأنه لاعب كرة لدنيا! إما لدنيا يرجوها أو لأمر دنيوي أو لمعصيته يحب الكافر؛ لأنه مطرب، فنان، ممثل كبير، يقول: أنا أحب فلان، وبعضهم يكتب على "فنيلته" أنا أحب فلان، لمعصـــيته ليس لكفره، كل ذلك حرام لكنه ليس درجة واحدة، وسـأفصـل هذا بأدلته في مجلس الغد إن شـاء الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا يجوز للمؤمن أن يُناصـر الكفار لدينهم؛ مناصرة الكفار مثل: محبتهم ليسـت درجة واحدة، وسـنتكلم عنها إن شـاء الله أيضـًــا، ولو كان الكافر أقرب قريب له، لماذا؟ لأن الكفار حادوا الله ورســـوله، والمحادة محادة الكفار لله ولرسوله **لها معنيان عند أهل العلم**:

المعنى الأول: أنهم أخذوا حدًا وجانبًا وجعلوا المســـلمين في جانب آخر، فجعلوا بينهم وبين الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاجزًا فاصـلًا، فالمحادة من الحد، والحد هو الحاجز بين الشيئين، هذا المعنى الأول.

والمعنى الثاني: أن المراد بمحادة الكفار لله ولرسـوله صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ أنهم جعلوا بينهم وبين أولياء الله الحديد والنار فقاتلوا المسلمين وأعدوا العدة لقتال المسلمين وعملوا بذلك، وهم لن يرضـوا عن المسـلمين حتى يردوهم عن دينهم وهذا هو الأصـل في الكفار؛ ولذا وجب على المسـلم أن لا يحب الكفار ولو كان الكافر أقرب قريب، ولو كان أبًا أو أخًا أو نحو ذلك، وإن كنا سـنتكلم إن شـاء الله في درس الغد أن الأب والقريب يتعلق به جانبان: جانب الدين وجانب القرابة، فيتعلق به جانب يتعلق بالدين، ويتعلق به جانب يتعلق بالقرابة، وقد يبغض المسـلم أباه لكفره؛ ولكنه يحبه محبة فطرية لكونه أبًا ولا تناقض بين الأمرين كما سيأتي إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا هو المعروف بالولاء والبراء.

ولا شـك أن للولاء والبراء منزلة عظمى في الإسـلام، وقد عده علماء السـنة من مسـائل الأصـول الكبار وذكروه في كتب العقيدة، وهذا الأمر وهذا الموضـوع مع أهميته وقع فيه الخلط الكثير عند بعض المسـلمين واختلطت فيه المفاهيم وتباينت فيه المواقف لاسـيما في هذا الزمان الذي جعل أهل الأهواء فيه الولاء والبراء مطية لأهوائهم، فإذا كان يخدم أهواءهم أعملوه وغلوا فيه، وإذا كان لا يخدم أهواءهم عطلوه، والذي نراه اليوم في بلدان المسـلمين من جرائم كبرى ومِن أَسَـف أنها تنسـب للجهاد فيدعي أصـحابها أنهم أهل الجهاد والهجرة، أو أهل سـلفية التكفير والجهاد أو نحو ذلك، ما هذه الجرائم التي روعت المؤمنين إلا بسـبب الخلط في هذا المفهوم وما يتصل به من مفاهيم كما سنبين، وسنذكر في درس الغد مواقف الناس من الولاء و البراء، وكيف أن الناس وقفوا مواقف شـتى مبنية على هوى، أو على سـوء قصـد، أو على عدم علم، وهذا ما سنشرحه غدًا إن شاء الله؛ لأني لا أحب أن أفْصل هذه المسألة، فالمسألة فيها أمور مهمة جدًا يجب أن تُفقه؛ لأن كثيرًا من الناس قد جعلوا هذه المسـألة مصـيدة لشـباب المسلمين لإيقاعهم في الفتن والبلاء.

يقول المصنف رحمة الله عليه: "الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ".

الشَّرْح:

هذه الجملة العظيمة قد بينا معناها وتكلمنا عنها إلا أنها متعلقة بأصل الولاء والبراء وهذا أصل عظيم كما أشرنا فيما مضى، وقد تباينت مواقف المسلمين من هذا الأصل فأصبحتَ ترى عند بعض المسلمين تغييبًا لمبدأ الولاء والبراء، فلا ترى فرقًا بين عِلاقة بعض المسلمين بغير المسلمين وعلاقتهم بالمسلمين، بل أقول: قد تتميز علاقة بعض المسلمين بالكفار على علاقتهم بالمسلمين.

ومن ناحية أخرى تجد أن بعضهم قد فرط في ناحية أخرى فلا تجد عنده فرقًا بين علاقته بأهل السنة وعلاقته بأهل البدعة، بل قد تتميز علاقته بأهل البدع على علاقته بأهل السنة، فإذا ذُكر أهل البدع الذين عُرفوا بالبدع وثبتت عنهم البدع أثنى عليهم وغضب إن نيل منهم، وإذا ذُكر أهل السنة أهل الحديث نال منهم وغضب إن مُدحوا، وهذا خلل في مبدأ عظيم من مبادئ الولاء والبراء، وبعض الناس جرّدوا هذا الأصل العظيم من المعنى الشرعي وجعلوه مطية للأهواء؛ ولهذا ينبغي على المسلم أن يتفقه في هذا الأصل وأن يعرف أصوله العظيمة، ونحن لن نستطيع في هذا الشرح المختصر أن نلمّ بالمسألة ولكنّا سنقف على أهم أصولها، وإن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ ستكون لي محاضرة في الشهر الرابع من هذا العام في مسجد قباء عن: "الولاء والبراء" أفصل فيها الأصول التي لابد من تفصيلها في هذه المسألة.

فما هو الولاء والبراء؟ لأن الحكم عن الشـــيء كما يقولون فرع عن تصـــوره، حتى تحكم على الشيء وتعمل بالشيء لابد أن تعرف حقيقته.

الولاء في لغة العرب: هو النصرة والمحبة والاتّباع والقرب من الشـيء والكون مع المحبوبين ظاهرًا وباطنًا. كل هذه المعاني واردة للولاء في لغة العرب، والمعنى عند علمائنا ليس بعيدًا عن ذلك.

فالولاء شـرعًا: هو المحبة والنصـرة والاتباع والكون مع المحبوبين ظاهرًا وباطنًا وما ينشـأ عن ذلك من الأقوال والأفعال.

وأصــل الولاء: المحبة، ولا يوجد الولاء إلا بالمحبة، ولذلك يقول شـيخ الإسـلام ابن تيمية رَحِمَه اللهِ: ((**الولاية ضد العداوة، وأصل الولاية: المحبة والقرب**))[1].

ويقول الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ رَحِمَهُ اللهِ: ((**وأصل الموالاة الحب وأصل المعاداة البغض، وينشـأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة كالنصرة والأنس والمعاونة والهجرة**))[2].

إذن نســتطيع أن نقول: إن الولاء شــرعًا هو: التقارب بين القلوب والمحبةُ وما ينشــأ عن ذلك من الأقوال والأفعال؛ **والولاء على هذا نوعان:**

النوع الأول: ولاء مشـروع مطلوب وهو محبة الله عَزَّ وَجَلَّ، ومحبة رسـوله صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ ومحبة دين الإسـلام ومحبة المسـلمين، هذا ولاء مشـروع: محبة الله ومحبة رسـولنا صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومحبة دين الإسلام ومحبة المسلمين.

---

(١) مجموع الفتاوى: (١١/١٦٠).

(٢) الدرر السنية في الأجوبة النجدية: (كتاب التوحيد: ٢/٣٢٥).

وولاء ممنوع: وهو أيضًا قسمان:

القســـم الأول: ولاء كفري وهو محبة الكفار لدينهم وما ينشـــأ عن ذلك من الأقوال والأفعال، وسـيأتي إن شـاء الله بيان هذا؛ محبة الكفار من أجل دينهم وما ينشـأ عن هذه المحبة من أجل الدين من الأقوال والأفعال "ولاء كفري".

والقســم الثاني: "ولاء فسـقي" يكون فسـقًا ولا يكون كفرًا وهو: محبة الفسـاق والعصـاة لفسـقهم وما ينشـأ عن ذلك، ومحبة الكفار للدنيا، محبة الفسـاق والعصـاة يعني: من المسـلمين لفسقهم وما ينشأ عن ذلك، ومحبة الكفار للدنيا، وسيأتي بيان هذا إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ.

وأما البراء، **فالبراء في لغة العرب**: التنزه والتباعد من الشيء.

وأصل البراءة: التخلص مما يُكرَه.

والبراء في الشـــرع عند علمائنا: هو بغض ما يبغضـــه الله عَزَّ وَجَلَّ ومعاداته؛ هذا هو معنى الولاء والبراء، وكما قدمنا، وينبغي أن نفهم أن أصـل الولاء المحبة، وأن أحكام الولاء تدور على المحبة كما سيأتي إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ.

❖ **ومن المسـائل المتأصلـة عند السـلف وعند أهل السـنة والجماعة أن الولاء والبراء ينقسم إلى قسمين:**

القسم الأول: الولاء والبراء مع غير أهل الملة يعني مع غير المسلمين، مع الكفار من يهود ونصـــارى ومجوس وغير ذلك، والولاء مع غير أهل الملة حرام مطلقًا، محبة الكفار ونصـــرتهم وتأييدهم حرام على المسلم، والبراء منهم واجب مطلقًا، ولا يجوز للمسلم أن يوالي غير المسلم، ولا يجتمع في الكفار ولاء وبراء وإنما هو براء خالص، فقد نهى الله عَزَّ وَجَلَّ عباده المؤمنين عن موالاة الكافرين ولاء محبة، وإخاء، ونصـــرة حتى لو أقررناهم في بلادنا على الجزية فإنّا منهيون عن محبتهم ومناصرتهم، فلا يجوز لمسـلم يشـهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسـول الله أن يوالي

الكفار، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ مخاطبًا للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهذا يدل على أن ما في الآية شـــيء عظيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1] في هذه الآية العظيمة نهى الله عَزَّ وَجَلَّ المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء وأصـدقاء من غير نظر إلى ما هم عليه من الخبث، فلا يجوز لمســلم أن يتخذ من الكفار خليلًا وصفيًا، وعرّفنا ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما عليه الكفار من الغش والخيانة للمسلمين فحذرهم بذلك منهم، وقد قال ابن عباس رَضِـيَ اللهُ عَنْهُما: **((كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْـلِمِينَ يُوَاصِـلُونَ رِجالًا مِنَ الْيَهُودِ لِمَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْجِوَارِ وَالْحِلفِ فِي الْجاهِلِيَّةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِمْ، فَنَهَاهُمْ عَنْ مُبَاطَنَتِهِمْ تَخَوُّفَ الْفِتْنَةِ عَلَيْهِمْ مِنْهُمْ))**[2] قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾[3] نهي للمؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصـارى أولياء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ونفّر الله عَزَّ وَجَلَّ المؤمنين من موالاة الكفار بأن بيّن لهم أن موالاة الكفار من شـــأن المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار، فقال سُبْحَانَه: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[4] الله عَزَّ وَجَلَّ يقول لنبيه صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ: بشـر المنافقين الذين

---

(١) سورة آل عمران: (١١٨).

(٢) كتاب: "تفسير الطبري شاكر": (٧-١٤١).

(٣) سورة المائدة: (٥١).

(٤) سورة النساء: (١٣٨-١٣٩).

يتخذون أهل الكفر والإلحاد أنصارًا وأخلاء من غير المؤمنين، بشرهم بالعذاب الأليم، أيطلبون عندهم العزة والمَنَعَة والقوة؟ فإنهم لا قوة عندهم ولا عزة عندهم ولا منعة عندهم، وإنما العزة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعز من يشاء ويذل من يشاء.

وموالاة الكفار ليســت درجة واحدة بل تتنوع، فقد تكون كفرًا وقد تكون فســقًا، وقد تكون دون ذلك، فهي تتنوع بحســب المحبة، فالحكم على الولاء يتنوع بحسب المحبة، وأرجو أن تضــبطوا هذا؛ فإن كان حب الكافر لكفره أي: من أجل ما هو عليه، فذلك كفر؛ لأن محبة الكافر لدينه منافية للإيمان، وشرط الإيمان بغض الكافرين كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾(١) وإن كان حب الكافر لفسـقه أو لمعصـية يقترفها، كمن يحب الكافر لكونه مطربًا، أو ممثلًا، أو كان لمصـالح دنيوية كتجارة أو نحوها مع بغضــه لدينه، يعني: انتبهوا! البغض لدينه موجود؛ لكنه يحب الكافر لكونه مثلًا: صــاحب معصـية يحبها هو، أو لوجود مصــلحة دنيوية، فذلك ذنب يُنقِص الإيمان ولا ينقض الإيمان، يقول شـيخ الإســلام ابن تيمية رَحِمَه اللهِ: ((**وقد تحصــل للرجل مُوَادَّتُهُمْ لِرَحِمِ أَوْ حَاجَةٍ فَتَكُونُ ذَنْبًا يُنقِص إيمانه وَلا يَكُونُ بِهِ كَافِرًا**))، قال: ((**كَمَا حَصَــلَ مِنْ حَاطِبِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَكَمَا حَصَلَ لِسَعْدِ بْنِ عبادة لَمَّا انْتَصَرَ لِابْنِ أُبي فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ، فَقَالَ: لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ: كَذَبْت وَاَللَّهِ؛ لَا تَقْتُلُهُ وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ**)) (٢) انتهى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَه اللهِ، فهذا لا شك أنه ذنب؛ ولكنه ليس كفرًا.

وإن كان حب الكافر جبلِيًا، أي فطريًا يوجد في نفس الإنسـان لقرابة أو نحوها؛ لكن لا يترتب عليه مخالفة الشرع مع وجود البغض للكفر، فهذا لا يتعلق به مدح ولا ذم، إن كان حب المسـلم للكافر جبليًا فطريًا يوجد في قلب الإنســان من أجل القرابة، أو الإحســان، مع أنه لا

---

(١) سورة المجادلة: (٢٢).

(٢) مجموع الفتاوى" (٧ / ٥٢٣، ٥٢٢).

يترتب على ذلك مخالفة الشرع، ويوجد البغض للكافر لدينه، فهذا لا يتعلق به مدح ولا ذم، لا يُمدح به الإنسان ولا يُذم به الإنسان، ولا يقال إنه معصية، كحب الأب لابنه كما جاء عن نوح عَلَيْهِ السَّلَام في قوله: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾[1] لما رأى ابنه يصارع الماء ويكاد يغرق، قال: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ ولا يكون ذلك إلا من عاطفة؛ وكما في حب الابن لأبيه كما في قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام؛ وكحب الابن لأمه كما وقع لنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه استأذن ربه أن يستغفر لأمه فلم يأذن له فاستأذن ربه أن يزورها فأذن له فزارها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدمعت عيناه رحمة بها من النار[2]، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استأذن ربه أن يستغفر لأمه، والمعلوم أن أمه ماتت كافرة فلم يأذن له ربه ،فاستأذن ربه أن يزور قبرها فأذن له فزار قبرها، فلما وقف على قبرها ماذا حصل؟ دمعت عيناه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحمة لها من النار، وهذا لا يكون إلا من عاطفة؛ وكحب الإنسان قريبه لاسيما مع إحسانه كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[3] وهذا في شأن عمه أبي طالب، فقال له الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ فكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحب عمه الحب الفطري الجبِلي، وكذلك أيضا حب الرجل لزوجته الكتابية، الله عَزَّ وَجَلَّ أذن للمسلم أن ينكح كتابية، والمعلوم أن الكتابية من الكفار، وقد أثبت الله عَزَّ وَجَلَّ كفرهم في كتابه؛ لكن أذن الله عَزَّ وَجَلَّ للمسلم ان ينكح كتابية، والمعلوم أن الرجل إذا نكح امرأة يحبها حبا فطريا جبليا، فإذنُ الله عَزَّ وَجَلَّ في نكاح الكتابية دليل على أن الحب الفطري الجبلي لا يُمدح به الإنسان ولا يُذم، فلا يلام عليه ولا يمدح به؛ لأن هذا الحب لا يكسبه الإنسان، يقع في القلب

---

(١) سورة هود: (٤٥).

(٢) رواه مسلم، برقم: (٢٢٥٥ و٢٢٥٦)، وأبو داود، برقم: (٣٢٣٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) سورة القصص: (٥٦).

من غير كســب، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾[1]، وهذا الحب ليس من كسب الإنسان؛ **لكن لاحظوا الأمرين المذكورين:**

الأمر الأول: ألا يترتب عليه أمر يخالف الشرع، فإن ترتب عليه أمر يخالف الشرع أصبح مذمومًا.

والأمر الثاني: أن يوجد بغضـــهم لدينهم، فهو وإن كان يحبهم الحب الفطري الذي يقع في القلب من غير اختيار إلا أنه يبغضهم البغض الشرعي الذي هو بغضهم من أجل دينهم.

ويتفرع على ذلك مسألة يلبّس بها كثير من أهل الأهواء على المسلمين: وهي مسألة نصرة الكافر على المســلم وإعانة الكافر على المســلم، كذلك فيها التفصــيل المترتب على المحبة فإن كانت نصرة الكافر على المسلم، وإعانة الكافر على المسلم من أجل دينه فهذا كفر، أن ينصر المسلم كافرًا على مسلم لدين الكافر فهذا كفر، وهذا واضح بيّن.

وإن كانت نصـرة الكافر على المسـلم لمصـلحة دنيوية لمال، أو نحوه، لا لدينه، فهذا ذنب ومعصـية وليس كفرًا، ودليل ذلك ما وقع من حاطب رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ عندما كتب إلى أهل مكة سـرًا يخبرهم بعزم النبي صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ على غزوهم، وفي هذا إعانة لهم، يخبرهم أن النبي صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ عازم على غزوهم، وكان النبي صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ إذا أراد غزوا يورّي حتى يفجأ العدو، فحاطب رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ كتب رسـالة إلى قريش يخبرهم أن النبي صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عازم على غزوهم، ولا شك أن في هذا إعانة لهم حيث يستعدون لمقدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأوحى الله إلى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما حصـل، فأرسل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ من يأتي بالكتاب من المرأة التي حملته إلى أهل مكة، فجيء به إلى النبي صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ فنادى حاطبًا رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ، فلما جاء قال له النبي صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ: «مَا هَذَا؟»

(١) سورة البقرة: (٢٨٦).

انتبهوا! النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما قال: هذا مُعين للكفار على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا كافر اقتلوه، أولًا قال له: «مَا هَذَا؟» والسؤال يدل على التفصيل، لأنه لو لم يكن هنالك تفصيل لما كان هناك حاجة للسؤال، كون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول له: «مَا هَذَا؟»، فحاطب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ» كان حليفًا وليس من قريش، «إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ، وَكَانَ مِمَّنْ كَانَ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ، أَنْ أَتَّخِذَ فِيهِمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي»، قال أنا رجل حليف ليس لي قرابة في قريش تحمي أهلي هناك، والذين معك من المهاجرين كلهم لهم قرابات يحمون أهليهم، فلما فاتني النسب أردت أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي، ثم ماذا قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؟ «وَلَمْ أَفْعَلْهُ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ» انظروا هذه الجمل، هذه الجمل تدل على أن الصحابة كانوا يعلمون أن الإعانة والنصرة للكفار إنما تكون كفرًا إذا كانت على وجه النصرة لدينهم، فهو يعتذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «وَلَمْ أَفْعَلْهُ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ» فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَدَقَ»، صدّقه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال عمر: « يَا نبي الله، دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ»، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ »[(١)] والحديث في الصحيحين، هنا حاطب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أعان قريشًا بإخبارهم ومع ذلك فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكفره وإنما لامه وسأله، فاعتذر بأنه لم يفعل ذلك رضى بالكفر بعد الإسلام، فصدقه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فطلب عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يضرب عنقه، ماذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ

---

(١) رواه البخاري، برقم: (٣٠٠٧)، ومسلم، برقم: (٢٤٩٤) عن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ؟ قال: «إِنَّهُ قَدْ شَــهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» **هذه الجملة فيها دليل من جهتين:**

- فيها دليل على أن هذا الفعل ذنب؛ لأنه لو لم يكن ذنبًا ما احتاج إلى المغفرة، والنبي صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ قال: «لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِـئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»، إذن هذا الفعل كان ذنبًا.

- ويدل من جهة أخرى على: أنه ليس كفرًا؛ لأنه لو كان كفرًا لما غفره الله عَزَّ وَجَلَّ بشــهود بدر ولا غيره؛ لأن الله لا يغفر أن يشــرك به، لو كان كفرًا لما كان شــهود بدر سـببًا للمغفرة؛ لأن الكفر لا يغفره الله عَزَّ وَجَلَّ إلا بالتوبة منه، ومن مات وهو عليه لا يغفر الله عَزَّ وَجَلَّ له ذنبه، فدل ذلك على أنه ليس كفرًا وإنما هو ذنب تحت المشــيئة، وقد قال رســول الله صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ: « لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِــئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» إذن إعانة الكفار على المســلمين للدنيا ذنب ومعصية؛ لكنها ليست كفرًا، وهذا ظاهر من الحديث.

فإن قال قائل: إن حاطبًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شهد بدرًا وهذه مزية له لا توجد في غيره، فالمسلم اليوم مثلًا: لم يشهد بدرًا، فإذا فعل فإنا لا نقول فيه هذا الحكم، **نقول:** هذا غلط؛ لأن شهود بدر ليست مزية يغفر بها الشرك ويغفر بها الكفر، وهذا أمر باقٍ إلى يوم القيامة.

إذن أعود وأقول: إن كانت نصــرة الكافر على المســلم لمصــلحة دنيوية لدنيا، فهذا ذنب وليس كفرًا، وإن كانت نصــرة الكافر على المســلم لمنع المســلم من الظلم بالأخذ على يده، أو كانت لمنع الفساد في الأرض، يعني يُعان الكافر على المسلم لمنع المسلم من الظلم، فهذا ليس حرامًا بل مطلوب شــرعًا؛ لأن في ذلك نصــرة للمســلم كما قال النبي صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ:

«انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»[1]، فكونه يؤخذ على يد المسلم حتى لا يظلم الكافر، هذه نصرة للمسلم؛ ولأن في منع الفساد تحقيقًا للمقصود الشرعي إذا تعينت إعانة الكافر طريقًا لذلك، يعني: رجل مفسد في الأرض كما يفعل بعض المخربين اليوم يخرب في كل مكان، ما من فتنة في ديار المسلمين إلا وله فيها يد، فيتعاون الناس في أقطار الأرض لمنع فساده، هذا مطلوب شرعًا، وهو من الأمور المطلوبة من ولاة الأمور، فهذا ليس كفرًا وليس حرامًا، إذن هذه هي أحوال النصرة.

القسم الثاني من الولاء والبراء: هو الولاء والبراء بين المسلمين، وقد جعل الله عَزَّ وَجَلَّ الولاية بين المسلمين في قوله سُبْحَانه: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾[2] المؤمنون تتقارب قلوبهم وإن تباعدت أبدانهم، وإن تباعدت أقطارهم، وإن نأت ديارهم، وإن تباعدت أزمنتهم، فالمؤمن له الولاء؛ **لكن المؤمنين على درجات:**

- من المؤمنين من له الولاء المطلق والمحبة الخالصة التي لا بغض فيها، من المؤمنين من يُحب حبًا خالصًا لا بغض فيه، وهذا للخلّص من المؤمنين وعلى رأسهم الأنبياء عليهم السَّلام وعلى رأس الأنبياء نبينا محمد بن عبد الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- ومنهم الصحابة رِضْوانُ الله عَلِيهم.
- ومنهم التابعون.
- ومنهم أئمة السنة.

---

(١) رواه البخاري: (٦٩٥٢)، والترمذي: (٢٢٥٥)، وأحمد: (١١٩٧١) و(١٣١١٠)، وابن حِبَّان: (٥١٦٧) و(٥١٦٨). وعَبْد بن حُمَيْد: (١٤٠١). وأبو يَعْلَى: (٣٨٣٨). من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) سورة المائدة: (٥٥ – ٥٦).

فهؤلاء يحبون محبة خالصة لا بغض فيها.

- ومن المؤمنين من يُحب من وجه ويبغض من وجه آخر، فيجتمع فيه الولاء والبراء، تجتمع فيه المحبة والبغض وقد يكون أحدهما أغلب من الآخر يتفاوت، بعض الناس حبه أعظم من بغضه، وبعض الناس بغضه أعظم وأكبر من حبه، والأعمال الظاهرة تكون تبعًا للأغلب، وتبعًا للمصلحة، من المسلمين من يكون له حب وبغض في القلب، وقد يغلب أحدهما الآخر، فيكون حب فلان في قلبك أكبر من بغضه، ويكون بغض فلان في قلبك أكبر من حبه، طيب معاملته في الظاهر كيف تكون؟ قال العلماء: **يُنظر فيها إلى أمرين:**

الأمر الأول: إلى الأغلب، هل الأغلب البغض أو الأغلب الحب؟

الأمر الثاني: يُنظر في ذلك إلى المصلحة الشرعية، هل تُظهر له المحبة والمودة؟ أو تظهر له الجفاء؟

أول أمر: يُنظر إلى الأغلب في القلب، طبعًا والأغلب مبني على المقتضى الذي يقتضية.

والأمر الثاني: يُنظر إلى المصلحة، والعلماء يقولون: المصلحة هنا ليست مصلحة متعلقة بجهة واحدة بل لها جهات، وهذا ما ينبغي فقهه؛ لأن بعض طلاب العلم يقصُر نظرَه على جهة واحدة فيقع الخطأ، المصلحة تتعلق بالدين؛ مصلحة الدين، وتتعلق بالمعامِل، وتتعلق بالمعامَل، وتتعلق بالمسلمين. **أربع جهات:**

- مصلحة الدين.
- ومصلحة المعامِل.
- ومصلحة المعامَل.
- ومصلحة المسلمين.

❖ **مصـــلحة الدين**: يُنظر ما هو الأصـــلح للدين، أن يُعامَل بحب ومودة؟ أو أن يُعامل بجفاء؟ وبحسب مقتضيات المصلحة يُعمَل.

❖ **مصـــلحة المعامِل**: يُنظر لمصـــلحة هذا المعامِل إن كانت مخالطته ومودادته الظاهرة لهذا الرجل ستؤثر فيه، من بدعته من فسقه، فإنه لا يواده ولا يُظهر له الموادة والمواصلة، وإن كانت موادته، ومواصلته، ومعاملته معاملة المودة في الظاهر لا تؤثر فيه شيئًا من فسق ذاك ومن بدعته فهذا يواصَل؛ لكن بالنظر إلى المصالح الأخرى أيضًا.

❖ **وأما مصـــلحة المعامَل**: فيُنظر إن كان إظهار المودة له أصـــلح لقلبه، فإذا أظهرت له المودة اســـتحى منك وترك البدعة أو ترك المحرم فإنه يواصَـــل مع النظر إلى المصـــالح الأخرى، وإن كان إظهار العداوة والبغض له والجفاء أصـــلح له وإذا رأى أنك تبغضـــه وتظهر له الجفاء بسبب ما هو عليه يترك هذا الأمر، فإنك تظهر له الجفاء.

❖ **وأما مصـلحة المسـلمين**: فيُنظر فيها إلى عموم المسـلمين، إن كان إظهارك المودة له سيغر المسلمين به ويجعل المسلمين يُقبلون على ما هو عليه من شر، من بدعة أو فسق أو نحو ذلك، فإنك لا تُظهر له الموادة وتُظهر الجفاء والبغض، وإن كانت مصـــلحة المسلمين أن تُظهر موادته وأنت آمن من وقوع المسلمين بِشرّه بسبب هذه الموادة، فإنك تُظهر موادته.

إذن النظر في أربعة أمور في الناحية الثانية وليس في أمر واحد، بعض الناس اليوم يتكلم عن المصـلحة؛ ولكن يتكلم عن المصـلحة في جانب واحد وهو جانب المعامَل، وهذا قصـور، المصلحة عند أهل العلم لها أربعة جوانب في هذا الباب:

- مصلحة الدين والسنة.
- مصلحة المعامِل نفسه.
- ومصلحة المعامَل.

- ومصلحة المسلمين.

إذن لو قال لنا قائل: إن من المسلمين من يُبغض من وجه ويُحب من وجه.

قلنا: نعم.

قال: كيف نعمل في الظاهر؟

فإنا نقول: إن العمل في الظاهر يكون بهذين الميزانين: الأغلب في القلب، والنظر إلى المصلحة من الجهات الأربع التي أشرنا إليها.

إذن إن من يُحب من وجه ويُبغض من وجه من يكون فيه مخالفة للشرع مع إسلامه، من بدعة، أو فسق، أو نحو ذلك، فيُحب بمقدار ما فيه من خير ويُبغض بمقدار ما فيه من شر وفسوق، ولا يجوز لمؤمن أن يُبغض مسلمًا في قلبه بغضًا خالصًا ما دام أنه مسلم، ولا يجوز للمسلم أن يحب الفاسق في قلبه حبًا خالصًا، بل لابد من اجتماع الأمرين، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَه اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مبينًا قاعدة جليلة عظيمة في ذلك، قال: ((**المؤمن عليه أن يعادي في الله ويوالي في الله**)) فليس الولاء والمعادة من أجل عصبية أرضية فيوالي أهل جنسيته مثلًا، وليس لعصبية قبلية، وليس لعصبية حزبية ولا لغير ذلك، وإنما الولاء لله وفي الله، يقول: ((**المؤمن عليه أن يعادي في الله ويوالي في الله وليُعلم أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه**)) إلى أن قال رَحِمَه اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ((**وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر وفجور، وطاعة ومعصية، وسنة وبدعة مُخلِّط**[1] **استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص**

---

(١) هذا من كلام شيخنا حفظه الله.

الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا))، قال: ((**هذا هو الأصـــل الذي اتفق عليه أهل الســـنة))**[1]، ثم وضـــع قاعدة عظيمة فقال: ((**من كان مؤمنًا وجبت موالاته من أي صنف كان، ومن كان كافرًا وجبت معاداته من أي صنف كان ومن كان فيه إيمان وفيه فجور أعطي من الموالاة بحسب إيمانه ومن البغض بحسب فجوره))**[2].

❖ **إذن أخذنا من المؤمنين صنفين:**

- صنف يُحَب حبا خالصًا لا بغض معه.
- وصنف يُحَب من وجه ويُبغَض من وجه.

بقي معنا صنف ثالث وهو: الصنف الذي يُبغض فعله، ولا يُبغَض، يُبغض فعله إذا فعل ما يخالف في الشـرع أو ما لا يُقَرُّ عليه؛ لكن لا يُبغض هو لوجود مانع من بغضـه، كأن يكون مجتهدًا اتقى الله ما اســتطاع فأخطأ، لا يُقَر على خطئه ويُتبرأ من فعله؛ لكن لا يُتبرأ منه، ومن ذلك ما جاء في قصـة خالد رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ في حديث ابن عمر رَضِـيَ اللهُ عَنْهُما قال: «**بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خالد بن الوليد إلى بني جُذَيمة فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فقالوا: «صَـبَأْنَا، صَـبَأْنَا»** ومعنى صَـبَأْنَا في لسـان خالد رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ: كفرنا، وهم أرادوا أن يقولوا أســلمنا فلم يحســنوا ذلك، قالوا: «**صَـبَأْنَا، صَـبَأْنَا، قال ابن عمر رَضِـيَ اللهُ عَنْهُما: فجعل خالد يقتل ويأسـر ودفع إلى كل رجل منا أسـيره»** طبعًا ابن عمر رَضِـيَ اللهُ عَنْهُما لم يقتل أسيره ومنع من معه من قتل أسراهم إلى أن رجعوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال ابن عمر رَضِـيَ اللهُ عَنْهُما: فذكرنا ذلك للنبي صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ فقال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدُ بن الوليد مَرَّتَيْنِ»**[3]، ذكر البخاري هذا الحديث تحت باب: إذا قضى الحاكم

---

(١) مجموع الفتاوى: (٢٨/ ٢٠٩).

(٢) مجموع الفتاوى: (٢٨/٢٢٨).

(٣) رواه البخاري، برقم: (٧١٨٩).

بجور أو خلاف أهل العلم فهو رد، قال الحافظ الذهبي عندما ذكر القصـــة في: "ســـير أعلام النبلاء"، قال معلقًا على هذا: **((ولخالد اجتهاده، ولذلك ما طالبه النبي صَـــلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدياتهم))**[(١)] فهو مجتهد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو معذور؛ لكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بريء من فعله، ولهذا يقول الحافظ ابن حجر رَحْمَهُ اللهِ: **((والذي يظهر أن التبرؤ من الفعل لا يستلزم إثم فاعله))**[(٢)].

إذن قد يُتبرأ من الفعل ولا يُتبرأ من الفاعل، متى يكون ذلك؟ وهذه مســـألة مهمة؛ لأن بعض الناس يريد أن يجعل ذلك قاعدة فيقول: (التبرؤ من الأفعال أما الفاعل فلا نتبرأ منه) نقول: لا، الأصل إذا وقع الفعل المخالف للشرع أن يقع البراء من الفعل والفاعل بمقداره؛ لكن إذا وُجد مانع يمنع من البراء من الفاعل كاجتهاد يُعذر به، أو جهل يُعذر به، فإنه لا يُتبرأ من الفاعل؛ ولكن يُتبرأ من الفعل.

فهذه أقسام الولاء والبراء، وأقسام الولاء والبراء بين المسلمين، ولكل حُكمه، ومن الظلم أن يوضع التمر مكان الجمر، وأن يوضع الجمر مكان التمر، بل يوضع كل شيء في منزلته، ويُقْدَر كل شيء بقدَره.

لعل في هذا كفاية اليوم، ونعود غدًا إن شـــاء الله لننهي الكلام المختصـر على هذا الأمر بضـــوابط في تعامل المســـلم مع غير المســـلمين؛ لأن بعض الناس اليوم عنده خبْط، فجعل كل معاملة مع الكفار من الولاء، فنحتاج إلى ضـــوابط، منها أيضًـــا أن بعض الناس اليوم يُكفِّر بالأفعال التي هي ليست من الولاء وإنما من مقتضيات البراء، وهذه إن شاء الله سنتكلم عنها ونضبطها في درس الغد إن شاء الله.

---

(١) السير: (١/٣٧١).

(٢) الفتح: (١٣/١٨٢).

نحن نجتمع على شرح الأصول الثلاثة، وكان مدار درسنا بالأمس مسألة في غاية الأهمية، ألا وهي مسألة الولاء والبراء، وقد ذكرنا أهم الأصول التي ينبغي أن تُذكر في هذه المسألة، ونختم اليوم الكلام عليها بذكر بعض الضوابط المهمة في هذا الباب حتى لا يخلط طلاب العلم في المسألة ولا يخلط عوام المسلمين فيها.

أختم بأربعة ضوابط، وإن كانت الضوابط في هذا الباب كثيرة جدًا، إلا أن مقام الاختصار يجعلنا نقتصر الآن على **ضوابط أربعة**:

الضابط الأول: أن معروف الكفار غير الحربيين يُقابَل بالمعروف والبر، بمعنى: أنه إذا أحسن الكافر غير الحربي لمسلم فإن المسلم يقابل معروفه بالمعروف، فيجوز للمسلم أن يقابل المعروف بالمعروف، ويجوز للمسلم أن يبادل البر بالبر والإحسان بالإحسان، فإن الله تعالى لم ينه المؤمنين عن مقابلة المعروف بالمعروف والبر بالبر، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1]، فمن سالم المسلمين من الكفار، وكف أذاه عنهم فإنه يعامَل بالتي هي أحسن ويُنصح ويُرشَد.

وفي هذا الباب تقول: "اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء" في جواب لها من الأجوبة السديدة، وفتاوى "اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء" باب عظيم من أبواب العلم، وأنصح طلاب العلم في مراجعتها، والتأمل فيها، والتأمل في الأصول العظيمة التي تقرَّر فيها.

(١) سورة الممتحنة: (٨ – ٩).

تقول "اللجنة الدائمة" في هذا الباب: ((أحسنوا إلى من أحسن إليكم منهم)) أي: من الكفار غير الحربيين، ((وإن كانوا نصـــارى فإذا أهدوا إليكم هدية مباحة [1] فكافئوهم عليها، وقد قبل النبي صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ الهدية من عظيم الروم وهو نصـراني وقبل الهدية من اليهود))[2]، فاللجنة تُرشــد إلى الإحســان إلى من أحســن إلينا من الكفار غير الحربيين، والمعلوم أن مقابلة المعروف بالمعروف لا تسـتلزم المحبة، ولذلك يقول الحافظ بن حجر رَحِمَه اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ((البر والصلة والإحسان لا يستلزم التحابّ والتوادّ المنهي عنه))[3].

وهنا فقه عظيم؛ لأن بعض الناس تجده يقول: فلان من الناس يحب الكفار، فإذا قلتَ له: ما الدليل على أنه يحب الكفار؟ قال: أنه يحســن إليهم، ويرسـل إليهم الهدايا، ويعطيهم و يعطيهم، وهذا غلط عظيم، فإن الإحســان والبر والمعروف لا يسـتلزم الموادة، والصـلة والمكافأة الدنيوية شيء، والمودة شيء آخر، فمن سالم المسلمين من الكفار وعاملهم بالتي هي أحسن، عامَلوه بالمعروف وعاملوه بحسـن المعاملة، وفي ذلك ترغيب للكفار في الإسـلام، وللإمام القَرافي المالكي كلام نفيس جدًا في هذه المســألة ذكر فيه أصــولها التي ينبغي أن يُتنبه لها فيها فقال: ((نبَرُّهم بكل أمر لا يكون ظاهره يدل على مودات القلوب ولا على تعظيم شعائر الكفر، فما أدى إلى أحد هاتين امتنَع وصـار من قِبَل ما نُهي عنه))[4]، قال: (هذه قاعدة الشـريعة) إلى قوله: ((وأما ما أُمر به من بِرهم من غير مودة باطنية كالرفق بضعيفهم، وإطعام جائعهم، وإكسـاء عاريهم، ولين القول لهم على سـبيل التلطف لهم والرحمة لا على سـبيل الخوف والذلة، واحتمال أذيتهم في الجوار لطفًا منا بهم، والدعاء لهم بالهداية وأن يُجعلوا من أهل السعادة، ونصـيحتهم في جميع أمورهم في دينهم ودنياهم، وحفظ غَيبتهم إذا تعرّض

---

(١) زيادة من فتاوى اللجنة، لم يذكرها شيخنا حفظه الله.

(٢) "فتاوى اللجنة الدائمة": معاملة الجيران من أهل الكتاب: السؤال العاشر من الفتوى رقم (٥١٧٦).

(٣) "الفتح": (٥/٢٣٣).

(٤) "أنوار البروق في أنواع الفروق": الفرق التاسع عشر والمائة بين قاعدة بر أهل الذمة وبين قاعدة التودد لهم.

أحد لأذيتهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يُعانوا على دفع الظلم عنهم وإيصالهم جميع حقوقهم)) إلى قوله: ((وينبغي لنا أن نستحضر في قلوبنا ما جُبلوا عليه من بُغضنا))، يعني: إذا كنا نقابل معروفهم بالمعروف وإحسانهم بالإحسان، ينبغي أن لا نغفل عن قلوبنا؛ لأنه يُخشى مع هذه المعاملة أن تتسلل المودة إلى القلب، فينبغي أن نتنبه للقلوب، ولذلك يقول رَحِمَهُ اللهُ: ((وينبغي لنا أن نستحضر في قلوبنا ما جُبلوا عليه من بغضنا وتكذيب نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنهم لو قدِروا علينا لاستأصلوا شأفتنا واستولوا على دمائنا وأموالنا، وأنهم من أشد العُصاة لربنا ومالكنا نستحضر هذا في قلوبنا)) قال: ((ثم نعاملهم بعد ذلك بما تقدم ذكره، ولا نُظهر آثار تلك الأمور التي استحضرناها في قلوبنا من صفاتهم الذميمة))، يعني: لا نُظهر آثار تلك الأمور التي استحضرناها ونجعلها في الظاهر؛ ولكنا نستحضرها في قلوبنا ونعاملهم بالإحسان، لماذا؟ قال: ((وإنما استحضرناها حتى يمنعنا ذلك من الود الباطن لهم)) خوفًا على قلوبنا، وهذا أمر عظيم يجب أن يتنبه له المسلم، ومن هذا الباب أنه يجوز للمسلم أن يؤاكلهم، ويخالطهم؛ **بشرطين**:

الشرط الأول: أمن الفتنة، أن يأمن على نفسه الفتنة من مخالطتهم.

والشرط الثاني: عدم المودة والمحبة.

فإذا أمن الإنسان فتنتهم على نفسه، ومعنى هذا أنه يرجو بمؤاكلتهم ومخالطتهم بالمعروف أن يؤثر فيهم، يرغّبهم في الإسلام وهو آمن على نفسه من فتنتهم، وكان لا يودهم ولا يحبهم بقلبه، فإنه لا بأس عليه من مخالطتهم ومؤاكلتهم.

تقول "اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء": ((يجوز أن تأكل مما يقدمه لك زميلك النصراني من الطعام سواء كان ذلك في بيته أو غيره إذا ثبت لديك أن هذا الطعام ليس بمحرم في نفسه أو جهل حاله؛ لأن الأصل في ذلك الجواز حتى يدل

الدليل على المنع))[1]، ومن هذا الباب أيضًـا جواز مزاورتهم وجواز الإذن للكفار في الزيارة كما قلنا بالشرطين العظيمين: أمن الفتنة، وعدم المحبة.

تقول "اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء": **((يجوز أن نأذن لهم في زيارتنا في بيوتنا، مع الأمن من الفتنة، والمحافظة على حرمات الأسـرة))**، انظروا دقة أهل العلم، يقولون: يجوز أن نأذن لهم ما داموا أنهم ليسوا من الحربيين بشرط أمن الفتنة وبشرط أيضًا تعظيم الحرمات؛ لأن بعض الناس إذا خالط بعض الناس أصبح يعاملهم كما يتعاملون هم، فبعض المسلمين والعياذ بالله مثلًا: إذا تعامل مع كافر والكفار يجتمعون رجالًا ونساء، إذا دعا الكافرَ طلب من امرأته أن تجلس معهم مثلًا: وتجالسهم ونحو هذا، هذا من أعظم الذنوب، ولذلك تقول "اللجنة": **((مع الأمن من الفتنة والمحافظة على حرمات الأسرة، ما دام في ذلك تأليف لقلوبهم، والنصح، والإرشاد عسى أن يجدوا في حسن المعاملة ومراعاة آداب الزيارة حُسن الإسلام**[2] **فيستجيبوا للنصيحة ويدخلوا في الإسلام))**[3]، وقد عاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهوديًا، وأجاب دعوة اليهودية، وكان ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُما إذا ذبح شاة أهدى لجار له يهودي بل كان يتفقد ذلك، فكان إذا غاب عن أهله وجاء سأل: أهديتم لجارنا اليهودي؟ أهديتم لجارنا اليهودي؟[4]، وهذا من المعاملة بالإحسان، إذن معروف غير الحربيين يقابَل بالمعروف، ويجوز لنا أن نعامل الكفار غير الحربيين بالإحسان بشرط أمن الفتنة وعدم المحبة.

---

(١) "فتاوى اللجنة الدائمة": أكل المسلم من طعام أهل الكتاب وتقديم الكتب الإسلامية لهم والصلاة أمامهم والذهاب إلى كنائسهم: السؤال الأول من الفتوى رقم: (٣٢٦٢).

(٢) كذا قال شيخنا، وفي فتاوى "اللجنة": " سماحة الإسلام".

(٣) " فتاوى اللجنة الدائمة": مشاركة الكفار في الأعمال التجارية: فتوى رقم: (٥٨٥٥).

(٤) أخرجه: أبو داود (٥١٥٢)، والترمذي رقم (١٩٤٤). عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُما، وصححه العلامة الألباني في "صحيح الترغيب والترهيب" (٢٥٧٤).

الضــابط الثاني: تبادل المنافع المباحة مع الكفار مباح، فيجوز للمســلم أن يبايع غير المسلمين وأن يشتري منهم، وأن يتبادل معهم المنافع المباحة كالعلم النافع، يجوز للمسلم أن يأخذ العلم النافع الطيب من الكفار كعلم الطب مثلًا: الذي لا يوجد إلا عندهم أو نحو ذلك، ويجوز للمسلم أن يتطبب عند الكفار إذا احتاج إلى ذلك، وقد بوب البخاري في الصحيح باب: الشراء والبيع مع المشركين وأهل الحرب، وروى في هذا الباب عن عبد الرحمن بن أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قال: "كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجاء رجل مُشْعانٌّ، مشعان: أي طويل، بغنم يسوقها، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَبَيْعٌ أَمْ عَطِيَّةٌ؟» هذا الرجل مشرك جاء يسوق غنمه، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَبَيْعٌ أَمْ عَطِيَّةٌ؟» أوقال: «أَمْ هِبَةٌ؟»، يعني: أنأخذ منك شاة بيعًا أم نأخذها هبة وعطية؟ فَقَالَ: «بَلْ بَيْعٌ» إذا أردتم أن تأخذوا شاة فبالبيع، فاشترى منه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاةً[1].

ولذا قال العلماء: تجوز معاملة الكفار، ويجوز البيع منهم والشراء إلا بما يستعين به الكفار على حرب المسلمين، لا يجوز أن يباع لهم! ما يستعين به الكفار على حرب المسلمين من سلاح وغيره فإنه لا يجوز أن يباع لهم، وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعامِل اليهود وكان يشتري من اليهود.

الضابط الثالث في المسألة: يجوز للمسلم أن يُظهر للكفار الولاية عند الضرورة مع اطمئنان القلب بضدها، يعني: يكون هذا في الظاهر فقط أما القلب فهو يبغضهم ولا يحبهم وذلك؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ أجاز لمن أكره على النطق بكلمة الكفر أن ينطق بها بشرط اطمئنان قلبه بالإيمان، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾[2] وقال

(١) متفق عليه: البُخَارِي:(٢٢١٦)، ومسلم: (٥٤١٤). من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُما.
(٢) سورة النحل: (١٠٦).

الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾[1]، يقول ابن عباس رَضِـــيَ اللهُ عَنْهُما: ((**نهى الله سـبحانه المؤمنين أن يلاطفوا الكفار، أو يتخذوهم وليجة من دون المؤمنين إلا أن يكون الكفـار عليهم ظـاهرين فيظهرون لهم اللطف وذلـك في قولـه: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾**))[2]، وقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ((**التقاة: التكلم بالكفر وقلبه مطمئن بالإسلام**))[3].

ويقول إمام المفســرين الإمام ابن جرير الطبري رَحْمَهُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ قال: ((**إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم، فتظهروا لهم الولاية بألسـنتكم، ولا تظهروا لهم العداوة**))[4]؛ لكن قال: ((**ولا تشـايعوهم على ما هم عليه من الكفر**))، يعني: لا تقوموا بأعمال الكفر، وإنما تُظهروا لهم الولاية في الظاهر مع اطمئنان القلب بالعداوة من جهة وعدم العمل بشعائر الكفر من جهة أخرى.

وقال ابن كثير رَحِمَه اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ((**وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ إلا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته**))، كما قال[5] البخاري عن أبي الدرداء رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: ((**إنا لَنُكشِّـرُ في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم**))[6]، أي: إنا لنضحك في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم، يقول: فيجوز للمسلم إذا اضطر أن يُظهر للكفار الولاية مع اطمئنان قلبه بالعداوة، وهذا أمر مهم جدًا.

---

(١) سورة آل عمران: (٢٨).

(٢) "تفسير الطبري" (٦/ ٣١٣)، رقم الأثر:(٦٨٢٥).

(٣) "تفسير الطبري" (٦/٣١٤)، رقم الأثر: (٦٨٢٩). غير أنه قال: "التكلم باللسان...".

(٤) كذا قال شيخنا حفظه الله، وفي تفسير الطبري: "وتضمروا لهم العداوة". والله أعلم.

(٥) كذا قال الشيخ حفظه الله، وفي تفسير ابن كثير: "كما حكاه البخاري".

(٦) "تفسير ابن كثير": (٢/٣٠).

الضـابط الرابع: وهذا ضـابط عام في مسـائل كثيرة: أن من ثبت إسـلامه بيقين لا يرتفع إلا بيقين، فإذا احتمل الأمرُ أن يكون كفرًا، أو أن يكون دون ذلك فإن الواجب حمله على عدم الكفر؛ لأن الأصل في المسلم الإسلام، بمعنى: إذا كان الأمر مما يدخله التفصيل فمنه ما هو كفر ومنه ما هو دون ذلك كمسألة الولاء والمحبة، فإن الواجب أن يُحمل على عدم الكفر إلا إذا ثبت الكفر، وهذه مسألة عامة، إذا كان الأمر مترددًا بين أمرين، يَحتمل أن يكون كفرًا ويحتمل أن يكون دون ذلك، فإن الواجب أن يُحمل على ما دون الكفر؛ لأن الأصل في المسلم الإسلام، ولا يُنتقَل عن هذا إلا بيقين، إذا انتفى الاحتمال؛ وهذه القاعدة وهذا الضابط له أصول كثيرة وشواهد كثيرة والمقام الآن لا يُسعفنا بالتفصيل فيها.

هذا أهم ما أردت أن أذكره باختصار في هذا الباب، وسنفصل ذلك إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ في المحاضرة التي أشرنا إليها البارحة.

يقول المصــــنف رحمة الله عليه: "وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ **اِعْلَمْ أَرْشَــــدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ، أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ".**

الشَّرْح:

يقول الشيخ: "**اِعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ**" وهذا من أسلوب الشيخ، ومن أساليب أهل العلم، وهو التصدير بالدعاء المشعر بالرفق والرحمة، وهذا هو الأصل أن تُشعر من تخاطبه بالرفق والرحمة.

يقول الشـــــيخ: "**اِعْلَمْ أَرْشَــــدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ**" أي: هداك لما ينفعك في الدنيا والآخرة وللاستقامة على طريق الخير.

الرشد: هو الهداية لما ينفع في الدنيا والآخرة، فالشيخ يقول: "**اِعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ**" أي: هداك لما ينفعك في الدنيا والآخرة وللاستقامة على طريق الحق.

"**اعلم أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ**"، الحنيفية: مشتقة من الحَنَف وهو الميل، فالحنيفية: هي المائلة عن الشرك قصدًا إلى التوحيد، فمن مال عن الشرك قاصدًا التوحيد فوحد الله وجانب الشرك فهو حنيفي، والحنيف هو المتباعد عن الشرك المحققُ للتوحيد المقبلُ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالطاعات.

قال: **"أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ"** **الملة**: هي الدين والطريقة والشـــريعة، أي: أن طريقة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام الشرعية وشريعة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام التي جاء بها هي ما سيذكره الشيخ.

قال: "أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ".

الشَّرْح:

هذا خبر أنَّ في قوله: **"أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ"** فهذا الخبر: **"أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ"**، ونلحظ هنا أن الأمر الذي ذكره الشيخ ليس خاصًا بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام بل هذه ملة الأنبياء جميعًا، فما من نبي إلا وهو يدعو إلى عبادة الله وحده، فلماذا خصّ الإمامُ رَحْمَه اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام؟ لماذا خَص إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام بالحنيفية مع أن الحنيفية هي دين الأنبياء جميعًا عَلَيْهِم السَّلَام؟ لـمَ لم يقل الشيخ مثلًا: "إن الحنيفية التي بُعث بها الرسل"؟ لماذا قال: **"أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام"**؟ نقول: إنه خصها بذلك اتباعًا للقرآن، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحْمَه اللهِ عَزَّ وَجَلَّ من أكثر الناس اتباعًا للقرآن والسنة لفظًا وأحكامًا، فإن المتأمل في كتبه جميعها يجد أنه رَحْمَه اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يتتبع أساليب القرآن فيذكر حتى في كلامه أساليب القرآن والسنة، وكذلك في الأحكام، فهو رَحْمَه اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لا يخرج عن الأحكام الواردة في الكتاب والسنة والتي فهمها سلف الأمة.

فالشيخ هنا خص إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام بالذكر اتباعًا للقرآن حيث أمر الله عَزَّ وَجَلَّ باتباعها فقال سُبْحَانَه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[١]، فكأن الإمام رَحْمَه اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يقول: "اعلم يا عبد الله، يا مطيعًا لله، يا متبعًا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الحنيفية ملة إبراهيم التي أمرك الله باتباعها هي أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين، فتقومَ بعبادة الله وتكون مخلصًا لله عَزَّ وَجَلَّ في دينه".

---

(١) سورة النحل: (١٢٣).

❖ **والعبادة عند علمائنا لها معنيان:**

معنى: للفعل الذي هو التعبد، فتطلَق العبادة بمعنى الفعل الذي هو التعبد.

والمعنى الآخر: للمتعَبَّد به؛ فتطلق العبادة على التعبد وتطلق على المتعبَّد به.

أمـا المعنى الأول: وهو إطلاق العبـادة على معنى الفعـل، على معنى التعبـد فيقول العلماء: "العبادة هي: التذلل لله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه على الوجه المشروع"، يعني: أن العبادة التي هي التعبد هي التقرب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بفعل أوامره واجتناب نواهيه على الوجه المشـروع، والوجه المشـروع: أن تكون مخلصًـا لله متبعًا لرسـول الله صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ، فقولنا: "على الوجه المشروع" أي: على وجه الإخلاص والمتابعة بالمحبة والتعظيم والذِّلة، فالعبادة لله لا بد فيها من المحبة، أن تتقرب إلى الله بفعل الأوامر وترك النواهي بالمحبة والذلة، فتتذلل لله عَزَّ وَجَلَّ والتعظيم، وسيأتي بيان لهذا إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ.

أما المعنى للعبادة الذي هو بمعنى المتعبَّد به، فالعبادة بهذا المعنى كما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهِ مستخلصًـا لذلك من كلام السـلف: "اسـم جامع لكل ما يحبه الله ويرضـاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة".

والمعنيـان متلازمـان، فـالعبـادة بمعنى التعبـد هي: التقرب إلى الله، بمـاذا؟ بكـل مـا يحبه الله ويرضـــاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وما الأقوال والأعمال التي يحبها الله ويرضـــاها؟ الأقوال والأعمال التي يحبها الله ويرضـــاها هي ما جاء به محمد صَـــلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّمَ وكان الإنسان فيها مخلصًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: **"مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ"** والإخلاص هو: التنقية، فمعنى الإخلاص لله: تنقية العبادة من الشوائب بأن لا يقصد الإنسان بعبادته إلا وجه الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال رحمة الله عليه: "وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وَمَعْنَى يَعْبُدُونِ: يُوَحِّدُونِ".

الشَّرْح:

"**وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ**"، و"**النَّاسِ**" لفظ يطلق على جميع بني آدم، فكل الناس أمرهم الله عَزَّ وَجَلَّ بعبادته وتوحيده.

وقول الشيخ "**وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ**" يشمل كل إنسان من آدم عَلَيْهِ السَّلَام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فكلهم أمرهم الله عَزَّ وَجَلَّ بعبادته وحده سُبْحَانه.

"**وَخَلَقَهُمْ لَهَا**" أمرَهم بالعبادة وخلقهم من أجل التوحيد، فالله خلقنا من أجل أن نعبده وحده لا شـــريك له كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] والحكمة العظيمة من خلق الإنس والجن هي عبادة الله عَزَّ وَجَلَّ.

والمقصـود بالعبادة هنا: العبادة الشـرعية الأمرية؛ لأن العبادة في الشـرع لها معنيان: معنى عبادة كونية، وعبادة شرعية.

العبادة الكونية: هي خضـــوع الناس جميعًا لله في قدره الجاري عليهم، وهذا لا يخرج عنه أحد، لكنه ليس المراد هنا، وإنما المراد في الآية **العبادة الشرعية** وهي التي تسمى بالأمر الشرعي

---

(١) سورة الذاريات: (٥٦).

فقال الشــيخ: **"وَمَعْنَى يَعْبُدُونِ : يُوَحِّدُونِ"** أي: يعبدونني بأنواع العبادة موحدين لي في ذلك، فكل عبادة يفعلونها يوحدون الله عَزَّ وَجَلَّ فيها، فلا يتقربون بها إلا لله تعالى، وهذا الذي تقتضــيه الإضــافة: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ أي ليعبدوني، فهم يعبدون الله عَزَّ وَجَلَّ بجميع أنواع العبادة موحدين له سُــبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ذلك، والله أمر الناس جميعًا بعبادته كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[1]، وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾[2] وقال الله سُــبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[3] فالأمر كما قال الشيخ، الله أمر جميع الناس بتوحيده وإفراده بالعبادة.

---

(١) سورة الاسراء: (٢٣).

(٢) سورة البقرة: (٢١).

(٣) سورة الأنبياء: (٢٥).

قال رحمة الله عليه: "وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ".

الشَّرْح:

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمر عباده بأوامر كثيرة؛ لكنّ أعظم ما أمر به هو التوحيد ولذا كانت الرسل تبدأ به، وكان رسل الرسل يبدؤون به، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمر رسله إلى الناس في الأقطار أن يبدؤوا بالتوحيد.

والتوحيد في اللغة: مصدر وحّد يوحد الشيء، أي: جعل الشيء واحدًا وأفرده فجعله فردًا، تقول العرب: وحده أي أفرده وجعله فردًا.

أما في اصطلاح علماء الإسلام، ونعني هنا: بعلماء الإسلام: علماء السنة؛ لأن التوحيد لفظ مشترك تطلقه الفرق المخالفة للسنة؛ فتطلقه المعتزلة ويسمون أنفسهم: أهل التوحيد والعدل ويعنون بالتوحيد: نفي الصفات؛ وتطلقه الأشاعرة ويقولون التوحيد، ويعنون بالتوحيد: تأويل الصفات؛ ويطلقه أهل السنة والجماعة على الإطلاق الذي دلت عليه النصوص، فالتوحيد عند أهل السنة والجماعة له إطلاقان:

- إطلاق عام.
- وإطلاق خاص.

أما الإطلاق العام: فهو إفراد الله عَزَّ وَجَلَّ بما يختص به سُبْحَانه؛ أن يفرد الله عَزَّ وَجَلَّ بما يختص به؛ وما يختص به سُبْحَانه يتعلق بأفعاله، ويتعلق بأفعال العباد، ويتعلق بأسمائه وصفاته؛ ولذا كان التوحيد بهذا المعنى ينقسم ثلاثة أقسام:

○ **توحيد الربوبية:** وهو إفراد الله عَزَّ وَجَلَّ بأفعاله سُبْحَانه فيفرد العبد ربه في أفعاله كالخلق والملك والتدبير يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ ﴾[1]، ويقول الله

(١) سورة الزمر: (٦٢).

عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَل مِن خالِقٍ غَيرُ اللَّهِ يَرزُقُكُم مِنَ السَّماءِ وَالأَرضِ لا إِلٰهَ إِلّا هُوَ ﴾[1] فلا خالق غير ولا رازق إلا الله: ﴿ أَلا لَهُ الخَلقُ وَالأَمرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ العالَمينَ﴾[2].

- **والقسم الثاني**: هو توحيد الألوهية وهو إفراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأفعال العباد؛ فيفرد الله سُبْحَانه بأفعال عباده فلا يُدعى إلا الله، ولا يذبح لغير الله، ولا يصلى لغير الله إلى غير ذلك؛ وسيأتي قريبًا إن شاء الله كلام الشيخ عن العبادة، وسنتكلم عنها وندلل على أنواعها.
- **والقسم الثالث**: توحيد الأسماء والصفات، ومعناه: إفراد الله عَزَّ وَجَلَّ بما سمى به نفسه أو وصف به نفسه بأن يُثبت ذلك على الوجه اللائق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل.

هذه أقسام التوحيد وهي محصورة في هذه الثلاثة لا رابع لها؛ فإن قال لنا قائل: من أين لكم هذا التقسيم؟ من أين جاء علماء السنة بهذا التقسيم؛ هل اخترعوه من أنفسهم؟ فنقول: لا؛ إن هذا التقسيم بني على استقراء أدلة التوحيد في الكتاب والسنة فجمع علماء السنة أدلة التوحيد من القرآن والسنة فوجدوها لا تخرج عن هذه الأقسام الثلاثة فهي: إما متعلقة بإفراد الله عَزَّ وَجَلَّ بأفعاله؛ أو متعلقة بإفراد الله عَزَّ وَجَلَّ بأفعال العباد؛ أو متعلقة بأسماء الله عَزَّ وَجَلَّ وصفاته؛ فالاستقراء وتتبع نصوص الكتاب والسنة دل على ذلك؛ هذا هو الإطلاق العام.

وهناك إطلاق خاص للتوحيد أصبح هو المتبادر للذهن عند الإطلاق وهو المستعمل كثيرًا في الكتاب والسنة وهو المعنى الذي أشار إليه الشيخ: هو إفراد الله بالعبادة كما فسره شيخ الإسلام هنا.

---

(١) سورة فاطر: (٣).

(٢) سورة الأعراف: (٥٤).

قال رحمة الله عليه: "وَهُوَ: إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ".

الشَّرْح:

هذا المعنى الخاص للتوحيد إفراد الله بالعبادة وهو المعنى الذي يتبادر إلى الأذهان إذا أطلقت كلمة التوحيد كما جاء في حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في وصف حجة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه قال: (وأهل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتوحيد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) وهذا هو إفراد الله عَزَّ وَجَلَّ بالعبادة، فالشيخ هنا فسر التوحيد بالمعنى الخاص وهو المستعمل كثيرًا في الكتاب والسنة؛ وهذا هو التوحيد الذي بعث به الأنبياء والرسل ووقع فيه النزاع وأنكره المشركون وهو المسمى عند العلماء بتوحيد الألوهية يقول الشيخ: وأعظم ما أمر الله به التوحيد؛ هذا لا شك فيه؛ لا شك أن أعظم ما أمر الله به التوحيد لأنه أعظم الحقوق؛ فأعظم الحقوق حق الله وكل الحقوق تتبعه؛ فالحقوق تتبع حق الله؛ حق نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتبع حق الله؛ وحقوق الناس تتبع حق الله؛ ولذا كان أعظم الحقوق حق الله؛ وحق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو توحيده ولذا كان أعظم ما أمر الله عَزَّ وَجَلَّ به التوحيد ثم ذكر الشيخ أعظم ما نهى الله عنه.

يقول المصنف رحمة الله عليه: "وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْه الشِّركُ".

الشَّرْح:

لما ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ أعظم ما أمر به ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو التوحيد ذكر ما يقابله وهو أعظم ما نهى عنه وهو ضد التوحيد وهو الشرك.

والشرك في اللغة: هو التسوية بين شيئين فإذا سوَّى الإنسان بين شيئين يُقال: شرَّك بينهما، وأمَّا الشِّرك عند علمائنا عند علماء أهل السنة والجماعة فيطلق كإطلاق التوحيد؛ يطلق بمعنًا عام، وبمعنًا خاص.

فالشِّرك بمعناه العام: تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله، فهذا الإطلاق العام يقابل الإطلاق العام للتوحيد الذي تقدم في المجلس الماضي فكما أنه يدخل في الإطلاق العام للتوحيد أقسام ثلاثة كذلك يدخل في الإطلاق العام للشرك أقسام ثلاثة، فقد يكون الشِّرك في الربوبية، وقد يكون في الألوهية، وقد يكون في الأسماء والصفات فإذا سوَّى الإنسان غير الله بالله في أفعاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الخلق والرَّزْقِ وغير ذلك فهذا شرك في الربوبية، فمن نسب الرِّزق مثلًا: لغير الله عزَّ وجلَّ، أو اعتقد أن غير الله يرزق مع الله فهذا شِرْكٌ في الربوبية ومن سوَّى غير الله عزَّ وجلَّ بالله في أفعال العباد التي يتقربون بها فهذا شِرْكٌ في الألوهية فمن ذبح لغير الله، أو ذبح لغير الله مع الله فهذا شِرْكٌ في الألوهية، ومن سوَّى غير الله بالله في أسمائه وصفاته فوصف غير الله بصفات الله على وجه الكمال فهذا شِركٌ في الأسماء والصفات، فهذا هو الشرك بالمعنى العام.

وهناك إطلاق خاص للشرك يُقابل الإطلاق الخاص للتوحيد وهو: اتخاذ ندٍ لله يُتقرَّب إليه بالعبادة وهو يُقابل التوحيد بمعناه الخاص الذي تقدم معنا، وإذا أُطلق الشرك في نصوص الكتاب والسنة فإن المراد به هذا المعنى: أن يتخذ العبد ندًا لله يتقرب إليه بأنواع العبادة.

والشِّرك كما قال العلماء بحسب ما دلت عليه النصوص نوعان:

- شرك أكبر.
- وشركٌ أصغر.

أما الشــرك الأكبر فهو: اتخاذ ندٍ مع الله يُعبد فمن اتخذ ندًا مع الله يعبده فقد أشــرك شركًا أكبر، فمن دعا أحدًا مع الله فقد أشرك شركًا أكبر، ومن ذبح لغير الله فقد أشرك شركًا أكبر.

❖ والشرك الأكبر في الجملة عند علمائنا أربعة أنواع ترجع إليها جميع صور الشرك:

النوع الأول: شرك الدعوة، والمراد به: شرك الدعاء؛ لأن الدعاء هو العبادة كما سيأتي إن شــاء الله عزَّ وجلَّ، وقد قال الله عزَّ وجلَّ مبينًا شــرك المشــركين: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[1]، ﴿إِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ في الســفينة في السُــفن التي تجري بهم في البحر فخافوا الغرق وجاءتهم الشــدائد دعوا من؟ دعوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مخلصين له في الدعاء فإذا نجاهم وكانوا في الســلامة أشــركوا بالله فدعوا غير الله، ومن أهل زماننا من غلب شرك المشركين الأوائل فأصبح يدعو غير الله في الشدَّة كما قال قائلهم: "إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصــحاب القبور" إذا وقع له حادث أو كربة قال: يا عبد القادر، يا أوتاد الأرض، يا أولياء فيدعو غير الله في الشدة والمشركون كانوا يدعون الله في الشدة وإنما يشركون في الرخاء وهذا النوع الأول شرك الدعاء.

والنوع الثاني: شــرك النية والإرادة والقصــد، هذا هو النوع الثاني من أنواع الشــرك الأكبر وذلك بأن يقصــد الإنســان بأعماله كلها الدنيا، أو الرياء يعني: يتمحض عمل الإنســان والعياذ بالله للدنيا فعمله كله للدنيا، أو لمحمدة الناس فالعياذ بالله يُصلي ليحمده الناس، يذكي ليحمده

---

(١) سورة العنكبوت: (٢٩).

الناس يصْـــدق ليحمده الناس يذكر الله ليحمده الناس فعمله كله رياء وهذا والعياذ بالله من الشرك الأكبر يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُـــونَ (١٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] فجعل الله عزَّ وجلَّ إرادة الدنيا بالعمل شركًا ينال به صاحبه النار ويحبط به العمل، وهذا دليل على أن من جعل قصده كله للدنيا أنه مشرك شركًا أكبر والعياذ بالله.

والنوع الثالث: شرك الطاعة وذلك بطاعة المخلوقين في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله مع علمه بذلك يعلم أن الله أحل الشـيء؛ لكن يطيع مخلوقًا في تحريمه، أو يعلم أن الله حرم الشيء؛ لكن يطيع مخلوقًا في تحليله واعتقاده أنه يجوز ذلك ويسوغ؛ يعني: أن يطيع الرجل عالماً مثلًا أو نحوه في تحليل ما حرم الله مع علمه بأنه حرام، أو في تحليل ما أحل الله مع علمه بأنه حلال فيطيع غير الله في أمرٍ يضاد ما شرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويعتقد أن ذلك يجوز وأنه سائغ فهذا شركٌ أكبر يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[2] وقد صح تفسير هذا بأنهم كانوا يطيعوهم في التحليل والتحريم.

والنوع الرابع من أنواع الشـــرك الأكبر: شـــرك المحبة بأن يحب الإنســـان غير الله محبةً مستلزمًة للتعظيم، والإجلال، والذل وهذه المحبة بهذه الصفات يسميها العلماء: بمحبة العبودية، فهي المحبة المستلزمًة للإجلال والتعظيم والذل وهذه من جعلها لغير الله فقد أشرك يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾[3] فجعل الله عزَّ وجلَّ محبة غير الله عزَّ وجلَّ محبة عبادة جعل ذلك شـــركًا أكبر ومن اتخاذ الأنداد. هذه أنواع الشرك الأكبر التي تعود إليها كل صور الشرك الأكبر.

---

(١) سورة طه: (١٥-١٦).

(٢) سورة التوبة:

(٣) سورة البقرة: (١٦٥).

والقســم الثاني من الشــرك: الشـرك الأصـغر، وضـابطه عند أهل العلم: ما كان وسـيلةً للوقوع في الشـرك الأكبر كيسـير الرياء، والحلف بغير الله، والذبح لله عند قبر رجلٍ صـالح فهذا شركٌ أصغر؛ لأن هذا قد يكون وسيلةً للوقوع في الشرك الأكبر يأتي الرجل فيذبح لله عند قبر الرجل الصـالح ثم قد يقوده الشـيطان إلى أن يذبح للرجل الصـالح فيقع والعياذ بالله في الشـرك الأكبر، والواجب على المسلم أن يحذر الشرك بأنواعه كبيره وصغيره وأن يفر منه فراره من الأسد وألَّا يكون وصف الشرك بكونه أصغر سببًا؛ لأن يتهاون فيه الإنسان.

بعض النَّاس مثلًا إذا قلت له: الحلف بغير الله شـــركٌ أصـــغر لا يبالي والواجب أن يحذر المســلم من الشــرك بأنواعه، فإنَّ من أهل العلم من يرى: أنَّ الشــرك بأنواعه لا يُغفر لمن مات عليه سواءً كان كبيرًا، أو صغيرًا لعموم قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّـهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾[1] وهذا خطرٌ عظيم يجعل المسـلم في حذر خشـية أن يكون فعله داخلًا في هذه الآية فما دام أنَّه شركٌ وسُمي في الكتاب، أو السنة شركًا فالواجب على العبد أن يحذر منه مخافة أن يكون داخلًا في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾.

الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: "**وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْه الشِّرْكُ**" تقدم معنا أنَّ أعظم الحقوق حق الله سُــبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولذلك كان التوحيد أعظم ما أمر الله عزَّ وجلَّ به والشــرك يُنافي حق الله فإذا أشرك الإنسان فقد ترك حق الله فيكون فعله فعلًا لأعظم ما نهى الله عنه: وهو الشرك؛ لأنَّ الله سمى الشــرك ظلمًا بل جعله أعظم الظلم كما قال الله: ﴿إِنَّ الشِّــرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[2] فأعظم الظلم وأعلاه وأعظم الذنوب وأعلاها: الشـــرك بالله سُــبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقد جعل الله عزَّ وجل

(١) سورة النساء: (٤٨).
(٢) سورة لقمان: (١٣).

الشرك افتراءً عظيمًا فقال سُبْحَانَه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّــهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[1] وجعل الله عزَّ وجلّ الشـرك ضـلالًا بعيدًا فقال سُـبْحَانَه: ﴿وَمَن يُشْـرِكْ بِاللَّـــهِ فَقَدْ ضَـلَّ ضَـلَالًا بَعِيدًا﴾[2] وحكم على المشرك بالخلود في النَّار والحرمان من الجنة، ولا يوجد ذنبٌ يخلد صاحب في النار إذا مات عليه إلا الشرك يقول الله عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّــهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّـــهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[3] فكون الله عزَّ وجلّ حكم بخلود المشرك في النار إذا مات على شــركه دون ســائر الذنوب فهذا دليلٌ على: أنَّ الشــرك أعظم الذنوب وأعظم ما نهى الله عزَّ وجلّ عنه، والآيات في هذا كثيرة وهي تدل دلالةً قطعية على هذا الأمر وأمَّا السنة؛ فالسنة كلها من أولها إلى آخرها تدل على هذا وقد جاءت نصوصٌ كثيرة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم تدل على ذلك منها قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: «أَعْظَمُ الذَّنْبِ أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»[4] متفقٌ عليه، فدلَّ ذلك على أن أعظم ما نهى الله عنه: هو الشرك، ثم دلل الشيخ على صحة قوله فقال.

---

(١) سورة النساء: (٤٨).

(٢) سورة النساء: (١١٦).

(٣) سورة المائدة: (٧٢).

(٤) رواه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: {فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون}، برقم: (٤٤٧٧)، ورواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: كَوْنِ الشِّرْكِ أَقْبَحَ الذُّنُوبِ، وَبَيَانِ أَعْظَمِهَا بَعْدَهُ، برقم: (١٤١).

قال: "وَهُوَ دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾".

الشَّرْح:

هذا من فقه الشيخ ومن اتباعه للكتاب والسنة حيث استدل بهذه الآية التي جمعت بين الأمرين: الأمر بالتوحيد والنهي عن الشـــرك بين أعظم ما أمر الله عزَّ وجلَّ به: وهو التوحيد وأعظم ما نهى الله عنه: وهو الشرك فقال الله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّـــهَ﴾ وهذا أمرٌ بالتوحيد: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[1] وهذا نهيٌ عن الشرك فقرن بينهما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقد ورد قرن الأمر بينهما عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، فصح عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أنه قال: «اعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» [2] متفقٌ عليه رواه البخاري ومسلم.

إذن قرن الله عزَّ وجلَّ بين الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك وقرن رسولنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بين الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، فقرن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بينهما اتباعًا لما ورد في الكتاب والسنة.

---

(١) سورة النساء: (٣٦).

(٢) رواه البخاري، باب: بدء الوحي، برقم: (٧)، ورواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الْأَمْرِ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَشَرَائِعِ الدِّينِ، وَالدُّعَاءِ إِلَيْهِ، برقم: (١٨).

قال رحمة الله عليه: "فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُــولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَــانِ مَعْرِفَتُهَا؟".

الشَّرْح:

هنا انتقل الشيخ إلى تفصيل الأصول الثلاثة التي أجملها في أول الكتاب وهي تشمل الدين كله فكأن الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ مَهَّدَ بما سبق وذكر القواعد العظيمة التي ينبغي أن يعلمها طالب العلم قبل الشروع في تفصيل هذا الباب، فلما فرغ من ذلك شرع في التفصيل فقال: **"فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُــولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَــانِ مَعْرِفَتُهَا؟"** وهذا الأسلوب؛ أسلوب الاستفهام أسلوب تشويق، وحث، ودلالة على عِظم ما فيها، وإشارة إلى أنك ستسأل عنها فالشيخ جمع هذه الفوائد في هذا الأسلوب يُشوِّق ويُهيِّج إلى المعرفة وأشار ودلَّل على أنها عظيمة، وأشار إلى أنك ستسأل عنها وقد تقدم معنا أن الإنسان سيسأل عن هذا في قبره.

قال: **"فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ"** **الأصول**: جمع أصل، والأصل في اللغة ما يُبنى عليه غيره يُقال: لأساس البناء أصل؛ لأن البناء يُبنى عليه كذلك يُطلق الأصل على ما يتفرع عنه الشيء نقول: الأب أصلٌ للابن؛ لأن الابن يتفرع عن الأب فهذه أصولٌ عظيمة بمعنى: قواعد عظيمة ينبغي أن يعرفها الإنسان، قال: **"فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟".**

قال رحمة الله عليه: " فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم".

الشَّرْح:

هذه تقدم الكلام الإجمالي عنها، والآن يشرع الشيخ في التفصيل في تفصيل معرفة هذه الأصول، ولذلك قال.

قال: "**فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟**" هذا الأصل الأول معرفة العبد ربه بدأ الشيخ يُفصل هذا الأصل: **فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟**".

الرب في لغة العرب يُطلق على معانٍ كثيرة منها: الملك ومنها السيد المطاع، ومنها المصلح وكلها كما قال الحافظ ابن كثير: **((صالحةٌ في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى))**.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الرب هو رب العالمين الذي ربّى جميع المخلوقات بنعمه فأوجدها سُبْحَانَهُ وهذه نعمة الإيجاد وأعدَّها لكل ما يليق بها وركَّب في كل مخلوقٍ ما يليق به فركَّب في الحيوان ما يليق به، وركَّب في الإنسان ما يليق به وهكذا، فالله سُبْحَانه ربَّى جميع المخلوقات بنعمه وأوجدها؛ الله ربَّانا بالنعم وأوجدنا وأعد لكل مخلوقٍ ما يليق به، وأمد كل مخلوقٍ بما يحتاجه.

❖ **وتربية الله لخلقه كما يقول العلماء نوعان:**

- تربيةٌ عامة.
- وتربيةٌ خاصة.

فما التربية العامة وما التربية الخاصة؟ **أما التربية العامة فهي**: تربيةٌ لكل مخلوق سواءً كان مؤمنًا، أو كافرًا برًّا أو فاجرًا؛ وذلك بنعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ورزق الله عزَّ وجلّ وتدبيره؛ الله

عزَّ وجلَّ يرزق المؤمن والكافر يرزق كل مخلوق؛ الله سُــبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينعم على كل مخلوقٍ بنعمٍ كثيرة وهذه التربية العامة.

وأما التربية الخاصـــة فهذه: لأولياء الله المؤمنين؛ ولذلك كانت خاصــــة وهي التوفيق للإيمان والإسعاد بعبودية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إذن العبد المؤمن الله ربَّاه التربية العامة والخاصـــة؛ فأنعم عليه بالنعم ووفقه للإســـلام والتوحيد، وأسـعده بعبادته سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهذه أعظم النعم، أما العبد الكافر فالله ربَّاه التربية العامة والله ربه.

قال: "فقلْ: ربيَّ اللهُ الذي ربّاني وربَّى جميعَ العالمينَ بنعمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وكلُّ ما سِوَى اللهِ عالَمٌ وأنا واحدٌ من ذلكَ العالَمِ".

الشَّرْح:

هذه التربية العامة؛ ولذلك قال: **"قلْ: ربيَّ اللهُ الذي ربّاني وربَّى جميعَ العالمينَ بنعمِهِ"**؛ فهذه التربية العامة التي يدخل فيها كل المخلوقات، يدخل فيها الجن والإنس وكل المخلوقات، يدخل فيها المؤمنون والكافرون.

قال الشيخ: "وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ" ما دام أنه ربي الذي أوجدني من العدم، وربَّاني بالنعم فهو معبودي لا يستحق العبادة سواه، فإن الرب هو المعبود كما سيأتي إن شاء الله عزَّ وجلَّ.

قال: "وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وكلُّ ما سِوَى اللهِ عالَمٌ وأنا واحدٌ من ذلكَ العالَمِ" الدليل على أنه ربي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه رب العالمين قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ فالله عزَّ وجلَّ رب العالمين، والعالمون: جمع عالَم والعالَم لا واحد له من لفظه، العالم جمع كذلك، العالَمون جمع عالَم، وعالم جمع لا واحد له من لفظه، والعالَم كل موجودٍ سوى الله؛ كما قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: **((العالَم كل موجودٍ سوى الله))**، فكل من سوى الله عالَمٌ: هناك عالم الجن، وعالم الإنس، وعالم الحيوانات، وغير ذلك فالمخلوقات في السماوات وفي البر وفي البحر كلها عالَم، فالله رب العالمين رب المخلوقات جميعًا يربِّيها بالنعم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يقول المتكلم: وأنا واحدٌ من ذلك العالم؛ إذن ربي الله فالله رب العالمين إذن عرف العبد.

ربه وأن الرب هو: الله ومادام أن الرب هو الله فهو المعبود فيأتي ســـؤال: أنت عرفت أن الله ربك، فبما عرفت ربك؟ فيأتي الجواب في قول الشيخ.

قال: "فإذَا قيلَ لكَ بِمَ عرفْتَ ربَّك؟ فقُل: بآياتِه ومخلوقاتِه".

الشَّرْح:

الله عزَّ وجلَّ له آياتٌ شـــريعةٌ في كتابه، وله آياتٌ كونية في كونه فقال الشـــيخ: **"بآياتِه ومخلوقاتِه"** وهذا ما يعرف عند العلماء بدلالة الآفاق أي: بمخلوقاته هذه دلالة الآفاق؛ يعني: أن الإنســان ينظر في الأفق، والكون ويتدبر والكون يدل على الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى فينظر كيف خُلِق هذا الكون بنظامٍ بديع لا يتقدم ولا يتأخر ينظر في نفســـه كيف خلقه الله عزَّ وجلَّ بهذا النظام البديع وكيف سواه هذه التسوية البديعة وكل هذا يدل على أن لذلك خالقًا مدبرًا عليمًا حكيمًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿سَنُرِيهِم آياتِنا فِي الآفاقِ وَفي أَنفُسِهِم حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الحَقُّ﴾[1] فمن أعظم الطرق التي يعرف بها العبد ربه أن ينظر في الآفاق، وأن ينظر في نفســه، فالكون بما فيه من الآيات الكونية البديعة التي نصــبها الله عزَّ وجلَّ علاماتٍ ليبين لخلقه أنه الرب، وأنه الخالق، وأنه المعبود وكل ما في الكون يدل على بديع صـــنع الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد وبَّخ الله من لم يتأمل في آياته من الكفار فقال سُـبْحَانه: ﴿أَوَلَم يَنظُروا في مَلَكوتِ السَّماواتِ وَالأَرضِ وَما خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيءٍ﴾[2] فلو نظر الإنسان نظر تدبر في الكون وفي خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لقاده ذلك إلى أن لهذا الكون خالقًا بديعًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولذا قرن الله عزَّ وجلَّ بين عبادته وبين الآيات الكونية فقال سُـبْحَانه: ﴿وَإِلٰهُكُم إِلٰهٌ واحِدٌ لا إِلٰهَ إِلّا هُوَ الرَّحمٰنُ الرَّحيمُ ۝ إِنَّ في خَلقِ السَّـــماواتِ وَالأَرضِ وَاختِلافِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ وَالفُلكِ الَّتي تَجري فِي البَحرِ بِما يَنفَعُ النّاسَ وَما أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّـــماءِ مِن ماءٍ فَأَحيا بِهِ

---

(١) سورة فصلت: (٣٥).

(٢) سورة الأعراف: (١٨٥).

الأَرضَ بَعدَ مَوتِها وَبَثَّ فيها مِن كُلِّ دابَّةٍ وَتَصريفِ الرِّياحِ وَالسَّحابِ المُسَخَّرِ بَينَ السَّماءِ وَالأَرضِ لَآياتٍ لِقَومٍ يَعقِلونَ﴾[1] فلو كان النَّاظر في هذه الآيات عاقلًا لقاده ذلك إلى أن يعلم أن لها خالقًا وأنه سُبْحَانه هو المستحق للعبادة، فبدأ الشيخ في تفصيل ما قال، فقال: "**بآياتِه ومخلوقاتِه**" ثم فصل ما يتعلق بمخلوقاته وهو ما يتعلق بدلالة الآفاق؛ لأن الآيات الشرعية معلومة ومعروفة وهي كثيرة في كتاب الله عزَّ وجلَّ.

(١) سورة البقرة: (١٦٣-١٦٤).

قال رحمة الله عليه: "ومِنْ آياتِه الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمر".

✍الشَّرْح:

من آياته العظيمة الليل والنهار، الليل آيةٌ عظيمة يأتي الليل بظلامه، وسكونه، وصلاحيته للنوم والاســـتراحة من الذي جعله كذلك؟ إنه الله سُـــبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويأتي النهار بضـــيائه، ونشاطه، وصلاحيته لطلب المعاش يسيران في دورة يطول هذا فيقصر ذاك، ويطول ذاك فيقصر هذا ولا يسبق أحدهما الآخر؛ بل يسيران بانتظام في مسيرٍ دقيق لا يتغير ولا يتبدل وهذا دليلٌ عظيم وآيةٌ عظيمة من آيات الله الدالة على الله سُــبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن آياته أيضًـا الشـــمس والقمر وما فيهما من آياتٍ بديعة فالشـــمس تخرج في النهار وهي مناســـبةٌ للنهار؛ لأن النهار للمعاش فيناسبه ضياء الشمس، والقمر يخرج في الليل وهو مناسبٌ لليل؛ لأن الليل للسكون والراحة فيناســبه ضــياء القمر، ويســيران في دورةٍ بديعة لا تتخلف ولا تتغير، وهذا دليلٌ عظيم على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الخالق.

قال رحمة الله عليه: "وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا".

الشَّرْح:

من آياته ومخلوقاته العظيمة الســـماوات الســبع التي خلقها الله بغير عمد، ولا ترى فيها فطورًا، ولا ترى فيها تعارضًا، ولا تباينًا، ومن آياته الأرضون السبع وما جعل الله فيها ومن فيهن من مخلوقاتٍ عجيبة وما بينهما وكل هذه آياتٌ تدل على خالقها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعلى بديع صنعه، وعلى أنه المربي للعالمين.

وقد يقول قائل: ما الدليل على أن هذه المذكورات من الآيات، ولذلك قال الشـــيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: "والدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيلُ وَالنَّهَار والشَّـــمْسُ والقَمَر لَا تَسْـــجُدُوا لِلشَّـــمْسِ ولَا لَلقمَرِ واسْـــجُدُوا لِلَّه الَّذِي خَلَقَهُن إنْ كُنْتُم إيَاهُ تَعْبُدُون﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبكُم اللَّه الَّذِي خَلَقَ السمَاوَاتِ وَالأرْض فِي سِتَة أيَامٍ ثُمَ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُغْشِــي اللَّيْلَ النَّهَار يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّــمسَ والقَمَرَ والنُّجُوم مُســخرَاتٍ بأمْرِهِ ألَا لَهُ الخَلْقُ وَالأمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُ العَالَمِين﴾".

الشَّرْح:

من آيات الله العظيمة الليل والنهار والشـــــمس والقمر كما تقدم، وما دام أنها من آيات الله فواجبٌ أن يُعبد الذي خلقهن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبكُم اللَّه الَّذِي خَلَقَ الســـمَاوَاتِ وَالأرْض فِي سِـــتَة أيَامٍ ثُمَ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُغْشِــي اللَّيْلَ النَّهَار يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّــمسَ والقَمَرَ والنُّجُوم مُسـخَرَاتٍ بأمْرِهِ ألَا لَهُ الخَلْقُ وَالأمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُ العَالَمِين﴾[1] ﴿إِنَّ رَبكُم﴾ الذي رَباكم بنعمه؛ ﴿اللَّه﴾ المألوه المعبود الذي لا يســتحق العبادة ســواه؛ ﴿الَّذِي خَلَقَ الســمَاوَاتِ وَالأرْض﴾ فتدبروا وتأملوا في هذه المخلوقات العظيمة؛ ﴿فِي سِــتَة أيَامٍ ثُمَ اسْــتَوَى عَلَى العَرْشِ﴾ فعلى سُبْحَانه واستقر، وارتفع على عرشه سُبْحَانه استواءً يليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا يدل على كمال ملكه وكمال سـلطانه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ﴿ثُم اسْـتَوَى عَلَى العَرْشِ يُغْشِــي اللَّيْلَ النَّهَار يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ فالليل يَغشى النهار وهو يَطلبه حثيثًا وليس أحدهما بسـابق الآخر؛ ﴿وَالشَّـمسَ والقَمَرَ والنُّجُوم مُسـخَرَاتٍ بأمْرِهِ﴾ مذللاتٍ بأمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يخرجن عن المسـير الَّذي جعله الله عزَّ وجلَّ لهن ﴿ألَا لَهُ الخَلْقُ﴾ الكوني ﴿والأمر﴾ أي: الأمر الشرعي فالأمر الشرعي

(١) سورة الأعراف: (٥٤).

له سُــبْحَانه كما أن الخلق الكوني له سُــبْحَانه ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، فبدأ الآية بقوله سُــبْحَانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ ثم ختم الآية بقوله: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وذكر بينهما هذه الآيات العظيمة الدالة على أن الله سُــبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الرب؛ هذه تســمَّى عند العلماء بدلالة الآفاق، وهناك دلالةٌ أخرى تسـمَّى عند العلماء بدلالة الأنفس وهو: أن ينظر الإنسـان ويتفكر في نفســه والنَّظر في آيات الله الكونية يدل على أن الله هو الخالق وأنه الرب وهذا كثير يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ((**وهذا كثيرٌ في القرآن يدعو العبد إلى النظر والتفكر في مبدأ خلقه ووســطه وآخره إذ نفســه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه، وفاطره، وأقرب شــيءٍ إلى الإنســان نفســه، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضــي الأعمار في الوقوف على بعضه**)) انتهى كلامه.

ولا زال العلماء إلى اليوم يكتشـفون في الإنسـان من الأمور البديعة المعجزة الشـيء الكثير وكلها تـدل على الخـالق سُــبْحَـانَـهُ وَتَعَـالَى، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَفِي أَنْفُسِــكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[1].

---

(١) سورة الذاريات: (٢١).

قال رحمة الله عليه: "والرَّبُّ هو المعبودُ والدليلُ قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ".

الشَّرْح:

الشـيخ يقول: الرب هو المعبود ليس مراد الشـيخ هنا: أن يبين معنى الرب، لا وإنما مراده أن الرب هو المستحق للعبادة، فإذا ثبت بالآيات الشرعية والآيات الكونية أن الله هو الرب فإن هذا يثبت أن الله سُبْحَانه هو المستحق للعبادة وأن كل معبودٍ سواه فعبادته باطلة ليست حقًا؛ إذن الربّ المنعم الذي ربانا بنعمه هو المستحق للعبادة، وهذه الجملة يقول العلماء: ثمرة المعرفة يعني: إذا عرفت أن الله ربك فما ثمرة ذلك؟ ثمرة ذلك أن تفرده بالعبادة فالشـيخ هنا بيَّن ثمرة العبادة، فمن عرف أن الله ربه كان لزامًا عليه أن يفرده بالعبادة.

قال: **"والدليلُ"** أي: الدليل على أن الله هو الرب المستحق للعبادة قول الله عزَّ وجلَّ: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾** فخاطب الناس جميعًا بآيةٍ عظيمة بدأها بالأمر بعبادته سُبْحَانه، وختمها بالنَّهيِ عن الشـرك وجعل بين ذلك دلالةً عليه بمخلوقاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقال: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾** فالرب هو المستحق للعبادة لماذا؟ لأنه المنعم فهو الذي خلقكم ولا خالق لكم سواه كما يقر بذلك جميع البشر فجميع البشر يُقِّرون بأن الله هو الخالق **﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾**[1] فعبادته سُبْحَانه هي سبب التقوى وسبب اتقاء عذابه سُبْحَانَهُ

(١) سورة البقرة: (٢١).

وَتَعَالَى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾[1] ففرشها لكم ومهَّدها لكم؛ ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ ومعلومٌ لدى جميع الناس أن الله مُتفردٌ بهذا فالله عزَّ وجلَّ متفرِّدٌ بهذا الإنعام وهذا يُقرُّ به كل أحد لا ينازِع فيه أحدٌ من الناس، وما دام أن الله هو المتفرد بالإنعام فلازمٌ أن يُفرَد بالعبادة لازمُ ذلك أن يُفرد بالعبادة، ولذلك قال الله: ﴿فَلَا﴾ بالفاء ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فدل ذلك على: أنَّ الله عزَّ وجلَّ هو الرب المنعم المستحق للعبادة.

(١) سورة البقرة: (٢٢).

قال رحمة الله عليه: قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: "الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْـــيَاءَ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ".

الشَّرْح:

طلبتُ هذه الجملة في تفسـير ابن كثير فلم أعثر عليها بنصِّـها؛ لكنَّ هذا الكلام هو معنى كلام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ، فإنَّه قال في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ** ﴾[1] الآية، قال: ((**يخبر تعالى أنَّه المستحق للعبادة**))، فالحافظ ابن كثير المفسـر المعروف وهو من تلاميذ شـيخ الإسـلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ ذكر هذه الجملة أنَّ الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو المســتحق للعبادة وهذا مأخوذٌ من آيات الله عزَّ وجلَّ التي ذكر فيها مخلوقاته.

---

(١) سورة الحج: (١٧).

قال رحمة الله عليه: "وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ: الإِسْلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ، وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، وَالاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلَكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا. كُلُّهَا للهِ تَعَالَى".

الشَّرْح:

الشيخ بدأ يبيِّن أنواع العبادة؛ لأنَّ علِمنا أن الله هو المستحق للعبادة فما العبادة التي تكون لله ومن صرفها لغير الله فهو مشرك؛ بدأ الشيخ هنا بتفصيل أنواع العبادة.

والعبادة في اللغة: الذُلُّ والخضوع وقد سبق أن ذكرنا تعريفها عند علمائِنا في الدروس الماضية.

- **وننبه هنا إلى أن العبادة الشرعية تنبني على ثلاثة أركان:**

الركن الأول: كمال المحبَّة للمعبود سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والركن الثاني: الرجاء والركن.

الثالث: الخوف؛ لا بد من اجتماع هذه الأمور الثلاثة كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[1]، فهذه لا بد منها في استقامة العبد لا بد في العبادة من جمع الأمرين؛ لا بد من جمع الرجاء والخوف مع كمال المحبة، وهذا أمرٌ مهمٌ جدًّا ينبغي أن يفهمه العبد وهذا الباب: باب أنواع العبادة من الأهمية بمكان؛ لأن تحقيق التوحيد يتعلق به، وسنتكلم عنه تفصيلًا في مجلس الغد إن شاء الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) سورة الإسراء: (٥٧).

نجتمع في مسجد رسولنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم على طلب العلم الشرعي على علم مأخوذٍ من قال الله قال رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم نرجو أن تزكو به نفوسنا، وأن تزداد به أجورنا، وأن ترفع به درجاتنا، وأن نكون عند ربنا بمنزلة المجاهدين في سبيل الله؛ فاللهم أعطنا ما أمَّلنا، وزدنا فوق ما نؤمل، وضاعف لنا من فضلك يا أكرم الأكرمين.

نواصل شرحنا لكتاب الأصول الثلاثة لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ وكنا في مجلس الأمس نتكلم عن الأصل الأول وهو: معرفة العبد ربه، ووصلنا إلى كلام الشيخ عن أنواع العبادة فلما كان الرب هو المعبود فهو المستحق للعبادة بيَّن الشيخ أنواع العبادة التي من أتى بها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحده كان موحدًا، ومن صرف منها شيئًا لغير الله كان والعياذ بالله مشركًا، وكأنه يجيب على سؤال: ما العبادة التي من أتى بها لله كان موحدًا؟ ومن صرف منها شيئًا لغير الله كان مشركًا؟ فلعل الشيخ ياسين يُذَكِّرنا بهذه الجملة التي اضطررنا للوقوف عندها البارحة.

يقول المصنف رحمت الله عليه: "وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ: الإِسْلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَــانِ، وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُــوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، وَالاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلَكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا كُلُّهَا للهِ تَعَالَى".

الشَّرْح:

الشيخ يقول: "**وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ**" كأن الشيخ يقول: وأنواع العبادة كثيرة؛ لأن العبادة: اسم جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضـــاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، والعبادة تقدم تعريفها معنا في المجالس الماضية.

❖ **والعبادة الشرعية تنبني كما يقول العلماء على ثلاثة أركان:**

- الركن الأول كمال المحبة للمعبود سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
- والركن الثاني الرجاء.
- والركن الثالث الخوف.

لابد من اجتماع هذه الأركان الثلاثة ثم تكون العبادة بعد ذلك على وجه الخضـــوع والتذلل، فلا بد أن تكون على وجه الخضـــوع والتذلل والله عزَّ وجلَّ جمع هذه الأركان في قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِــيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[1] فهذه لابد منها لاســتقامة العبادة لابد في العبادة من أن تكون على وجه كمال المحبة لله سُــبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيبتغي العبد بها القربى، والزلفى إلى الله المحبوب عنده، ولابد فيها من جمع الرجاء مع الخوف حتى لا تزل القدم فإن العبد في عبادته لو اكتفى بالخوف فقط دون

(١) سورة الإسراء: (٥٧).

الرجا لانقطع عن العبادة؛ لأنه سيؤول أمره إلى القنوط فيكون قانطًا وينقطع من العبادة ليأسه من رحمت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولو اكتفى بالرجاء دون الخوف لانقطع أيضًا من العبادة لكونه آمنًا فيأمن عذاب الله ويأمن مكر الله فلا يعمل فينقطع عن العبادة؛ ولذا قرن الله عزَّ وجلَّ في كتابه الكريم كثيرًا بين الرجاء والخوف وبيّن أنا أولياءه يرجون رحمته ويخافون عذابه يقول الله عزَّ وجلَّ مثلًا: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾[1]، **والنبأ**: الخبر العظيم أخبرهم بخبرٍ عظيم، ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، وهذا مقتضى الرجاء، ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾[2] وهذا داعي الخوف ف ﴿نَبِّئْ عِبَادِي﴾ بما يدعوهم للرجاء وهو أني غفور رحيم، ونبئهم بما يدعوهم إلى الخوف وهو ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾، فلا بد في العبادة من جانب الخوف والرجاء، لكن قال العلماء: إن العبد يُغلّب جانب الرجاء عندما يكون نشيطًا في الطاعة فإذا رأى في نفسه نشاطًا في الطاعة فإنه يُغلّب جانب الرجاء ليزداد نشاطًا ولا يُغفل الخوف، ولكنه يُغلب جانب الرجاء؛ لأن الإنسان إذا أقبل على العبادة ورجا أن تكون عبادته مقبولة قاده ذلك إلى الزيادة، وقاده ذلك إلى النشاط مع بقاء خوفه من الله، وأن يرد عليه عمله، ويُغلّب جانب الخوف عند المعصية فإذا تزخرفت المعاصي للعبد وتهيأت أسبابها فإنه يُغلّب جانب الخوف؛ لأنه إذا غلّب جانب الخوف انزجر عن المعصية أما إذا غلّب جانب الرجاء في هذا الباب فقد يقول كما يقول بعض ضعاف الإيمان: "الله غفور رحيم"، "الله أرحم بي من نفسي" فيقدم على المعصية بهذا التوسل فيُغلّب جانب الرجاء فيقع في المعاصي.

إذن عند الطاعات يُغلّب جانب الرجاء إذا رأى نفسه مقبلة على الطاعات فليُغلِّب جانب الرَّجاء، وإذا رأى نفسه مقبلةً على المعصية، أو تزيَّنت له المعصية فليُغلِّب جانب الخوف حتى ينزجر، إذا تقرر ذلك فإن شيخ الإسلام يقول: **"وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ:**

---

(١) سورة الحج: (٤٩).

(٢) سورة الحج: (٥٠).

"الإِسْــلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَــانِ" هذا هو الدِّين، فهذه مراتب الدِّين وهذا شــاملٌ لكل أنواع العبادة، وهذه الثلاث مراتب ستأتي إن شاء الله يترقى فيها العبد وسنتكلم عن العِلاقة هناك إن شاء الله بين هذه المراتب من جهة الإفراد ومن جهة الجمع.

قال الشيخ: **"وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ"**، **"وَمِنْهُ"** الضمير يعود إلى ماذا؟ الضمير يعود إلى الدِّين كأن الشــــيخ قال: (وأنواع العبادة التي أمر الله بها هي دينه الذي هو مراتب الإســــلام، والإيمان، والإحسان ومن هذا الدِّين الدعاء).

والدعاء عبادة وليس فيه تفصــيل كل الدعاء عبادة لماذا؟ لأن شــرط العبادة متحققٌ فيه على كل حال، فلا يمكن أن يقع الدعاء على غير وجه التعبد لماذا؟ لأن الدعاء افتقارٌ وتذللٌ وطلبٌ ممن يعتقد العبد أنه يملك الضـرَّ أو النفع؛ هو افتقار وتذلل وسـؤال ممن يعتقد العبد أنه يملك الضـرَّ والنفع أنه يجلب النفع أو يدفع الضـرّ، فالداعي مفتقرٌ لمن يدعوه ويطلب منه؛ لأنه يراه غنيًا ويرى نفسه فقيرًا إليه.

إذن الدعاء فيه افتقار فمن يدعو يرى نفســه فقيرًا ويرى من يدعوه غنيًا فيتذلل له، ولابدَّ فيه من اعتقاد أن المدعو قادر يملك الضــرّ والنفع، فلازم الدعاء أن يكون العبد معتقدًا أنّ المدعو يملك الضـرَّ والنفع؛ لأنه لو لم يعتقد أنه ينفع أو يضـرّ ما دعاه، فما دعاه إلا لأنه يعتقد هذا الاعتقاد، إذن هذا لازم الدعاء.

إذن نقول الدعاء دليلٌ على: أن العبد يعتقد أنَّ المدعو يملك جلب النفع أو دفع الضــرّ، ولذلك كان الدعاء عبادةً على كل حال، وعلماؤنا يقولون: (الدعاء نوعان وكلاهما عبادة؛ دعاء المسألة، ودعاء العبادة).

❖ فما دعاء المسألة وما دعاء العبادة؟

دعاء المســألة: هو الدعاء يعني الدعاء المشــروع: هو ســؤال الله عزَّ وجلَّ من خيري الدنيا والآخرة، أن يسأل العبد ربه الخير في الدنيا والآخرة، ودفع الضر في الدنيا والآخرة هذا هو دعاء المســـألة، كأن يقول العبد: (اللهم اغفر لي، اللهم ارحمني، اللهم ارزقني، اللهم اكفني شر كل ذي شر)، أو نحو ذلك؛ وهذا كله من دعاء المسألة.

وأما دعاء العبادة: فهو عند أهل العلم يشــمَلُ العبادةَ كلَها، ويدخل فيه دخولاً أوليًا: "ذكر الله، والثناء عليه"؛ فالثناء على الله: دعاء عبادة.

دعاء العبادة: هو التقرب إلى الله بجميع أنواع القرب، والتقرب إلى الله بجميع أنواع القرب دعاء، لماذا؟ لأن العبد إذا تقرب إلى الله بالقرب؛ فإنَّ ذلك يتضـمن أنَّه يسـأل الله عزَّ وجلَّ أن يقبلها منه، فالذي يصلي: صلاته متضمنة للسؤال؛ فهو يسأل الله أن يقبل صلاته، والذي يقرأ القرآن قراءته متضمنة للسؤال؛ فهي متضمنة أنه يسأل الله أن يتقبل منه.

إذن الـدعـاء نوعـان، فهـل هما منفكـان، أو بينهمـا تلازم؟ نقول: بينهمـا تلازم؛ فـالنوعـان متلازمان؛ دعاء المسـألة: فيه عبادة، مجرد الدعاء: عبادة، ولذلك الله عزَّ وجلَّ يحبُ من يسـأله، ويحب من يلِّح في المسـألة، ودعاء العبادة: فيه مسـألة أيضًـا كما بيَّنَّا، فدَّل ذلك على أنَّ: دعاء المسألة، ودعاء العبادة متلازمان؛ أحدهما مستلزمٌ للآخر، أو متضمن للآخر.

والمعبود لا بد أن يكون مالكاً للنفع والضـر، ولذلك يقول شـيخ الاسـلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: **((أَنَّ الْمَعْبُودَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَالِكًا لِلنَّفْعِ وَالضُّرِّ، والله عزَّ وجلَّ هو المعْبُود؛ لأنَّه المالك لهذا، وما عداه لا يمْلِكُ شـــيئًا؛ فَهُوَ يَدْعُو لِلنَّفْعِ وَالضُّـــرِّ دُعَاءَ الْمَسْـــأَلَةِ فهو))**[1] يعني: الله يدعى للنفع والضـر دعاء مسـألة، ويدعى خوفًا ورجاءً دعاء عبادة، يدعى

[1] مجموع الفتاوى: (١٥/١٠).

خوفًا من عذابه ورجاءً لرحمته دعاء عبادة؛ يعني: يُتقرَبُ إليه رجاء رحمته، وخوفًا من عذابه، قال الشــــيخ: ((**بأن يُتقرَب إليه بأنواع القُرَب**))؛ إذن: فهذا هو الدعاء، والدعاء كما قلنا كله عبادة، ولا يمكن بحالٍ من الأحوال أن يُقال: إنَّ من الدعاء ما لا يكون عبادةً؛ فليس فيه تفصيل لما بينَّاه وأوضحناه.

قال الشــــيخ: "**والْخَوْفُ**"؛ أي: من أنواع الدين والعبادة: الخوف، **والخوف**: انفعالٌ في النفس يحصل بتوقع ما فيه هلاكٌ، أو ضررٌ، أو أذى؛ انفعالٌ يحصل في نفس الإنسان، متى يحصل؟ إذا توقع الإنسان أن يحصل له ما فيه هلاكٌ أو ضررٌ أو أذى؛ إذن الإنسان إذا توقع شيئاً يؤذيه يحصل في نفسه انفعال؛ هذا الانفعال هو الخوف بمعناه العام.

والخوف في الجملة يتنوع إلى أربعة أنواع:

النوع الأول: خوف الســر؛ وذلك بأن يخاف العبد من غير الله عزَّ وجلَّ أن يصــيبه بما يضره من مرضٍ، أو فقرٍ، أو غير ذلك بقدرته؛ فيعتقد أن لأحدٍ غير الله عزَّ وجلَّ قدرةً على أن يضــره بأن يصــيبه بالفقر، أو بالمرض، أو يؤذيه؛ ســواءً كان موجودًا معه، أو كان غائبًا عنه، بعض الناس مثلًا يقول: لا تتحدث في الولي لا تتحدث في الشــيخ المبروك فإنه يؤذيك؛ فإذا كان حاضرًا فإن هذا فيه خوف السر، **وإذا كان غائبًا ففيه مصيبتان:**

المصيبة الأولى: اعتقاد أنه يعلم الغيب فهو غائب فيعتقد أنه يعلم الغيب.

والمصــيبة الثانية: اعتقاد أنه قادرٌ بقدرته على أن يضره، وهذا الخوف يســميه العلماء: خوف الســر؛ لأنه ناتجٌ عن الاعتقاد فهو مســتقرٌ في القلب؛ ناتجٌ عن الاعتقاد أن هذا الذي يخافه قادرٌ على أن يضره وسيأتي بيان الأحكام إن شاء الله، نحن هنا فقط نبيّن معنى ما أورده الشيخ.

والنوع الثاني: خوفٌ دنيوي أي: أن يخاف الإنسان على دنياه؛ يخاف على منصبه عنده منصب فيخاف أن يفقده يخاف على تجارته وهذا الخوف قد يجعل الإنسان يعصي الله فمن أجل أن يحافظ على المنصب يكذب، أو يغتاب، أو ينم، أو يقدم الرشوة أو غير ذلك، وقد يترك النهي عن المنكر خوفًا من الناس أن يتركه الناس؛ قد يكون شيخًا متكلمًا وخطيبًا مفوهًا؛ فيترك النهي عن المنكر خشية أن ينصرف عنه الناس، بل تعظم المصيبة أعظم إذا كان يتأوَّل للناس في الأحكام خشية أن ينصرف عنه الناس؛ إذا رأوه يقول: هذا حلال وهذا حرام لكذا؛ قالوا: هذا متشدد نريد شيخًا من شيوخ العصر كأن الإسلام يختلف إسلام للقرن الأول وإسلام اليوم للقرن الرابع عشر؛ فهذا خوفٌ دنيوي، وقد يقود إلى معصية الله.

والنوع الثالث: خوفٌ طبعي جبل الله عليه الإنسان موجودٌ في النفس فطرة كالخوف من الوحوش المؤذية، والخوف من الظلمة؛ فهذا خوفٌ طبعي موجود في طبع الإنسان.

والنوع الرابع: خوف وعيد الله؛ الخوف من الله، هذه أنواع الخوف وسيأتي الكلام على حكمها إن شاء الله عندما يذكر الشيخ أدلتها.

قال: "وَالرَّجَاءُ"؛ أي: ومن الدين الرجاء، **والرجاء بمعناه العام**: طمع الإنسان في أمرٍ ما، فإذا كان الإنسان يطمع في أمرٍ ما فإنه يُقال: يرجوه، إذا كان الإنسان يختبر ويطمع أن ينجح يُقال: يرجو النجاح؛ فإنه يطمع في النجاح، لكنَّ الرجاء الذي هو العبادة لابد أن يقيَّد بقيد؛ فيُقال: إن الرجاء هو طمع الإنسان في أمرٍ ما متضمنٌ للذُّل والخضوع؛ طمع الإنسان في أمرٍ ما متضمنٌ أي: هذا الطمع متضمنٌ للذل والخضوع، فهو يكون على وجه الذِّلة والخضوع.

قال الشيخ: "وَالتَّوَكُّلُ"؛ **والتوكل من حيث هو في معناه العام**: الاعتماد على الشيء. فإذا اعتمد الإنسان على شيء يُقال: توكل عليه، فمثلًا: لو اعتمد أحدنا على زميلٍ له في أمرٍ

يقدر عليه، فيقول: أنا متوكلٌ عليك في هذا الأمر، أنا معتمدٌ عليك في هذا الأمر؛ فمعناه: الاعتماد عليه فيه.

والتوكل الذي هو العبادة: هو صـــدق تفويض الأمر إلى الله تعالى اعتمادًا عليه وثقةً به مع فعل الأســـباب المباحة. هذا التوكل الذي هو العبادة، الذي يتكلم عنه الشـــيخ: صـــدق التفويض، أي: تفويض الأمر، صـــدق تفويض الأمر لله تعالى اعتمادًا عليه وثقةً به مع فعل الأسباب المباحة، فيفوِّض العبد أمره إلى الله تعالى معتمدًا عليه واثقًا به معلقًا قلبه بربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مع فعل الأســباب المباحة، واعتقاد أنها أســـباب لا يُعلَّق بها القلب، وإنما يعلَّق بالرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع فعلها.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ عزَّ وجلّ في كلامٍ جميل فيه تقرير ما يتعلق بالتوكل والأسباب وهذا أمر مهم جدًا يقول: ((**الِالْتِفَاتُ إلَى الْأَسْــبَابِ شِــرْكٌ فِي التَّوْحِيدِ**))[1]؛ أي: أن تعليق القلب بالأسباب شركٌ في التوحيد؛ لأن القلب يعلَّق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالتفات القلب إلى الأســـباب اعتمادٌ عليها ورجوعٌ إليها ورجاءٌ لها؛ وهذا شـــركٌ في التوحيد. يقول الشـــيخ: ((**الِالْتِفَاتُ إلَى الْأَسْبَابِ شِـرْكٌ فِي التَّوْحِيدِ وَمَحْوُ الْأَسْـبَابِ أَنْ تَكُونَ أَسْـبَابًا نَقْصٌ فِي الْعَقْلِ وَالْإِعْرَاضُ عَنْ الْأَسْبَابِ بِالْكُلِّيَّةِ قَدْحٌ فِي الشَّرْعِ**))[2].

❖ ثلاث جمل عظيمة تضمنت حقيقة التوكل:

- الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد.
- ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص في العقل.
- والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع.

---

(١) مجموع الفتاوى: (٨/٧٠).

(٢) سبق التخريج.

محو الأسباب من أن تكون أسبابًا نقص في العقل نعم كوّن الإنسان ينكر الأسباب وأنها أسباب لا شك أن ذلك نقص في العقل؛ لأن كل عاقل يدرك وجود الأسباب وأنها أسباب فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا وله سبب، والله سُبْحَانَه خالق الأسباب والمسببات كل شيء في الدنيا والآخرة له سبب والله سُبْحَانَه خالق الأسباب والمسببات فالدواء يُدرك كل عاقل أنه سبب في الشفاء، والنار يدرك كل عاقل أنها سبب للإحراق، ومن أنكره ومحاه فهذا نقص في عقله ألا ترون لو أن رجلًا ترك الطعام والشراب وقال: إن أراد الله أن يحييني فسيحييني ولو لم آكل ولم أشرب ماذا يُقال عنه؟ يقول عنه جميع العقلاء: إنه أحمق، ولو أن رجلًا قال: لن أطأ امرأتي فإن قدر الله لي ولدًا فسيكون بغير وطء فإن كل عاقل في الدنيا سيقول إنه: أحمق فمحو الأسباب عن أن تكون أسبابًا نقص في العقل.

وعدم فعلها بدعوى التوكل قدح في الشرع لماذا؟ لأن الشرع أمر بفعل الأسباب فإذا زعم الزاعم أن فعل الأسباب نقص في التوكل، أو ينافي التوكل فهو قادح في الشرع؛ لأن الشرع أمر بهذا أمر بفعل الأسباب، وقد أفاض شيخ الإسلام بن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح هذه الجملة شرحًا لطيفًا جميلًا نافعًا قيمًا في مجموع الفتاوى في المجلد الثامن فيما أحسب في المجلد الثامن شرح هذه الجملة شرحًا جميلًا وكررها في مواطن كثيرة من هذا المجلد إذًا يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: ((**الِالْتِفَاتُ إلَى الْأَسْبَابِ شِرْكٌ فِي التَّوْحِيدِ وَمَحْوُ الْأَسْبَابِ أَنْ تَكُونَ أَسْبَابًا نَقْصٌ فِي الْعَقْلِ وَالْإِعْرَاضُ عَنْ الْأَسْبَابِ بِالْكُلِّيَّةِ قَدْحٌ فِي الشَّرْعِ**))، فماذا يفعل المؤمن ماهي العبادة في التوكل؟ يقول: شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: ((**فَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ قَلْبُهُ مُعْتَمِدًا عَلَى اللَّهِ لَا عَلَى سَبَبٍ مِنْ الْأَسْبَابِ**))، فالقلب مفوض الأمر إلى الله معتمدٌ على الله، ((**وَاَللَّهُ يُيَسِّرُ لَهُ مِنْ الْأَسْبَابِ مَا يُصْلِحُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَإِنْ كَانَتْ الْأَسْبَابُ مَقْدُورَةً لَهُ وَهُوَ مَأْمُورٌ بِهَا فَعَلَهَا مَعَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ**)) مادام أن الله يقدر الأسباب وأمرنا بها فإن المتوكل يفعلها مع اعتماد قلبه على الله، قال: ((**ما دام أن الله عزّ وجلّ قدر له هذه**

الأسباب))، قال: **((وَمِنْ تَرْكِ الْأَسْبَابِ الْمَأْمُورِ بِهَا فَهُوَ عَاجِزٌ مُفَرِّطٌ مَذْمُومٌ))**[1].

إذن نعود إلى مرادنا ما التوكل الذي هو عبادة؟ تفويض الأمر إلى الله اعتمادًا عليه وثقةً به وهذا معناه تعليق القلب بالله، مع فعل الأسباب المباحة هذا هو التوكل.

قال الشـــيخ: **"وَمِنْهُ الرَّغْبَةُ"**، قال: **"وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ"**، **الرغبة**: هي محبة الوصول إلى الشيء المحبوب، إذا كان الشيء محبوبًا وأحب الإنسان أن يصِل إليه يُقال: رغِب فيه.

وَالرَّهْبَةُ: هي الخوف، لكن ليس كل خوف، وإنما هي الخوف المثمِر للهرب من المخوف، ليســـت مجرد خوف بل هي خوفٌ مع العمل، خوفٌ مثمر للهرب من المخوف، فإذا خاف الإنسان شيئًا وفرَّ منه، وعمِل بما يجعله بعيدًا عنه يُقال: إنه رهِبهُ، إذن الخوف والرهبة ليسا بمعنًا واحد، الرهبة معنًا خاص من الخوف، الخوف المثمر للهرب من المخوف.

قال الشـيخ: **"وَالْخُشُـوعُ"**، **الخشـوع**: هو الذل والخضـوع، والخشـوع الذي هو العبادة الشرعية هو: الذلُّ والخضـوع لله بحيث يستسـلم العبد لقضاء الله القدري والأمري، الخشـوع هو الذل والخضــوع لله، بحيث يســتســلم العبد لقضــاء الله القدري والأمري، فإذا نزلت به مصــيبة خشـع لله، وذلَّ لله، وسـلَّم لقضـاء الله، ولم يتسـخط ولم يجزع؛ بل يكون خاشـعًا لله عند نزول المصـيبة، لا يقول: ما ذنبي، لِمَ تنزل بي هذه المصـيبة، لا، يكون قلبه خاشـعًا لله، خاضـعًا لله، وإذا جاءهُ الأمر الشرعي، كالأمر بالصلاة مثلًا، خضع لله، وذلَّ لله، وخشع لله، وأدَّى ما أمره الله به على وجه الذلة والخضوع، إذن هذا هو الخشوع.

قال الشيخ: **"وَالْخَشْيَةُ"** **الخشيةُ**: هي الخوف المبني على العلم، لعظمة من يخشاه العابد وكمال ســلطانه، الخشــية خوف، لكنه خوفٌ مخصـــوص، خوفٌ مبنيٌ على العلم بعظمة من

---

(١) مجموع الفتاوى: (٨/ ٥٢٩).

يخشـــاه العبد، وبكمال ســـلطانه، إذن إذا كان خوفك مبنيًا على علمك بعظمة من تخاف وبكمال سلطانه فهذه خشية.

إذن الآن مرت معنا ثلاث كلمات تتعلق بالخوف كلها فيها خوف هي: الخوف، والرهبة، والخشية، وهي ليست بمعنًا واحد، بل الرهبة خوفٌ مخصوص، خوفٌ مع عمل يؤدي إلى الهرب من المخوف، والخشية خشيةٌ مع العلم، الرهبة خوف مع العمل، والخشية خوف مع العلم يعني: بسبب العلم، فهذه ثلاث كلمات تتعلق بالخوف وكل له معنى.

"وَالإِنَابَةُ"؛ **الإنابة**: هي الرجوع. ومعناها العام: الرجوع إلى الله، والإنابة قد تكون بمعنى التوبة؛ فيكون معناها: الرجوع عن معصـية الله إلى طاعته، وقد فسّـر كثير من المفسّـرين الإنابة بالتوبة، فقد تكون الإنابة بمعنى التوبة فيكون العبد التّوّاب هو العبد المنيب، والعبد المنيب هو العبد التّوّاب، وقد تكون أعمّ من التوبة فتكون أرقّ من التوبة فتكون بمعنى يكون معناها الرجوع إلى طاعة الله، انتبهوا؛ قلنا في المعنى الأول: الذي هو بمعنى التوبة الرجوع عن معصـــية الله إلى طاعة الله، هنا في المعنى الأعم نقول: الرجوع إلى طاعة الله وهذا أعم؛ لأن الرجوع قد يكون من المعصية يرجع من معصية إلى الطاعة، وقد يكون من الغفلة والتقصير لا يفعل معاصي لكنه مقصّر في العبادة التي ليست واجبة؛ لأن التقصير في العبادة الواجبة معصية، لكن مقصّر مثلاً في النوافل؛ لا يعمل بالنوافل فيرجع إلى الله ويتقرّب إلى الله بالنّوافل، نقول: أناب؛ رجع.

وقد تكون أيضًـا بترك المكروهات؛ قد يكون الإنســان متســاهلًا بترك المكروهات، يعبُّ منها عبًّا ثم يُنيب؛ فيرجع إلى الله، يرجع إلى طاعة الله بترك المكروهات وهذا المعنى أرق وأعم من التوبة.

إذن هذا تنبَّهوا له لأنك لو رجعت إلى كلام المفسرين قد لا يتميز عندك هذا إذا لم تعرف أن الإنابة تطلق على المعنيين؛ فتطلق بمعنى التوبة على حدٍّ ســـواء وتطلق بمعنًى أعمّ من التوبة،

فمعناها بمعنى التوبة: الرجوع عن معصية الله إلى طاعته، ومعناها العام الأعم من التوبة: الرجوع إلى طاعة الله سواء كان ذلك عن معصية، أو عن تقصير في النوافل، أو عن فعل للمكروهات.

قال الشيخ: **"وَالاسْتِعَانَةُ"؛** **الاستعانة**: الاستعانة التي هي عبادة لأننا نتكلم عن العبادة؛ هي طلب العون من الله في تحقيق أمور الإنسان، يعني: في الدّين والدّنيا، في الدنيا والآخرة، وهذه الاستعانة تكون على وجه الذُّل وتفويض الأمر إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وسيأتي بيان أنواعها وبيان أحكامها.

قال: **"وَالاسْتِعَاذَة"** **الاستعاذة**: هي الالتجاء وطلب الحماية من المكروه، **معناها العام**: الالتجاء وطلب الحماية من المكروه، ومعناها الذي هو عبادة: اللجوء إلى الله عزَّ وجلَّ وطلب حمايته سُبْحَانه مما يكرهه الإنسان؛ فعندما تقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم معناه: ألجأ إلى الله، وأطلب حمايته من شر الشيطان الرجيم.

قال: **"وَالاسْتِغَاثَةُ"؛** **والاستغاثة**: طلب الغوث والإنقاذ من الشدة؛ إذا طلب الإنسان الغوث والإنقاذ من الشدة فقد استغاث، والاستغاثة التي هي عبادة يعني عبادة شرعية؛ لأنه سيأتينا إن شاء الله أن الاستغاثة تتنوع ونذكر أحكامها، لكن الآن نتكلم عن العبادة التي هي العبادة الشرعية لله؛ هي طلب الغوث في الشدائد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الشيخ: **"وَالذَّبْح"؛** **والذبح**: هو إزهاق الروح بإراقة الدم على وجه مخصوص؛ والذبح الذي هو عبادة التقرب إلى الله تعالى بإزهاق الروح بإراقة الدم على الوجه الشرعي الذي هو التذكية كما سيأتي ان شاء الله؛ هذه العبادة التي لله ونحن يا إخوة أكرر إنما نتكلم عن العبادة الشرعية؛ لأن الذبح قد يكون عبادة كفرية والعياذ بالله وسيأتي لكن الآن نتكلم عن العبادة الشرعية.

قال: "**وَالنَّذْرُ**"؛ **النذر معناه**: إلزام المرء نفسه بشيء ما، أو طاعةً لله غير واجبة. أن يلزم الإنسان نفسه بشيءٍ ما؛ كأن يقول الإنسان: إن شفا الله مريضي أعطيتك مئة ريال، أو أن يلزم الإنسان نفسه طاعة لله غير واجبة كأن يقول: إن شفا الله مريضي صمت ثلاثة أيام من كل شهر؛ وسيأتي الكلام إن شاء الله عن أنواع النذر وعن أحكامه.

قال شيخ الإسلام: "**وَغَيْرُ ذَلَكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا**"؛ بدأ الشيخ كلامه ببيان أنواع العبادة، وأنها كثيرة وختمه كذلك ومراده أن يقول لك يا عبد الله إن العبادة كثيرة جدًا وما ذكرناه إنما هو أمثلة؛ وضابط العبادة ما أمر الله عزَّ وجلَّ به؛ وكل هذه العبادة لا يجوز صرفها لله عزَّ وجلَّ؛ وسيقيم الشيخ إن شاء الله عزَّ وجلَّ الأدلة على كونها عبادة، وعلى عدم جواز صرفها لغير الله عزَّ وجلَّ، وإن شاء الله عزَّ وجلَّ في مجلس الغد سنستعرض هذه الأدلة ونعلق عليها، ونبين أحكام كل نوع بما يتيسر إن شاء الله عزَّ وجلَّ.

نواصل مجالسنا في شرح كتاب الأصول الثلاثة لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ عزَّ وجلّ رحمةً واســعة، وقد كان مجلســـنا البارحة عن بيان معنى أنواع العبادة التي ذكرها الشــيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عزَّ وجلّ واليوم إن شـــاء الله عزَّ وجلّ نتكلم عن أدلة وأحكام تلك الأنواع؛ حيث ذكر الشـــيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الأدلة على تلك الأنواع وذكر حكمها العام، ثم ذكر أدلتها التي يؤخذ منها حكمها الخاص فقال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عزَّ وجلّ.

يقول المصـــنف رحمة الله عليه: "وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ فَمَنْ صَـرَفَ مِنْهَا شَـيْئًا لِغَيْرِ اللهِ؛ فَهُوَ مُشْـرِكٌ كَافِرٌ؛ وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَمَن يَـدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾".

الشَّرْح:

يقول الشـــيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وَالدَّلِيلُ"** يعني: الدليل على أن هذه العبادة إنما تكون لله عزَّ وجلَّ وأنه لا يجوز صـرف شـيءٍ منها لغير الله الدليل قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[1] فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يأمر عباده أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئًا في محالِّ عبادته، وفي أنواع عبادته فيقول سُبْحَانَه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ والمساجد هنا قيل: هي أماكن العبادة ومواضــع الســجود من الأرض، فالمعنى: فلا تعبدوا فيها غير الله، وقيل: هي أعضـــاء الســـجود من الإنســـان، والمعنى: فلا تســـجدوا بها لغير الله، وقيل: هي الســـجود فالمعنى: فلا تســـجدوا لغير الله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ فلا يُعبد إلا الله، ولذلك جاء الله عزَّ وجلَّ بالفاء فقال: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ رتَّب هذه الجملة على الجملة الســابقة إذا كانت المســاجد لله فجزاء هذا ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ أي: فلا تعبدوا مع الله غيره، والدعاء هنا بمعنى: العبادة، إذن الله عزَّ وجلَّ نهى أن يُعبد مع الله غيره، **"فَمَنْ صَـرَفَ مِنْهَا"** أي: من العبادات شـيئًا لغير الله فهو مشـــركٌ كافر فمن تقرب بعبادةٍ من العبادات إلى غير الله عزَّ وجلَّ فهو مشـــركٌ كافرٌ خارجٌ عن الإســلام، والدليل على ذلك قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَـدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا

---

(١) سورة الجن: (١٨).

بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[1].

﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ﴾[2]، يقول علماؤنا قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ﴾ قيدٌ كاشـف عن حقيقة دعوة غير الله وليس قيدًا يُخرج شـيئًا، فالمقصـود: أن من يدعو مع الله إلهًا آخر فإنه لا برهان له به، وهذا معنى قول العلماء: إنه قيدٌ كاشـف، فليس المراد أنه لو دعا الإنسان إلهًا آخر له به برهان ما دخل هنا لا؛ وإنما هذا القيد كاشف فكل من دعا مع الله إلهًا آخر فإنه لا برهان له به.

﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ وهذا وعيدٌ وتهديد فيه بيانٌ لشـدة الحسـاب وشـدة العذاب وهذا أمرٌ مسـتعمل عند العرب إذا أراد الإنسـان أن يقول: إن حسـابك شـديد قال: حسـابك عندي في ذلك تهديد، وبيان لشدة العذاب فإنما حسابه عند ربه، وهذا الحساب لا فلاح فيه بل هو عقاب ولذلك قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ فهذا والعياذ بالله حسـاب الخاسـرين الكافرين فمن دعا مع الله غيره، وأشـرك بالله غيره فهو من الكافرين، فهذه قاعدةٌ كليةٌ عظيمةٌ في العبادة: أنها مقصورةٌ على الله ولا يجوز لمسلم أن يتقرب بأي نوعٍ من أنواع العبادة لغير الله عزَّ وجلَّ ومن تقرب بنوعٍ من أنواع العبادة لغير الله سـواءً كانت العبادة كبيرةً أو صـغيرة فقد أشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم شـرع الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في التدليل على أن ما ذكره عبادة؛ قال لي بعض الإخوة: ما السرُّ في كون الشـيخ رَحِمَهُ اللَّه نصَّ على هذه الأنواع دون غيرها، لماذا نصَّ الشـيخ على الأنواع التي سمعناها البارحة دون غيرها مع أن العبادات كثيرة؟ والجواب: أن الشـيخ رَحِمَهُ اللَّه نصَّ على هذه العبادات؛ لأن أغلب شـرك الناس في زمانه وقبل ذلك واقعٌ فيها بصـرف

(١) سورة المؤمنون: (١١٧).

(٢) سورة المؤمنون: (١١٧).

شيءٍ منها لغير الله عزَّ وجلّ فذكرها الشيخ فكانت نصًا في كثير مما يقع فيه الناس، وفيها إشارة لبقية الأنواع.

قال رحمة الله عليه: وَفِي الْحَدِيثِ: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ».

الشَّرْح:

هذا لفظٌ لهذا الحديث ورواه بهذا اللفظ الترمذي؛ وهو بهذا اللفظ ضـعيف لا يثبت لكن يشـهد له الحديث الآخر في قول النبي صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ: «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ»[1]، وهذا الحديث بهذا اللفظ رواه الإمام الترمذي، وأبو داوود، وابن ماجه، والإمام أحمد؛ قال الحافظ ابن حجر في الفتح: إسـناده جيد، وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه صـحيح، وصـححه إمام العصـر في الحديث الإمام الألباني رحم الله الجميع رحمةً واسعة، فالحديث بهذا اللفظ صحيح «الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ».

ومعنى الحديث باللفظ الذي ذكره الشيخ «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ»[2] أن الدعاء لُبُّ العبادة وخالصها هذا معنى المخّ: لُبُّ العبادة وخالصها، واللفظ الثاني أبلغ في المعنى فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ جعل الدعاء هو العبادة، وحصـر العبادة في الدعاء، وهذا دليل على أن الدعاء من أعظم أنواع العبادة فلا يجوز صـــرفه لغير الله سُـــبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا تدليل على أن الدعاء من أنواع العبادة بل هو من أعظم وأكبر أنواع العبادة فلا يجوز صرفه لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا ما يتعلق بالدعاء الذي هو العبادة وهو سـؤالٌ وطلبٌ على وجهٍ مخصـوص كما تقدم معنا، وقد سبق أن ذكرت أن الدعاء ليس فيه تفصيل، فدعاء غير الله كله شرك هذا هو الدعاء أما مطلق الطلب والسؤال فإنه إن كان من حيٍّ قادرٍ فيما يقدر عليه فهو صحيح تقول: أعطني القلم مثلًا، أو تقول: ناولني الكتاب هذا طلبٌ وســـؤال من حيٍّ قادرٍ فيما يقدر عليه وهذا

---

(١) رواه أبو داود، كتاب: الصلاة، باب: الدعاء، برقم: (١٤٧٩)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، برقم: (٧١٤/٥٥٣).

(٢) رواه الترمذي، باب: مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الدُّعَاءِ، برقم: (٣٣٧١)، وضعفه الألباني في مشكاة المصابيح، برقم: (٢٢٣١).

جائز لا حرج فيه، أما دعاء الحيّ الحاضـــر العاجز يعني: ســؤاله طلبه وليس الدعاء هذا عبث يقول شخص لإنسان لا يستطيع الحركة: ناولني كذا وهو بعيدٌ عنه هذا عبث، وأما سؤال الميت فهذا لا شــك أنه لا يجوز؛ لأن الميت عاجزٌ على كل حال فلا يجوز سـؤاله شـيئًا، وأما الدعاء وقد قلنا إن الدعاء نوعان: "دعاء مســألة، ودعاء عبادة"، وقلنا هما متلازمان، فالدعاء لا يجوز أن يُدعى غير الله عزَّ وجلّ سواءً كان هذا المدعو نبيًا، أو ملكًا، أو وليًّا، أو غير ذلك وقد ذكر الشيخ دليلًا آخر.

فقال رحمة الله عليه: "وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾".

الشَّرْح:

❖ **هذه الآية فيها دليلٌ: على أن الدعاء عبادة، وذلك من وجهين:**

الوجه الأول: أن الله أمر به فقال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ﴾ وأمر الله بالشيء يدل على أنه عبادة.

والوجه الثاني: أن الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1] وهذا دليلٌ أيضـا على أن الدعاء عبادة؛ لأنه لو لم يكن الدعاء عبادةً لما كان هنالك مناسـبةٌ بين أول الآية وآخرها وهذا ممتنع في نظم القرآن الكريم، فدل ذلك على أن الدعاء عبادة وأن صرف الدعاء لغير الله عزَّ وجلَّ يعني: شركٌ.

وقد بينا فيما قبل قليل أن: الدعاء؛ دعاء غير الله شـرك، أما مطلق السـؤال والطلب فإن كان من حيٍّ قادر فيما يقدر عليه فهو يعني: جائز، فإن قال لنا قائل: هل يمكن أن يدعو الإنســان ميتًا فيما يقدر عليه؟ فالجواب: لا؛ لأن الميت عاجزٌ غير قادرٍ على شــيء فلا يجوز سؤاله شيئًا ودعاء الأموات يعني: شرك.

---

(١) سورة الغافر: (٦٠).

قال رحمة الله عليه: وَدَلِيلُ الْخَوْفِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

الشَّرْح:

نهى الله عزَّ وجلّ عن خوف أولياء الشـــيطان وأمر بخوفه وحده وجعل عدم الخوف من غيره سُــبْحَانه قيدًا في الإيمان قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1] فهذه الآية دليل على أن الخوف عبادة؛ لأن الله عزَّ وجلّ أمر به؛ ولأن الله جعل ذلك قيدًا وشـرطًا للإيمان فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وقد قدمنا أنواع الخوف في درســنا بالأمس، وذكرنا منها خوف السـر وهو: أن يقوم بقلب المسـلم أو بقلب الإنسـان اعتقاد أن أحدًا غير الله قادرٌ على إيذائه ولو لم يكن حاضرًا بين يديه فيخافه سواءً كان حاضرًا أو غائبًا؛ كقول بعض الناس: لا تتحدث في فلان فإنه يؤذيك ويحصـل لك الأذى هذا خوف السـر ومن خاف هذا الخوف فقد أشـرك بالله عزَّ وجلّ البارحة بعض إخواننا قالوا: اذكر لنا ضـابطا لخوف السـر؛ والضـابط لخوف السـر أنه لا يختلف في الحضور والغيبة؛ لأنه نابعٌ من الاعتقاد الذي في القلب فيخاف من هذا الرجل سواء كان حاضرًا أو غائبًا.

أما الخوف من الرجل الحاضر فيما يقدر عليه مما يُخاف من الإنسان فلا يدخل في خوف السر؛ هو الإنسان مثلًا يخاف من هذا أن يضربه، أو من هذا أن يعتدي عليه هذا لا يدخل في خوف السر.

❖ **إذن ما الضـــابط الذي يجعلنا نفهم خوف الســـر؟** أن خوف الســـر لا يختلف في الحضـــور والغيبة ســـواء كان حاضـــرًا أو غائبًا فإنه يخاف منه لماذا؟ لأن ذلك نابعٌ من اعتقادٍ في قلبه أن هذا الرجل قادرٌ على إيذائه، وهذا الخوف خوفٌ شركي.

---

(١) سورة آل عمران: (١٧٥).

ذكرنا أيضًـــا من أنواع الخوف: الخوف الدنيوي؛ قلنا الخوف على الدنيا: يخاف على الوظيفة، يخاف على الكرسي.

❖ ما حكم هذا الخوف؟

يقول العلماء: إن سبَّب هذا الخوف معصيةً كان حرامًا؛ كأن سبَّب للإنسان أن يترك ما يجب عليه، أو أن يفعل ما حُرِّم عليه فإن الخوف إذ ذلك يكون حرامًا. إذن هذا الخوف يكون حرامًا إذا قاد الإنسان إلى فعل المعصية.

أيضًـــا ذكرنا من أنواع الخوف: الخوف الطبعي الذي جعله الله في نفس الإنســـان، وهذا الخوف كما هو ظاهر لا يلام عليه الإنســـان ولا يُعلَّق به التكليف؛ كون الإنســـان مثلًا: يخاف من الأسد، أو يخاف من الثعبان، أو يخاف من العقرب هذا خوف طبعي لا يلام عليه الإنسان ولا يتعلق به تكليف.

وذكرنا النوع الرابع وهو: الخوف من الله، الخوف من عذاب الله، الخوف من وعيد الله؛ وهذا لا شـك من الإيمان المحمود بشـرط أن يُقرَن بالرجاء لماذا؟ لأن هذا الخوف يقود الإنســان إلى ترك المنكرات وفعل الطاعات، أما إذا خلا هذا الخوف من الرجاء فإنه يكون يأسًـا وقنوطًا، الخائف الذي لا يرجو يكون يائسًـا قانطًا فيكون مذمومًا، ولذا يُلغِز بعض الشـيوخ فيقول: متى يكون الخوف من الله مذمومًا؟ لأول وهلة الخوف من الله محمود لكن متى يكون مذمومًا؟ يكون مذمومًا إذا خلا من الرجاء فكان يأسًا وقنوطًا فإنه يقطع من العبادة.

✍ إذن الخوف المحرم بدرجاته هو:

- خوف السر.
- والخوف الدنيوي المؤدي للمعصية.

- والخوف المؤدي إلى اليأس والقنوط، ولن يخاف عبدٌ هذا الخوف المحرم إلا لمرضٍ في قلبه فيحتاج إلى علاج.

إذن ما هو الخوف المحرم؟ الخوف المحرم هو خوف الســـر، وهو خوفٌ شـــركي والخوف الدنيوي المؤدي للمعصية، والخوف المؤدي إلى اليأس والقنوط من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رحمة الله عليه: "وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾".

الشَّرْح:

هذا الدليل دليلٌ على أن الرجاء عبادة وأنه يكون لله ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1] وهو أيضًا دليل على أن صرف الرجاء لغير الله عزَّ وجلَّ على جهة التعبد والتذلل شرك لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وفي الآية كما يقول علماءنا: دليل على أن الرجاء النافع هو الذي يكون مع العمل ويكون مقرونًا مع الخوف حتى لا يؤدي إلى الأمن من مكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿فَمَن كانَ يَرجو لِقاءَ رَبِّهِ﴾ والذي يرجو لقاء ربه يخاف، الذي يرجو لقاء الله فإنه يخاف فلا بد مع الرجاء من الخوف ﴿فَليَعمَل عَمَلًا صالِحًا﴾ أي: أن الرجاء لا بد أن يكون مع عمل، فهذا دليل على أن الرجاء النافع لا بد أن يكون مع عملٍ وأن يكون مقرونًا بالخوف من الله عزَّ وجلَّ، ومراد الشيخ أن يُبين أن الرجاء عبادة.

(١) سورة الكهف: (١١٠).

قال رحمة الله عليه: "ودليلُ التَّوكُّلِ قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾".

الشَّرْح:

❖ **هذه الآية دليل على أن التوكل عبادة من وجهين:**

الوجه الأول: أن الله أمر بالتوكل وأمر الله بالشيء يدل على أنه عبادة.

والوجه الثاني: أن الله جعل التوكل عليه شـــرطًا في الإيمان فقال: ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[1] فهو قيدٌ في الإيمان، فدل ذلك على أن التوكل على الله عبادة، وأن صـرف التوكل لغير الله على جهة التعبد والتذلل شركٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) سورة المائدة: (١١).

وقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

الشَّرْح:

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[1] فجعل التوكل عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فمن يسلم أمره إلى الله ويثق به ويعتمد عليه فالله حافظه وناصره وكافيه؛ لأن الله هو العزيز سُبْحَانَه الذي لا يغلبه شيء، فمن سلم أمره لله ثقةً بربه واعتمادًا عليه؛ فإن الله يحفظه، وينصره، ويكفيه فالله هو العزيز سُبْحَانَه لا يغلبه شيء، فدل ذلك على أن التوكل عبادة إذا كان على وجه التذلل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهو عبادة.

وقد سبق أن تكلمنا عن التوكل بمعنى العبادة الشرعية وقلنا: هو تفويض الأمر إلى الله ثقةً به واعتمادًا عليه سُبْحَانَه مع فعل الأسباب المباحة، لكن ما الحكم لو توكل الإنسان على عبدٍ من العباد؟ نقول: لا يخلو، إما أن يتوكل على عبدٍ من العباد مع اعتقاده بقلبه أن هذا العبد له قدرةٌ على التصرف في الكون فهذا شرك، إذا توكل الإنسان على عبدٍ من العباد سواء كان حيًا، أو ميّتًا مع اعتقاده بقلبه أن لهذا الشخص قدرةً على التصرف في الكون فهذا شركٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما يتوكل بعض الناس على من يسمونهم بالأولياء سواء كانوا أحياءً أو أمواتًا، فيتوكلون عليهم ويعتقدون أن لهم قدرة على التصرف في الأكوان.

أمَّا إذا توكل الإنسان على غيره من الناس فيما يقدر عليه بأن جعله وكيلًا عنه، فهذا لا بأس به؛ فإذا جعل الإنسان أحدًا وكيلًا عنه فيما يقدر عليه فهذا لا بأس به وهو جائزٌ بالإجماع وقد دلت على ذلك الأدلة من الكتاب والسنة؛ إذن نقول إذا كان الإنسان يتوكل على غيره من الناس فيما يتوكلون فيه ويقدرون عليه، وهذا لا يمكن أن يكون إلَّا من حي فهذا لا بأس

(١) سورة الطلاق: (٣).

به، لكن لهذا شـرط لا بد منه وهو ألا يعلق العبد قلبه بهذا الإنســان وإنما يعلق قلبه بربه؛ بمعنى يكون هذا الإنسان سببا فيما يقدر عليه.

أما إذا علَّق قلبه به فهذا لا يجوز، وإذا توكل الإنسان على إنسانٍ آخر فيما لا يقدر عليه وهذا الميت؛ فالميت لا يقدر على شـــيء، والحي فيما يعجز عنه فهذا محرمٌ وإذا كان على وجه التذلل فهو شركٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال رحمة الله عليه: "وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالْخُشُـــوعِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾".

الشَّرْح:

هذه الآية دليلٌ على أن الرغبة، والرهبة، والخشـوع عبادة، فهذه الآية التي وصـف الله بها عبادا من عباده الصالحين أنهم كانوا يسارعون في الخيرات يسارعون في الأعمال الصالحات قال الله عز وجل: ﴿وَيَدْعُونَنَا﴾[1] قال المفســرون: (الدعاء هنا هو العبادة) أي: يعبدوننا رغبًا، ورهبًا أي: رغبةً فيما يرجون من رحمة الله ورهبةً من عذابه وعقابه، وأضـــاف الله ذلك إليه سُبْحَانَه، فدلَّ ذلك على أن الرغبة عبادة، والرهبة عبادة؛ لأنه سُبْحَانَه مدحهم بها وأضافها إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ فكانوا خاشعين لله، فدل هذا على أن الخشوع عبادة تكون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على وجه التذلل والخضوع.

---

(١) سورة الأنبياء: (٩٠).

قال رحمة الله عليه: وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾.

الشَّرْح:

أمر الله عزَّ وجلَّ بخشــيته ونهى عن خشــية من دونه ومما يدل على أن الخشــية عبادة لا تكون إلا لله قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾[1] فجعل الله عزَّ وجلَّ الطاعة لله ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما الخشية فلم يجعلها إلا له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فلا يُخشى إلا الله.

(١) سورة النور: (٥٢).

وقال: وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾.

الشَّرْح:

هذا دليلٌ على أن الإنابة عبادة؛ لأن الله أمر بها وقال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾[1] أي: أقبِلوا أيها الناس إلى ربكم بالطاعات وارجعوا إليه بالتقرب إليه، ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أي: استسلموا لأحكامه الشرعية، فهذا دليل على أن الإنابة عبادة.

(١) سورة الزمر: (٥٤).

وقال: وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ: قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

الشَّرْح:

هذه الآية دليل على أن الاســـتعانة عبادة وأنها لا تكون إلا لله سُـــبْحَانَهُ وَتَعَالَى لتقديم ﴿إِيَّاكَ﴾ فإياك حقه التأخير لكنه قدم للدلالة على الحصر والاختصاص، فالاستعانة عبادة لا تكون إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والاستعانة المقصود بها: طلب العون على وجه التذلل والخضوع، والاستعانة عبادة لا تكون إلا لله.

قال: "قال وفي الحديث: «وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»".

الشَّرْح:

هذا الحديث رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه جمعٌ من أهل العلم وهو جزءٌ من الوصية المشهورة لابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»[1] فأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تكون الاستعانة بالله فالاستعانة بالله عبادةٌ يؤجر عليها الإنسان.

أما الاستعانة بالمخلوق الاستعانة بغير الله عزَّ وجلَّ فيما يقدر عليه المخلوق يعني الاستعانة بالحي القادر فيما يقدر عليه، فهذه حكمها بحسب الأمر الذي يُتعاون فيه:

- فإن استعان المسلم بحيٍ قادر فيما يقدر عليه من أمور الخير فهذه طاعة، وإن استعان المسلم بالحي القادر فيما يقدر عليه من أمور الشر فهذه معصية لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[2] فإذا كانت الاستعانة بحيٍ قادر في ما يقدر عليه من الأمور المباحة فهي مباحة، وإن كان الأولى بالمسلم أن يقوم بأعماله بنفسه وأن لا يستعين بأحدٍ من الناس.
- أما إذا استعان المسلم بعبدٍ حي حاضرٍ غير قادر كأن يستعين بالأشل على المساعدة على المشي، فهذا كما يقول العلماء: لغوٌ وعبث، كأن يقول إنسان مثلاً: لأشل أعطني الكتاب من فوق الرف فهذا يعني عبث.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب: صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب: مَا جَاءَ فِي صِفَةِ أَوَانِي الحَوْضِ، برقم: (٢٥١٦)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، برقم: (٥٣٠٢).

(٢) سورة المائدة: (٢).

- وإذا استعان الخلق بالمخلوق فيما لا يقدر عليه فهذا محرم وهو من الشرك بالله كالاستعانة بالأموات في كل شيء؛ لأن الميت غير قادر عاجزٌ عن كل شيء والاستعانة بالأحياء فيما لا يقدرون عليه فهذا شرك؛ لأنه إنما يستعين الإنسان بهم؛ لأنه يقع في قلبه أن لهم تصرفاً، وأن لهم قدرةً خفية كما يُعبر عباد الناس اليوم يقول بعضهم الولي له قدرة خفية على التصرف في الأكوان، فالاستعانة بالميت مطلقاً شرك، والاستعانة بالحي فيما لا يقدر عليه شركٌ أيضاً.

- أما استعانة العبد على أمور دنياه بالأعمال الصالحة فهذا مشروع كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾[1] كون الإنسان مثلًا: يستعين بالصبر والصلاة على راحة قلبه من هم يعني: أصابه هم فاستعان بالصلاة ليرتاح من همه فقام يصلي فهذا مشروع، وهذا عبادة فكون الإنسان يستعين بالأعمال الصالحة المشروعة على تحصيل يعني: مصالحه في دنياه فهذا مشروعٌ ومطلوب.

---

(١) سورة البقرة: (٤٥).

يقول المصــنف رحمة الله عليه: وَدَلِيلُ الاسْـتِعَاذَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

الشَّرْح:

هذا دليل أيها على أن الاســتعاذة عبادة، والأدلة على أن الاســتعاذة عبادةٌ من الكتاب والسنة كثيرةٌ جدًا؛ ذكر الشيخ منها دليلين هما قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾[1] فالله عز وجل أمر نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقول هذا ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فتكون أمته مأمورةً بذلك، وقد قدمنا مرارًا أن من علامة كون الشـــيء عبادةً أن يأمر الله عزَّ وجلَّ به، فإذا وجدنا ربنا سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أمر بشـــيء علمنا أنه عبادة وهنا وجدنا ربنا في الآيتين قد أمرنا بالاستعاذة به فدل ذلك على أن الاستعاذة عبادة.

وأمر الله عزَّ وجلَّ بالاســـتعاذة به فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[2] فهذا دليلٌ على أن الاستعاذة عبادةٌ فلا يستعيذ العبد إلا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على وجه التعبد والتذلل، فعندما يستعيذ العبد بربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإنه يكون عابدًا ولاجئا إلى من يملك النفع والضـر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويكون لائذا بالقادر سُبْحَانَه فهو القادر على أن يدفع الضــر عن العبد وعلى أن ينفع العبد؛ كذلك ذكر علماؤنا أن من الاســتعاذة بالله الاســتعاذة بصفةٍ من صفاته فجاء في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ

---

(١) سورة الفلق: (١).

(٢) سورة الناس: (١).

التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»[1] وهذا عند مسلمٍ في الصحيح، وجاء أيضًا قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي»[2] وهذا عند الإمام أحمد في المسند، وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»[3] وهذا رواه الإمام أحمد وأبو داود ونحو هذا، وقد قال العلماء: (إن حقيقة هذه الاستعاذة أنها استعاذةٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى).

❖ أما الاستعاذة بالمخلوقين فما حكمها؟

فنقول: إن الاستعاذة بالمخلوق غير القادر شركٌ؛ لأنها لا تكون إلا عن اعتقاد أن فيه قدرةً خفية على النفع والضر فتكون الاستعاذة بالحي غير القادر شركًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كالاستعاذة بالقبور وأصحابها كما يفعله بعض من ينتسبون إلى الإسلام اليوم يذهبون إلى صاحب القبر ويقولون بقولهم، أو حالهم أعوذ بك من العين، أعوذ بك من الحسد فبعض الناس يذهب إلى الضريح، يذهب إلى قبر الرجل الصالح فيقول: يا فلان أعوذ بك من الحسد، إذا أحس أن فيه عينًا أو أنه يحسد من قبل الناس ذهب إلى صاحب القبر وقال: أعوذ بك من شر حاسدٍ إذا حسد، أعوذ بك من حسد فلان، وهذا والعياذ بالله شرك، شرك أكبر، أو بحالهم فبعض الناس إذا أحس أن به عينًا، أنه معيون ذهب إلى صاحب القبر بل ذكرت عدة مرات أني رأيت في بعض بلاد المسلمين أنهم يقسمون القبور، فبالنسبة للعوذ من الحسد فقبر فلان، وبالنسبة للعوذ من العين فقبر فلان، وبالنسبة للتوبة فقبر فلان، حتى ذكر لي أحد الأخوة أنه

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، باب: فِي التَّعَوُّذِ مِنْ سُوءِ الْقَضَاءِ وَدَرَكِ الشَّقَاءِ وَغَيْرِهِ، برقم: (٢٧٠٨).

(٢) رواه النسائي، كتاب: الِاسْتِعَاذَةِ، باب: الاستعاذة من الخسف، برقم: (٥٥٢٩)، ورواه أحمد في مسنده، برقم: (٤٧٨٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم: (٦٥٩).

(٣) رواه أبو داود، كتاب: الطب، باب: كَيْفَ الرُّقَى، برقم: (٣٨٩١)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، برقم: (١٥٣٣).

كان في مسـجدٍ من المسـاجد فكان هنالك شـيخ سـوءٍ منتصـبًا في المسـجد، فجاءه قال: قد فعلت ذنبًا عظيمًا وأريد أن أتوب قال: اذهب وطف حول قبر الشـيخ سـبعة أشـواط ثم تعال وتب فإن الله يقبل توبتك مهما كان ذنبك، فقاده إلى ذنبٍ أعظم من الذنب الذي كان فيه ولا حول ولا قوة إلا بالله، وقد سمعت في بعض بلدان المسـلمين من يقول أنه إذا أراد أن يتزوج في ليلة الزواج لابد أن يذهب إلى قبر سِيده فلان خوفًا من أن يصاب بالحسد، والعين، والسحر في ليلة زواجه، وكل هذا ولا حول ولا قوة إلا بالله من الشـرك الأكبر المخرج من ملة الإسـلام؛ لأنه صـرفٌ لهذه العبادة على وجه التعبد لغير الله سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كذلك الاسـتعاذة بالغائب ولو كان حيًا، يعني الحي إذا كان غائبًا، وكان الإنسـان يقول أعوذ بفلان من شـر كذا أعوذ بفلان من شر الحسد وهذا غائب فهو والعياذ بالله من الشرك.

أما الاستعاذة بالعبد المخلوق فيما يقدر عليه يعني: الاستعاذة بالعبد الحي الحاضر القادر فيما يقدر عليه فهذا لا بأس به يأتي الإنسان مثلًا: إلى شخص إلى القاضي مثلًا: فيقول أعوذ بك من ظلم فلان يعني: ألجأ إليك من ظلم فلان فهذا لا بأس به كون الإنسان يستعيذ بإنسانٍ يمكن أن يعيذه؛ لأنه حي حاضر قادر فهذا لا بأس به، كما جاء في حديث الفتن في قول النبي صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ: « **وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا، فَلْيَعُذْ بِهِ**»[1] يعني: فليلجأ إليه، وهذا كما تقدم معنا في العام الماضـي في شـرح كتاب الفتن من صـحيح مسـلم وهو موجود في الصـحيحين فالنبي صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ قال: « **وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا، فَلْيَعُذْ بِهِ**» فهذا دليلٌ على أن الاستعاذة بالمخلوق القادر على الاستعاذة لا حرج فيه ولا بأس به.

(١) رواه مسلم، كتاب: الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، باب: نُزُولِ الْفِتَنِ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ، برقم: (٢٨٨٦).

قال رحمه الله عليه: وَدَلِيلُ الاسْـــتِغَاثَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾.

الشَّرْح:

هذه الآية دليل على أن الاستغاثة عبادة؛ لأن الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾[1].

❖ **وهذه الآية تدل على أن الاستغاثة عبادة من وجوه:**

الوجه الأول: أن الله أضـاف فعلهم إليه فقال: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ﴾، وهذا دليل على أن الاستغاثة عبادة.

الوجه الثاني: أن الله عزَّ وجلَّ قال: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ فدل ذلك على أن الاستغاثة عبادة.

الدليل الثالث: أن الآية مشعرة أن الاستغاثة كالدعاء، ولذلك قال: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ كما يستجاب للدعاء، فإذا استغاث العبد بالله عزَّ وجلَّ حصَّل منافع كثيرة أولها وأعظمها: أنه عبد الله، إذا استغاث بالله حصَّل منافع عظيمةً جدًا أعظمها وأجلها أنه عبد الله وهذا ينفعه في دنياه وأخراه، والأمر الثاني: أن الله يستجيب له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أما إذا استغاث العبد بميت أو بحيٍ غائب فهذا شركٌ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كون الإنسان

(١) سورة الأنفال: (٩).

يســـتغيث بميت فيقول: يا فلان المدد، يا ولي الله الغوث الغوث، يا أصـــحاب القبور الغوث الغوث فهذا والعياذ بالله شركٌ بالله أن يكون الإنسان مثلًا: في سيارة فيحدث حادث انقلاب فأثناء الانقلاب ينادي: يا سيدي فلان يا سيدي فلان الغوث الغوث سواء كان هذا ميتًا، أو حيًا لكنه غائب فهذا والعياذ بالله من الشــــرك الأكبر؛ لأنه لا يمكن أن يكون إلا إذا كان عن اعتقادٍ أن المستغاث به يملك الضر والنفع بقدرته وإلا ما حصل يعني: إنسان يستغيث بالميت، لما يستغيث بالميت؟ إنما يستغيث بالميت؛ لأنه يعتقد أنه يملك الضر والنفع، يستغيث بغائب يبعد عنه آلاف الكيلوات لما يستغيث به؟ لأنه يعتقد أنه يملك النفع والضر فهذا شركٌ بالله هذا شركٌ بالله.

أما الاســـتغاثة بالعبد الحي الحاضـــر القادر فيما يقدر عليه من الأمور فهذا جائز؛ أن يســـتغيث العبد بعبدٍ حيّ حاضـــر قادر فيما يقدر عليه، فهذا جائز قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾[1] فهذا دليل على إن الاستغاثة بالحيّ الحاضر القادر فيما يقدر عليه لا بأس بها ولا حرج فيها.

أما الاســـتغاثة بالحي الحاضـــر فيما يُعلم أنه لا يقدر عليه فهذا عبث إذا كان الإنســـان يعتقد أنه لا يستطيع، يعني: عنده حي قادر حاضر لكن يعلم أنه لا يستطيع، فيستغيث به في هذا الأمر، **فهذا لا يخلو من حالين:**

الحالة الأولى: أن يعتقد أنه لا يستطيع، ولكن يستغيث به فهذا يعبث به هذا يعبث به هذا عبث.

الحالة الثانية: أن يعتقد أنه يســـتطيع مع عجزه فهذا يؤول إلى الشـــرك يعود إلى الأول؛ لأنه يعتقد أنه قادر من أي باب هو عاجز، إذن اعتقادهُ أنه قادر إنما لأنه يعتقد أنهُ يملك النفع والضـر فيكون ذلك من الشـرك فمثلًا: لو أن انسـانًا يسـبح في الماء فأوشـك على الغرق ورأى

---

(١) سورة القصص: (١٥).

رجلًا أشل مشلولًا يعلم أنه لا يستطيع السباحة فقال: يا فلان أغثني يا فلان أغثني، **لا يخلو من أمور:**

الأمر الأول: أن يقصــــد أن يطلب له اغوث من قادر، يعني يقول: يا فلان أغثني يعني اطلب من ينقذني انظر حولك فأنت أقرب إلى الناس وهذا لا حرج فيه؛ لأنه يســـتغيث بالحي القادر فيما يقدر عليه.

الحالة الثانية: أن يكون يعبث به يتظاهر بأنه ســـيغرق ويقول: يا فلان أغثني أغثني وهو يعلم أنه لا يستطيع السباحة وهو أشل أيضًا هذا عبث له.

الحالة الثالثة: أن يعتقد أنه قادرٌ على إغاثته مع عجزه الظاهر فهذا من الشـــرك؛ لأنه يكون من اعتقاده أن له قدرةً خفية يملك بها النفع والضر.

قال رحمة الله عليه: وَدَلِيلُ الذَّبْحِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

الشَّرْح:

هذه الآية دليل على أن الذبح عبادة؛ لأن الله عزَّ وجلَّ يخاطب نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾[1]؛ **والنسُك**: هو الذبح فنسكي يعني: ذبحي وفي آخر الآية ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فذبحي لله رب العالمين لا شـــريك له، فدل ذلك على أن الذبح عبادة تكون خالصة لله رب العالمين لا شريك له.

(١) سورة الأنعام: (١٦٢).

قال: وَمِنَ السُنَّةِ: «لعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ»[1].

الشَّرْح:

الحديث رواه مسلم في الصحيح، وهو دليل على أن الذبح عبادة؛ لأن اللعنة: هو الطرد والإبعاد من رحمة الله الطرد والإبعاد من رحمة الله، فدل ذلك على أن الذبح لغير الله معصية، وسيأتي إن شاء الله بيان درجاتها فهو يختلف باختلاف الحال لكنه هنا يدُل على أن الذبح عبادة ما دام أن الذبح لغير الله معصية فالذبح عبادة، وسيأتي إن شاء الله بيانُ أحوال الذبح.

❖ الذبح لا يخلو من أحوال:

الحالة الأولى: أن يقع على سبيل التعظيم للمذبوح لهُ والتذلل له، والتقرب إليه، ويكون لغير الله فهذا والعياذ بالله شرك؛ كون الإنسان يذبح لأمير، أو لحاكم، أو لوزير، أو لقبر، أو لغير ذلك، على سبيل التعظيم لهُ والتذلل لهُ والتقرب بالذبح فهذا شرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أما إذا ذبح الإنسان على وجه التذلل والتقرب لله فهذه عبادة من أجل العبادات يرتفع بها الإنسان درجات.

أما اذا وقع الذبح لغير الله عزَّ وجلَّ على سبيل التعظيمِ لكن من غير تذللٍ وتقرب ذبح لغير الله على سبيل التعظيم لذلك لكن ليس على وجه التذلل والتقرب كمن يذبح لكبير، أو أمير على سبيل التعظيم له لا على سبيل التقربِ له، لا على سبيل التذلل له فهو لا يذبح له تعبدًا، ولكن يذبحُ من باب تعظيمه فهذا محرم وكبيرة من كبائر الذنوب لقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) رواه مسلم، كتاب: الصَّيْدِ وَالذَّبَائِحِ وَمَا يُؤْكَلُ مِنَ الْحَيَوَانِ، باب: تَحْرِيمِ الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى وَلَعْنِ فَاعِلِهِ، برقم: (١٩٧٨).

وَسَلَّمَ: «لَا عَقْرَ فِي الْإِسْلَامِ»[1] **والعقرُ**: هو الذبح بين يديّ الكبير، أو الأميرِ، أو نحوه على سبيل التعظيم له لا يريد الإنسان بهذا الذبح أن يكرم هذا الكبير وتؤكل الذبيحة لا، يريد أن يعظمه بالذبح، ولكنهُ لا يتقرب إليه، ولا يتذلل إليه بذلك فهو قد يذبح لله، ولكن يجعل هذه للأمير، للوزير، للكبير على سبيل التعظيم له عقرًا لا على سبيل الذبح للإكرام وأكل الذبائح؛ يضبطه بعض أهل العلم بأنه: "من باب التفاخر بالذبح"، وهذا يفعله بعض ضعاف النفوس إذا دخل مثلًا: شخص مسؤول كبير في الدولة إلى المستشفى ثم خرج تسابق بعض ضعاف النفوس للذبح بين يديه، بعضهم يذبح عند باب المستشفى ويتنافسون منهم من يأتي بإبل، ومنهم من يأتي ببقر، ومنهم من يأتي بذبائح هذا (عقر)، وهذه كبيرة من كبائر الذنوب.

أما إذا وقع الذبح من أجل التمتع بالأكل، أو من أجل البيع والشراء وكان يذكر عليه اسم الله فهذا الذبح مباح ولا حرج فيه من الأشياء المباحة؛ كون الإنسان يذبح ليبيع عنده محل يبيع فيه اللحم فيذبح من أجل البيع ويذكر اسم الله عليه فهذا مباح.

وإذا وقع الذبح لقصد إكرام الضيف أو لوليمةٍ شرعية فهذه عبادة يؤجر عليها الإنسان، إذا ذبح الإنسان يقصد أن يكرم ضيفه فهذه عبادة «وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»[2] وقد ذكر أهل العلم: "أن الذبح لإكرام الضيف عبادة"، ولكن هل يجوز التكلف للضيف يعني: هل يجوز أن يزيد الإنسان على ما يحتاجه الضيف، يأتي الضيف، الضيف يحتاج مثلًا: أو الضيوف يحتاجون إلى ذبيحة من الغنم، فيذبح من الإبل، أو يذبح من

---

(١) رواه أبو داود، كتاب: الجنائز، باب: كَرَاهِيَةِ الذَّبْحِ عِنْدَ الْقَبْرِ، برقم: (٣٢٢٢)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، برقم: (٢٤٣٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: الْحَثِّ عَلَى إِكْرَامِ الْجَارِ وَالضَّيْفِ، وَلُزُومِ الصَّمْتِ إِلَّا عَنِ الْخَيْرِ وَكَوْنِ ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ الْإِيمَانِ، برقم: (٤٧).

البقر، أو يذبح ثلاث شياه، أو أربع شياه قال العلماء هنا، **لا يخلو الحال من أمرين:**

- **الأمر الأول:** أن يذبح مما يملك لا يتكلف، ولا يستدين ولكن يملك هذا فيذبح للإكرام ويبالغ فهذا جائز، ولا حرج فيه بشرط أن لايعقبه إسراف، واستدل أهل العلم على هذا بأن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام لما جاءه ثلاثةٌ من الملائكة في هيئة بشر رآهم ضيوفًا فانسل من بين أيديهم وراغَ إلى أهله، وذبح لهم عجلاً سمينًا شواه لهم، وجاء به بين أيديهم؛ والمعلوم أن العِجل زائدٌ عن الثلاثة والثلاثة لا يستطيعون أكل العجل ولكنه عَلَيْهِ السَّلَام بالغ في إكرامهم مما عنده فهذا لا حرج فيه.

- أما إذا كان من باب التكلف لا يملك الإنسان ولكن يتكلف ويأتي بما ليس عنده قد يذهب يستدين ويقولون: هذي من عادتنا عيب فضيحة ألا أذبح لهم فهذا منهيٌّ عنه، وقد صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه نهى عن التكلف، وقد جاء أضياف لسلمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فجاءهم بماء فقط، وقال: « **لَوْلَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَانَا عَنِ التَّكَلُّفِ لِلضَّيْفِ لَتَكَلَّفْتُ لَكُمْ**»[1] يعني: لست بخيلاً ولكن هذا الذي عندي الذي عندي الماء، ولو أردت أن آتيكم بغير الماء فأنا أحتاج إلى التكلف، والذي منعني من التكلف أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهانا عن التكلف، وهذا الحقيقة أمر ينبغي أن يشاع بين الناس؛ لأن الناس يتكلفون ويزعمون أن ذلك من العادة، والعادة محكمة من شروط تحكيم العادة أن لا تخالف نصًا، وهذه العادة مخالفة للنص، ولذلك المحمود في إكرام الضيف أن يأتيَ الإنسان للضيف بما عندهُ ولو بالغ فيه فهو محمود، أما أن يأتي ويتكلف، ويأتي بما ليس عنده فهذا مذموم، إذن نقول: إذا وقع الذبح لقصدِ إكرام الضيف أو لوليمةٍ شرعية فهذه عبادة يؤجر عليها الإنسان.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، برقم: (٧١٤٦)، وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، برقم: (١٩٥٧).

إذن نقول: إذا وقع الذبح لغير الله على سبيل التعظيم، والتذلل، والتقرب فهذا شرك، وإذا وقع الذبح بين يدي عظيم من العظماء لتعظيمه لا للتذلل إليه والتقرب إليه، وإنما للذبح بين يديه فهذا محرم وكبيرة من كبائر الذنوب، وإن وقع الذبح بقصد أمر دنيوي كالبيع والشراء فهذا مباح، وإن وقع بقصد تحصيل أمر شرعي كإكرام الضيف فهذا عبادة يحمد عليها الإنسان ويؤجر عليها.

قال رحمة الله عليه: وَدَلِيلُ النَّذر قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرًا﴾.

الشَّرْح:

هذا دليل على أن النذر عبادة، والحقيقة الذي يمكن أن يقال بصـــورة دقيقة: أن الوفاء بالنذر عبادة، والنذر في ذاته لا يجوز صـرفه إلا لله سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الله عزَّ وجلَّ أثنى على هؤلاء العباد بأنهم يوفون بالنذر، فدل ذلك على أنه عبادة، لأن الثناء بهذه الصـــفة دليل على أن الله يحب هذا يحب الوفاء بالنذر، وهذا دليل على أنه عبادة، فكل محبوب لله عبادة كما تقدم معنا ماذا قلنا في العبادة: اســم جامع لكل ما يحبه الله ويرضـــاه، فإذا علمنا أن الله يحب هذا الفعل علمنا أنه عبادة، فدل ذلك على أن النذر عبادة.

والعلماء يقولون إن النذر نوعان، النذر له صور كثيرة، لكن نذر الطاعة نوعان:

- نذر ابتداء: ويســميه بعض أهل العلم بالنذر المطلق، يســميه بعضــهم بنذر الابتداء، ويسـميه بعضـهم بالنذر المطلق، ومعناه: أن ينذر العبد طاعة لله من غير تعليق بشـيء، يقول لله عليّ أن أصوم ثلاثة أيام من هذا الشهر، ما علق بشيء فهذا نذر الابتداء.
- والنوع الثاني: نذر المجازاة: ويســميه بعضــهم بنذر الجزاء، أي: أن يلتزم العبد طاعة في مقابل نعمة تســتجلب أو نقمة تســتدفع؛ نذر التزام العبد طاعة في مقابل إما نعمة تســتجلب يريد جلبها، أو نقمة يريد دفعها، فيقول: إن نجحت في الاختبار فلله عليّ أن أتصــدق بكذا، التزم طاعة وهي الصــدقة في مقابل نعمة النجاح، إن دفع الله عني المرض لله عليّ أن أصوم كذا، فنذر والتزم طاعة وهي الصيام في مقابل نقمة يريد دفعها وهي المرض، فهذا يسمى بنذر المجازاة.

والدخول في النذر بنوعيه محل خلاف بين أهل العلم، فمن أهل العلم من يراه مكروهًا، وهذا قول الأكثر أن الدخول في النذر مكروه، ومن أهل العلم من يراه محرمًا، لماذا؟ قالوا لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن النذر، وقال: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ»[1] متفق عليه، قالوا فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن النذر، والنهي إما أن يدل على التحريم، أو يدل على الكراهة، فبعض أهل العلم وهذا مشهور عن بعض الحنابلة يقولون: إن الدخول في النذر محرم، لماذا؟ قالوا لأن الأصل في النهي التحريم، لاسيما وقد عُلِّل النهي بصفة تقتضي التحريم، وأكثر أهل العلم قالوا النهي لكراهة التنزيه لماذا؟ قالوا لأن الله أمر بالوفاء به، ولو كان محرمًا لما أمر بالوفاء به، فدل ذلك على أنه مكروه، قالوا ويدل على كراهية الدخول في النذر بنوعيه أنه لا ينبغي للعبد أن يوجب على نفسه ما لم يوجبه الله عليه؛ لأن هذا يقوده للحرج، والدخول في الحرج مذموم سواء قلنا أنه مكروه أو محرم، يقولون الله عزَّ وجلَّ لم يلزم هذا العبد أن يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، فإذا ألزم نفسه بالنذر قد يؤول به ذلك إلى الحرج والمشقة، فمادام ذلك كذلك فيكون الدخول فيه مذمومًا، إما أنه مكروه أو محرم، وقالوا أيضًا لأنه إذا فعل تلك العبادات بلا نذر كان خيرًا له؛ لأنه إذا فعل تلك العبادات بلا نذر كان ذلك من المبادرة فيكون خيرًا له يعني: يقولون من يصوم في كل شهر ثلاثة أيام بلا نذر هذا لنشاطه في الطاعة فيكون خيرًا له، لكن الذي يصوم ثلاثة أيام من كل شهر؛ لأنه نذر فإذا أقبلت الأيام الثلاثة امتعض وقال جاء وقت الصيام، فيكون عمله بلا نذر خيرا له، ولذلك قالوا إن الدخول في النذر بنوعيه يكون مكروهًا، ويرى بعض أهل العلم أن الدخول في النذر مباح وهذا يُنسب نسبة للإمام مالك، وأغرب بعضهم فذكر أنه مستحب، قال الحافظ بن حجر رَحِمَهُ الله: ((وإني لَا تعجب مِمَّنِ انْطَلَقَ لِسَانُهُ بِأَنَّهُ لَيْسَ بِمَكْرُوهٍ مَعَ ثُبُوت النهي

---

(١) رواه مسلم، كتاب: النذر، باب: النَّهْيِ عَنِ النَّذْرِ وَأَنَّهُ لَا يَرُدُّ شَيْئًا، برقم: (١٦٣٩).

الصَّـــرِيحِ عَنْهُ فَأَقَلُّ دَرَجَاتِهِ أَنْ يَكُونَ مَكْرُوهًا كَرَاهَةَ تَنْزِيهٍ))[١]، ومن أهل العلم من قال: إن الدخول في نذر المجازاة مذموم، والدخول في النذر المطلق محمود، يعني أن تقول مثلًا: لله علي أن أصوم، لله علي أن أتصدق قالوا: محمود، أن تقول إن شفى الله مريضي لله عليّ أن أتصدق قالوا: هذا مذموم للفظ الحديث، فإن لفظ الحديث يتفق مع نذر المجازاة، فإنه لا يأتي بخير فهو مشعر أنه نذر وأن هذا النذر لا يأتيه بخير، فلا يجلب نعمة ولا يستدفع نقمة، وإنما يستخرج به من البخيل، ومن أهل العلم من قال: إن الدخول في النذر مذموم ومحرم لمن خشـــي عليه أن يعتقد أن النذر هو الجالب للنعمة، يعني: بعض الناس عنده ضـــعف فلو قال إن شـــفى الله مريضي لله علي أن أصوم ثلاثة أيام، فشفى الله المريض يعتقد أن النذر هو الذي شفى المريض، قالوا في حق هذا يكون الدخول في النذر مذمومًا، أما في حق غيره فلا، والذي يظهر لي والله أعلم أن الدخول في النذر بنوعيه منهي عنه، ســـواء كان نذر الابتداء، أو نذر المجازاة لإطلاق النهي، فالنبي صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ نهى عن النذر، والنذر بنوعيه موجود ومعلوم فلم يفصـل النبي صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ، ولأن العلة موجودة في النوعين، وهي أنه لا ينبغي للعبد أن يدخل نفسه في ما يوقعه في الحرج، فأحب الدين إلى الله أيسره، والنذر بنوعيه قد يوقع في الحرج فالذي يظهر والله أعلم أن الدخول في النذر ابتداءً يعني: منهي عنه، لكن إذا نذر الإنسان ووقع النذر وكان النذر طاعة فإنه يجب الوفاء به، وهذا محل إجماع، أجمع المســـلمون في الجملة على أن من نذر نذر طاعة وجب عليه أن يفي به، قال النبي صَـــلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّمَ: **«مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ»**[٢]رواه البخاري في الصـحيح، وهذا يدل على أن النذر عبادة ولا يجوز جعله لغير الله، جعل النذور لأصـحاب القبور من الشـرك، ينذر الإنسـان بقرة، أو شـاة، أو مال لصـاحب القبر، فهذا من الشرك؛ لأنه صرف نوع من أنواع العبادة لغير الله عزَّ وجلَّ.

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٥٧٨/١١).

(٢) رواه البخاري، كتاب: الإيمان والنذور، باب: النذر في الطاعة، برقم: (٦٦٩٦).

قال رحمة الله عليه: "الأَصْلُ الثَّانِي: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ".

الشَّرْح:

بعد أن عرفنا الأصل العظيم الأول وهو معرفة ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر الشيخ: **"الأَصْلُ الثَّانِي مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْــلامِ بِالأَدِلَّةِ"**؛ **الدين يطلق في اللغة**: على الطاعة، والانقياد، والذلة، والجزاء، والقهر، هذه من معاني الدين في لغة العرب، الطاعة، والانقياد، والذلة، والقهر، والجزاء، كلها من معاني الدين في لغة العرب.

والدين في الاصطلاح الشرعي وفي النصوص: يطلق في الأصل على كل ما يتقرب به العبد إلى معبود، فعبادة الأصـــنام دين، وعبادة الأنبياء والملائكة والصـــالحين دين، وعبادة الله دين، يدل لذلك قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُل يا أَيُّهَا الكافِرونَ﴾[1] إلى قوله سُــبْحَانَه في آخر السورة ﴿لَكُم دينُكُم وَلِيَ دينِ﴾[2] فسمى دينهم وهم كفار دينًا، فالدين في الأصل يطلق على هذا، ثم أصبح إذا أُطلق يُراد به على وجه العموم: ما شرع الله وبعث به الأنبياء.

❖ فإذا أطلقت كلمة الدين في النصوص ما المراد بها؟

ما شرعه الله وبعث به الأنبياء وهو دين الإسلام، فدين الأنبياء جميعًا الإسلام قال الله عزَّ وجــلَّ عن نوحٍ أنــه قــال: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[3]، وقال الله عزَّ وجلَّ عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّــلَام ويعقوب أنهما قالا:

---

(١) سورة الكافرون: (١).

(٢) سورة الكافرون: (٦).

(٣) سورة يونس: (٧٢).

﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[1] قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله: ((**الْأَنْبِيَاءَ كُلَّهُمْ كَانَ دِينُهُمْ الْإِسْلَامَ مِنْ نُوحٍ إلَى الْمَسِيحِ**))[2]. قد يقول قائل: لِما لَمْ يقل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ إلى محمد بن عبد الله قال: إلى المسيح؟ المقصود أن الإسلام قبل مبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يطلق على ما شرعه الله وبعث به أنبياءه، ثم عندما بعث محمد بن عبد الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصبح الإسلام إذا أطلق والدين إذا أطلق يراد به ما جاء به محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذا أطلق الدين، أو أطلق الإسلام فإنه يراد به ما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يطلق على غيره عند الإطلاق أنه دين، ولا يطلق على ما يتقرب به إلى الله من غير ما جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه دين بعد مبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولاسيما إذا أريد بالدين الإسلام على وجه الخصوص، فلا يقال عن اليهودية اليوم إنها إسلام، ولا على النصرانية إنها إسلام، الإسلام والدين ما جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الدين الذي يجب اتباعه ورضيه الله عزَّ وجلَّ، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾[3]، وقال: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾[4]، **والمقصود بالإسلام**: هو ما جاء به محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[5] رواه مسلم.

---

(١) سورة البقرة: (١٣٢).

(٢) مجموع الفتاوى: (٢٩٢/١٨).

(٣) سورة آل عمران: (١٩).

(٤) سورة آل عمران: (٨٥).

(٥) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِرِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، وَنَسْخِ الْمِلَلِ

قـال شـــيخ الإســـلام ابن تيميـة رَحِمَـهُ الله: ((وَمَعْنَى الْحَدِيثِ مُتَوَاتِرٌ عَنْـهُ مَعْلُومٌ بِالِاضْطِرَارِ))[(١)]؛ معنى الحديث متواترٌ عنه: فالحديث متواتر المعنى معلومٌ بالاضطرار.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ الله معلقاً على الحديث قال: ((فَلَمْ يَبْقَ خَلْقٌ يَعْقِلُ مُنْذُ بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى مُحَمَّدًا صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ كِتَابِيٌّ، وَلَا وَثَنِيٌّ، وَلَا حَيٌّ ذُو رُوحٍ مِنْ جِنٍّ وَلَا إِنْسٍ بَلَغَتْهُ دَعْوَةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا قَامَتْ عَلَيْهِ حُجَّةُ اللَّهِ بِاتِّبَاعِ دِينِهِ، وَكَانَ مُؤْمِنًا بِاتِّبَاعِهِ، وَكَافِرًا بِتَرْكِ اتِّبَاعِهِ))[(٢)]، إذن الاسلام والدين إذا أطلق هكذا: الدين؛ فالمراد به بعد مبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما جاء به محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال شـيخ الإسـلام رَحِمَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ رحمةً واسـعة محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ الله قال: "مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْـلامِ بِالأَدِلَّةِ" مقصـودة رَحِمَهُ الله: أنه يجب على المكلف أن يتعلم أصـل دين الإســلام بالأدلة، لا بد أن يكون تعلم الإنســان لدينه لمســائله الكبار بالأدلة، هذا من فروض الأعيان، ويدخل دخولًا أوليًا في قول النبي صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَـةٌ عَلَى كُلِّ مُسْـلِمٍ»[(٣)]؛ ولأن القلب يطمئن اطمئنانًا لا شــك فيه إذا علم الأدلة، فواجبٌ على كل مكلف أن يتعلم أصل دين الإسلام بالأدلة.

ومن ترك ما يجب عليه من التعلم أثم لتركه التعلم، لتركه الواجب عليه وإن اعتقد اعتقاداً صحيحاً صح اعتقاده، ولكنه يأثم من جهة ترك الواجب عليه وهو التعلم.

فلا بد أن يتعلم المســلم أصـول دين الإســلام بالأدلة، أما فروع الإســلام، وتفاصــيل الإسلام، وتفاصيل العبادات فهذه بحسب حال الشخص:

بِمِلَّتِهِ، برقم: (١٥٣).

(١) مجموع الفتاوى: (٤/٢٠٦).

(٢) كتاب الأم للشافعي: (٢/٢٦٦).

(٣) رواه ابن ماجة، كتاب: الإيمان، باب: فَضْلِ الْعُلَمَاءِ وَالْحَثِّ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، برقم: (٢٢٤).

- فإن كان الشخص مجتهدًا، فإن الواجب أن يعرفها بالأدلة بل أن يستنبطها من الأدلة، إذا كان مجتهدًا.

- وإذا كان طالب علم يعرف الأدلة ويفرق بينها لكنه لا يقدر على الاستنباط؛ فالواجب عليه أن يعرفها بالأدلة، يعني: يتعلمها بالأدلة كحالنا في هذا الزمان، معظم طلاب العلم اليوم لا يستنبطون، وليست عندهم القدرة على الاستنباط، لكنهم يعرفون الدليل، ويعرفون الترجيح، والتعارض، وقواعد الترجيح، فهؤلاء يجب أن يتعلموا فروع الإسلام بالأدلة في تعلمهم، وإن كان الرجل أو الشخص عامياً لا يفرق بين آية وآية، وحديث وحديث، فهذا فرضه أن يسأل عالماً يثق بدينه، ولا يلزم أن يتعلم بالأدلة؛ لأنه لا يعرف الأدلة، فلا يطلب منه أن يتعلم بالأدلة.

وانتبهوا ولا يطلب من المفتي أن يذكر له الدليل على وجه اللزوم، لكن قال فقهاء الإسلام في باب الفتوى أنه يستحب للمفتي إذا أفتى وللفتوى دليلٌ من النص أن يذكر الدليل، لماذا؟

✍ قالوا لأن له فائدتين:

الفائدة الأولى: اطمئنان قلب العامي بالحكم. نعم العامي لا يعرف مدلول الآية ولا يعرف الأمر للوجوب ويحمل على الاستحباب عند القرينة، ولا يعرف النسخ والظاهر، والمجمل والمبين، ولكن إذا قيل له الحكم كذا؛ لأن الله قال بمجرد أن يسمع؛ لأن الله قال يطمئن قلبه، كذلك لو قيل له لأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال فإن قلبه يطمئن، قالوا إذن الفائدة الأولى اطمئنان قلب المستفتي.

والفائدة الثانية: تعليق قلوب عباد الله بالأدلة، حتى تتعلق القلوب بالقرآن والسنة، وهذا أمر معروف الآن أكثر المسلمين لا يتعلقون بالقرآن لم يرتبطوا بالقرآن.

ولذلك بعض الناس إذا سمع القرآن يتلى في بيت قال: سـبحان الله عندهم قرآن؛ عندهم ميت؟ أصـبح القرآن إذا سمع إما أن عندهم ميت مات أو نحو ذلك، ليس هناك تعلق بالقرآن، فإذا سمع الناس الأحكام مقرونة بقال الله قال رسـوله صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ فهذا يعلق قلوبهم بالكتاب والسنة، وهذا أمرٌ مطلوب.

إذن نقول: إذا كان الشـخص عاميًا فإن فرضـه أن يسـأل عالمِا يثق بدينه؛ وفرض العالم أن يفتيه بما يعلم من حكم، ويســتحب للعالم أن يذكر له الدليل للفائدتين المذكورتين، فهذا مراد الشيخ **"مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ"**.

قال رحمة الله عليه: "وَهُوَ: الاسْــتِسْــلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ".

الشَّرْح:

لعلنا نقف عند هذه إن شاء الله، لكن نشرح هذه الجملة ثم نقف عندها.

❖ **هذه ثلاثة أصول يقوم عليها الإسلام:**

أولها: الاستسلام لله بالتوحيد، ويقابل الاستسلام ويضاده الاستكبار، أن يتكبر فلا يستسلم لله بالتوحيد. والاستسلام هو الخضوع لله، والذل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتسليم الأمر له بالتوحيد.

والأصل الثاني: الانقياد لله بالطاعة، وهذا في الحقيقة من الاستسلام وذلك بفعل المأمور واجتناب المحظور.

والأصل الثالث: البراءة من الشرك وأهله وفي بعض نسخ الكتاب (والخلوص من الشرك)؛ يعني في بعض نسخ الكتاب: (الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك)، وفي بعض النسخ: (الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله) والمعنى واحد؛ لأن الخلوص من الشرك يكون بالبراءة من الشرك وأهله.

وهذا المعنى الذي ذكره الشيخ مستقر عند أهل العلم ليس من اختراع الشيخ، يقول مثلًا: إمام المفسرين ابن جرير الطبري: **((الإسلام إِقْرَارُ الْأَلْسُنِ وَالْقُلُوبِ لله بِالْعُبُودِيَّةِ وَالذِّلَّةِ،**

وَانْقِيَادُهَا لَهُ بِالطَّاعَةِ فِيمَا أَمَرَ وَنَهَى، وَتَذَلُّلُهَا لَهُ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِ اسْـتِكْبَارٍ عَلَيْهِ وَلَا انْحِرَافٍ عَنْهُ دُونَ إِشْرَاكِ غَيْرِهِ مِنْ خَلْقِهِ مَعَهُ فِي الْعُبُودِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ))[١] هذا هو معنى كلام الشيخ.

يقول ابن جرير بنصه: ((الإسلام إِقْرَارُ الْأَلْسُنِ وَالْقُلُوبِ لَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ وَالذِّلَّةِ، وَانْقِيَادُهَا لَهُ بِالطَّاعَةِ فِيمَا أَمَرَ وَنَهَى، وَتَذَلُّلُهَا لَهُ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِ اسْتِكْبَارٍ عَلَيْهِ وَلَا انْحِرَافٍ عَنْهُ دُونَ إِشْرَاكِ غَيْرِهِ مِنْ خَلْقِهِ مَعَهُ فِي الْعُبُودِيَّةِ وَالْأُلُوهِيَّةِ))[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله: ((الْإِسْلَامُ يَجْمَعُ مَعْنَيَيْنِ: أَحَدُهُمَا الِاسْتِسْلَامُ وَالِانْقِيَادُ؛ قال: فَلَا يَكُونُ مُتَكَبِّرًا))[٣] هذا المعنى الأول، ويدخل فيه من كلام الشـــيخ محمد بن عبد الوهاب: "الاسْتِسْلَامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ".

قال شيخ الإسلام: ((وَالثَّانِي الْإِخْلَاصُ فَلَا يَكُونُ مُشْرِكًا)) فيدخل فيه من كلام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: "وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ".

ثم قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله: ((فَمَنْ لَمْ يَسْـتَسْـلِمْ لِلَّهِ فَقَدْ اسْـتَكْبَرَ وَمَنْ اسْتَسْلَمَ لِلَّهِ وَلِغَيْرِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ وَكُلٌّ مِنْ الْكِبْرِ وَالشِّرْكِ ضِدُّ الْإِسْلَامِ))[٤]؛ إذن الإسلام لابد فيه من الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة، ولابد فيه من البراءة من الشرك وأهله.

---

(١) تفسير الطبري: (٥/٢٨١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) مجموع الفتاوى: (١٠/١٤).

(٤) مجموع الفتاوى: (١٠/١٤)

هذه الأصـــول الثلاثة دل الله عليها قول الله عَزَّ وَجَلَّ مثلًا: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]، ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ هـذه البراءة من الشـــرك وأهله، ﴿وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ هـذا هو الاستسلام لله والانقياد له بالطاعة، فهذا هو الإسلام.

(١) سورة البقرة: (٢٥٦).

ثم إننا نجتمع في مسـجد رسـولنا محمد ابن عبد الله صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ لنطلب العلم الذي نرجو أن ننتفع به، وأن ننفع به، وأن يَسُرنا عند لقاء ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نجتمع على شرح كتاب من الأهمية بمكانةٍ عظمى على شـرح كتاب الأصـول الثلاثة لشـيخ الإسـلام محمد ابن عبد الوهاب رَحِمَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ.

وكنا في مجلس البارحة قد شرعنا في قراءة الأصل الثاني وهو **"مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ"** وبينا معنى هذه الجملة، ومراد الشيخ من هذه الجملة، وبينا معنى قول الشيخ: إن الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراء من الشرك وأهله، أو والخلوص من الشرك، ونواصل اليوم قراءة ما ذكره الشيخ والتعليق عليه.

يقول المصنف رحمة الله عليه: "وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإسْلامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ".

الشَّرْح:

أي: أن الدين الإسلامي ثلاث مراتب بعضها فوق بعض، بعضها أعلى من بعض على ما جاء في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَام، وهذه المراتب هي ما ذكره الشيخ حيث قال: **"الإِسْلامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ"** أولها: الإسلام، ثم يعلوه الإيمان، ثم يعلوه الإحسان، والإحسان يتضمن الإيمان، والإيمان يتضمن الإسلام وسيأتي شرح ما يتعلق بكل مرتبةٍ في كلام الشيخ.

قال: "وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ، فأركان الإسلام خمسة".

الشَّرْح:

قبل هذا الإسلام والإيمان إذا اجتمعا كان للإسلام معنًا وكان للإيمان معنًا فيكون الإسلام بمعنى الأعمال الظاهرة، ويكون الإيمان بمعنى الأعمال الباطنة كما ورد في حديث جبريل، أما إذا افترقا فأُفرد الإسلام فإنه يدخل فيه الإيمان فيشمل الأعمال الظاهرة والباطنة، وإذا أفرد الإيمان فإنه يدخل فيه الإسلام فيشمل الإسلام، إذن نقول كما يقول العلماء: (لفظ الإيمان والإسلام إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا)، يعني: إذا اجتمعا في الذكر فاقترنا في الذكر افترقا في المعنى، وإذا افترقا في الذكر فانفرد كل واحد اجتمعا في المعنى، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله في هذا الباب: ((**والتَّحْقِيقَ أَنَّ الدَّلَالَةَ تَخْتَلِفُ بِالتَّجْرِيدِ وَالِاقْتِرَانِ**))[1]، يعني: الدلالة يعني: معنى الإسلام ومعنى الإيمان التحقيق أن الدلالة تختلف بالتجريد والاقتران، ومن فهم هذا انحلت عنه إشكالات كثيرة في كثيرٍ من المواضع من فهم الاختلاف بحسب التجريد والاقتران انحلت عنه إشكالات كثيرة في كثيرٍ من المواضع.

قال الشيخ: "**وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ**" **الأركان**: جمع ركن، والركن كما يقول العلماء جانب الشـيء الأقوى الذي لا يقوم إلا به وكان داخلًا في ماهيته، فكل مرتبة لها أركان على ما جاء في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَام ثم فصل الشيخ ذلك.

(١) مجموع الفتاوى: (٧/٣٦٠).

قال رحمة الله عليه: "فَأَرْكَان الإسلام خَمْسَة".

الشَّرْح:

مرتبة الإسلام لها أركان خمسة، فالأمور التي يبنى عليها الإسلام خمسة، وفروع الإسلام متفرعة عن هذا الخمس جاء في حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَان، وَحَجّ بَيْتِ اللَّهِ اَلْحَرَامْ»[1] والحديث متفقٌ عليه.

فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ» ومن هنا قال العلماء أركان الإسلام خمسة، وكما سيأتي إن شاء الله في حديث جبريل الذي سيذكر الشيخ لفظه في آخر المراتب، إذن أركان الإسلام خمسة أي: ما يبنى عليه الإسلام خمسة.

❖ **وهذه الأمور الخمسة مرتبةٌ بحسب الأهمية:**

فأولها: الشهادتان، وهما لازمتان في كل وقت وأساس الأعمال فلا يصح عملٌ إلا بهما.

وثانيها: الصلاة فثاني الأركان الصلاة فهي فريضة اليوم والليلة فرضت خمسة مراتٍ في اليوم والليلة.

وثالثها: الزكاة فهي فريضةٌ في العام في غالب الأموال الزكوية، لكن نفعها متعدٍ فيتعدى إلى أصناف الزكاة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين}، برقم: (٤٥١٤)، ورواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: قول النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ، برقم: (١٦).

ورابعها: الصوم فهو فريضة العام كالزكاة لكن الفرق أن الزكاة نفعها متعدٍ، والصومَ نفعه قاصر والعلماء يقولون: (المتعدي أفضل من القاصر)، فكانت الزكاة قبل الصوم مع اشتراكهما في كون كل واحدٍ منهما فريضة عام.

وخامسها: الحج وهو فريضة العمر لمن استطاع إليه سبيلًا.

هذه الأمور الخمسة منها ما لا يصح الإسلام إلا به بالإجماع لا يصح الإسلام إلا بالإتيان به بإجماع العلماء وهو الشهادتان فلا يقبل الله بعد مبعث محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دينا ممن سمع بمحمدٍ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا ممن جاء بهاتين الشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ومنها ما هو محل خلاف هل يصح الإسلام بدون الإتيان به أو لا يصح إلا بالإتيان به، والصحيح من أقوال أهل العلم: أنه لا يصح الإسلام إلا بالإتيان به ألا وهو إقامة الصلاة فالصلاة اختلف أهل العلم هل يصح إسلام من نطق بالشهادتين إذا لم يأتي بالصلاة أو لا يصح، والصحيح من أقوال أهل العلم أنه لا يصح.

ومنها ما هو مختلفٌ فيه أيضًا هل يصح الإسلام بدون الإتيان به أو لا يصح؟ والصحيح أنه يصح وهذا هو المتعلق بباقي الأركان الزكاة، والصوم، والحج؛ وقلنا إن الصلاة اختلف أهل العلم هل يصح الإسلام بدون الإتيان بها أو لا يصح بعد اتفاقهم على أن من جحد وجوب الصلاة فليس بمسلم كافر، الإقرار بوجوبها لا بد منه لصحة الإسلام لكن من أقرّ بوجوبها وتركها تكاسلًا عنها فهل يصح إسلامه أو لا يصح؟ اختلف علماؤنا قديمًا وحديثًا في هذه المسألة، والصواب الذي تدل عليه الأدلة أن من ترك الصلاة تهاونًا لا يصح إسلامه بل هو كافر.

إذن لو أن شخصًا قال لنا أركان الإسلام الخمسة هل يصح إسلام من لم يأتي بها قلنا من لم يأتي بها جميعًا فإسلامه غير صحيح بإجماع أهل العلم، ومن لم يأتي بالشهادتين فإسلامه

غير صحيحٍ بإجماع أهل العلم، ومن لم يأتي بالصلاة منكرًا لوجوبها فإسلامه غير صحيحٍ بإجماع أهل العلم، ومن لم يأتي بالصلاة تهاونا مع الإقرار بوجوبها فإسلامه غير صحيحٍ على الصحيح من أقوال أهل العلم، ومن لم يأتي بالزكاة والصوم والحج منكرًا لوجوبها فإسلامه غير صحيحٍ باتفاق أهل العلم، ومن لم يأتي بالزكاة والصوم والحج تهاونًا وبخلًا مع إقراره بوجوبها فإسلامه صحيحٌ على الصحيح من أقوال أهل العلم، وقد دلت على ذلك أدلةٌ كثيرةٌ جدًا تدل على الذي ذكرناه من التفصيل؛ مثلًا: ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾(1)، فذكر الله عَزَّ وَجَلَّ ثلاثة قيودٍ، أو شروط للأخوة في الدين:

أولها: التوبة من الشرك الإتيان بالشهادتين، وهذا كما قلنا محل اتفاق.

وثانيها: إقامة الصلاة فظاهر الآية يدل على أن إقامة الصلاة شرطٌ للإسلام للأخوة في الدين.

فمن لم يأتِ بالصلاة فإنَّه لا يكون من إخواننا في الدين، ولم يأتِ دليلٌ صحيحٌ صريح يُخرج الآية عن ظاهرها.

والقيد الثالث: إيتاءُ الزكاة؛ لكن ظاهر الآية متروكٌ في إيتاء الزكاة لوجود نصوصٍ صريحة تدل على ذلك منها قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مانع الزكاة في عقوبته يوم القيامة قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»(2) ولو كان كافرًا فإنَّه لا يُرى سبيله إلى الجنة أبدًا بل سبيله إلى النَّار.

---

(1) سورة التوبة: (١١).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الكسوف، باب: إِثْمِ مَانِعِ الزَّكَاةِ، برقم: (٩٨٧).

فدلَّ ذلك على أنَّ الزكاة من لم يأتي بها فهو مسـلم مرتكبٌ لكبيرةٍ من كبائر الذنوب، وإذا ثبت هذا في الزكاة فإنما بعدها مثلها؛ لأن الزكاة قرينة الصلاة.

قال رحمة الله عليه: "فَأَرْكَانُ الإِسْلامِ خَمْسَةٌ: شَهَادَةُ أَن لا اله إِلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ"، فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

الشَّرْح:

فدليل الشهادة: الشهادة كما هو معلوم شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله وسُميت شهادة؛ لأنَّه لا بد فيها من الاعتقاد الجازم المبني على العلم، الشهادة لا يجوز إلا أن تكون بعلم لا يجوز للإنسان أن يشهد بغير علم لا يجوز أن تشهد على أحدٍ مثلًا: بالظن لا يجوز أن تشهد حتى تعلم كما تعرف الشمس في رابعةِ النهار، فسُميت الشهادة شهادة؛ لأنَّه لا بد فيها من الاعتقاد الجازم والعلم البيِّن.

يقول الشيخ: **فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1] هذا دليل عظيم على عِظَم هذه الشهادة؛ لأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ شهد بها فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهذا من توحيد الله لنفسه فالله يوحد نفسه والقرآن مملوءٌ بهذا، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شهد لنفسه بالتوحيد وأخبر عباده بذلك، وأعلمهم بذلك، وألزمهم بذلك وأمرهم به.

---

(١) سورة آل عمرآن: (١٨).

إذن شَـهِدَ: تأتي بمعنى شـهد لنفسـه، وتأتي أيضًـا بمعنى أخبر وأبان وأعلم، وتأتي أيضًـا بمعنى: قضى وألزم وكلها معانٍ صحيحة مقصودة هنا ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ أي: شـهد لنفسه وأخبر عباده، وألزم بذلك عباده، ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فالملائكة شهدوا بذلك وأقروا به، ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ فأهل العلم عباد الله المقربون شـهدوا بذلك وأقروا به، ثم قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ انظر هنا يا أخي الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم في آخر الآية قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهذا تأكيد لهذا التوحيد من جهة، وقال بعض المفسـرين: كرر الله عَزَّ وَجَلَّ قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في آخر الآية ليكون التالي ممن شَـــهِدَ، يعني: لاحظ الآية الأولى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ فشهد الله، وشهد الملائكة، وشهد أولوا العلم أنت الآن تتلوا ثم تقول: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فتكون داخلًا في الشهادة فتكون شهدت، فكانت هذه فائدة من فوائد تكرار قول الله عَزَّ وَجَلَّ في الآية: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فتضـمنت الآية ودلت دلالة بيّنة واضحة على وحدانية الله عَزَّ وَجَلَّ المنافية للشرك والأدلة على الشهادتين كثيرة جدًا.

والشيخ هنا يقيم الدليل على شهادة أن لا إله إلا الله ويشرح معناها، ثم يقيم الدليل على شهادة أن محمدًا رسول الله ويشرح معناها.

قال: "وَمَعْنَاهَا: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إلا اللهُ".

الشَّرْح:

معنى لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله؛ معناها: الاعتقاد الجازم أنه لا معبود حق إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أو لا معبود بحق إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا بد هنا من تقدير ولا يمكن أن يقدر الخبر بموجود فيقال: المعنى لا معبود موجود إلا الله؛ لأن هناك معبودات كثيرة موجودة تعبد من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لكن عبادتها بظلم وليست بحق فيتعين التقدير لا معبود بحق إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا إله إلا الله تجمع النفي العام والإثبات الخاص، فأولها "لا إله": نفي عام لكل معبود غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن "لا": نافية للجنس فهي تنفي جنس المعبود غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى "إلا الله": تثبت عبادة خاصة وهي العبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك يقول الشـيخ: لا معبود بحق إلا الله لا إله نافيًا جميع ما يعبد من دون الله؛ لأن لا هنا كما قلنا لا نافية للجنس إلا الله: مثبتًا العبادة له وحده لا شريك له، ففيها النفي العام، والإثبات الخاص.

قال: وَمَعْنَاهَا: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إلا اللهُ، و(لا إله) نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، (إِلا اللهُ) مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ لا شَــــرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَـــرِيكٌ فِي مُلْكِهِ، وَتَفْسِيرُهَا: الَّذِي يُوَضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

الشَّرْح:

هذه الآية تفسر شهادة أن لا إله إلا الله ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾[1] وهو إمام الحنفاء ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ هذا نفيٌ لكل معبودٍ غير الله عَزَّ وَجَلَّ وبراءةٌ منه ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ هذا إثباتٌ لعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إثباتٌ للتوحيد ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ الكلمة هي كلمة الإخلاص لا إله إلا الله فلا يزال في عقب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام من يقول هذه الكلمة من بعده، فهذه الآية تفسر المعنى الذي يذكره أهل العلم لقول لا إله إلا الله.

---

(١) سورة الزخرف: (٢٦/٢٨).

قال: وقولُه تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1].

الشَّرْح:

هذه الآية أيضًا تفسر معنى لا إله إلا الله ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من اليهود والنصارى ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: إلى كلمة عدل نستوي فيها جميعًا ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا إثبات العبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ هذا نفي العبادة نفي عبادة غير عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: في التحليل والتحريم ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ هذا دليل على المعنى الذي يذكره أهل العلم وأن شهادة أن لا إله إلا الله معناها لا معبود حقٌ إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(١) سورة آل عمران: (٦٤).

قال: ودليلُ شــهادةِ أنَّ محمدًا رســولُ اللهِ صَــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ قولهُ تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

الشَّرْح:

هذا دليل من الأدلة على أن محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول والأدلة على ذلك كثيرةٌ جدًا منها هذا الدليل قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[1] تعرفونه وتعرفون شأنه، وتعرفون حاله، وتعرفون أخلاقه وهو أيضا من أنفسكم فهو من أنفُسكم تعرفونه وتعرفون حاله، ومن أنفَسكم فهو من أشرفكم ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذه صفته فهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾[2] وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[3]والأدلة على نبوة محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متواترةٌ ظاهرة.

---

(١) سورة التوبة: (١٢٨).

(٢) سورة الفتح: (٢٩).

(٣) سورة الأعراف: (١٥٨).

قال رحمة الله عليه: "وَمَعْنَى شَهَادَة أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، واجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزجَرَ وألَا يُعْبَدَ اللهُ إلا بِمَا شَرَعَ".

الشَّرْح:

معنى شهادة أن محمدًا رسول الله أن نؤمن به، ونحبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوق محبة كل محبوبٍ من الخلق فلا تتحقق شهادة أن محمدًا رسول الله إلا بالإيمان به، ومحبته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوق الناس أجمعين، لا تتحقق شهادة أن محمدًا رسول الله حتى يحب العبد محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوق نفسه وفوق أهله وفوق الناس أجمعين؛ كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والذي نفسي بيده لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[1] متفقٌ عليه، وفي روايةٍ لمسلم «حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[2] وأن يطاع صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل ما يأمر به؛ لأن طاعته طاعةٌ لله فمن أطاع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد أطاع الله يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[3]، وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الصحيحين: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ»[4]، وأن يجتنب كل ما نهى عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾[5].

"وألَا يُعْبَدَ اللهُ إلا بِمَا شَرَعَ" فالعبادة لا تكون عبادة إلا إذا كانت على اتباع لمحمدٍ

---

(١) رواه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: حب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الإيمان، برقم: (١٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: وُجُوبِ مَحَبَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْثَرَ مِنَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ، برقم: (٤٤).

(٣) سورة النساء: (٨٠).

(٤) رواه البخاري، كتاب، الجهاد والسير، باب، يقاتل من وراء الإمام ويتقى به، برقم: (٢٩٥٧).

(٥) سورة الحشر: (٧).

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا بد فيها من الإخلاص، ولا بد فيها من الاتباع، وتصديقه أيضا بما أخبر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تصديقه في أخباره كلها سواءً كانت ماضية، أو مستقبلة وأن لا يحكِّم الإنسان عقله في رد الأخبار الثابتة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا بد من تصديق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أخباره الماضية والغائبة المشاهدة والغائبة على سبيل الإجمال يعني: تصديق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أخباره فيه جانبان: فيه جانب الإجمال، وفيه جانب التفصيل؛ أما جانب الإجمال فيجب على كل مسلم أن يعتقد أن محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صادقٌ في كل أخباره فيصدق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل أخباره على سبيل الإجمال بهذا الاعتقاد، وأما على سبيل التفصيل: فهو أن يصدق المسلم كل خبرٍ ثبت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبلغه كل خبر ثبت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبلغه لا بد من تصديقه فيه، أما ما لم يبلغ العبد بطريقٍ صحيح فلا يعاقب الإنسان على ترك الإقرار به مفصلاً، إذا ذكر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خبرًا فلم يبلغ العبد بطريقٍ صحيح فإنه لا يعاقب على أنه لم يصدق به لكونه لم يبلغه بطريق صحيح إذن تصديق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أخبر فيه جانب الإجمال وفيه جانب التفصيل؛ أما الإجمال: فهو الاعتقاد الجازم أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صادقٌ في كل ما أخبر به.

وأمَّا جانبُ التفصيل: فهو تصديق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل خبرٍ ثبت عنه وبلغ العبد؛ فإنَّه يجب أن يُصدق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك وقول الإمام رَحِمَهُ الله: **"وألا يُعْبَدَ اللهُ إلا بِمَا شَرَعَ"** هذه قاعدةٌ كلية، قاعدةٌ عظيمة، قاعدةٌ جليل من قواعد الدين: وهي ألّا يُعبد الله إلا بإتباع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[1] وقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا**

(١) رواه مسلم، كتاب: الحدود، باب: نَقْضِ الْأَحْكَامِ الْبَاطِلَةِ، وَرَدِّ مُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، برقم: (١٧١٨).

لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[1]، والأدلةُ على هذه القاعدة الجليلة العظيمة كثيرةٌ جدًا.

إذن معنى شهادةِ أنَّ محمدًا رسول الله: طَاعَتُهُ فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وألَّا يُعبد الله إلا بما شرع، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله: **((حق الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علينا أن نؤمنَ بهِ، ونطيعَهُ، ونتبعَهُ، ونُحِبَهُ، ونسلمَ لحكمهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))**[2].

---

(١) رواه البخاري، كتاب: الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، برقم: (٢٦٩٧)، ورواه مسلم، كتاب: الحدود، باب: نَقْضِ الْأَحْكَامِ الْبَاطِلَةِ، وَرَدِّ مُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، برقم: (١٧١٨).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠٩/٣).

قال رحمةُ الله عليه: "ودليلُ الصَـلَاةِ والزكاة وتفسير التوحيد قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾.

الشَّرْح:

"ودليلُ الصَلَاةِ" الصلاة هي الركنُ الثانِي من أركانِ الإسلام وشأنها عظيمٌ جدًا فهي أهم أمور المسلم بعد الشهادتين هي عمود الإسلام الذي لا يقوم الإسلام إلا بهِ كما جاء في الحديث عند الترمذي، والنَّسائي، وابن ماجه، وأحمد، وصححه جمعٌ من أهل العلم منهم شيخ الإسلام ابن تيمية وشيخ الإسلام ابن القيم وغيرُهما من أهل العلم؛ وهي آخر ما يُفقد من الدين كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«آخِرُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الصَّلَاة»**[(١)]رواه الحاكم والبَيْهَقِي وغيرهما.

وهي أول ما يحاسَبُ العبد عليه يوم القيامة أي: في حقوق الله قال النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَوَلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَة صَلَاتُهُ»**[(٢)]رواه أصحاب السُنَن، قال العلماء: الإنسان يوم القيامة يحاسب عن حقوق الله، ويحاسب عن حقوق الخلق، فأول ما يحاسب عنه من حقوق الله: الصَلَاة، وأول ما يحاسب عنه من حقوق الخلق: الدِمَاء كما ثبت بذلك الحديث.

والصلاة بها التمييزُ بين المسلم والكافر، وهي العهد الذي بيننا وبين الكفار، وهي العمل

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، برقم: (٨٤٤٨)، والبيهقي في سنن الكبرى، برقم: (١٢٦٩٦)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، برقم: (١٧٣٩).

(٢) رواه أبو داود، كتاب: الصلاة، باب: قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ صَلَاةٍ لَا يُتِمُّهَا صَاحِبُهَا تُتَمُّ مِنْ تَطَوُّعِهِ»، برقم: (٨٦٤)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، برقم: (١٣٣٠).

الذي شرعه الله عَزَّ وَجَلَّ ليلة الإِسْرَاء ولم يجعل بينه وبين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه واسطة فدل ذلك على عظِيم قدر الصلاة، ولذا كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين حضرتهُ الوفاة يوصي بها ويقول: «الصَّلَاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»[1].

فيقول الشيخ: "وَدَلِيلُ الصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ"؛ الزكاة قرينة الصلاة في كتاب الله فإذا ذكرت الصلاة ذكرت الزكاة وتفسير التوحيد قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [2] هذا تفسير التوحيد وهو عبادة الله عَزَّ وَجَلَّ مع المَيْلِ عن الشرك وأهله، ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هذا دليل الصلاة، ﴿وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهذا دليل الزكاة.

❖ **والعلماء قالوا: إقامة الصلاة لها حالتان:**

- **إحداهما**: حالةٌ لازمةٌ لكل مكلف وهو أداؤها على أقل ما تصح به هذا لازمٌ لكل مكلفٍ بها.
- **والثانية**: تكميلها والإتيان بها على السنة من كل وجه، وهذه مستحبة لقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»[3] فيستحب للعبد المسلم أن يقيم الصلاة كما أقامها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يحرص على ذلك فهذا من إقامة الصلاة؛ لكن الواجب منها هو الإتيان بها على أقل ما تصح به، وقد تقدم

---

(١) رواه ابن ماجة، كتاب: الجنائز، باب: مَا جَاءَ فِي ذِكْرِ مَرَضِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم: (١٦٢٥)، وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، برقم: (٢١٧٨).

(٢) سورة البينة: (٥).

(٣) رواه البخاري، كتاب: الأذان، باب: الأذان للمسافر، إذا كانوا جماعة، والإقامة، وكذلك بعرفة وجمع، وقول المؤذن: الصلاة في الرحال، في الليلة الباردة أو المطيرة، برقم: (٦٣١).

معنا الكلام على مسألة الإتيان بالصلاة في مسألة الإسلام، ﴿وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ هو: فعلها على الوجه المشروع في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال رحمة الله عليه: وَدَلِيلُ الصِّـــيَامِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

الشَّرْح:

"**وَدَلِيلُ الصِّيَامِ**" أي: دليل الصيام المفروض؛ لأن الصيام إذا أطلق فإن الذهن ينصرف إلى الصوم المفروض الذي هو صوم رمضان، والصيام كما تعلمون من أعظم العبادات، وهو سرٌّ بين العبد وربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يطلع عليه إلا الله، وعبادةٌ تقوي التقوى ومراقبة الله في نفس صاحبها الإنسان يكون صائماً ويكون منفرداً بنفسه ويرى الأكل فلا يمد يده ويرى الشرب وهو عطشان يرى الماء وهو عطشان فلا يمد يده إلى الإناء يراقب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك اختص الله عَزَّ وَجَلَّ بالجزاء عليه فلم يطلع على قدر الجزاء على الصيام أحد كما جاء في الحديث القدسي في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: «**إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي**»[1]، وجاء هذا مفسراً في قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَّا الصَّوْمَ**»[2] فإنه مستثنى من ذلك يقول الله: «**إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ**» فالصيام عبادة عظيمة تدل على مراقبة العبد لربه سُبْحَانَه، والصيام الذي هو المفروض صيام شهر رمضان ركنٌ عظيم من أركان

---

(١) رواه البخاري، كتاب: اللباس، باب: ما يذكر في المسك، برقم: (٥٩٢٧)، ورواه مسلم، كتاب: الصيام، باب: فضل الصيام، برقم: (١١٥١).

(٢) سبق تخريجه.

الإسـلام الشـيخ يقول: "**دَلِيلُ الصِّـيَامِ قول الله عَزَّ وَجَلَّ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1] فـالصــــيـام شريعة مشتركة كانت مفروضةً على الأمم قبلنا، وأنتم تعلمون أن دين الأنبياء من جهة التوحيد واحد، وأما من جهة الشـــرائع فإن الأنبياء يختلفون في ذلك، والصــيام شــريعةٌ مشــتركة، و﴿كُتِبَ﴾ بمعنى: فُرض ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فُرِض ﴿عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ كمـا فُرِض ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ فالصـيام كان مفروضـًـا على الذين من قبلنا وإن كنا لا نعلم صـفة فرضـه عليهم؛ لكنا نعلم ونعتقد اعتقادًا جازمًا أنه كان مفروضـًا على الذين من قبلنا، ونعتقد أيضًا أن الصيام على هذه الأمة أيسر من الصيام المفروض على الأمم السابقة، فالله عَزَّ وَجَلَّ خفف عن أمَّةِ محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووضع عنها الآصار والأغلال.

---

(١) سورة البقرة: (١٨٣).

قال رحمةُ الله عليه: ودَلِيلُ الْحَجِّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

الشَّرْح:

هذا هو الرُّكن الخامس من أركان الإسلام، وهو واجب في العمر مرة على المستطيع فمن توفرت فيه شــروط الوجوب وجب عليه أن يُبادر إلى الحج كما تقدم معنا في شــروحنا على كتاب الحج، والحج على الصحيح من أقوال أهل العلم واجب على الفور لمن توفرت فيه شروط الوجوب، والحج ركنٌ عظيم من أركان الإسـلام وفضـله عظيم؛ ولهذا قال النبي صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ: «مِنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُــقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أمه»[1] كما في الصـــحيحين والأحـاديث في فضل الحج كثيرةٌ جدًّا.

ودليــل الحج قول الله عَزَّ وَجَـلَّ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾[2] هذه الآية دليل على وجوب الحج على كل مُكَلَّفٍ يستطيع السبيل إلى الحج، ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ﴾ ختم الله عَزَّ وَجَلَّ الآية بهذا، ولهذا قال بعض أهل العلم: إنَّ ترك الحج مع توفر الشــروط كفر يخرج من المِلَّة؛ لكن ذهب جمهور أهل العلم وهو الصـواب إلى أن: ترك الحج تكاسـلًا مع الإقرار بوجوبه لا يخرج من ملة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن الصحـابة رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ كانوا لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر إلا

(١) رواه البخاري، كتاب: الحج، باب: فضل الحج المبرور، برقم: (١٥٢١).

(٢) سورة آل عمرآن: (٩٧).

الصلاة، فالحج تركه كبيرةٌ عظيمة من كبائر الذنوب، لكن إذا كان الإنسان مقرًا بوجوبه فإن هذا لا يقتضي كفره وخروجه من ملة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذه هي أركان الإسلام، وهذه هي المرتبة الأولى من مراتب الدين، وهذه الأركان الخمسة كما قلنا مرتبةٌ بهذا الترتيب الذي ذكره الإمام، وهذا الترتيب موافقٌ للأهمية كما تقدم معنا.

قال رحمة الله عليه: "الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ".

الشَّرْح:

هذه المرتبة الثانية وهي مرتبة الإيمان، وفيها تفصيل، ولا يحسُن أن يعني نفصل الكلام فيها فإن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ غدًا سنتكلم عن هذه المرتبة حتى ننهيها إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ ويكون الكلام فيها متصلًا.

يقول المصـــنف رحمة الله عليه: " الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ وَهُوَ بِضْـعٌ وَسَـبْعُونَ شُـعْبَةً، فَأَعْلاهَا قَوْلُ لا اله إِلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ".

الشَّرْح:

وسنبدأ إن شاء الله في شرح بقية الأصول الثلاثة بادئين بالمرتبة الثانية من مراتب الدين.

بعد أن ذكر الشيخ رَحِمَهُ الله أن الدين ثلاث مراتب؛ الإسلام، والإيمان، والإحسان وتكلم عن المرتبة الأولى: وهي الإسلام؛ شرع في بيان المرتبة الثانية وهي الإيمان، والإسلام والإيمان لفظان إذا اجتمعا كان للإســلام معنًى وللإيمان معنًى آخر؛ فيكون الإســلام بمعنى الأعمال الظاهرة، ويكون الإيمان بمعنى الأعمال الباطنة كما في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَام الذي سيأتينا إن شاء الله وهو حديث عظيم علَّمنا فيه جبريل أمور ديننا فإن جبريل عَلَيْهِ السَّـلَام قرن بين الإســلام والإيمان فسأل النبي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ عن الإسلام وسأل النبي عَلَيْهِ السَّلَام عن الإيمان، فجعل النبي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ الإسلام للأعمال الظاهرة المعروفة بأركان الإسلام، وجعل الإيمان للأعمال الباطنة المعروفة بأركان الإيمان، أما إذا افترقا فأُفرد الإسلام وقيل الإسلام أو أُفرد الإيمان فقيل الإيمان فإنه يدخل أحدهما في الآخر فيشمل الأعمال الظاهرة والباطنة مما يحبه الله ورسوله صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ فالإيمان المطلق إذا لم يُذكر معه الإسلام تدخل فيه الأعمال الظاهرة، ولذا جاء في الصحيحين أن النبي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ قال لوفد عبد القيس: «آمُرُكُمْ: بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ، أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ؟ شَـهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وأن محمدًا رسول الله، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَأَنَّ تُؤَدُّوا خُمُسَ مَا غَنِمْتُمْ»[1]، ولهذا قال مَن قال مِن السلف: (كل مؤمنٍ مسلم، وليس كل مسلمٍ مؤمنا)، إذن نقول بعبارة مختصرة الإسلام والايمان إذا اجتمعا افترقا، وإذا فترقا اجتمعا؛ إذا اجتمعا في اللفظ افترقا في المعنى، وإذا افترقا في

(١) رواه البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: {والله خلقكم وما تعملون}، برقم: (٧٥٥٦).

اللفظ اجتمعا في المعنى، فالإسلام والايمان إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا.

والإيمان في لغة العرب: هو التصـــديق عند أكثر العلماء، ومنه قول الله عَزَّ وَجَلَّ عن إخوة يوسف: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾[١]؛ أي: ما أنت بمصـــدقٍ لنا على ما ذكره بن جرير وغيره، والمعلوم أن التصديق قد يكون بالقلب، وباللسان، وبالجوارح، ولذلك في الحديث العظيم الذي قال فيه النَّبِيُّ صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَمَ: «**زِنَا العَيْنِ النَّظَرْ وَزِنَا اللِّسَــانِ المَنْطِقْ وَالنَّفْسُ تَتَمَنَّى وَتَشْــتَهِي كُتِبَ عَلَى بْنِ آدَمْ حَظُّهُ مِنَ الزِّنَا فَزِنَا العَيْنِ النَّظَرْ، وَزِنَا اللِّسَــانِ المَنْطِقْ، وَالنَّفْسُ تَتَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهْ**»[٢] والحديث متفق عليه؛ فالتصديق قد يكون بالأعمال؛ والذي يظهر لي والله أعلم بمراجعة كلام أهل العلم والتدقيق فيه أن الإيمان في لغة العرب ليس بمعنى التصـديق الذي يقابله التكذيب، يقال صـدق وكذب، ليس الإيمان في لغة العرب بمعنى التصـــديق الذي يقابله التكذيب وإنما هو تصـــديقٌ خاص؛ ومن ذلك أنه التصديق بما يُرجى ويُخاف.

يقول شــيخ الإســلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله: ((**لَا يُوجَدُ قَطُّ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ أَنَّ مَنْ عَلِمَ وُجُودَ شَـيْءٍ مِمَّا يُخَافُ وَيُرْجَى وَيَجِبُ حُبُّهُ وَتَعْظِيمُهُ؛ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يُحِبُّهُ، وَلَا يُعَظِّمُهُ، وَلَا يَخَافُهُ وَلَا يَرْجُوهُ، بَلْ يَجْحَدُ بِهِ وَيُكَذِّبُ بِهِ بِلِسَــانِهِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: هُوَ مُؤْمِنٌ؛ بَلْ وَلَوْ عَرَفَهُ بِقَلْبِهِ وَكَذَّبَ بِهِ بِلِسَـانِهِ لَمْ يَقُولُوا: هُوَ مُصَـدِّقٌ بِهِ، وَلَوْ صَـدَّقَ بِهِ مَعَ الْعَمَلِ بِخِلَافِ مُقْتَضَـاهُ لَمْ يَقُولُوا هُوَ مُؤْمِنٌ بِهِ**))[٣] يعني: لو صَـدَّق به مع العمل بخلاف مقتضـاه؛ التصـديق

---

(١) سورة يوسف: (١٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب: الاستئذان، باب: زنا الجوارح دون الفرج، برقم: (٦٢٤٣).

(٣) مجموع الفتاوى: (٧/١٢٦).

يقتضي المحبة مثلًا ولكن هو يعني يقول: صدَّقت وهو يُبغض فإن العرب لا تسميه مؤمنًا؛ إذن الإيمان في لغة العرب: هو التصديق بما يُرجى ويُخاف مع القيام بمقتضى ذلك، ومن ذلك أيضًا التصديق بالأمور الغائبة؛ العرب لا تطلق الإيمان على التصديق إلا إذا كان بأمرٍ غائب، ولذلك قال إخوة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ﴾ لماذا؟ لأنهم أخبروه عن أمرٍ غائبٍ عنه؛ فلا يُطلق إلا على التصديق بأمرٍ غائب.

ومن علمائنا مَن قال: إن الإيمان في لغة العرب مشـــتقٌ من الأمن الذي هو: الطمأنينة؛ فإنما يســـتعمل في خبرٍ يؤتمن عليه المخبَر كالأمر الغائب الذي يؤتمن عليه المخبَر، ولذلك لو اشترك اثنان في التصديق بأمر ليس خاصًّا بهما لا يُقال آمنا به وإنما يُقال صدقا به، وإنما يُقال الإيمان في أمرٍ يؤتمن عليه هذا في اللغة.

وأما الإيمان الشــرعي: فالإيمان في الشــرع يا أحبة: هو اعتقادٌ بالقلب، وقولٌ باللســان، وعملٌ بالجوارح والأركان؛ وعلى هذا اجتمعت كلمة السلف الصالح.

يقول أبو محمد البصـــري المالكي: ((**وكان إجماع الســـلف والخلف، وأئمة الدين، وفقهاء المســـلمين من شــرقٍ وغرب، وســهلٍ وجبل، وســائر أقاليم الإســلام من مغرب ومصــر، وشــامٍ وعراق وحجازٍ ويمن وخراســان مجتمعين على أن عقيدة الســنة**))[1] إلى أن قال: ((**القول مع الاعتقاد بأن الإيمان قولٌ وعملٌ ونية**)).

وقال الإمام الشـــافعي رَحِمَهُ الله: ((**وَكَانَ الْإِجْمَاعُ مِنْ الصَّـــحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَنْ أَدْرَكْنَاهُمْ يَقُولُونَ: الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ لَا يُجْزِئُ وَاحِدٌ مِنْ الثَّلَاثَةِ إلَّا بِالْآخَرِ**))[2].

(١) درء التعارض العقل والنقل: (٨/٥٠٣).

(٢) مجموع الفتاوى: (٧/٣٠٨).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله: ((**وَأَجْمَعَ السَّلَفُ أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ**))(١)؛ ومعنى ذلك: أن الإيمان قول القلب وعمل القلب ثم قول اللسان وعمل الجوارح، أما قول القلب فهو التصديق الجازم بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره ويدخل فيه الإيمان بكل ما جاء به الرسول صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، ثم الناس في هذا يتفاضلون؛ ليس المؤمنون في هذا على درجةٍ واحدة بل منهم مَن يؤمن بهذا على سبيل التفصيل والإجمال ومنهم مَن يؤمن بهذا على سبيل الإجمال، ومنهم مَن يؤمن بهذا وهو يعرف أدلته، ومنهم مَن يؤمن بهذا بدون أن يعرف أدلته؛ فهم يتفاضلون في هذا.

وهذا التصديق الذي هو قول القلب يتبعه عمل القلب؛ ما هو عمل القلب؟ هو حُبُّ الله وحُبُّ رسوله صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ وتعظيم الله وتعظيم رسوله صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ وخشية الله، والإنابة إلى الله، والإخلاص لله والتوكل على الله؛ فهذه الأعمال القلبية كلها من الإيمان ويتبع الاعتقاد قول اللسان ويتبع عمل القلب عمل الجوارح من الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك.

إذن الإيمان لابد فيه من اعتقاد وقول اللسان وعمل الجوارح؛ ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله: ((**الْإِيمَانَ إذَا كَانَ قَوْلًا بِلَا عَمَلٍ فَهُوَ كُفْرٌ وَإِذَا كَانَ قَوْلًا وَعَمَلًا بِلَا نِيَّةٍ فَهُوَ نِفَاقٌ وَإِذَا كَانَ قَوْلًا وَعَمَلًا وَنِيَّةً بِلَا سُنَّةٍ فَهُوَ بِدْعَةٌ**))(٢) أما إذا كان قولًا وعملًا ونية وعلى السُنَّة فهو الإيمان المشروع الذي شرعه الله عَزَّ وَجَلَّ.

إذن الإيمان اعتقادٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالجوارح والأركان؛ عمل القلوب لابد منه لصحة الإيمان وأعمال الجوارح نوعان التي نعملها بجوارحنا نوعان: أعمالٌ فاسدة، هذه الأعمال الفاسدة منها ما يُضاد الإيمان، فانتفاءُ هذه الأعمال لابد منه لصحة الإيمان، تقولون:

---

(١) مجموع الفتاوى: (٦٧٢/٧).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٧١/٧).

مثِّل لنا، نقول: مثلًا والعياذ بالله إهانة المصحف عمل من أعمال الجوارح، وعمل صالح أو فاسد؟، عمل فاسد، هذا العمل يُضاد الإيمان، انتفاؤه شرطٌ لصحة الإيمان، فلا يصح الإيمان مع هذه الأعمال الفاسدة، يقول الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ: **((مَن يستهزأُ بالله سبحانه، أو برسوله صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، أو بالجنة، أو بالنار، أو بالقرآن، وما أشبه ذلك))** يعني: الاستهزاء بالصلاة مثلًا، أو الاستهزاء بالاستقامة، يقول: **((فإنه كافرٌ إجماعًا))**[1]**؛ لأن هذا الاستهزاء والتنقُّص دليلٌ على أن دعواه الإيمان باطلة، وأنه ليس عنده إيمان يحجزه عن الاستهزاء بما ذُكر))**، قال: **((وهكذا الذي يهين المصحف، أو يلطخه بالنجاسة، أو يجلس عليه))**، كما يفعل بعض السحرة، بعض السحرة يهينون المصحف طاعةً للجن، وبعض دراويش المسلمين يسمون هؤلاء السحرة الأولياء الصالحين، وهم في حقيقتهم كفار، يقول الشيخ: **((وهكذا الذي يهين المصحف، أو يلطخه بالنجاسة، أو يجلس عليه، وهو يعلم أنه كتاب الله))**، يعني ما وقع خطأً، رمى شيئًا فوقع عليه وهو لا يقصد، أو لم يعلم أنه كتاب الله لا، هو يعلم أنه كتاب الله، يقول: **((هذا دليلٌ على أن هذا الرجل لا إيمان له، وإنما يدَّعي الإيمان، ولو كان عنده إيمانٌ صحيح لحجزهُ عن هذا العمل الذي يوجب الكفر))**[2]، إذن أعمال الجوارح الفاسدة التي تضاد الإيمان السلامة منها شرطٌ لصحة الإيمان، ولا يصح الإيمان إلا بانتفائها.

وأعمال الجوارح الصالحة: وهذا القسم الثاني مثل: الصلاة والزكاة ونحو ذلك لابد من شيءٍ منها يصِح به الإيمان عند السلف، فمن ادَّعى إيمانًا ولم يتقرب إلى الله بعملٍ من أعمال الجوارح مع سعة الوقت، وعدم العذر فدعواه كاذبة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ:

---

(١) فتاوى نور على الدرب لابن باز رَحِمَهُ اللهُ: (١٣٤/٤).

(٢) مجموع الفتاوى لابن باز: (٣٨/٣).

((الدين لا يكون دينًا إلا بعملٍ صـــالح))، ويقول رَحِمَهُ الله: **((حقيقة الدين هي الطاعة والانقياد وذلك إنما يتم بالفعل لا بالقول فقط، فمن لم يفعل لله شـــيئا فما دان لله دينًا ومن لا دين له فهو كافر))**[1]، ويقول شـــيخ الإســـلام ابن تيمية أيضًـــا: **((وَمِنْ الْمُمْتَنِعِ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا إيمَانًا ثَابِتًا فِي قَلْبِهِ بِأَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِ الصَّـــلَاةَ، وَالزَّكَاةَ، وَالصِّـــيَامَ، وَالْحَجَّ، وَيَعِيشُ دَهْرَهُ لَا يَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً، وَلَا يَصُومُ مِنْ رَمَضَانَ، وَلَا يُؤَدِّي لِلَّهِ زَكَاةً وَلَا يَحُجُّ إلَى بَيْتِهِ فَهَذَا مُمْتَنِعٌ وَلَا يَصْـــدُرُ هَذَا إلَّا مَعَ نِفَاقٍ فِي الْقَلْبِ وَزَنْدَقَةٍ لَا مَعَ إيمَانٍ صَحِيحٍ))**[2].

إذن دعوى الإيمان لابد لها من عملٍ صـــالح يبرهن عليها، ومن الســـلف من يُعيِّن هذا العمل ويقول: إنه الصـلاة، فمن لم يأتِ بالصـلاة فليس بمؤمن، وذلك للأدلة المعلومة التي دلت على أن تارك الصـلاة يكون كافرًا مطلقًا، سـواءً ترك الصـلاة جاحدًا لوجوبها، أو ترك الصـلاة تكاسلًا كما هو معلوم، أما إذا لم يتسع الوقت، مثل الجحد من جهة أنها كفر؛ أن ترك الصلاة كفر، النبي صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَمْ قال: **«العَهْدُ الذي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ الصَّـلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرْ»**[3]، ما قال: فمن جحدها، قال: **«فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرْ»**، هذا العمل، على الصـــحيح من أقوال أهل العلم من ترك الصـــلاة فهو كافر هذا الصـــحيح من أقوال أهل العلم، لكن أنا أقول: من السلف من يُعيِّن فعلًا معينًا وهو الصلاة، يقول: لابد منه لصحة الإيمان، ومنهم من يقول: لابد من عمل، ولم يُعيِّن الصلاة أو نحوها، ولكنه لابد أن يكون قد تقرَّب إلى الله بعمل، لكن لو أنه آمن ولم يسع الوقت للعمل، قال: أشـهد أن لا إله إلا الله وأشـهد أن محمدًا رسـول الله ومات، هل نقول: إنه ليس بمؤمن لأنه لم يعمل؟ نقول: هو مؤمن، أو مع العذر، قد يكون

---

(١) شرح عمدة الفقه لابن تيمية رَحِمَهُ الله: (٨٦/١).

(٢) مجموع الفتاوى: (٦١١/٧).

(٣) رواه الترمذي، كتاب: أبواب الإيمان، باب: مَا جَاءَ فِي تَرْكِ الصَّلَاةِ، برقم: (٢٦٢١)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، برقم: (٥٧٤).

في سعة وقت، لكن لم يعلم، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وبقي أيامًا لم يُعلَّم شيئًا من أعمال الإسلام فمات، نقول: هو مؤمن، ولو لم يصلِّ، لأنه لم يبلغه، لا، نحن نتكلم عن شخص أسلم ولم يعلم، نقول: مع العذر أو مع ضيق الوقت، فإنه مؤمن، أما إذا كان هناك سعةٌ في الوقت ولا عذر ومع ذلك لا يتقرب إلى الله بعملٍ من أعمال الجوارح قط، فهذا دليلٌ على عدم صحة إيمانه، ثم من أتى بالصلاة عند من يُكفِّر بتركها، أو من أتى بعملٍ من أعمال البر عند من لا يُكفِّر بترك الصلاة فإنه لا يكفر بترك بقية أعمال الجوارح بإجماع السلف، إن كنا نقول: أنه لابد من الصلاة، مَن صلَّى مثلًا وترك الحج، فإنه لا يكفر، إلا على الخلاف المعروف في ترك المباني الأربعة التي هي الصلاة وقلنا ما فيها، والصوم والحج والزكاة، لكن الراجح أنه لا يكفر إلا بترك الصلاة، هذا وعيد، لا ليس كفرًا، وإنما هو وعيد، هذا وعيد يعني: كأنه على طريقتهم، ولا يعني أنه منهم، فالذي يترك الزكاة مثلًا هذا متوعَّد، ولكنه ليس بكافر، الذي يترك الصيام مثلًا هذا متوعَّد ولكنه ليس بكافر، الذي يترك الحج مع القدرة عليه هذا متوعَّد ولكنه ليس بكافر، وسيأتينا إن شاء الله بيان قول أهل السنة والجماعة في هذا الباب.

هذا هو الأصل الأول من أصول أهل السنة والجماعة في الباب: وهو أن الإيمان قولٌ باللسان، واعتقادٌ بالجنان، وعملٌ بالجوارح والأركان، وينبني على ذلك أصلٌ ثانٍ وهو أن الإيمان يزيد وينقص ويتفاضل فيه الناس، بل إيمان الفرد يتفاضل، إيمانك قبل الحج، ليس كإيمانك بعد الحج، إيمان الفاسق ليس كإيمان الطائع، وإيمان الواحد منا ليس كإيمان أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فالإيمان يزيد وينقص.

وغدًا إن شاء الله سنتكلم عن هذا الأصل، ثم ننبه على أمورٍ مهمة منها مثلًا: مَن لم يعمل خيرًا قط هل يدخل الجنة؟ ومَن قال: إنه يدخل الجنة هل هو مخالفٌ لأهل السنة؟ هذا أمر سننبه عليه ونقرره إن شاء الله، ونتكلم إن شاء الله عما يتعلق بشيءٍ من قضية كفر تارك

الصـلاة تكاسـلًا، ثم نشـرع في الكلام عن شـعب الإيمان إن شـاء الله عَزَّ وَجَلَّ، ولعلنا نكتفي الليلة بهذا لأن نريد أن يكون الأخوة على علمٍ بالدرس، وغدًا إن شاء الله نكمل بما يتعلق بهذه المباحث.

يقول المصـــنف رحمة الله عليه: " الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ وَهُوَ بِضْــعٌ وَسَــبْعُونَ شُــعْبَةً، فَأَعْلاهَا قَوْلُ لا إله إلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ".

الشَّرْح:

الشـــيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أورد هذه الجملة، ومراده بإيرادها أن يُبين أن الأعمال من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، فأراد بهذه الجملة أن يُبين أصلي أهل السنة والجماعة في هذا الباب فقال: فهو بضـعٌ وسـبعون شـعبة، وهذه أعمال فالأعمال من الإيمان قال: **"فَأَعْلاهَا قَوْلُ لا إله إلا اللهُ"** هذا قول اللسان، **"وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ"** هذا عمل الجوارح، **"وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ"** هذا عمل القلب.

إذن هذه الجملة تدل على أن الأعمال من الإيمان فمن الإيمان قول: لا إله إلا الله وهذا قول اللســان، ومن الإيمان عمل القلوب وقد جاء في الحياء هنا، ومن الإيمان عمل الجوارح وقد جاء في إماطة الأذى عن الطريق؛ وأراد رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًــا أن يُبين أن الإيمان يزيد وينقص لقوله: **"وَهُوَ بِضْــعٌ وَسَــبْعُونَ شُــعْبَة"** والشـيء الذي له شـعب يتفاضـل فيتفاضـل أهله فيه بمقدار ما يحصــلون من شــعبه وقوله: **"فَأَعْلاهَا قَوْلُ لا إله إلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى"** دل على أن الإيمان له أعلى، وله أدنى، ومادام أن له أعلى وله أدنى فهو يزيد وينقص ويتفاضـــل، فبين رَحِمَهُ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ بإيراد هذه الجمل الأصــلين العظيمين اللذين يتميز بهما أهل الســنة والجماعة في باب الإيمان عن المخالفين؛ وهذا من صنيع المؤلف من لطيف الصنيع، ودقيق الفهـم؛ والبخاري رَحِمَهُ اللَّه بدأ كتاب الإيمان بحديث الشــعب ليدل على هذين الأصــلين فهذا من صـــنيع أهل العلم.

✍هنا يأتي ســـؤال يورده بعض الناس فيقول: إن الشـــيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بدأ الإيمان بالشعب ثم بعد الفراغ من الشعب ذكر الأركان لما لمْ يبدأ بالأركان قبل الشعب؟

نقول: بدأ بالشـعب ليبيِّن أصـلي أهل السـنة والجماعة في الباب حتى نعرف من هو من كان من أهل السنة والجماعة في هذا الباب ومن لم يكن ثم بعد ذلك ذكر الأركان، وهذا الذي أورده الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ ليس من عنده بل هو حديث عن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث جاء قول النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً»(١) هكذا في صحيح مسلم، وجاء عند البخاري: «بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً»(٢)، وجاء عند مسـلم: «بِضْعٌ وَسَبْعُونَ» ورجَّح كثيرٌ من العلماء رواية البخاري؛ لأن البخاري أصـــح من جهة؛ ولأن الأقل هو المتيقَّن؛ ولأن الرواية أيضـًا وردت في صـحيح مسـلم بالشـك في بعض الروايات: «بِضْـعٌ وَسَـبْعُونَ شُـعْبَةً» أو«بِضْـعٌ وَسِـتُّونَ شُـعْبَةً» ولفظ الحديث عند الإمام مسـلم أنه قال: قال النبي صَـلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ: «الْإِيمَانُ بِضْـعٌ وَسَـبْعُونَ أَوْ بِضْـعٌ وَسِـتُّونَ شُـعْبَةً، فَأَفْضَـلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ» فقوله وهو بضع وسبعون شعبة أعني: قول الإمام البضع هو من الثلاثة إلى التسعة الثلاثة، والأربعة، والخمسة، والستة، والسبعة، والثمانية، والتسعة كلها تدخل في كلمة بضع.

والشعبة: هي الجزء من الشيء والقطعة منه، والمراد بالشعب هنا: الخصال.

أن الإيمان بضـعٌ وسـبعون خصـلة؛ وهذا دليل على أن الإيمان أجزاء وأنه يتجزأ، وفيه ردٌّ على المرجئة الذين يقولون إن الإيمان وحدة كاملة وليس أجزاء يتجزأ، فالناس عندهم جميعًا في الإيمان سواء يقولون: كل مؤمن يساوي غيره من المؤمنين في الإيمان فإيمان أدنى أمة محمد صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كإيمان محمد صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يمكن أن يكون ذلك بل الإيمان له أجزاء

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: شعب الإيمان، برقم: (٣٥).

(٢) رواه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: أمور الإيمان، برقم: (٩).

والناس يتفاضـــلون فيه؛ كما أن فيه ردًّا على المعتزلة الذين يقولون: إن الإيمان وحدة واحدة إذا ذهب بعضـــه ذهب كله، فإذا علمنا أنه أجزاء فإنه يعني: يتجزأ ويتفاضـــل فيه الناس ويزيد وينقص.

قال: **"فَأَعْلاهَا قَوْلُ لا إله إلا اللهُ"** أعلى شعب الإيمان وهي أحب الكلام إلى الله تعالى كما قال النبي صَـلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ: «**أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ لَا يَضُـرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ: سُـــبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ**»[1] هذا أحب الكلام إلى الله رواه الإمام مسـلم في صـحيحه، فمن أحب الكلام إلى الله قول لا إله إلا الله، وهي يا مسـلم خيرٌ من الدنيا وما فيها كما قال النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**»[2] رواه مسلم.

ولا إله إلا الله لأجلها خلقت الخليقة، وأرســلت الرســل، وأنزلت الكتب، وهي العروة الوثقى، وهي كلمة التقوى، وهي طريق الفوز بالجنة، وهي سـبيل النجاة من النار، وهي أصــل الدين، وهي أســاس الدين، وهي رأس الأمر فكانت حقيقةً بأن تكون أعلى شــعب الإيمان، وهي أفضل الذكر كما قال النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**»[3] رواه الإمام الترمذي وحسنه الإمام الألباني رحم الله الجميع.

وهي عظيمــة في ميزان العبـد: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾[4] في ذلك اليوم العظيم تعظُم لا إله إلا الله لمن قالها من قلبه في ميزان العبد في ذلك اليوم.

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الآداب، باب: كَرَاهَةِ التَّسْمِيَةِ بِالْأَسْمَاءِ الْقَبِيحَةِ وَبِنَافِعٍ وَنَحْوِهِ، برقم: (٢١٣٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، باب: فَضْلِ التَّهْلِيلِ وَالتَّسْبِيحِ وَالدُّعَاءِ، برقم: (٢٦٩٥).

(٣) رواه الترمذي، كتاب: أبواب الدعوات، باب: مَا جَاءَ أَنَّ دَعْوَةَ المسْلِمِ مُسْتَجَابَةٌ، برقم: (٣٣٨٣)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح، برقم: (١٣).

(٤) سورة لشعراء: (٨٨ – ٨٩).

عن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَام قال لابنه عند موته: «**آمُرُكَ بِلاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ رَجَحَتْ بِهِن لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَوْ أَنَّ السَّـمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِـينَ السَّـبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً لقصَــمَتْهنَّ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**»[1] رواه الإمام أحمد، وصـــحه الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّه الجميع، فهي ثقيلةٌ في ميزان العبد إن حققها.

وحرَّم الله قائلها معتقدًا لها محققًا لها حرَّم الله قائلها كذلك على النار فمن قال لا إله إلا الله صادقًا من قلبه يبتغي بذلك وجه الله حرم الله عليه النار؛ لا إله إلا الله قال فيها النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّمَ: «**فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِك وجْهَ اللَّهِ**»[2] إذا علمت أيها المؤمن أن لا إله إلا الله هي أعلى شُـــعب الإيمان، فواجب عليك أن تعرف معناها، وأن تُحقق معناها فلا تعبد إلا الله، ولا تعلق قلبك إلا بالله سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما تقدم معنا في بيان حقيقتها ومعناها.

وأما قول الإمام رَحِمَهُ اللَّه: "**وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ**" هذا الدين الذي شرفنا الله بأن نكون من أهله جمع الخير كله وجاء بالخير كله فمن خصـــال الإيمان: إزالة الأذى عن الطريق؛ إزالة كل ما يؤذي المارة من أحجار تؤذيهم، أو أشـواكٍ تؤذيهم، أو نفاياتٍ تؤذيهم، أو إزالة ما له رائحةٌ كريهة يؤذي الناس كحيوانٍ ميت؛ إزالة الأذى عن الطريق؛ الأذى إذا أزاله المؤمن عن طريق الناس كان ذلك خصلة من خصال الإيمان.

---

(١) رواه أحمد في مسنده، برقم: (٦٥٨٣)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، برقم: (١٣٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب: الصلاة، باب: المساجد في البيوت، برقم: (٤٢٥).

ومن باب أولى أن من خصـــال الإيمان: عدم أذية المؤمنين فإذا كانت إزالة الأذى عن طريقهم من خصـــال الإيمان فما بالك بعدم أذيتهم؟ لا شـــك أنه أولى وأعظم وهذا كما قلنا عمل من أعمال الجوارح.

قال: **"وَالْحَيَاءُ شُــعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ"** إذا عرفنا الأعلى وهو: لا إله إلا الله، وعرفنا الأدون وهو: إماطة الأذى عن الطريق فإن بينهما شُعبًا فتفاضل ومن هذه الشُّعب: الحياء.

❖ ما هو الحياء؟

بعض الناس يترك الخير وإذا قلت له: لماذا؟ أســـتحي، الناس لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر فإذا قلت له: لماذا؟ قال: أســتحي والحياء من الإيمان فهل هذا حياء؟ ما هي حقيقة الحياء؟

العلماء يقولون: (إن الحياء صفةٌ انفعالية)؛ أي: أنها تحدث عند حصول سببها تحجز المرء عمَّا يخالف المروءة، وتبعث على فعل الخير واجتناب القبيح، الحياء صــفة نعم صــفةٌ عظيمة؛ ولذا قال النبي صَـلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ: **«الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ»**[1] صـفة عظيمة لا تأتي إلا بخير تحدُث عند حدوث سببها؛ لأن هناك أسـبابًا تبعث على الحياء كرؤية ما يُخل بالمروءة مثلًا فإن هذا يبعث المؤمن على الحياء، وهذه الصفة إذا وجدت في نفس الإنسان ماذا تفعل؟

تؤثر فيه تأثيرًا عظيمًا فتمنعه عمَّا يُخل بالمروءة، وتجعله حريصًـا على فعل الخير وما يُخالف المروءة قد يكون مُحرمًا، وقد يكون مباحًا فليس كل مباح يَحسُـــن بالمســـلم أن يفعله هذا الأمر مهمٌ جدًا؛ الأمور المباحة إذا أردنا أن نفعلها فلننظر في العادة هل هذا الأمر في العادة يخالف المروءة أو لا يخالف المروءة؟ ولأضرب لذلك مثالًا: خروج الرجل حاسرًا عن رأسه مباح لا شك في إباحته لكن إذا أراد الرجل أن يخرج حاسرًا عن رأسه فلينظر في العادة، فإن كانت العادة أنه

---

(١) رواه البخاري، كتاب: الأدب، باب: الحياء، برقم: (٦١١٧).

لا حرج في ذلك كعادة بعض المسلمين فلا حرج عليه، أما إذا كانت العادة أن هذا يُخل بالمروءة وأنه لا يفعله الكرام فإنه لا ينبغي أن يفعله، والحياء يَحْفِزُهُ عن ذلك، وكلما وجد الحياء في الإنسان أكثر كان متمسكًا بالمروءة أكثر، ولذلك الآن ترون الناس في الشارع، وتُفرقون بينهم بالحياء في الحقيقة فبعض الناس يلبس لباس يُخل بالمروءة وقد يكون كبيرًا في السن؛ لأن الحياء عنده قد ضَعُف، وبعض الناس تجده يلبس لبسةً تدل على المروءة والوقار؛ لأن الحياء عنده قد قوي وهكذا.

والحياء صفةٌ تبعث على فعل الخير؛ لأن الإنسان يستحي من الله، ويستحي من عباد الله فإذا استحى من الله واستحى من عباد الله فإن ذلك يبعثه على فعل الخير وعلى اجتناب القبيح.

وبعد أن أشار الشيخ هذه الإشارة التي جمعت كثيرًا من الفوائد فبيَّنت لنا أن العمل من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن أعلى الإيمان: قول لا إله إلا الله، وأن أدنى الإيمان: إماطة الأذى عن الطريق، وأن الحياء شعبةٌ من شعب الإيمان.

وبين أصلي أهل السنة والجماعة شرع رَحِمَهُ اللَّه في بيان أركان الإيمان.

قال رحمة الله عليه: "وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ".

الشَّرْح:

قال: **"وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ"** **الركن كما تقدم معنا هو**: جانب الشيء الأقوى الذي لا يحصل إلا به، فإن قال قائل: قد قال الشيخ **"الإيمان بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً"**، ثم قال: **"وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ"** فكيف نجمع بين كون الإيمان بضعًا وسبعين شعبة وأن أركانه ستة؟

فنقول: إن الإيمان الذي هو العقيدة، والتصديق بالقلب الذي هو عمل القلب أصوله ستة أركانه ستة وهذه الستة إذا ذهب بعضها زال الإيمان، فمثلًا: من آمن بالله ولم يؤمن برسل الله، أو لم يؤمن بالملائكة فإن إيمانه يزول فهذه الأركان الستة إذا زال بعضها زال الإيمان؛ أمَّا الإيمان المطلق الذي يشمل جميع الأعمال فهو بضعٌ وسبعون شعبة، وهذه الأعمال إذا ذهب بعضها لا يزول الإيمان إلا إذا ذهب قول لا إله إلا الله، يعني: هذه الشُّعب إذا ذهب بعضها هل يذهب الإيمان؟ نقول: إن كانت الشعبة الذاهبة هي قول لا إله إلا الله فإن الإيمان يذهب، أما بقية الشعب إذا ذهب بعضها فإن الإيمان لا يزول وإنما ينقص وهذا الفرق بين الأركان الستة والشعب؛ الأركان إذا ذهب بعضها يذهب الإيمان، أما الشعب إذا ذهب بعضها إذا لم يكن كلمة التوحيد فإنه لا يذهب الإيمان بالكلية وإنما ينقص؛ فأصول الإيمان التي رُكِّب منها الإيمان ستة.

قال: **"أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ"** هذا هو أصل الإيمان وأساس الإيمان وكل الأركان التالية له تابعةٌ له، ولذلك أضيفت إلى الله عَزَّ وَجَلَّ فقيل: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، فالإيمان بالله هو أصل الإيمان وإذا قيل: الإيمان بالله هكذا الإيمان بالله فإنه يدخل فيه جميع الأركان إذا قيل: الإيمان بالله سئل النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّ

الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ فقَالَ: إِيمَانٌ بِاللهِ»[1] فيدخل في ذلك الإيمان بالله، والإيمان بالرسل، والإيمان بالملائكة، والإيمان بالكتب، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر.

يقول الشـــيخ ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: ((**عند إطلاق الإيمان بالله فقط، أو الإيمان بالله ورسوله يدخل فيه كل ما شرع الله ورسوله من الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج والإيمان بالملائكة والكتاب، والنبيين، واليوم الآخر والقدر خيره وشـــره؛ لأن هذا كله داخلٌ في مســـمى الإيمان بالله لكن إذا ذكر الإيمان بالله مع بقية الأركان فيكون للإيمان بالله معنًا خاص**))[2] انتبهوا إذا أطلق الإيمان بالله من غير أن تقرن به بقية الأركان فإنه يدخل فيه جميع الأركان، أما إذا قرن بالأركان فإنه يكون له معنًا خاص، فالإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ يعني: الإيمان بوجود الله تعالى، وبربوبيته وبوحدانيته في ألوهيته، وتفرده سُبْحَانَه في أسمائه وصفاته.

الإيمان بالله يعني: أن تؤمن بوجود الله سُـــبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبربوبية الله سُـــبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبوحدانيته في ألوهيته وبتفرده في أسمائه وصـــفاته، فالإيمان بالله شـــاملٌ لأنواع التوحيد الثلاثة لتوحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وقد تقدم معنا ما يتعلق بالإيمان بوجود الله وأن الآياتِ تدل على وجود الله الآيات الشـــرعية والآيات الكونية تدل على وجود الله عَزَّ وَجَلَّ، وعلى ربوبيته، وأنه الخالق الرازق المربي بالنِّعم، ولذا لا يكاد يوجد في الناس من ينكر ذلك لا يكاد يوجد في الناس من ينكر وجود الله، أو ينكر ربوبية الله، وإن وجد من الناس من انطمســت فطرهم حتى أعلنوا بألسنتهم إنكار وجود الله، وإنكار ربوبية الله أقول أعلنوا بألســنتهم؛ لأنه من المحال أن يعتقد القلبُ عدم وجود الله وإن زعم أناس بألسنتهم أنهم لا يؤمنون بذلك.

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بَيَانِ كَوْنِ الْإِيمَانِ بِاللهِ تَعَالَى أَفْضَلَ الْأَعْمَالِ، برقم: (٨٣).

(٢) مجموع الفتاوى لابن باز: (٢٢/٣).

كذلك تقدم معنا الكلام على وحدانية الله عَزَّ وَجَلَّ في ألوهيته، وأنه سُبْحَانَهُ المستحق لأنواع العبادة وبينَّا أنواع العبادة؛ كذلك من الإيمان بالله الإيمان بتفرد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأسمائه وصفاته بمعنى: أن يثبت العبد لربه سُبْحَانَهُ ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسوله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأسماء والصفات على الوجه الذي يليق بجلال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وكماله من غير تحريفٍ، ولا تعطيلٍ، ولا تكييفٍ، ولا تمثيل.

فلا بد في الإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ من أن يؤمن العبد بأسماء الله ويؤمن بصفاتِ الله على المعاني الظاهرة منها على الوجه اللائق بكمال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من غير تحريف، **والتحريف**: هو تغيير اللفظ عن المراد بمعنى: تفسير اللفظ بغير مراد الله عزَّ وجلَّ ومراد رسوله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصرفه عن معناه الظاهر إلى معنًا آخر كقول بعض المسلمين: إن قول الله عزّ وجل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[1] معناه: استولى هذا تحريف؛ لأن معنى استوى الظاهر: علا، واستقر، وارتفع وقد دلت على ذلك الأدلة الكثيرة في كتاب الله وسنة النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذلك يفسِّر بعض المسلمين مثلًا: يد الله بالقوة، أو القدرة وهذا تحريفٌ للَّفظ عن معناه الظَّاهر الذي دلَّت الأدلة من الكتاب والسنة عليه.

كذلك نؤمن بأسماء ربنا وصفاته من غير تعطيل، **والتعطيل**: هو نفي صفات الله تَعَالَى؛ التحريف فيه نفي المعنى، والتعطيل فيه نفي المعنى والصفة، فالمعطل ينفي الصفة ولا يأتي بمعنًا جديد لها.

أيضًا لا بد أن نؤمن بأسماء ربنا وصفاته من غير تكييف وهذا أمر مهم؛ **والتكييف**: هو تشبيه الله بغيره فالتشبيه يكون فيه تكييف فيقول بعض الناس مثلًا: يد الله كيدي والعياذ بالله،

---

(١) سورة طه: (٥).

فهذا شــــبه يد الله بيده ولزم من ذلك التكييف؛ لأنه إذا شـــبه كيَّف فيكون قد كيَّف يد الله وجعل لها كيفيةً بعلمه.

وأهل السنَّة والجماعة يثبتون الصفة لله عَزَّ وَجَلَّ على معناها الظاهر اللائق بكمال الله عَزَّ وَجَلَّ ويقطعون الطمع في إدراك الكيفية لماذا؟ لأن الله لم يخبرنا بها والأمور الغيبية إنما نؤمن بما أخبرنا الله عَزَّ وَجَلَّ به منها يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1]، وقال سُــبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2] هذه قاعدة عظيمة في الأسماء والصفات فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سميعٌ بصيرٌ حقيقةً، وليس كمثله شيء فلا تمثَّل صفاته بصفاةٍ يعني: تليق بالمخلوقين، وفي قول الله سُبْحَانَهُ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ردٌّ على المعطلة الذين يعطلون صفات الله؛ إذن نحن نؤمن بأسماء الله عَزَّ وَجَلَّ وصـــفاته على المعنى الظاهر الذي تقتضـــيه لغة العرب على الوجه اللائق بكمال الله ولا نحرف ولا نعطل ولا نشـــبه ولا نكيِّف وهذا هو اللائق بكمال الله سُــبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إذن الإيمان بالله أن تؤمن بوجود الله وأن تؤمن بربوبيّة الله، وأن تؤمن بألوهيّة الله، وأن تؤمن بأسماء الله عَزَّ وَجَلَّ وصفاته هذا الإيمان إذا تحقّق في قلب العبد فإنَّ العبد يعظِّم ربَّه حق التعظيم ويخاف ربه حقَّ الخوف ويرجوا ربه حق الرجاء.

---

(١) سورة الأعراف: (١٨٠).

(٢) سورة الشورى: (١١).

قال: "وَمَلائِكَتِهِ".

الشَّرْح:

أن تؤمن بالله وملائكته الإيمان بالملائكة هذا هو الركن الثاني من أركان الإيمان قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[1] فالإيمان بالملائكة من صفات المؤمنين وهو ركنٌ عظيم من أركان الإيمان، وعدم الإيمان بالملائكة كفر وعدم الإيمان ببعضهم كفرٌ والعياذ بالله فمن لم يؤمن بجبريل عَلَيْهِ السَلَامْ فهذا كفر كذلك من لم يؤمن بميكائيل عَلَيْهِ السَلَامْ، فذلك كفر فبعض الناس والعياذ بالله يقول: إنَّ هؤلاء الملائكة إنما هم خيال لا حقيقة لهم وهذا كفر يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾[2] فسمَّاه الله عَزَّ وَجَلَّ كفرًا وسمَّاه ضلالًا بعيدًا.

والملائكة: جمع مَلَكْ والله عَزَّ وَجَلَّ جعل الملائكة رسلًا ومن هنا أخذ اسم الملائكة؛ والملائكة عالمٌ غيبي أخبرنا الله عَزَّ وَجَلَّ عنهم وأنهم مخلوقون من مخلوقاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم عَلَيْهِمِ السَّلَام أجسام نورانية لطيفة لا يعصون الله ما أمرهم خلقهم الله من نور ليس لهم تصرفٌ في الكون وإنما هم مأمورون بأمر الله عَزَّ وَجَلَّ وهم قادرون على التمثُّل بالصُّور الكريمة جعل الله لهم قدرة على التمثُّل بالصور الكريمة كان جبريل عَلَيْهِ السَّلَام يتمثل أحيانًا في صورة البشر، وهذا جعله الله عَزَّ وَجَلَّ للملائكة؛ ومن غريب أنَّا وجدنا بعض النَّاس يقولون إنَّ التمثيل الذي هو كذب جائز، والدليل عليه: أنَّ الملائكة كانوا يتمثلون بصورة البشر يقولون إنَّ تمثُّل جبريل عَلَيْهِ السَلَامْ بصورة البشر دليل على أن التمثيل حلال وجائز وهذا من أغرب

(١) سورة البقرة: (٢٨٥).

(٢) سورة النساء: (١٣٦).

الاســـتدلال بل بعض الناس يقولون: إن التمثيل الذي هو كذب عبادة يُتقرب به إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وهذا باطل فإنَّ فعل الملائكة عَلَيْهِمْ السَــلَامْ إنما هو بإذن الله عَزَّ وَجَلَّ حيث جعل لهم القدرة على أن يتمثلوا بالصورة حقيقةً فيتمثَّل جبريل عَلَيْهِ السَلَامْ بصورة بشر ولا يدَّعي ذلك كما يدَّعيه المثلون يأتي الممثل اليوم ويقول: إنَّه أبو بكر، أو يقول إنَّه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فهل هو عمر؟ هل على حقيقته يأتي بصـــورة عمر؟ لا وكلاَّ، ولكنه يكذب ويزعم أنه عمر وهذا كذب يأتي ويزعم أنه يحارب ويقاتل وهو جالسٌ في مكانه، ويقولون هذا قربة إلى الله لا والله هذا كذب وليس يعني من قبيل تمثل الملائكة بصورة البشر؛ الملائكة عَلَيْهِمْ السَلَامْ لا يعصون الله ما أمرهم وهم من عباد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يجوز لأحدٍ أن يعبدهم أو أن يصرف شيئًا من أنواع العبادة لهم، ولا يشرعُ للمسلمِ أن يفعل عبادةً عنهم من عجيب ما مرَّ بي في الحج أن رجلًا جاءني يسأل يقول: إنه نوى الحج عن جبريل عَلَيْهِ السَلَامْ إنَّه حج دخل في الإحرام قال: أنا نويت الحج عن جبريل عَلَيْهِ السَــلَامْ وهذا غير مشـــروع ولم يشـــرع لنا أن نحجَّ عن الملائكة فقلت له: على كل حال حجُّك عن نفسـك؛ لأن القاعدة عند أهل العلم: "أنَّ من نوى الحجَّ بنيةٍ لم تصِـح عن غيره تمحَّض الحجُّ له"، يعني: مثلًا لو جاء إنسـان ونوى الحج عن جبريل، أو ميكائيل عَلَيْهِ السَلَامْ ما يصح هذا فيكون الحج له، بعض الناس يأتي وينوي الحج عن أبيه وأمه معًا جاءني من سـأل هذا السـؤال قال: أنا نويت الحج هذا عن أبي وأمي معًا نقول: هذه النية لا تصلح؛ لأن الحج لا يقع إلا عن واحد ماذا يحصل بحجه؟ يتمحَّض له هو لم يحج عن نفسه وحجَّ عن غيره لا يصح هذا ماذا يقع في حجه؟ يتمحَّض له هو.

فالشـــاهد: أنه لم يشـــرع لنا أن نعمل عبادة عن الملائكة بعض الناس يتصـــدَّق وينوي الملائكة يقول: أنا أتصـدق وأنوي عني وعن والدي وعن جبريل وميكائيل أحدهم سـألني قال: أنا ذبحت الأضحية وقلت: اللهم هذا منك ولك اللهم هذا عني وعن أهل بيتي وعن ملائكتك الكرام هذا غير مشروع ولم يشرع لنا وهذا من الأخطاء التي يقع فيها بعض الناس.

نبينا صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيّن لنا أصل خِلقة الملائكة وأصل خِلقة الجن وأصل خلقة البشر فقال صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»[1] خلق من تراب، رواه مسلم في الصحيح.

وبهذا نعلم أن إبليس لم يكن من الملائكة كما هو نصُّ القرآن وإنَّما كان من الجن؛ لأن الملائكة خُلقت من نور، وإبليس خلق من نار فجنس إبليس غير جنس الملائكة؛ والملائكة عَلَيْهِمْ السَلَامْ خلقٌ كثير لا يحصيهم إلا الله سبحانه وتعالى كما ثبت في الصحيحين من قصة المعراج أن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر: «أنه رُفع له البيتُ المعمور في السماء وأنه يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا إليه»[2] كل يوم يصلي فيه سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه لا إله إلا الله عددهم كثير لا يحصيه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا يدل على كثرة عددهم سبحان الله كل يوم يأتي سبعون ألف ملك إلى البيت المعمور يصلون فيه فإذا خرجوا لا يعودون إليه بل اليوم التالي يأتي سبعون ألف ملك وهكذا، وهذا يدل على كثرتهم، وهم لهم صفات، وهم أهل جمال وحسن قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝﴾[3]﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (ذو منظر حسن) فالملائكة أهل جمال وحسن، وهم كرام بررة كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾[4]، وهم يستحيون ففيهم خُلُقُ الحياء قال النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ في عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ»[5] كان النبي

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ، باب: فِي أَحَادِيثَ مُتَفَرِّقَةٍ، برقم: (٢٩٩٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، برقم: (٣٢٠٧).

(٣) سورة النجم: (٥-٦).

(٤) سورة عبس: (١٥ – ١٦).

(٥) رواه مسلم، كتاب: فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، باب: مِنْ فَضَائِلِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، برقم: (٢٤٠١).

صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ جالسًا وقد حسر عن ركبته فدخل أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم دخل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم دخل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلمَّا دخل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غطَّى النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ ركبته الشريفة وقال: «أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاه، رواه مسلم.

ومساكنُ الملائكة عَلَيْهِمْ السَلَامْ في السماء ويتنزلون إلى الأرض بأمر الله، ولهم وظائفُ عظيمة يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾[1] والتنزُّل يدل على أنه في علو؛ لأن التنزُّل يكون من علو إلى سفل، فهذا يدل على أنَّ الملائكة يعني: في السماء فلهم صفاتٌ عظيمة فواجبٌ على المؤمن أن يؤمن بالملائكة؛ والإيمان بالملائكة يا مؤمن لا بد فيه من أربعة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بوجودهم فلا بد من الإقرار بوجودهم، ولا بد من التصديق بهم فمن أنكر وجودهم، أو شكَّ في وجودهم فليس بمؤمن.

الأمر الثاني: الإيمان بمن فُصِّل منهم على التفصيل، والإيمان بما أُجْمل منهم على سبيل الإجمال فيجب علينا أن نؤمن إيمانًا مفصلًا بمن جاء التصريح بذكرهم؛ الملائكة جاء التصريح بذكر بعضهم وذلك بصور منها: ما جاء التصريح بأسماء الملائكة فيه كجبريل عَلَيْهِ السَلَامْ، وميكائيل، وإسرافيل، ومالك، وهاروت وماروت، ورضوان، ومنكر ونكير، هذه أسماء ثبتت للملائكة في النُّصوص فنؤمن بهذه الأسماء، ويزيد بعض الناس فيما هو مشهور عندهم اسم عزرائيل ويطلقونه على ملك الموت ولم يثبُت هذا الاسم في نص أعني: عزرائيل لا شكَّ أنَّ للموت ملكًا لكنَّ الاسم بعزرائيل لم يثبت في النصوص؛ كذلك من الملائكة ما جاء النص عليه بوصفه كرقيب وعتيد رقيب ملك وعتيد ملك لكنه ليس اسمًا وإنما هو وصفٌ لهؤلاء

---

(١) سورة القدر: (٤).

الملائكة، فيجب الإيمان بمن جاء التصـــريح بذكرهم ســـواءً كان الذكر بذكر أسماءهم، أو كان بإضافتهم إلى صفاتهم، أو بالإخبار بصفاتهم.

كذلك مثلًا نؤمن بوظائف من جاء النص بوظيفته منهم كوظيفة ملك الموت وأنَّه موكل بالموت، ووظيفة ملك الجبال، ووظيفة حملة العرش فنؤمن بهذا على ســـبيل التفصـــيل، ومن لم يأت التفصـيل بهم وتعيينهم فإنَّا نؤمن بهم على سـبيل الإجمال فنؤمن بالملائكة وأنهم خلقٌ كثير لا يجوز مثلًا: لشـــخص أن يأتي فيقول أنا أؤمن مثلًا: بجبريل، وميكائيل، وإســـرافيل ومثلًا: هاروت وماروت ولا أؤمن بمن لم يأت اسمه في القرآن والســـنَّة هذا لا يجوز وليس بإيمان؛ بل نقول: نؤمن بالملائكة وأنهم خلقٌ كثير، وأن الله وصـفهم بصـفاتٍ عظيمة ونؤمن على التفصـيل بمن جاء تفصيلهم هذا الأمر الثاني.

الأمر الثالث: الإيمان بما علمنا من صـــفاتهم مثلًا: أخبرنا الله عَزَّ وَجَلْ أن الملائكة لا يعصـون الله ما أمرهم لا يتمُّ إيمانك بالملائكة حتى تؤمن أنَّهم لا يعصـون الله ما أمرهم فلو جاء إنسان وقال: نعم أنا أؤمن بالملائكة، ولكن لا يستقيم في عقلي أنَّهم لا يعصون أبدًا، ولا أؤمن أنَّهم لا يعصـون الله ما أمرهم نقول: أنت لسـت بمؤمن فلا بد من الإيمان بصـفات الملائكة التي وردت في الكتاب والسُّـنة سـواء في ذلك الإيمان بصـفاتهم المتَعلِّقة بالخِلْقَة، أو المتعلِّقة بالأمور الأخرى مثلًا: أخبرنا النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ: **«أنه رأى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ على صـفته التي خُلِقَ عليها وله سِتُّمائةِ جناح»**[1] أخبرنا نبيُّنا صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ أنه رأى جبريل عَلَيْهِ السَلَامْ على صفته التي خَلقَهُ الله عليها وله كم؟ سِتُّمائة جناح، فنؤمن مُتَيَقِّنين أن جبريل عَلَيْهِ السَلَامْ له سِتّمائة جناح فليس لأحد أن يأتي ويقول: هذا غير معقول.

(١) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: ذِكْرِ الْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ، وَالْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، برقم: (٢٨٢).

بعض الناس يُحَكِّمُ عقله في الأمور الغيبية كأنه أعلم من النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ بعض الناس مثلًا إذا قيل له: إن وَالِدَ النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ في النار؛ لأن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ قال: «أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ»[1] كما في صحيح مسلم قال: هذا غير معقول سبحان الله النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ يقول: «أَبِي وَأَبَاكَ» يأتي بعض الناس يقول: هذا غير معقول أنا ما أؤمن بهذا؛ بعض الناس إذَا ذُكر له أنَّ جبريل عَلَيْهِ السَـلَامْ له سِتُّمائة جناح يقول: هذا غير معقول عقلي ما يُصَدِّق نقول: النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ أخبرك أنَّه رآه وأن له سِتّمائة جناح قد سَدَّ الأفُق كما عند البخاري في للصحيح.

كذلك مثلًا: جاء عن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ أنه قال: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّث عَنْ مَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَة الله منْ حَمَلَةِ الْعَرْش إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذنَيْه وعَاتِقه مَسِيرَة سَبْعِمَائَةِ عَام»[2] رواه أبو داوود إن ما بين شحمة أذنيه وعاتقه مسيرة سبعمائة عام نُؤمن بهذه الصفة وهذه صفةٌ عظيمة نؤمن بها كما أخبر بها النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ إلى غير ذلك من الصفات.

الأمر الرَّابع: الإيمان بأعمالهم التي عَلِمْنا أنهم يقومون بها وَهُمْ يقومون بها بأمر الله كما عَلِمْنا مثلًا: أنهم يعبدون الله عَزَّ وَجَلَّ ليلًا ونهارًا لا يَفْتُرُون فنؤمن بأعمالهم، إذن من أعمال الملائكة مثلًا: التي عَلِمْنَاهَا أنَّهم يكتبون أعمال بني آدم لكل شخص، فنؤمن أنَّ من وظائف الملائكة أنهم يكتبون أعمال بني آدم لكل شخص، إذن الإيمان بالملائكة يكون بالإيمان بوجودهم، وبالإيمان المفَصَّل بِمن فُصِّلْ لنا منهم، والإيمان المجْمل بما أُجْمِلْ، كذلك يكون بالإيمان بصفاتهم، كذلك يكون بالإيمان بأعمالهم.

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بَيَانِ أَنَّ مِنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَلَا تَنَالُهُ شَفَاعَةٌ، وَلَا تَنْفَعُهُ قَرَابَةُ الْمُقَرَّبِينَ، برقم: (٣٤٧).

(٢) رواه داود، كتاب: السنة، باب: في الجهمية، برقم: (٤٧٢٧).

والإيمان بالملائكة له أثر عظيم في نفس المؤمن؛ لأن المؤمن إذا آمَنَ بالملائكة وبصــفاتهم العظيمة فإنَّ ذلك يجعله يزداد إيمانًا بقدرة الله سُــبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فالله سُــبْحَانَهُ هو الذي خلق الملائكة على هذه الصـفات العظيمة كذلك العبد إذا آمن بالملائكة فإنَّه يشـكر الله على نِعَمِهِ عليه فإن الله أنعم علينا ووَكَّلَ ملائكة بخيرٍ يصـلُ إلينا كالمطر، ونحوِ ذلك فإذا علم العبد أن الله عَزَّ وَجَلَّ خلق الملائكة وجعل لهم الوظائف شـكر الله على هذه النِّعم العظيمة أنت يا عبد الله تؤمن أن الله خلق ملائكة وأن هؤلاء الملائكة من أعمالهم أنهم يســتغفرون للمؤمنين، ويدعون للمؤمنين كما يحدث للمؤمن إذَا كان في مُصــلَّاه ينتظر الصــلاة فإنَّ الملائكة تدعو له: اللهم اغفر له اللهم ارحمه، إذَا عَلِمْتَ أن الله عَزَّ وَجَلَّ خلق ملائكة وهؤلاء الملائكة يُؤَمِّنُونَ على دُعائك إذا دَعَوْتَ لِأَخِيكَ بظهر الغيب فكل خيرٍ تدعوا لأخيك به في ظهر الغيب يقول: الملك آمين ولك مثله فإنك تشكر الله على هذه النعم العظيمة.

نقول إنَّ الواجب على المســلم أن يؤمن بالملائكة، والإيمان بالملائكة يجب أن يكون على وفق النصــوص ولا يجوز للمؤمن أن يخترعَ للملائكة أمورًا لم ترد بها النصــوص ويقول: أنا أؤمن بها؛ لأن الإيمان بالملائكة إيمانٌ بالمغَيَّبَات، والغيب توقيفي موقوفٌ على نصـــوص الكتاب والسنَّة، فنؤمن بما جاء في الكتاب والسنَّة ولا نزيد على ذلك شيئًا من عند أنفسنا.

وهذا أمرٌ مهم؛ لأن مِنَ الناس مَنْ يُقَصِّـرُ في الإيمان بالملائكة، ومنهم من يغلو في الإيمان بالملائكة فيزيد أمورًا لم تَرِدْ في الكتاب والســنة، وأهل الحق أهل الإيمان هم الذين يؤمنون بالملائكة على حســب ما ورد في الكتاب والســنة، وهذا هو الركن الثاني من أركان الإيمان: الإيمان بالملائكة.

يقول المصنف رحمة الله عليه: "وَكُتُبِهِ".

الشَّرْح:

يعني أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه هذا هو الركن الثالث من أركان الإيمان.

والكتب: جمع كتاب، والكتاب مأخوذ من الكَتب، والكتب هو الجمع والضم؛ سُمي الكتاب كتابًا؛ لأن الحروف والكلمات تجمع فيه ويضم بعضها إلى بعض؛ **والمراد بالكتب هنا**: الكتب التي أنزلها الله على رسله هداية ورحمة للعالمين.

إذن المراد بالكتب: الكتب والصحف التي حوت كلام الله تعالى الذى أوحاه إلى رسله عَلَيْهِم السَّلَام سواءً في ذلك ما أنزله مكتوبًا كالتوراة، أو أنزله مشافهةً عن طريق الملك ثم كُتِب بعد ذلك كالقرآن، فنقول: هي الكتب والصحف التي حوت كلام الله، فالذي في الكتب هو كلام الله حقيقةً سواءً أُنزلت مكتوبة كالتوراة فإن التوراة التي أُنزلت على نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَام أُنزلت مكتوبة كما جاء في الصحيحين عن النَّبِيِّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ أن آدم قال: «**يا مُوسَى، اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ**»[1]، أبونا آدم حاجّ موسى عَلَيْهِمَا السَّلَام فمما قاله آدم عَلَيْهِ السَّلَام لنبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَام: «**يا مُوسَى، اصْطَفَاكَ اللهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ**» فالتوراة أُنزلت مكتوبةً؛ أو أنزله الله عَزَّ وَجَلّ مشافهةً عن طريق الملك عن طريق جبريل عَلَيْهِ السَّلَام ثم كُتِبَ بعد ذلك كالقرآن؛ هذه هي الكتب المرادة هنا، والإيمان بالكتب ركنٌ من أركان الإيمان لا يقوم الإيمان إلا به كما في حديث جبريل الذى سيورده الشيخ إن شاء الله عَزَّ وَجَلّ وسنتكلم عنه، وقال تعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

(١) رواه مسلم، كتاب: القدر، باب: حِجَاجِ آدَمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، برقم: (٢٦٥٢).

وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ﴾[1] فأمر الله عَزَّ وَجَلّ بالإيمان بالكتب سواءً ما أُنزل على محمدٍ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ وهو القرآن، أو ما أنزل على الأنبياء عَلَيْهِم السَّلَام قبله.

وعدم الإيمان بالكتب أو عدم الإيمان ببعضها كفرٌ مناقضٌ للإيمان، الذي لا يؤمن بالكتب، أو الذي لا يؤمن ببعض الكتب فهو كافر، ليس من أهل الإيمان، يقول الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾[2]، وعندما نقول الإيمان بالكتب فإن هذا الإيمان يتضمن أربعة أمور؛ يعني: **أنه يتحقق بأمورٍ أربعة**:

الأمر الأول: الإيمان بأن نزولها من الله حقًا وأنها كلام الله الذي تكلم به على الحقيقة؛ فالله ربنا سُبْحَانَهُ يتكلم متى شاء، وكيف شاء بحرفٍ وصوت، فما في كتب الله عَزَّ وَجَلّ كلها كلام ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يتحقق الإيمان بالكتب إلا إذا آمن العبد بأنها منزلة من عند الله، وأن الذي فيها كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الأمر الثاني: الإيمان بأسماء تلك الكتب تفصيلاً فيما علمنا تفصيله، والإيمان ببقية الكتب إجمالًا.

❖ **فالله عَزَّ وَجَلّ أنزل على الرسل كتبًا، هذه الكتب:**

- منها ما علمنا اسمه، فنؤمن به على سبيل التفصيل.
- ومنها ما لم نعلم اسمه، فنؤمن بها على سبيل الإجمال؛ مثلًا: القرآن كتاب الله علمنا اسمه، وأنه نزل على نَبِيِّنا صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، فالقرآن خاتم الكتب أُنزل على خاتم الرسل صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ.

---

(١) سورة النساء: (١٣٦).

(٢) سورة النساء: (١٣٦).

كذلك من الكتب التوراة وقد أُنزلت على موسى عَلَيْهِ السَّلامْ، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾[1] فعلمنا اسم التوراة، فنؤمن باسمها وأنها أُنزلت على موسى عَلَيْهِ السَّلامْ، والإنجيل أُنزل على عيسى عَلَيْهِ السَّلامْ قال تَعَالَى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾[2] وقد جمع الله عَزَّ وَجَلّ بين هذه الكتب: القرآن، والتوراة، والإنجيل فقال سُبْحَانَه: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾[3]، فجمع الله عَزَّ وَجَلّ في هذه الآية بين التوراة، والإنجيل، والقرآن، كذلك من كتب الله عَزَّ وَجَلّ الزَّبور الذي أوتيه داوود عَلَيْهِ السَّـــلامْ، قال تَعَالَى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[4] وكذلك من كتب الله صُـــحُفُ إبراهيم وموســـى كما قال الله عَزَّ وَجَل: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[5]، فهذه الكتب علمنا أسماءها فنؤمن بها على ســبيل التفصــيل، أما ما لم نعلم اسمه من الكتب فنؤمن به إجمالا حيث نؤمن أن الله عَزَّ وَجَلّ أنزل على رســـله كتبًا، وأن هذه الكتب فيها كلام الله، وأنها حوت ســـعادة البشـــر، وأن فيها الهداية والنور نؤمن بهذا على سبيل الإجمال.

الأمر الثالث في الإيمان بالكتب: تصـــديق ما صَـــحَّ من أخبارها، أما القرآن فكل ما فيه صحيح وقد حفظه الله من التغيير والتبديل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأما الإنجيل والتوراة فنؤمن بالأخبار التي علمنا أنها لم تُحَرَّف فيها؛ لأن التوراة والإنجيل قد لحقها التحريف

---

(١) سورة المائدة: (٤٤).

(٢) سورة المائدة: (٤٧).

(٣) سورة آل عمران: (٣ – ٤).

(٤) سورة النساء: (١٣٦).

(٥) سورة الأعلى: (١٨ – ١٩).

وهناك من الأخبار فيها ما لم يدخله التحريف فإذا علمنا أن هذا الخبر لم يدخله التحريف فإنا نؤمن به ونعتقد أنها جميعها قد اشتملت على ما فيه السعادة لأقوام الأنبياء في الدنيا والآخرة.

الأمر الرابع في الإيمان بالكتب: هو العمل بأحكام ما لم يُنسخ منها، والرضا به، والتسليم به والمعلوم أن الكتب السابقة كلَها قد نُسخت بالقرآن منسوخةٌ بالقرآن، فهذا القرآن الذي أنزله الله عَزَّ وَجَلّ على محمدٍ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ هَيمَن على الكتب وكان حاكمًا عليها يقول الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[1] فالقرآن هيمن على الكتب السابقة، وكان حاكمًا عليها.

إذن القرآن ناسخٌ لما تقدمه من الكتب لكن ما ثبت في الكتب المتقدمة كالتوراة، والإنجيل ولم ينسخه شرعنا بل أقرّه فإنه شرعٌ لنا، شرع من قبلنا إذا ثبت أنه شرع، ولم ينسخه شرعنا فإنه من شرعنا الذي جاء به محمدٌ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، ومما يتعلق بالإيمان بالكتب أن نؤمن أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى قد حرفوا الإنجيل، والتورة، وأن الإنجيل والتوراة قد دخلهما التحريف، والواجب على المؤمن أن يعلم أنه بعد نزول القرآن لا يجوز للمؤمن أن يرجع إلى غير القرآن، ففي حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْه أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْه أتى النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ بكتابٍ أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، فغضب النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ وقال: **«أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»**[2]رواه الإمام أحمد، والبزار، والبيهقي، وإسناده صحيح.

---

(١) سورة المائدة: (٤٨).

(٢) رواه أحمد في مسنده، برقم: (١٥١٥٦)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح، برقم: (٣٨).

فالواجب على المؤمن مع إيمانه بالكتب أن يعتقد اعتقادًا جازمًا أنه يجب على المؤمنين اليوم أن يرجعوا إلى القرآن، وأن يعملوا بما جاء به النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ.

قال رحمةُ اللهِ عليه: "وَرُسُلِهِ".

الشَّرْح:

هذا الركن الرابع، **والرُسُل**: جمع رسول، والرسول معناه: المرسَل مشتقٌ من الإرسال، وهو التوجيه، والمراد بالرسول كما ذكر العلماء: (هو من أوحِيَ إليه من البشر وأُمر بتبليغه) ويزيد، بعضهم: (من أوحِيَ إليه من البشر من الذكور بشرعٍ، وأُمر بتبليغه) قالوا: (من أوحِيَ إلي) يعني: من أُنزل عليه الوحي من البشر هذا احتراز عن الجن، فإن الجن ليس منهم رسل، وإنما منهم نذر ينذرون أقوامهم، فالجن تابعون للبشر وليس منهم رسول، ومنهم نذر يسمعون ما جاءت به الأنبياء والرسل ويلقونه على أقوامهم، وقولهم: (من الذكور) هذا احتراز من النساء فإنه ليس من النساء يعني: رسول ولا نبي، (بشرعٍ وأمر بتبليغه) هذا فيه إشارة إلى تفريق بعض العلماء بين النبي والرسول.

وقد اختلف العلماء في الفرق بين النبي والرسول؛ مع اتفاقهم على أن النبي قد يُطلق ويراد به الرسول، وأن الرسول قد يُطلق ويراد به النبي، واختلفوا هل هناك فرقٌ بين الرسول والنبي وما هو هذا الفرق؟ **ومن أقوى الأقوال الواردة في التفريق**:

- أن الرسول مَن أوحى الله إليه وأرسله إلى مَن خالف أمره ليُبلِّغ رسالته.
- أما النبي فهو مَن أوحى الله إليه بما يفعله ويأمر به المؤمنين، فالنبي والرسول كلاهما يوحى إليه، لكن النبي يوحى إليه بأمرٍ يفعله هو ويأمر به المؤمنين؛ بمعنى: أن النبي لا يُرسل إلى الكفار وإنما يُرسل إلى قومٍ عندهم رسالة سابقة، ويأمرهم بما أوحاه الله عَزَّ وَجَلّ.

وبهذا يظهر الفرق بين النبي والرسول على هذا القول؛ الرسول مرسلٌ إلى عامة من يُرسَل إليه من الكفار والمسلمين، والنبي مرسلٌ إلى قومٍ عندهم رسالة، والرسول مأمور بأن يُبلِّغ الرسالة

عمومًا، والنبي مأمور بأن يُبلِّغ الرسالة لمن كانت عندهم رسالة؛ يعني: ما أوحى الله إليه يبلغه لقومٍ كانت عندهم رسالة؛ وقريبٌ من هذا قول بعض العلماء: (إن الرسول من يأتي بشريعةٍ جديدة، والنبي من يؤمر بتبليغ شريعةٍ سابقة)؛ بمعنى: أن الرسول يأتي بشريعةٍ جديدة، أما النبي فهو مجدد لشريعةٍ سابقة، وقال بعض أهل العلم: (إن الرسول هو من أوحي إليه بشرعٍ، وأُمر بتبليغه بلاغًا عامًّا، أما النبي فهو الذي أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه بلاغًا عامًّا)؛ بمعنى: أن الرسول مأمورٌ بالبلاغ والنبي مأمورٌ بالبلاغ أيضًا، لكن الرسول مأمورٌ بالبلاغ أمرًا عامًّا أن يُبلِّغ العموم، أما النبي فهو لا يؤمر بالبلاغ بلاغًا عامًّا، وعلى هذا كان نَبِيُّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ نَبِيًّا في أول البعثة؛ لأنَّ الله عَزَّ وَجَلّ أوحى إليه، ولم يأمره بأن يُنذِر الناسَ جميعًا: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1]؛ فأوحِيَ إليه بشرع وأُمِرَ أن يُبلِغه لعشيرته الأقربين، ثم بعد ذلك أصبح رسولًا حيث أمره الله عَزَّ وَجَلّ ليُبَلِغ الناسَ أجمعين، وعلى كلِ قولٍ من هذه الأقوال في الحقيقة إشكالات ومباحثات بين أهل العلم.

والإيمان برسل الله ركن من أركان الإيمان وإنكارهم، أو إنكار بعضهم كفر مناقض للإيمان؛ الذي يُنكر أنَّ نوحًا عَلَيْهِ السَّلامْ رسول؛ هذا كفر، الذي يُنكِر أنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلامْ رسول هذا كفر والعياذ بالله؛ يقول الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾[2]؛ فالذين يُفرقون بين الرسل في الإيمان هم كافرون، فيجب علينا أن نؤمن أنَّ الله أرسل رسلاً وأنبياء؛ ليُبيِّنوا للنَّاس الحقّ، وأما عددهم

(١) سورة الشعراء: (٢١٤).

(٢) سورة النساء: ١٥٠ – ١٥١)

فعدد الأنبياء ذكرَ فيه أهل العلم أمورًا، وذكروا أعداداً؛ يقول الشـــيخ ابن باز رَحِمَهُ الله: **((أمَّا إحصـاؤهم -أي الرُّسـل-، وبيان أسـمائهم فهذا إليه سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى))**[1]؛ هذه قاعدة في الغيبيات عموماً: "أنَّ الأمر إلى الله ويُوقَفُ عندما يثبت بالنصوص"، يقول الشيخ ابن باز رَحِمَهُ الله: **((أمَّا إحصـاؤهم وبيان أسـمائهم؛ فهذا إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكن جاء في حديث أبي ذرٍّ، وجاءت له شـــواهد من حديث أبي أُمامةَ وغيره، ما يدلُ على أنَّ الرُّســـل ثلاثُ مئةٍ وبضـعةَ عشـر))**، قال الشـيخ: **((لكن أسـانيدَها لا تخلوا من مقال، أما الأنبياء))**، والكلام لازال للشـــيخ ابن باز رَحِمَهُ الله قال: **((أما الأنبياء فقد جاء في إحدى الروايات؛ أنهم مئةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشـرُونَ ألفًا كلهم أنبياء، وفي رواية مئةٌ وعشـرُون ألفًا، لكن أسـانيدها فيها مقال))**، قال الشـيخ رَحِمَهُ الله: **((والحاصـلُ أنَّ الأنبياءَ والرُّسـل جمٌّ غفير -عدد كبير-، لكنَّ عِلْمَ عدَدِهِم بالقطع، يَرجِعُ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى))**[2].

وآدم عَلَيْهِ السَّلَامْ أبو البشر أوحى الله إليه، لاشك في هذا، أوحى الله إليه، لكن هل هو نبي أو رســول، يقول الشـــيخ ابن باز رَحِمَهُ الله مُحَقِّقًا هذه المســألة تحقيقًا عظيمًا: **((وآدمُ من جُملتِهم -يعني من جملة الأنبياء عَلَيْهِم السَّلَامْ - وآدم من جملتهم فقد جاء في بعض الروايات من حديث أبي ذرٍّ، وغيره أنه نبيٌّ مكلَّمٌ معلَّمْ، وجاء في بعضــها أنه رســول))** قال: **((وهو لا شــك أنه يوحى إليه وأنه على شــريعة من الله، وإنما الشــك هل هو نبيٌّ رسـول، أو نبيٌّ فقط))** هل آدم عَلَيْهِ السَّـلامْ نبي، أو نبيٌّ ورسـول، قال: **((اختلفت الروايات في ذلك، فالمقصـود أن آدم عَلَيْهِ السَّـلامْ من جملة الأنبياء بلا شـك، وأنه على شـريعة، وحديث جمع الناس ليوم القيامة وتقدُّم المؤمنين إلى نوح وقولهم له: يا نوح أنت أول**

---

[1] (١) مجموع الفتاوى لابن باز: (٣/٣٠).

[2] (٢) المرجع السابق، مجموع الفتاوى لابن باز: (٣/٣٠).

رسول أرسله الله إلى أهل الأرض يُحتَجُّ به على أن نوحٍ عَلَيْهِ السَّلامْ أول الرسل وأن آدم نبيٌّ مُكلَّمٌ فقط))[1] كأن مورد أورد على الشيخ فقيل له: ورد في بعض الروايات أن آدم رسول فكيف نجمع؟ قال الشيخ: **((ولو صَحَّ أنه رسول))** أي: لو صَحَّ أن آدم عَلَيْهِ السَّلامْ رسول، **((فالمعنى أنه رسولٌ إلى ذريته بخلاف نوح عَلَيْهِ السَّلامْ فإنه أرسل إلى قومه، وهم أهل الأرض ذلك الوقت، أما آدم فإنه أرسل إلى ذريته فقط بشريعة خاصة قبل وقوع الشرك، وأما نوح فقد أرسل إلى قومه وهم ذلك الوقت أهل الأرض جميعًا بعد وقوع الشرك في الأرض))**؛ قال الشيخ: **((وبذلك لا يبقى تعارض بين كون آدم رسولًا إن صح الحديث، وبين كون نوح هو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض))** انتهى كلام الشيخ.

فأول الأنبياء آدم عَلَيْهِ السَّلامْ، وأول الرسل إلى قومهم هو نوح، وآخرهم محمد عَلَيْهِم السَّلامْ جميعًا؛ لأن نوحًا عَلَيْهِ السَّلامْ أوحي إليه وأمر بالبلاغ أمرًا عامًّا لقومه فهو أول الرسل قال تعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾[2]، فجعل الله عَزَّ وَجَلّ البدء نوحًا عَلَيْهِ السَّلامْ، ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ والنبي هنا المقصود به الرسول، وفي الصحيح ما يدل على ذلك، ففي حديث الشفاعة أن الناس يوم القيامة يأتون أول ما يأتون إلى آدم عَلَيْهِ السَّلامْ فيعتذر إليهم فيقول: ائتوا نوحًا فإنه أول رسول أرسله الله الحديث في الصحيح، ويقوله آدم عَلَيْهِ السَّلامْ ائتوا نوحًا فإنه أول رسول أرسله الله وهذا ظاهر جدًا في الدلالة، وآخر الأنبياء والرسل مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ فلا نبي بعده فهو خاتم الأنبياء، وهو مسك الختام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ قال تعَالَى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ

---

(١) مجموع الفتاوى لابن باز: (٣/٣٢).

(٢) سورة النساء: (١٣٦).

ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[1] فخاتم الأنبياء هو مُحَمَّدٌ صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمْ فكل مَن جاء بعد النَّبِيِّ صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمْ وادّعى أنه يوحى إليه فهو كذاب دجال، ومن علامات الكذب أن يأتي شـخص فيقول إنه أوحي إليه بشـيء لم يوحى للنَّبِيِّ صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمْ كما هو مشـهور في صـلاة الفاتح أن التيجاني أوحي إليه بهذه الصـــلاة فهذه علامة الدجل وعلامة الكذب، لا نبي على الحقيقة بعد النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمْ، وإن كان سيظهر دجالون يدَّعون أنهم أنبياء ولا زالوا يظهرون، ظهر رجل سـابقًا قال إنه نبي، وقال: إن معنى اسمه في لغته لأنه أعجمي (لا) في لغة العرب والنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ قال: «غَيرَ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»[2] فقال: أنه هو المقصود وحرَّف الكلم هو دجال، ومن عجائب ما وقفت عليه قريبًا أن هناك رجلًا ادَّعى أنه نبي في دولةٍ إسلامية وكان له أتباع فغارت منهم امرأة فادَّعت أنها جبريل عَلَيْهِ السَّلامْ ومن عجيب أنه صار لها أتباع يؤمنون بها ويرون أنها جبريل عَلَيْهِ السَّلام، خاتم الأنبياء أشرفهم مُحَمَّدٌ صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمْ والله حكمٌ عدل لا يعذب أمة بضـلالها حتى يبعث في أمها رسـولًا، ولذا نعتقد اعتقادًا جازمًا لا يداخله شـك أن كل أمة قد بعث الله لها رسـولا وبعث لها نذيرًا قال الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[3]، وقال تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾[4]، فاللهُ عَزَّ وَجَلّ بعدله لا يهلك أمة ضـالة وهي غافلة بل يبعث لها رسولًا يقيم عليها الحجة، والرسل عَلَيْهِم السَّلامْ بشر فَضَّلهم الله عَزَّ وَجَلّ واصطفاهم فهم مخلوقون أجسادهم أجساد بشر؛ لأنهم بشر، وفيهم أرواح كأرواح البشر وإنما

---

(١) سورة الأحزاب: (٤٠).

(٢) رواه مسلم، كتاب: فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، باب: مِنْ فَضَائِلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، برقم: (٢٤٠٤).

(٣) سورة النحل: (٣٦).

(٤) سورة فاطر: (٢٤).

فُضِّلوا بالنبوة هم رسلٌ يُطاعون، ومخلوقون لا يُعبدون وهذا المقام العظيم رسلٌ يطاعون بما جاءوا به، ومخلوقون لا يُعبدون رسلٌ يطاعون؛ لأن الله فضلهم بالرسالة ومخلوقون لا يُعبدون من دون الله فليس لهم من خصائص الربوبية شيء وليس لهم من خصائص الألوهية شيء، ولا يتصرفون في الكون، ولا ينفعون ولا يضرون إلا بإذن الله قال تَعالى عن أعظم الأنبياء مُحَمَّدٍ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾[1]، فالله عَزَّ وَجَلّ يأمر نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ أن يقول إنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولذا لا يُعبد فإن الإله المعبود هو النافع الضار، ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾[2]، أي: أنه صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ لا يعلم الغيب وعلم الغيب يختص به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نعم النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ فُضِّل لكنه فُضِّل بأنه نذيرٌ وبشير قال اللهُ عَزَّ وَجَلّ عن النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: ﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[3] فهو مفضلٌ بالنبوة الله عَزَّ وَجَلّ قال لنبيه: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾[4] أي: أن النبي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ لا يملك لنا، وللناس ضَرًّا وَلَا رَشَدًا إلا بإذن الله؛ النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ هادي ومرشد لكنه هادٍ هداية بيان فهو صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ يهدي ولا يهدي، يهدي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ هداية البيان، ولا يهدي هداية التوفيق والدلالة صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، فهداية التوفيق من خصائص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذا حرص النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ على هداية عمه أبي طالب ولم يهتدي؛ لأن الله لم يشأ هدايته هداية توفيق النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ هدى عمه هداية إرشادٍ وبيان؛ لكنه لم يشأ الله عَزَّ وَجَلّ أن يؤمن فمات أبو

---

(١) سورة الأعراف: (١٨٨).

(٢) سورة الأعراف: (١٨٨).

(٣) سورة الأعراف: (١٨٨).

(٤) سورة الجن: (٢١).

طالب على الكفر، إذن النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ لا يملك شيئًا من خصائص الألوهية، ولو كان يملك ذلك لهدى عمه الذي كان يحبه، وكان ينصره، وكان يؤويه إذا كان هذا للنَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ لا يملك لنفسه ضَرًّا وَلَا نفعًا، ولا يملك للناس ضَرًّا وَلَا رَشَدًا، ولا يعلم الغيب فكيف بمن دونه؟ أنك لتعجب عجبًا شديدًا كيف تضيع عقول بعض المسلمين الذين يقرءون القرآن ويسمعون سنة النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ ومع ذلك يعتقدون أن رجالًا دون النبي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ يملكون الضر والنفع فيتقربون إليهم، وينذرون لهم، ويذبحون لهم، ويعتقدون أنهم يُسألون فيكتبون لهم الرسائل؛ عجبت عجبًا شديدًا عندما رأيت قبر الإمام الشافعي رَحِمَهُ الله وقد كُومت الرسائل بالأكوام عند قبره، وهناك كتبة عند الأبواب يكتبون هذه الرسائل يا إمام رأيت رسالةً يقول صاحبها: يا إمام تعلم حالي وأطلب منك أن تزورني في بيتي لترى حال زوجتي معي فإنها تفعل بي وتفعل وتفعل وأنت قادرٌ على كذا وكذا وهذا في بلد إسلامي فيه علماء، وأنك لتعجب أيما عجب من أقوامٍ يعتقدون أن أناسًا دون الأنبياء دون النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ يعلمون الغيب بعضهم يقول لا تتكلم في الولي المزعوم بزعمهم بسوء فإنه يعلم، والنَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ وهو أشرف البشر لا يعلم الغيب.

ومن حكمة الله العظيمة أن الله عَزَّ وَجَلّ جعل الرسل يلحقهم ما يلحق البشر حتى لا يتخيل متخيل، أو يتوهم متوهم أن لهم شيئًا من خصائص الألوهية يقول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلامْ يقول عن الله: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾[1] فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلامْ يطعم ويأكل ويشرب، ويمرض، ويشفى، ويموت، ويحييه الله عَزَّ وَجَلّ فالأنبياء يلحقهم ما يلحق البشر من العوارض، ولذا سُمَّ النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ لما فتح خيبر امرأة يهودية أهدت إليه شاة، ووضعت فيها

---

(١) سورة الشعراء: (٧٩ – ٨١).

سُمًّا، وزادت السُّمَّ في الذراع؛ لأنها سألت عن أكثر شيء يحبه النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ من الشاة فقيل لها الذراع فأهدت الهدية إلى النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ فجلس يأكل مع بعض أصحابه ما علم الغيب صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ فأخذ قطعة فلاكها ولم يسغها، لاكها في فمه ولم يسغها، ثم قال لأصحابه: «ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ فَإِنَّهَا أَخْبَرَتْنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ»[1] ورفعوا أيديهم ومات اثنان من الصحابة بسبب هذا السم ولم يظهر أثر السم على النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ في حينه لماذا؟ ليعلم الناس أنه نبي وليكمل الله به الدين، ولكن في آخر حياته صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ ظهر عليه أثر السم، وأخبر صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ أنه لا يزال يجد ألم ذلك السم ليعلم الناس أنه بشر يصيبه ما يصيب البشر، فانظروا إلى حكمة الله عَزَّ وَجَلّ في قصة واحدة يبين للناس أن رسوله صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ رسول ولذلك لم يؤثر فيه السم في حينيها ولم يظهر، وبعد سنين في آخر حياته صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ يظهر عليه أثر السم ويخبر النبي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ أنه تأثر بذلك السم ليعلم الناس أنه بشر صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ لا يُصرف له شيء من أنواع العبادة؛ ولكن الأنبياء معصومون فيما يتعلق بالنبوة؛ النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ قال: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي»[2] لكنه صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ لا ينسى شيئًا من الوحي بل بلَّغ الوحي جميعه، لكن يلحقه النسيان ليعلم الناس أنه بشر، النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ صلّى بأصحابه ثم سلم من ركعتين فقام ذو اليدين فقال: يَا رَسُولَ اللهِ أَقُصِرَتِ الصَّلَاةُ أَمْ نَسِيتَ؟ قال: لم تُقصر ولم أنسى قال: بلى يا رسول الله فقام النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ كالمغضب وقال: «أحق مَا قال ذُو الْيَدَيْنِ؟»[3] قالوا: نعم يا رسول فقام صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ فأتى بركعتين أتمَّ الصلاة ثم سجد للسهو بعد السلام.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب: الديات، باب: فِيمَنْ سَقَى رَجُلًا سَمًّا أَوْ أَطْعَمَهُ فَمَاتَ أَيُقَادُ مِنْهُ، برقم: (٤٥١٢)، وقال الألباني: حسن صحيح في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها، برقم: (٦٤٤١).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةَ، باب: السَّهْوِ فِي الصَّلَاةِ وَالسُّجُودِ لَهُ، برقم: (٥٧٢).

(٣) رواه البخاري، كتاب: الأذان، باب: هل يأخذ الإمام إذا شك بقول الناس؟، برقم: (٧١٤).

النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ كان يُنازَع القراءة وهو يصلي بالناس إذا قرأ بعض الناس وراءه فكان يُنازَع القراءة، وكان يحتاج أيضًا إلى أن يُفتَح عليه كل ذلك ثبت لنعلم أن النَّبِيَّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ بشر، فالأنبياء بشر لكنهم مُفضَّلون بالنبوة هم عبادٌ لا يُعبدون وإنما على عبادة ربهم يدلون الأنبياء عَلَيْهِم السَّلامْ عباد لا يعبدون، ولكنهم عَلَيْهِم السَّلامْ على عبادة ربهم يدلون وهم يعبدون الله ولا يأنفون من عبادة الله، ولذا وصفهم ربهم تشريفًا بالعبودية فقال عن نوحٍ عَلَيْهِ السَّلامْ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾[1] فمن أعلى صفاتهم عبوديتهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقال في مُحَمَّدٍ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[2]، فالرسل عبادٌ لله وهم أكمل الناس عبادة وأكمل الرسل عبادة هو مُحَمَّدٌ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ فلا عبادة أعظم من عبادة النَّبِيِّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، ولذا لا يجوز لمؤمنٍ أن يتقرب إلى الله بعبادةٍ لم يأتي بها رسول الله صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ؛ لأنه اتقى البشر لله وأعلم البشر بالله فمن أراد القرب من الله فليلزم سُنَّة رسول الله صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ ومن أحدث في أمره صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ ما ليس منه فهو رد ولذا لما سأل أولئك الثلاثة عن عبادة النَّبِيِّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ فأُخبروا بها فكأنهم تقالُّوها وقال أحدهم: إني أصوم ولا أفطر وقال الآخر إني أقوم ولا أرقد وقال الثالث إني لا أتزوج النساء لما لقيهم النبي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ قال: «**ولكني أصوم وأفطر وأقوم وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[3]، فعلمنا مما تقدم أن الأنبياء لهم مقامٌ كريم لكن ليس لهم من خصائص النبوة شيء وهم يُفضَّلون على غيرهم من البشر، ولا يجوز لمسلمٍ أن يفضل غيرهم من البشر عليهم، ومن الخذلان أن يأتي بعض المسلمين ليزعم أن شيخه أفضل من الرسول كما قال قائلهم: مقام النبوة

(١) سورة الإسراء: (٣).

(٢) سورة الفرقان: (١).

(٣) رواه البخاري، كتاب: النكاح، باب: الترغيب في النكاح، برقم: (٥٠٦٣).

في برزخٍ فويق الرسول ودون الولي فجعل الأعلى هو الولي، ثم دونه النبي، ثم دونه الرسول، وهذا من الخذلان وليس من الإيمان بالرسل.

❖ **والإيمان بالرسل يتحقق بأمور أربعة:**

أولها: الإيمان بأن رسالتهم حقٌ من الله، وأنهم ما كذبوا فيما أخبروا به فهم رسلٌ من عند الله عَزَّ وَجَلّ، والتصـــديق بأن الله بعثهم لدعوة الناس إلى عبادة الله عَزَّ وَجَلّ، والكفر بما يعبد من دون الله، وأنهم متفقون على ذلك كما قال الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[1]، لا بد في الإيمان بالرســـل من أن نؤمن بأنهم رســـل الله حقًّا وأنهم دعوا إلى التوحيد، وحذروا من الشـــرك فأصـــل دعوتهم واحد، وإن كانت شرائعهم مختلفة كلٌ يدعو إلى ما يصلح قومه كما قال الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾[2]، هذا هو الأمر الأول أن نصـدق جازمين بأنهم رسـل من عند الله، وأنهم صادقون في خبرهم، وأن كل رسول منهم دعى إلى التوحيد وحذر من الشرك.

والأمر الثاني: أن نؤمن بأسماء الأنبياء الذين علمنا أسمائهم تفصـــيلًا وأن نؤمن ببقيتهم إجمالًا.

---

(١) سورة النحل: (٣٦).

(٢) سورة المائدة: (٤٨).

درسنا كعهدنا نقرأ في شرح الأصول الثلاثة، ونحن نتكلم عن المرتبة الثانية من مراتب الدين ألَا وهي مرتبة الإيمان وكنَّا نتكلم عن الركن الرابع من أركان الإيمان ألَا وهو: الإيمان برسل الله عَلَيْهِمْ السَلَامْ، وقد ذكرتُ في آخر الدرس بالأمس أنَّ الإيمان بالرسل يتضمن أربعةَ أمور:

الأمرُ الأول: الإيمان بأنهم رُسل الله، وأنَّهم صادقون فيما أخبروا به، وأنَّهم دعوا إلى التوحيد وحذَّروا من الشرك، وأتوا أقوامهم بما أوحى ربهم إليهم.

والأمر الثاني: ووقفنا عنده، وهو الإيمان بمن عَلِمنا اسمه منهم إيمانًا مفصلًا فنؤمن به، وبوصفه وأنَّه رسول، ونؤمن بمن لم يُذكر اسمه إيمانًا مجملًا، وأنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أرسل رسلًا للناس مُهمَّتهم دعوتهم إلى الله كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[1] والمذكورون لنا بالتفصيل في القرآن من الأنبياء خمسةٌ وعشرون رسولًا، ذكرهم الله عَزَّ وَجَلَّ ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ منهم ثمانية عشر في موطنٍ واحد قال تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] فهؤلاء ثمانية عشر نبيًّا: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ونوح، وداوود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى وهارون، وزكريا، ويحي، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليَسع، ويونس، ولوطًا.

---

(١) سورة النحل: (٣٦).

(٢) سورة الأنعام: (٨٣/٨٦).

وذكر الله عَزَّ وَجَلَّ في آيات أُخر هودًا، فقال سُـبْحَانَهُ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[1] فذكر هودًا عَلَيْهِ السَلَام.

وقال تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾[2]، فذكر صالحًا عَلَيْهِ السَلَامُ.

وقال تَعَالَى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[3]، فذكر شعيبًا عَلَيْهِ السَلَامُ.

وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا﴾[4]، فذكر آدم عَلَيْهِ السَـلَامُ من الأنبياء فهو نبيٌ كما تقدم معنا.

وقال تَعَالَى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[5]، فذكر إدريس وذا الكفل.

وقال تَعَالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾[6]، فذكر محمدًا صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ. هؤلاء الأنبياء جميعًا يجب علينا أن نؤمن بأسمائهم وأوصافهم تفصيلًا كما ورد في كتاب الله، وسنَّة النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ.

أما الأمر الثالث فهو: تصـــديق ما صـــح عنهم من أخبارهم كاتخاذ الله إبراهيم خليلًا فنصـــدِّق أنَّ الله قد اتخذ إبراهيم عَلَيْهِ السَـــلَام خليلًا، كما قال الله عَزَّوَجَلَ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[7]، وكَتكْليم الله عَزَّوَجَلَ موسى عَلَيْهِ السَـلَام فنصـدِّق أن الله عَزَّوَجَلَ كلَّم

(١) سورة هود: (٥٠).

(٢) سورة هود: (٦١).

(٣) سورة هود: (٨٤).

(٤) سورة آل عمران: (٣٣).

(٥) سورة الأنبياء: (٨٥).

(٦) سورة الفتح: (٢٩).

(٧) سورة النساء: (١٢٥).

موســى كما قال الله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[1]، وكتســخير الله عَزَّوَجَلَ الجبال، والطير، والدواب لداوود تســبح بتســبيحه قال تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَ﴾[2]﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾[3]، وكتســخير الرياح والجن لســليمان عَلَيْهِ السَّــلَام: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِ﴾[4]، وكتعليم سليمان عَلَيْهِ السَّلَام منطق الطير إلى غير ذلك مما ثبت مما أوتيه الأنبياء، ومما ورد من أخبارهم.

والأمر الرابع: العمل بشريعة من أُرسل إلينا منهم، والذي أرسل إلينا منهم: هو محمد بن عبد الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، فلا بد من التسليم له واتباع أمره صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ يقول الله عَزَّوَجَلَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾[5] الله أكبر ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ فيكون التحاكم إلى ما جاء به محمدٌ صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ ثم ماذا؟ ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾ بل يســلمون التســليم المطلق؛ تســليم المحبة، وتســليم الاعتقاد أنَّ في ذلك الخير، وأن في ذلك المصلحة فمن جاءه الأمر من رسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ فإنه يسلم له لا يسلم له تسليم المغصوب وإنما يسلم له تسليم الراضي الذي يعلم أنَّ في ذلك مصلحته، وأنَّ في ذلك الخير له، فيسلم للنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ تسليمًا مطلقًا، ولا يؤمن إلا من آمن بالنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) سورة النساء: (١٦٤).

(٢) سورة الأنبياء: (٧٩).

(٣) سورة سبأ: (١٠).

(٤) سورة سبأ: (١٢).

(٥) سورة النساء: (٦٥).

وَسَلَّمْ يقول النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ»[1] يعني: أمة الدعوة، «يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ» رواه مسلمٌ في صحيحه فهذه أمورٌ أربعة يتضمنها الإيمان بالرسل.

ومما يجب علينا تجاه الرسل عَلَيْهِمْ السَلَام: أن نعتقد فضلهم على غيرهم من الناس، وأنهم أفضل البشر، وأنه لا يبلغ منزلتهم أحدٌ من البشر، وأنَّ كل من يصلح من البشر إنما يكون في صلاحه تابعًا للرسل عَلَيْهِمْ السَلَام ولن يكون أحدٌ أصلح من رسل الله عَلَيْهِمْ السَلَام وقد ضل في ذلك أقوام ينتسبون إلى الإسلام فرفعوا أقوامًا فوق مقام الرسل، وفضلوا شيوخًا لهم وأئمة لهم على رسل الله عَلَيْهِمْ السَلَام، فمن الناس من يعتقد أن شيخ الطريقة التي يتبعها أفضل من رسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ ومنهم من يعتقد أن المقبور في الضريح الذي عندهم الذي يسمونه وليًّا أفضل من رسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، فبعضهم يعتقد أن شيخه يحيي الموتى، وأن شيخه يرزق، وأن شيخه يعلم الغيب وما كان ذلك لأحد ما كان لرسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ فكيف يكون لغيره ولا شك أن هذا انحراف عظيم، وأن اعتقاد أن أحدًا من البشر يعلم الغيب، أو يرزق، أو يخلق، أو يحيي الموتى فهذا والعياذ بالله من الشرك بالله عَزَّوَجَلَ؛ الله عَزَّ وَجَلَّ اصطفى الرسل واختارهم ورفعهم على غيرهم، ولذا ثبت في الصحيحين أن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ قال: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»[2]، وفي روايةٍ للبخاري قال: قال رسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ: «مَنْ قَالَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ»[3]، وهذا زجرٌ عن التفضيل على الأنبياء عَلَيْهِمْ السَلَام.

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِرِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ، وَنَسْخِ الْمِلَلِ بِمِلَّتِهِ، برقم: (١٥٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: {وإن يونس لمن المرسلين}، برقم: (٣٤١٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: {وإن يونس لمن المرسلين}، برقم: (٤٨٠٥).

كذلك مما يجب علينا تجاه الأنبياء أن نحبهم، فالواجب علينا أن نحب أنبياء الله جميعًا نحب كل الأنبياء عَلَيْهِمْ السَلَامْ ونبغض من عاداهم، ومن أبغضهم ونكون أولياء لهم ولا بد أن نحب محمدًا صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ محبةً فوق محبتنا لكل الناس كما سيأتي إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ.

ومما ينبغي أن نعلمه أن الرسل يتفاضلون فيما بينهم، فالله عَزَّوَجَلَ يفضل بعض الرسل على بعض كما قال الله عَزَّوَجَلَ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾[1]، فأولوا العزم عَلَيْهِمْ السَلَام هم أفضل الرسل، وهم أولو الحزم، وأولو الصبر كما قال الله عَزَّو جَلَ: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[2] فهم أهل صبرٍ عظيم، وأهل حزمٍ عظيم، وقد اختلف العلماء في أولي العزم من هم؟ فقال بعض العلماء: إنهم كل الأنبياء إن أولي العزم هم كل الأنبياء؛ والتحقيق أن أولي العزم هم بعض الأنبياء فهم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمدٌ عَلَيْهِمْ السَلَام قال ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أولوا العزم من الرسل: النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، ونوحٌ، وإبراهيم، وموسى، وعيسى) وعلى هذا كثيرٌ من أهل العلم، ولذا ذكرهم الله عَزَّو جَلَ مجتمعين في القرآن قال تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[3] فأولوا العزم هم أفضل الرسل.

(١) سورة البقرة: (٢٥٣).

(٢) سورة الأحقاف: (٣٥).

(٣) سورة الأحزاب: (٧).

بقي فيما يتعلق بالرسـل أن أشـير إلى بعض الأمور التي تتردد في أذهان الناس ومن ذلك أنَّا قلنا إنَّ الرسل عَلَيْهِمْ السَلَام يعتريهم ما يعتري البشر، والمعلوم أن البشر تقع منهم الذنوب فهل الرسل عَلَيْهِمْ السَلَام تقع منهم الذنوب أم أنهم معصومون من الذنوب كلها؟ أو أنهم معصومون من بعضها دون بعض؟ فأقول: إن الأمَّة مجمعةٌ على أن النبي معصومٌ في أمر الدين فما يجب أن يبلغه إلى الأمَّة هو معصومٌ فيه فلا يتعمد فيه إخفاء، ولا يخطئ فيه ولا ينسى بل يبلغه كما أمره الله عَزَّوَ جَلَ، فالأنبياء عَلَيْهِمْ السَلَام معصومون فيما يخبرون عن الله تَعَالَى، وفي تبليغ الرسالة باتفاق الأمَّة ولا ينازع في ذلك أحدٌ من أهل العلم كما اتفق العلماء على عصمة الأنبياء من الشرك والكفر وأنهم عَلَيْهِمْ السَلَامْ لا يقع منهم شرك بكل أنواعه، ولا كفر بكل أنواعه، وأجمع سلف الأمَّة على أن الأنبياء عَلَيْهِمْ السَلَام معصومون من الكبائر فلا تقع منهم كبيرةٌ من كبائر الذنوب كما اتفقت الأمَّة على أن الأنبياء معصومون من صغائر الذنوب الخسيسة الدنيئة التي يوصف صاحبها بالدَّناءة كسرقة القليل مثلًا فإن مقام النبوة أعظم من ذلك.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله عَزَّوَ جَلَ: ((**الْقَوْلَ بِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ عَنْ الْكَبَائِرِ دُونَ الصَّغَائِرِ هُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ وَجَمِيعِ الطَّوَائِفِ، وَهُوَ أَيْضًا قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ التَّفْسِيرِ، وَالْحَدِيثِ، وَالْفُقَهَاءِ بَلْ هُوَ لَمْ يَنْقُلْ عَنْ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ وَالصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ إلَّا مَا يُوَافِقُ هَذَا الْقَوْلَ**))[1]، أما الصغائر التي ليست خسيسة فهذه تقع من الأنبياء عَلَيْهِمْ السَلَامْ، وإذا قلنا إنَّ الأنبياء عَلَيْهِمْ السَلَامْ غير معصومين من الصغائر التي ليست خسيسة، فمقام النبوة يقتضي أن نعلم أنهم لا يتعمدون وقوع الصغائر حتى الصغائر التي ليست خسيسة لا يتعمدون وقوعها؛ ولكن قد تقع منهم بطريق الخطأ، أو من جهة التأويل، ومع هذا ومع كونها تقع بعذرٍ فإنهم يوفَّقون إلى التوبة، وإلى الاستغفار فيغفر الله عَزَّوَ

(١) مجموع الفتاوى: (٤/٣١٩).

جَلَ لهم، وقد تكون الصغائر التي تنسب إلى الأنبياء ليست ذنبًا ولو فعلها غيرهم لما عوتب عليها، لكن لكمال الأنبياء وعظيم مقامهم يعاتبون عليها وسيأتي إن شاء الله تمثيلٌ لهذا، وسنُبين شيئًا من هذا.

إذا تقرر هذا، وعلمنا أن السلف مجمعون على أن الكبائر لا تقع من الأنبياء عَلَيْهِمْ السَلَام، فإنَّا نقف وقفات يذكرها بعض الناس لا بد أن نجليها:

الوقفة الأولى: أنه قد جاءت نسبة الكذب إلى إبراهيم عَلَيْهِ السَلَام، ولا شك أن الكذب كبيرةٌ من كبائر الذنوب، فكيف نجمع بين هذا وبين قول السلف إن كبائر الذنوب لا تقع الأنبياء؟ نقول: لا شك أن نسبة الكذب إلى إبراهيم عَلَيْهِ السَلَام قد جاءت فعن رسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ قال: «**لم يكذب إبراهيم عَلَيْهِ السَلَامُ إلا ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وقال: بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: ها هنا رجلًا معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي**»[1] والحديث في الصحيحين.

إذن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ قال إن إبراهيم عَلَيْهِ السَلَام كذب ثلاث كذبات، فهل هذا يعني: أن إبراهيم عَلَيْهِ السَلَام وقع في كبيرةٍ من كبائر الذنوب، وأن قول السلف غير صحيح؟

الجواب: لا؛ لأن هذا إنما سمي كذبًا بالتسمية العامة من جهة أن السامع فهم غير مراد المتكلم وإلا فهو من المعاريض إبراهيم عَلَيْهِ السَلَام صادقٌ في كلامه لكن السامع فهم غير مراده، أو هم السامع غير المراد فسمي كذبًا من هذا الباب؛ المعاريض جائزة وهي أن يقصد

---

(١) رواه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: {واتخذ الله إبراهيم خليلا}، برقم: (٣٣٥٨).

الإنســان بالكلام معنًا صــحيحًا، ويوهم الســامع غيره، يعني مثال هذا: جاءك إنســان يطرق عليك البيت وهو رجل كثير الغيبة لا تحب أن تجلس معه ولو رددته آذاك بلســـانه، فتقول: لابنك وأنت مضـطجع على فراشـك قل له أبي راقد وأنت تعني: أنك مضـطجع على فراشـك، وهذا صـــحيح وهو يفهم أنك نائم هذا من المعاريض وهو جائز ولا حرج فيه؛ وإبراهيم عَلَيْهِ السَّـلَام إنما اسـتعمل المعاريض فإبراهيم قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[1]، ومراده: إنه متألمٌ لشـركهم، وهو كذلك متألمٌ لشـركهم وهم فهموا أنه مريض، وقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[2]، ولكن قال: ﴿إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾[3] وهم لا ينطقون إذن ما فعله! وعلى هذا يذكر أن عالمًا من علماء العراق ذهب إلى جهة نهر دجلة ثم عاد إلى طلابه وقال: رأيت صنمًا على نهر دجلة إذا عطش نزل فشرب فتعجبوا صنم! بينما هو يقول: إذا عطش وهو لا يعطش فهو يقول: إذا عطش نزل فشـــرب ولا شـــك أنه لو عطش لنزل، وإبراهيم عَلَيْهِ السَّـــلَامْ يقول: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ وهم لا ينطقون، وعندما قال: إنَّ ســـارة أخته فهي كذلك؛ لأنها أخته في الإسلام، فاستخدم المعاريض.

فإن قال قائل: ما دام أنها جائزة، ومعاريض فلم سماها النبي ﷺ كذباً؟ ونســبها لإبراهيم عَلَيْهِ السَّـلَام، واعتذر بها إبراهيم عَلَيْهِ السَّـلَام في حديث الشـفاعة الذي سـيأتينا إن شـاء الله عندما يأتيه الناس ليشـفع لهم قلنا: لرفعة مقامه عَلَيْهِ السَّـلَام إذ هو خليل الله فنسـب ذلك إليه وهي ليســـت كذبًا، ولذلك قال بعض العلماء: قال كذبات إبراهيم عَلَيْهِ السَّـــلَام أطهر من صـــدقنا؛ لأن إبراهيم عَلَيْهِ السَّـــلَامْ ما كذب وكان لمقصـــدٍ شـــريف عليه وعلى نبينا الصـــلاة

---

(١) سورة الصافات: (٨٩).

(٢) سورة الأنبياء: (٦٣).

(٣) سورة الأنبياء: (٦٣).

والسلام.

الوقفة الثانية: أن بعض الناس يزعمون أن نبينا صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ قد وقع منه الكذب، كيف هذا؟ قالوا إن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ لما سلم من اثنتين وقال له ذو اليدين: أَقُصِرَتِ الصَّلَاةُ يَا رَسُولَ اللهِ أَمْ نَسِيتَ؟ قال: «كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ»[1] فنفى أن تكون الصلاة قصرت، وأنه قد نسي، ولا شك أنه قد نسي فقالوا: أخبر بخلاف الواقع قال لم أنس وهو قد نسي قالوا هذا كذب؛ لأن الكذب: الإخبار بخلاف الواقع، وهذا جهلٌ بمواقع الكلام فإن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ عندما قال: «كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ» إنما هو في علمه، وظنه عَلَيْهِ السَلَام وهذا ليس بكذب، فلو أنَّ إنسانًا مثلًا: كان في غرفة، فجاء رجلٌ إلى الدار ودخل غرفةً أخرى فسئل ذلك عنه وقيل له: هل جاء فلان؟ فقال: لا، هل هو كاذب؟ ليس بكاذب؛ لأنه يخبر عن علمه أنه لم يأت وهذا ليس من الكذب في شيء، فنسبة الكذب إلى النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ بهذا الحديث خطأٌ محض وجهل بمواقع الكلام.

الوقفة الثالثة: قال بعض الناس: إن موسى عَلَيْهِ السَلَام قد وقع منه الكذب، كيف هذا؟ قالوا: سئل عَلَيْهِ السَلَام: «هَلْ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنْكَ؟ قَالَ: لَا، فقال: بَلْ عَبْدُنَا الْخَضِرُ»[2] متفقٌ عليه.

قالوا: هنا موسى عَلَيْهِ السَلَامْ قال: لا، لا يوجد أحد أعلم مني وهذا إخبار بخلاف الواقع؛ لأن الله أخبر أن الخضر أعلم منه قالوا: فهنا وقع الكذب من موسى عَلَيْهِ السَلَام، أيضًا نقول: هذا مردود؛ لأنه من جنس السابق؛ لأن موسى عَلَيْهِ السَلَام إنما قال: لا بحسب علمه ولم يعلم غير هذا حتى أخبره الله تَعَالَى وأوحى إليه وهذا يعني: صدق، فإن قيل: لِما عاتبه الله إذن؟ قلنا؛ لأن مقامه عَلَيْهِ السَلَام يقتضي أن يكِل العلم إلى الله ويقول: الله أعلم، فلما قال:

(١) رواه مسلم، كتاب: الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةَ، باب: السَّهْوِ فِي الصَّلَاةِ وَالسُّجُودِ لَهُ، برقم: (٥٧٣).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الفضائل، باب: مِنْ فَضَائِلِ الْخَضِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، برقم: (٢٣٨٠).

لا، وإن كان صـــادقًا في خبره عوتب على هذا، وبهذا نعلم أن ما نســـب إلى الأنبياء في بعض الكتب، وكُتب في بعض الصـــحف من الكبائر ليس من الكبائر في شـــيء، وأن الأنبياء عَلَيْهِمْ السَلَام معصومون من كبائر الذنوب كذلك.

يقول المصنف رحمة الله عليه: "وَالْيَوْمِ الآخِرِ".

الشَّرْح:

هذا الركن الخامس أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورســله، واليوم الآخر أن تؤمن باليوم الآخر؛ واليوم الآخر: هو يوم القيامة الذي يُبعث الناس فيه إلى الحســاب والجزاء؛ وسمي بذلك قيل: لأنه ليس هنالك يوم بعده فلا يوم بعده فهو اليوم الأخير حيث يســتقر أهل الجنة في منازلهم، وهذا آخر حال الإنسان، ويستقر أهل النار في منازلهم، والإنسان كما قال العلماء: له أحوال:

الحالة الأولى: أنه لم يكن شيء مذكورًا.

والحالة الثانية: أنه عاش في هذه الدنيا.

والحالة الثالثة: أنه يُقبر، ثم يُبعث، ثم يُجازى وهذا هو اليوم الآخر فهو اليوم الأخير، وقيل: إن اليوم الآخر سمي بذلك؛ لأنه مؤخر، فالأيام يومان: يوم قريب وهو يوم الدنيا، ويوم مؤخر وهو الحال في الأخرة.

والإيمان باليوم الآخر معناه: التصـديق الجازم بما صـحت به الأدلة من أحوال الإنسـان بعد موته من حاله في قبره، وبعثه، ومقدمات ذلك، وحســابه، والجنة والنار؛ يعني: أن اليوم الآخر يبدأ بعدما يموت الإنسان من القبر إلى الجزاء.

✍والإيمان باليوم الآخر يتضمن الإيمان بأمور أربعة:

أولها: الإيمان بالقبر وما يحدث فيه.

ثانيها: الإيمان بالبعث ومقدماته.

ثالثها: الإيمان بما يكون في اليوم الآخر.

رابعها: الإيمان بالجنة والنار.

أما الإيمان بما صـــحَّت به الأدلة من الأحوال في القبر وهذا أول منازل الآخرة؛ القبر أول منازل الآخرة يقول النبي صَـلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمْ: «**إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَـــرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَـــدُّ مِنْهُ**»[1] رواه الترمذي، وابن ماجة، والحاكم، وإسناده صحيح، فالقبر أول منازل الآخرة فلا بد من الإيمان بما صحت به الأدلة من الأحوال في القبر، ومن ذلك الفتنة في القبر وهي سؤال الميت بعد دفنه الأسئلة الثلاثة المعلومة، وقد تقدمت معنا في أول شـــرح هذا الكتاب من ربك؟ ومادينك؟ ومن نبيك؟ هذه فتنة القبر، والناس فيها ما بين مُثَبَّتْ ومخذول فالله بفضـــله يثبت أهل الإيمان، وبعدله يعمي غيرهم عن الجواب فيقول: المؤمن ربي الله، وديني الإســلام، ورســولي محمد صَــلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمْ على الألفاظ التي قدمناها في أول شـــرحنا لهذا الكتاب، وأما المخذول فإنه يقول: هاهٍ هاهٍ لاأدري، وقد تقدم ما يتعلق بهذا على التفصيل وقد يأتي إن شاء الله شيءٌ مما يتعلق به، ومن ذلك أيضًا عذاب القبر ونعيمه فالله عَزَّوَ جَلَّ ينعِّم أقوامًا في قبورهم ويعذب آخرين في قبورهم؛ يقول الله عَزَّوَ جَلَّ واصـــفًا حال الظالمين: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ

---

(١) رواه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: ذِكْرِ الْقَبْرِ وَالْبِلَى، برقم: (٤٢٦٧).

ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾[1].

ووجه الدلالة: في قوله الله عَزَّوَ جَلَ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ فقد ذهب جمع من العلماء إلى أن هذا العذاب إنما هو في القبر، ولذا بوَّب الإمام البخاري في الصحيح فقال: باب ما جاء في عذاب القبر وقوله تَعَالَى: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ﴾ وذكر الآية، وكذلك قال تَعَالَى في آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾[2]، فجعل لهم عذابين: عذابٌ قبل أن تقوم الساعة وهو عذاب عرض: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ ولا شك أن هذا ليس بعذاب النار في يوم القيامة؛ لأن عذاب النار دائم وليس عرضًا، ولذا يقول الإمام ابن كثير: ((**وَهَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي اسْتِدْلَالِ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى عَذَابِ الْبَرْزَخِ فِي الْقُبُورِ**))[3].

---

(١) سورة الأنعام: (٩٣).

(٢) سورة غافر: (٤٦).

(٣) تفسير ابن كثير: (٧/ ١٤٦).

قال رحمة الله عليه: "وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ".

الشَّرْح:

أي: أن تؤمن باليوم الآخر؛ وهذا هو الركن الخامس من أركان الإيمان التي لا يصح الإيمان، ولا يستقيم إلا إذا أتى بها العبد بكاملها.

والإيمان باليوم الآخر معناه: أن تؤمن بيوم القيامة؛ فاليوم الآخر هو يوم القيامة، **وسُمي بذلك:**

- قيل: لأنه هو الأخير، فاليوم الآخر يعني: اليوم الأخير فلا يوم بعده؛ فإن أهل الجنة يصيرون إلى الجنة وينادون: (يا أهل الجنة خلود فلا موت)، ويصير أهل النار إلى النار، وينادون: (يا أهل النار خلود فلا موت).
- وقيل: إن اليوم الآخر معناه: المؤخر؛ أي: اليوم المؤخر؛ لأن الأيام يومان: يومٌ قريب؛ وهو يوم الدنيا، وسْميت الدنيا دنيا قيل: لدنوها؛ أي: لقربها، ويومٌ مؤخر وهو اليوم في الآخرة.

فالإيمان باليوم الآخر معناه: التصديق الجازم الذي لا يتخلله شكٌّ بما صحت به الأدلة من أحوال الإنسان بعد موته؛ من قبره وما يحدث فيه، ونشوره وبعثه، والحساب والجزاء، والجنة والنار.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: ((**مَذْهَبُ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ بَلْ وَسَائِرِ أَهْلِ الْمِلَلِ إثْبَاتُ الْقِيَامَةِ الْكُبْرَى، وَقِيَامِ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ هُنَاكَ، وَإِثْبَاتُ**

الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ فِي الْبَرْزَخِ)) يعني: في القبر، **((مَا بَيْنَ الْمَوْتِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))**[1] هذا قول السلف قاطبةً، وأهل السُّنة والجماعة، وإنما أنكر ذلك في البرزخ قليلٌ من أهل البدع، وإلا فأهل السُّنة والسلف متفقون على إثبات العذاب والنعيم في القبر.

✍ إذن الإيمان باليوم الآخر يتضمن إيماننا بأربعة أمور:

الأمر الأول: أن نؤمن بالقبر وما يحدث فيه.

والأمر الثاني: أن نؤمن بالبعث ومقدماته.

والأمر الثالث: أن نؤمن بالحساب والجزاء.

والأمر الرابع: أن نؤمن بالجنة والنار.

أما الأمر الأول: وهو الإيمان بالقبر وما يحدث فيه:

فقد صحت الأدلة بأن المقبور يُسئل في قبره أسئلةً ثلاثةً عظيمة: من ربك؟ وما دينك؟ ومن هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟

وينقسم الناس عند السؤال: إلى مُثَبَّتٍ موفَّق، وإلى مخذول، فالله عَزَّ وَجَلَّ يُثبت من شاء بفضله من عباده الذين قدَّموا الصالحات، فيوفَّق الموفَّق للسؤال: ربي الله، وديني الإسلام، وعندما يُسأل عن هذا الرجل يقول: محمدٌ رسول الله أتانا بالحق من عند الله فصدقناه، وأما المخذول فيكون شأنه أن يقول: هاهٍ هاهٍ لا أدري، وقد تقدمت الأحاديث الدالة على ذلك، وسيأتي شيءٌ منها إن شاء الله في قابل الأيام، فلابد من الإيمان بسؤال المقبور في قبره.

---

(١) مجموع الفتاوى: (٤/٢٦٢).

ومن ذلك أيضًـــا: الإيمان بنعيم القبر وعذابه، فإن المقبورين في قبورهم منهم مُنعَّم ومنهم مُعذَّب؛ دلت على ذلك الأدلة من الكتاب والسـنة، وأجمع على ذلك سـلف الأمة؛ يقول الله عَزَّ وَجَـلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[1]، فالملائكة يقولون لهم ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾؛ وهذا العذاب إنما هو القبر كما فهمه علماء الأمة، ولذا الإمام البخاري في صــحيحه بوَّب بابًا عظيمًا؛ فقال: (باب ما جاء في عذاب القبر، وقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾) وذكر الآية.

كذلك يدل علي عذاب القبر: قول الله عَزَّ وَجَلَّ في آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[2]، فتَلْحَظ هنا: أن ربنا سُــبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر لآل فرعون عذابين؛ أحدهما: عذاب عرضٍ حيث تعرض عليهم النار غدوًا وعشــيًا؛ وهذا لا يكون إلا في القبر؛ لأن العذاب يوم القيامة ليس عذاب عرض، ثم أثبت لهم الله عَزَّ وَجَلَّ العذاب الأكبر يوم تقوم الســاعة؛ ولذا يقول الإمام ابن كثير رَحِمَهُ الله في تفســيره: **((وَهَذِهِ الْآيَةُ أَصْــلٌ كَبِيرٌ فِي اسْــتِدْلَالِ أَهْلِ السُّــنَّةِ عَلَى عَذَابِ الْبَرْزَخِ فِي الْقُبُورِ))**[3].

---

(١) سورة الأنعام: (٩٣).

(٢) سورة غافر: (٤٦).

(٣) تفسير ابن كثير: (١٤٦/٧).

كذلك يدل على العذاب في القبر: قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[1]؛ أيضًا تَلْحَظ هنا يا عبد الله أن الله أثبت لهم عذابين؛ أحدهما: العذاب الأول وهو العذاب في القبر، ثم يردون بعده إلى عذابٍ عظيم، وقد اســـتدل بهذه الآية أكثر السلف على عذاب القبر.

كذلك دلت السـنة الصـحيحة على عذاب القبر؛ ومن ذلك ما جاء عن زيد ابن ثابت، أن النبي صَـــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّمَ قال: «فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْـــمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْـمَعُ مِنْهُ»، الناس لو سمعوا شـيئًا من عذاب القبر لما دفن حبيبٌ حبيبه، لما دفن ولد والده، ولا ما دفن والد ولده، ولما دفن أحدٌ حبيبه؛ ولذا يقول النبي صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بوَجْهِهِ، فَقَالَ: تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ؛ قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، ثم قَالَ النبي صَـــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّمَ: تعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ؛ قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، ثم قَالَ صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ: تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ الفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ؛ قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ الفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، ثم قَالَ صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ: تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ؛ قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ»[2]وهذا الحديث عند مســـلمٍ في الصحيح.

---

(١) سورة التوبة: (١٠١).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا، باب: عَرْضِ مَقْعَدِ الْمَيِّتِ مِنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ عَلَيْهِ، وَإِثْبَاتِ عَذَابِ الْقَبْرِ وَالتَّعَوُّذِ مِنْهُ، برقم: (٢٨٦٧).

كذلك يدل على عذاب القبر ما ثبت في الصحيحين: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتى قتلى المشـــركين يوم بدر وهم في القليب فناداهم يا فلان بن فلان، يا فلان بن فلان بأسمائهم، وقال صَـــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّمَ: «هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَ رَبِّي حَقًّا»[1]، فالنبي صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ يخاطبهم وهم في قبورهم: «هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا» وهذا يدل على وقوع العذاب في القبر.

كذلك يدل عليه قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا فَرَغَ أَحَدُكُمْ مِنَ التَّشَهُّدِ الْآخِرِ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِن أَرْبَعٍ، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِن عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَـرِّ فِتْنَةِ الْمَسِـيحِ الدَّجَّالِ»[2]، والحديث بهذا اللفظ في مسلم.

كذلك يدل عليه قول النبي صَـــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّمَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِـــيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَومَ الْقِيَامَةِ»[3] والحديث في الصحيحين، ما من مقبور إلا ويُعرض عليه مقعده إن كان من أهل الجنة عرض عليه مقعده من النار أولًا حتى يعلم أن الله قد نجاه منه، ثم يُعرض عليه مقعده من الجنة بالغداة والعشـــي؛ يُنعَّم

---

(١) رواه البخاري، كتاب: المغازي، باب: قتل أبي جهل، برقم: (٣٩٨٠).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةَ، باب: مَا يُسْتَعَاذُ مِنْهُ فِي الصَّلَاةِ، برقم: (٥٨٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشـــي، برقم: (١٣٧٩)، ورواه مســـلم، كتاب: الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا، باب: عَرْضِ مَقْعَدِ الْمَيِّتِ مِنَ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ عَلَيْهِ، برقم: (٢٨٦٦).

بهذا، وإن كان من أهل النار فإنه يُعرض عليه مقعده من الجنة أولًا حتى يعلم ما فاته من النعيم، ثم يُرى مقعده بالغداة والعشي من النار -والعياذ بالله- تعذيبًا له.

وقد ثبت في الصحيحين أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قَبْرَيْنِ فَقَالَ: إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، بَلَى، إِنَّهُ لَكَبِيرٌ؛ أَمَّا أَحَدُهُما فَكَانَ يَسْعَى بِالنَّمِيمَةِ، وأَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ»[1]، وفي رواية: «كَانَ لَا يَسْتَنْزِهُ مِنْ بَوْلِهِ»، ثم أخذ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سعفًا من نخل فشقه وجعله على القبرين، وقال: «لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا» هذا الحديث يدل علي عذاب القبر.

وهذا النعيم عند أهل السُّنة والجماعة يحصل للروح والبدن معًا، وكذلك العذاب يحصل للروح والبدن معًا، وقد يكون للروح فقط؛ تُنعَّم الروح أو تُعذَّب متصلةً بالبدن، وقد يكون النعيم والعذاب عليهما جميعًا، وقد يكون على الروح، وقد دلت النصوص على هذا، واتفق أهل السنة والجماعة على أن عذاب القبر قد يكون على الروح والبدن معًا، وقد يكون على الروح فقط، وأن نعيم القبر قد يكون للروح والبدن معًا، وقد يكون للروح فقط.

وقد قرَّب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله نعيم القبر وعذابه بمثالٍ عجيب حيث قال رَحِمَهُ الله: ((وَالنَّائِمُ يَحْصُلُ لَهُ فِي مَنَامِهِ لَذَّةٌ وَأَلَمٌ، وَذَلِكَ يَحْصُلُ لِلرُّوحِ وَالْبَدَنِ حَتَّى إِنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ فِي مَنَامِهِ مَنْ يَضْرِبُهُ؛ فَيُصْبِحُ وَالْوَجَعُ فِي بَدَنِهِ وَيَرَى فِي مَنَامِهِ أَنَّهُ أُطْعِمَ شَيْئًا طَيِّبًا فَيُصْبِحُ وَطَعْمُهُ فِي فَمِهِ وَهَذَا مَوْجُودٌ، فَإِذَا كَانَ النَّائِمُ يَحْصُلُ لِرُوحِهِ وَبَدَنِهِ مِنْ النَّعِيمِ وَالْعَذَابِ مَا يُحِسُّ بِهِ وَالَّذِي إِلَى جَنْبِهِ لَا يُحِسُّ بِهِ حَتَّى قَدْ يَصِيحُ النَّائِمُ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ؛ أَوْ الْفَزَعِ الَّذِي يَحْصُلُ لَهُ وَيَسْمَعُ الْيَقْظَانُ صِيَاحَهُ، وَقَدْ يَتَكَلَّمُ إِمَّا بِقُرْآنٍ وَإِمَّا بِذِكْرٍ وَإِمَّا

(١) رواه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: عذاب القبر من الغيبة والبول، برقم: (١٣٧٨).

بِجَوَابٍ، وَالْيَقْظَانُ يَسْمَعُ ذَلِكَ وَهُوَ نَائِمٌ عَيْنُهُ مُغْمَضَةٌ وَلَوْ خُوطِبَ لَمْ يَسْمَعْ فَكَيْفَ يُنْكَرُ حَالُ الْمَقْبُورِ))[1]، ثم قال: ((وَهَذَا تَقْرِيبٌ وَتَقْرِيرٌ لِإِمْكَانِ ذَلِكَ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: ذَلِكَ الَّذِي يَجِدُهُ الْمَيِّتُ مِنَ النَّعِيمِ وَالْعَذَابِ مِثْلَمَا يَجِدُهُ النَّائِمُ فِي مَنَامِهِ؛ بَلْ ذَلِكَ النَّعِيمُ وَالْعَذَابُ أَكْمَلُ وَأَبْلَغُ وَأَتَمُّ، وَهُوَ نَعِيمٌ حَقِيقِيٌّ وَعَذَابٌ حَقِيقِيٌّ))[2]، فانظر كيف ضرب هذا المثال، النائم يشعر بالألم في نومه وهو نائم، وتحصل له أمور والذي بجواره لا يُحس به، وإذا استيقظ قد يستيقظ وهو يشعر بالألم الذي وقع له، وقد يحصل له نعيم فيستيقظ وقلبه مُنشرح وهو يشعر بسرور، فكيف يُنكر أن يكون النعيم والعذاب للمقبور في قبره؟!

وقد جاء في حديث البخاري من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؛ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنْ النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنْ الْجَنَّةِ، فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا، وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرَ الثَّقَلَيْنِ»[3]، وهذا يدل على وقوع العذاب على البدن وعلى الروح معًا في القبر، فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يُضْرَبُ بِمَطَارِقَ مِنْ حَدِيدٍ».

---

(١) مجموع الفتاوى: (٤/٢٧٥).

(٢) مجموع الفتاوى: (٤/ ٢٧٦).

(٣) رواه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر، برقم: (١٣٧٤).

أيضًـا في حديث البراء؛ قال: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَــدِهِ» فدل ذلك على أن الروح تُعاد في الجسـد، لكن نبه شـيخ الإسـلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أن عود الروح إلى الجسـد في القبر ليس كالروح في الدنيا؛ ليس كالروح مع البدن في الدنيا، بل ما في القبر له حكمٌ خاص، فما يَثبت في القبر يُثبت على ما هو في القبر، والأدلة في ذلك كثيرةٌ جدًا.

قال شـيخ الإسـلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: ((**فليُعلم أَنَّ مَذْهَبَ سَـلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا أَنَّ الْمَيِّتَ إذَا مَاتَ يَكُونُ فِي نَعِيمٍ أَوْ عَذَابٍ وَأَنَّ ذَلِكَ يَحْصُلُ لِرُوحِهِ وَلِبَدَنِهِ وَأَنَّ الرُّوحَ تَبْقَى بَعْدَ مُفَارَقَةِ الْبَدَنِ مُنَعَّمَةً أَوْ مُعَذَّبَةً وَأَنَّهَا تَتَّصِـلُ بِالْبَدَنِ أَحْيَانًا فَيَحْصُـلُ لَهُ مَعَهَا النَّعِيمُ وَالْعَذَابُ**))[1].

✍ يبقى سؤال قد يُسأل وهو: هل يقع النعيم والعذاب على البدن فقط؟

فأقول: اختلف السـلف في ذلك؛ فذهب بعضـهم إلى إثباته، ونفاه أكثر السـلف لعدم الدليل على ذلك، فهذا في الإيمان بالقبر.

كذلك مما يتعلق بالإيمان بالقبر: أن نؤمن بالملكين السـائلين للمقبور؛ منكر ونكير وما جاء في صفاتهما، وقد دلت الأحاديث على ذلك؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر حال المقبور ثم قال: «أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ»، قال العلماء: إنما يكونا أسـودين أزرقين من شـدة السـواد «قَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَالْآخَرِ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُـولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ» نسأل الله من فضله، «وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ:

---

(١) مجموع الفتاوى: (٤/٢٨٤).

سَــمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلتُ مِثْلَهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذلِكَ، فَيُقَالُ لِلْأَرْضِ: الْتَئِمِي عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ أَضْــلَاعُهُ فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْــجَعِهِ ذَلِكَ»(١)، هذا الحديث رواه الإمام الترمذي، وقال: حديثٌ حسـنٌ غريب، وحسـنه الإمام الألباني في مواطن، وصـــححه في موطن، وهو يدل على صـــفة المَلَكين، وعلى فتنتهما للمقبورين.

🕮 الأمر الثاني: فيما يتعلق بالإيمان باليوم الآخر هو: الإيمان بالبعث ومقدماته:

فإن للبعث مقدمات، ونعني بمقدمات البعث: أشـــراط الســـاعة، فيجب أن نؤمن أن للسـاعة أشـراطًا؛ أي: علامات، والشَّـرَطُ قيل: هو العلامة، وقيل: هو الأول؛ فشَـرَطُ الشـيء أوله، ويصح المعنيان في أشراط الساعة؛ يصح أن تكون أشراط الساعة بمعنى: علامات الساعة، ويصح أن تكون أشراط الساعة بمعنى: أوائل الساعة.

وأشـــراط الســـاعة دلَّ عليها القرآن؛ يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾(٢)، **وأشـراط السـاعة عند العلماء تُقسَّـم في الجملة إلى ثلاثة أقسام:**

- الأشراط البعيدة.
- والأشراط المتوسطة.
- والأشراط القريبة؛ يعني: من جهة الساعة؛ من جهة القيامة.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب: أبواب الجنائز، باب: مَا جَاءَ فِي عَذَابِ القَبْرِ، برقم: (١٠٧١)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح، برقم: (١٣٠).

(٢) سورة محمد: (١٨).

فالأشـــراط البعيدة: يعني: البعيدة عن القيامة، ولا يعني أنها بعيدة في ذاتها، فإن القيامة قريبة، وإن الساعة قريبة، وعلاماتها قريبة، لكنها بالنسبة لبقية الساعات مع القيامة أبعد هذه الأشراط، والقسم الثاني -كما قلنا-: المتوسطة، والثالث: القريبة.

أما الأمارات البعيدة: فيعني بها العلماء: أنها التي ظهرت وانقضـــت ومضـــت؛ وقعت وانتهت؛ ومنها: بعثة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن رسولنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من علامات الساعة؛ يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، قَالَ: وَضَمَّ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى**»[1].

ومنها: انشـــقاق القمر؛ كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾[2]، وانشقاق القمر من علامات الساعة، وقد مضى.

ومنها: خروج نارٍ من أرض الحجاز تضـــيء لها أعناق الإبل ببُصـــرى على ما ثبت في الصحيحين أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِيءُ أَعْنَاقَ الْإِبِلِ بِبُصْرَى**»[3] وهذا في الصحيحين، وقد خرجت النار كما أخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ⓘ وهذا العلامات يسميها العلماء بالعلامات البعيدة، ما هي علامات الساعة البعيدة؟

هي العلامات التي قد وقعت ومضت.

---

(١) رواه مسلم، كتاب: صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا، باب: تَخْفِيفِ الصَّلَاةِ وَالْخُطْبَةِ، برقم: (٨٦٧).

(٢) سورة القمر: (١).

(٣) رواه البخاري، كتاب: الفتن، باب: خروج النار، برقم: (٧١١٨).

أما القسم الثاني: فهي العلامات المتوسطة:

وهي التي تقع ولا زالت تقع، هي ظهرت ولا زالت تقع، فإنها لم تنقضي، بل هي تتزايد.

ومن هذه العلامات: أن تلد الأمة ربتها، وســـيأتي بيان هذه الجملة؛ وأن من معانيها: أمهات الأولاد بحيث يتخذ الرجل أمةً ثم يطؤها فتلد منه، فيكون المولود سـيدًا لهذه الأمة؛ فتلد الأمة ربتها؛ وهذا وقع وسيبقى، فإن الجهاد ماضٍ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومنها: تطاول الحفاة رعاة الشـاة بالبنيان؛ وسيأتي أيضًـا، وهذا وقع ولا زال يقع، ولا زال يزداد، كان الأعراب يتطاولون في البنيان بالنزوح إلى المدن، أهل الأرياف كانوا يتطاولون في البنيان بالنزوح إلى المدن، والآن أصـــبحوا يتطاولون في البنيان في أريافهم، وفي ديارهم، وفي قراهم، ولا زال هذا الأمر يزداد.

القسم الثالث: العلامات الكبرى:

وهي التي تقع قريبًا من الســاعة، إذا ظهرت هذه العلامات فانتظر الســاعة، وهي عشــر علامات متتابعةٌ متتالية، لم يظهر منها شـــيء، وإذا ظهر اولها فانتظر آخرها، روى مســـلمٌ في صـــحيحه من حديث حذيفة بن أُســـيد رَضِـــيَ اللهُ عنه قال: كنا قعودًا نتحدث في ظل غرفة لرسـول الله صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ فذكرنا السـاعة فارتفعت أصـواتنا، فقال رسـول الله صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ: «لَنْ تَكُونَ –أَوْ: لَنْ تَقُومَ– السَّــاعَةُ حَتَّى يَكُونَ قَبْلَهَا عَشْــرُ آيَاتٍ: طُلُوعُ الشَّــمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَالدَّجَّالُ، وَعِيسَـى بْنُ مَرْيَمَ، وَالدُّخَانُ، وَثَلَاثُ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخرُجُ مِنْ الْيَمَنِ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ تَسُـوقُ النَّاسَ إِلَى الْمَحْشَـرِ»[1]، وجاء في

---

(١) رواه أبو داود، كتاب: الملاحم، باب: أمارات الساعة، برقم: (٤٣١١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف في سنن

بعض الأحاديث الأُخرى الصـــحيحة ذِكْرُ: المهدي، وهدم الكعبة، ورفع القرآن من الأرض؛ وهذه علامات الساعة الكُبرى.

وينبغي علينا أن نتفقه في هذه العلامات لا سيما في هذا الزمان الذي كثُر فيه الخائضون في الغيبيات بغير علم، فظهر من يُفسِّر علامات الساعة بغير ما فسرها سلف الأمة، وظهر من يزعم تحديد وقتٍ لقيام الساعة، وأصبحوا ينذرون الأمة: الإنذار الأخير يا أمة محمد؛ وكله من الجهل، أو الاعتداء والتعدي.

فمن هذه العلامات: خروج المهدي؛ وهو رجل من أهل البيت من ولد الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ جده رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يخرج وقد مُلِئت الأرض جورًا وظلمًا فيملأها عدلًا، يوافق اسمه اسم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، واسمُ أبيه اسمَ أبيه، جاء في حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ الْعَرَبُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَافِقُ اسْمُهُ اسْمِي، وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي يَمْلأُ الْأَرْضَ عَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا**»[1] والحديث رواه أبو داود والترمذي، فالمهدي يوافق اسمه اسم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، واسمُ أبيه اسمَ أبي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو من أهل البيت، يُبعث على اختلاف من الناس وزلازل، فيملأ الأرض عدلًا كما مُلئت ظلمًا، ويرضى عنه ساكنوا السماء وساكنوا الأرض، يقسم المال سويًا بين الناس، ويسقيه الله الغيث، وتُخرج الأرض في زمنه نباتها، وتكثر الماشية، وتكون الثمار في زمنه كثيرة، وتكون الزروع غزيرة، وهو إمام الطائفة التي على الحق التي ينزل عليها عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَام؛ حيث ينزل عيسى

أبي دواد، برقم: (٤٣١١).

(١) رواه أبو داود، كتاب: المهدي، باب: المهدي، برقم: (٤٢٨٢)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، برقم: (٥٤٥٢).

عَلَيْهِ السَّلَام إلى هذه الطائفة وقد اصطفوا للصلاة، فيقول أميرهم: «صَلِّ لَنَا»، يقول لعيسى عَلَيْهِ السَّلَام: «صَلِّ لَنَا»، وقد جاء في بعض الروايات الصحيحة أنه المهدي، فيقول عيسى عَلَيْهِ السَّلَام: «لَا، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةَ اللهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ»[1]، والمهدي سيمكث سبعَ سنين أو ثمان سنين أو تسع سنين. وقد جاء في رواية أوردها الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ وأعلى منزلته في الجنة في السلسلة الصحيحة: أنه يكون كذا «سَبْعَ سِنِينَ أَوْ ثَمَانِ سِنِينَ أَوْ تِسْعَ سِنِينَ»[2]، فالمهدي سيمكث في الأرض إما سبع سنين، أو ثمان سنين، أو تسع سنين.

والعلامة الثانية من علامات الساعة الكبرى: خروج الدجال، والدجال -عياذًا بالله منه ومن فتنته- هو منبعٌ للكفر والضلال، ويُنبوع للفتن والأوحال، قد حذرت الأنبياء أممها منه، وحذر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته منه أشد تحذير، وفتنته عظيمة، وهو شرُّ غائبٍ يُنتظر، وهو قادم لا محالة كما صحَّ بذلك الحديث، وقد بيَّن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفاته وأخباره ليعرفه المسلمون وليحذروا شره، حتى إذا خرج عرفه المؤمنون فلا يغرُّهم بفتنته.

ومن صفاته التي بيَّنها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنه شابٌ أحمر، قصير، فيه انحناء، عريض النحر، رأسه مجعدٌ أشدَّ التجعيد، كثير الشعر، ممسوح العين اليُمنى، ليست عينه بارزه وليست غائرة وإنما كأنها عنبةٌ طافئة، وعينه اليسرى عليها لحمةٌ عظيمة، ومكتوبٌ بين عينيه: كافر؛ يقرأها كل مؤمن كاتبًا كان أو غير كاتب، قارئًا كان أو غير قارئ، يخرج من جهة المشرق من يهودية أصفهان، وعند خروجه يخرج معه سبعون ألفًا من اليهود، ثم يسير في الأرض فلا

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: نُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ حَاكِمًا بِشَرِيعَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم: (١٥٦).

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها: (١٧٣١).

يترك بلدًا إلا دخله إلا مكة والمدينة؛ فإن اللّه يجعل عليهما ملائكة يحرسونهما، ويسير في الأرض بسرعة يطوف بها كالغيث إذا استدبرته الريح، وسيمكث في الأرض أربعين يومًا، من هذه الأربعين يومٌ كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة؛ يعني: كأسبوع، وهذا كما جاء عن حديث النواس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدَّجَّالَ فَقَالَ: إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ؛ فَإِنَّهَا جِوَارُكُمْ مِنْ فِتْنَتِهِ، قُلْنَا: وَمَا لُبْثُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا: يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ؟»[1] الله أكبر، انظروا حِرص الصحابة على الصلاة، مع عظيم فتنة الدجال يسئلون عن الصلاة؛ هل تكفيهم في هذا اليوم الذي هو كسنة صلاة يوم وليلة؟ يعني: خمس صلوات في ذلك اليوم، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ» يعني: قَدِّروا أوقات الصلوات؛ ما بين الظهر إلى العصر فصلوا، من العصر إلى المغرب فصلوا، من المغرب إلى العشا فصلوا، من العشا إلى الفجر فصلوا، ثم من الفجر إلى الظهر فصلوا، هكذا حتى ينتهي ذلك اليوم.

وفي هذا فائدة عظيمة: وهي أن الأرض التي تطلع عليها الشمس طوال اليوم؛ مدةً من الزمن، أو تغيب عنها الشمس طوال اليوم؛ مدةً من الزمن الواجب على أهلها من المسلمين أن يقدروا للصلاة قدرها ويُصلوا بناءً على هذا.

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، باب: ذِكْرِ الدَّجَّالِ وَصِفَتِهِ وَمَا مَعَهُ، برقم: (٢٩٣٧).

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ يَنْزِلُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ فيُدْرِكَهُ عِنْدَ بَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ»(١) والحديث رواه أبو داود وإسناده صحيح.

الدجال لن يدخل هذه المدينة المباركة؛ لن يدخل مدينة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقينًا وجزمًا؛ لأن الله يجعل على أنقابها ملائكة يحرسونها من الدجال، وهو يأتي إلى المدينة ولها سبعة أبواب؛ على كل بابٍ ملائكة يحرسونها، فلا يدخل المدينة ولكن ينزل بما يسمى اليوم: الجُرْف؛ وهو إلى جهة الشام، وقد ثبت في حديث صحيح أنه يصعد على طَرَف جبل أُحد: «فَيَصْعَدُ أُحُدًا، فَيَطَّلِعُ فَيَنْظُرُ إِلَى الْمَدِينَةِ، فيقولُ لِأَصْحَابِهِ: أَلَا تَرَوْنَ إِلَى هَذَا الْقَصْرِ الْأَبْيَضِ»، وفي رواية: «الأبلق»، هذا قصر أحمد؛ يشير إلى مسجد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَلَا تَرَوْنَ إِلَى هَذَا الْقَصْرِ الْأَبْيَضِ»، وفي رواية: «الأبلق» والأبلق: هو الأبيض الذي يميل إلى الصفرة؛ هذا قصر أحمد «هَذَا مَسْجِدُ أَحْمَدَ، ثمَّ يَأْتِي الْمَدِينَةَ» يريد أن يدخل المدينة «فَيَجِدُ بِكُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلَكًا مُصَلِّتًا سيفهُ» فينزل ناحية الجرف؛ «فتَرْجِفُ الْمَدِينَةُ ثَلَاثَ رَجْفَاتٍ فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ كُلُّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ مِنْهَا وَيَكُونُ أَكْثَرَ مَنْ يَخرُجُ إِلَيْهِ النِّسَاءُ»، يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «يَنْزِلُ الدَّجَّالُ فِي هَذِه السَّبَخَةِ» يعني: الجرف، «فَيَكُونُ أَكْثَرَ مَنْ يَخرُجُ إِلَيْهِ النِّسَاءُ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَرْجِعُ إِلَى حَمِيمِهِ وَإِلَى أُمِّهِ وَابْنَتِهِ، وَأُخْتِهِ وَعَمَّتِهِ، فَيُوثِقُهَا رِبَاطًا؛ مَخَافَةَ أَنْ تَخرُجَ إِلَيْهِ»(٢).

---

(١) رواه أبو داود، كتاب: الملاحم، باب: خروج الدجال، برقم: (٤٣٢١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود، برقم: (٤٣٢١).

(٢) رواه أحمد في مسنده، برقم: (٥٣٥٣)، وحسنه الألباني في قصة المسيح الدجال، برقم: (٢٤).

والدجال -والعياذ بالله- فتنته عظيمة؛ فيه فتنة في ذاته، ومعه فتنٌ عظيمة؛ إذ يخلق الله معه خوارق عظيمة تُبهر العقول وتُحير الألباب؛ معه جنة ونار، وناره جنة وجنته نار، ومعه نهران يجريان؛ الله عَزَّ وَجَلَّ يجعل معه نهرين يجريان؛ أحدهما رأي العين ماءٌ أبيض، والآخر رأي العين نارٌ تتأجج، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِمَّا أَدْرَكَنَّ أَحَدٌ، فَلْيَأْتِ النَّهْرَ الَّذِي يَرَاهُ نَارًا وَلْيُغَمِّضْ، ثُمَّ لْيُطَأْطِئْ رَأْسَــهُ فَيَشْــرَبَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ مَاءٌ بَارِدٌ**»[1] فليأت النهر الذي يراه نارا فليغمض عينيه؛ لأنه يراه نارا، وليطأطئ وهو مغمض عينيه وليشرب من هذا «**فَإِنَّهُ مَاءٌ بَارِد**».

ومن عظيم فتنته -نعوذ بالله من شــره-: أنه إذا دعا قومًا فاســتجابوا له يأمر الســماء فتمطر، ويأمر الأرض فتنبت حتى تصــــبح مواشــــيها سمينةً كثيرة اللبن، ويكثُر المرعى لديهم، وتســمن الدواب، وإذا دعا قومًا فلم يؤمنوا به وردوا عليه قوله ينصــرف عنهم؛ فيصــبحون ليس بأيديهم شــــيءٌ من أموالهم، نعوذ بالله من الفتنة، ويمر بالخربة فيقول لها: أَخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كعياسيب النحل؛ تطير وراءه، والعياذ بالله من فتنته.

ومن عظيم فتنته: أنه يأتي للأعرابي؛ فماذا يقول له؟ يقول له: أرأيت إن بعثت أباك وأمك أتشـهد أني ربك؟؛ يأتي للأعرابي وقد مات أبوه وأمه فيقول له: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك أتشـهد أني ربك؟ فيقول الأعرابي: نعم، فيتمثل شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان له: يا بني اتَّبعه فإنه ربك.

ومن عظيم فتنته -والعياذ بالله-: أنه يدعو الشــاب الممتلئ فيضــربه بالســيف فيقطعه نصفين، ثم يدعوه فيُقبل ووجهه يضحك بعد أن قطعه نصفين.

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، باب: ذِكْرِ الدَّجَّالِ وَصِفَتِهِ وَمَا مَعَهُ، برقم: (٢٩٣٤).

ومما ثبت عن النبي صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ: أن الدجال إذا جاء ناحية المدينة «فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ يومَئذٍ رَجُلٌ مِنْ خِيَارِ النَّاسِ»، «فَتَلْقَاهُ المَسَالِحُ» مَسَالِحُ الدَّجَّالِ، «فَيَقُولُونَ لَهُ: أَيْنَ تَعْمِدُ؟ فيَقُولُ: أَعْمِدُ إِلَى هَذَا الَّذِي خَرَجَ، قَالَ: فَيَقُولُونَ لَهُ: أَوَ مَا تُؤْمِنُ بِرَبِّنَا؟ فَيَقُولُ: مَا بِرَبِّنَا خَفَاءٌ، فَيَقُولُونَ: اقْتُلُوهُ، فَيَقُولُ بَعْضُـــهُمْ لِبَعْضٍ: أَلَيْسَ نَهَاكُمْ رَبُّكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا أَحَدًا دُونَهُ، قَالَ: فَيَنْطَلِقُونَ بِهِ إِلَى الدَّجَّالِ، فَإِذَا رَآهُ المُؤْمِنُ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَذَا الدَّجَّالُ الَّذِي ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1].

وهذا كحال العلماء مع الفتن، فإن الفتن إذا وقعت للناس وتزخرفت أقبلوا إليها، ولا يحذرهم منها إلا العلماء الأخيار الذين رُزقوا السُّنة، وهذا الرجل الصالح المؤمن يحذر الناس من الدجال، فيأمر الدجال به فيُضرب؛ «فَيُوسَعُ ظَهْرُهُ وَبَطْنُهُ ضَرْبًا، قَالَ: فَيَقُولُ: أَوَ مَا تُؤْمِنُ بِي؟» بعد ضربه، «قَالَ: فَيَقُولُ: أَنْتَ المَسِيحُ الكَذَّابُ، فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُؤْشَرُ بِالمِئْشَارِ مِنْ مَفْرِقِهِ حَتَّى يُفَرَّقَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ» ينشر بالمنشار من رأسه حتى يفرق بين رجليه، «ثُمَّ يَمْشِي الدَّجَّالُ بيْنَ القِطْعَتَيْنِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: قُمْ، فَيَسْـــتَوِي قَائِمًا، قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُؤْمِنُ بِي؟ فَيَقُولُ: مَا ازْدَدْتُ فِيكَ إِلَّا بَصِيرَةً»[2]، انظروا الإيمان، المؤمن لا تزعزعه الزوابع، متمسك بقال الله، قال رسوله صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ، مهما كانت الزوابع يتمسك بالنص، مهما كثر المخالفون يتمسك بالنص، مهما قال المتقولون يتمسك بالنص، لا تزعزعه الفتن، عنده يقين بالنصوص؛ بالكتاب والسُّنة، انظروا هذا الرجل الصالح يُفرَق بالمنشار ويُقطع قطعتين، ثم يقول

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، باب: فِي صِفَةِ الدَّجَّالِ، وَتَحْرِيمِ الْمَدِينَةِ عَلَيْهِ وَقَتْلِهِ الْمُؤْمِنَ وَإِحْيَائِهِ، برقم: (٢٩٣٨).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، باب: فِي صِفَةِ الدَّجَّالِ، وَتَحْرِيمِ الْمَدِينَةِ عَلَيْهِ وَقَتْلِهِ الْمُؤْمِنَ وَإِحْيَائِهِ، برقم: (٢٩٣٨).

له الدجال: قم، فيستوي قائمًا، ومع هذا «يَقُولُ لَهُ: أَتُؤْمِنُ بِي؟ فَيَقُولُ: مَا ازْدَدْتُ فِيكَ إِلَّا بَصِيرَةً، قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَا يَفْعَلُ بَعْدِي بِأَحَدٍ مِنْ النَّاسِ، فَيَأْخُذُهُ الدَّجَّالُ لِيَذْبَحَهُ، فَيُجْعَلَ مَا بَيْنَ رَقَبَتِهِ إِلَى تَرْقُوَتِهِ نُحَاسًا، فَلَا يَسْتَطِيعُ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: فَيَأْخُذُ بِيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ فَيُقْذَفُ بِهِ، فَيَحْسِبُ النَّاسُ أَنَّمَا قَذَفَهُ إِلَى النَّارِ، وَإِنَّمَا أُلْقِيَ فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَذَا أَعْظَمُ النَّاسِ شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ»(١)

روى القصة الإمام مسلم في الصحيح.

✍ وهذه القصة فيها فوائد عظيمة:

من فوائدها التي نعمل بها: أنَّا إذا أردنا النجاة من الفتن والشرور الحاصلة فلنلجأ إلى الله، ثم لنرجع إلى العلماء المتمسكين بالكتاب والسنة، فوالله الذي لا إله إلا هو إنه لا نجاة للأمة ولا عصمة لها من الفتن بعد فضل الله عَزَّ وجَلَّ إلا بالأخذ بأقوال العلماء الأثبات أهل السنة والجماعة؛ المتمسكين بالنصوص على فهم سلف الأمة رضوان الله عليهم وأرضاهم، وأن المؤمن يجب عليه مهما تغيرت الأحوال أن يكون على يقينٍ من النصوص مهما قالوا ومهما فعلوا، بعض الناس الآن يأتون بأشياء ويقولون هذه أشياء علمية، إذا كان عندنا نص فإنَّا نتمسك بالنص ولا نلتفت إلى هذه الأمور، الآن بعض الناس يُشكِكُوننا في صيامنا، في حَجّنا، يقولون: الآن أنتم تصومون بالرؤية؛ برؤية الهلال، أو بإكمال الشهر، الآن عندنا الأرصاد تقول: إنكم أخطأتم، وتقول: إنكم كذا، قلنا: ولو قلتم هذا، لم؟ لأن عندنا نصًا تمسك به: «صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدُرُوا لَهُ»(٢)، فنحن نتمسك بهذا النص فنصوم إذا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري، كتاب: الصوم، باب: هل يقال رمضان أو شهر رمضان، ومن رأى كله واسعًا، برقم: (١٩٠٠).

رأينا الهلال، وإذا لم نر الهلال فإنا نكمل شــعبان ثلاثين يومًا، مهما قالوا ومهما أجلبوا، عندنا طُمأنينة ويقين بالنص الثابت الصحيح عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم يصـرف الله الدجال عن المدينة ويحوِّل وجهه إلى الشـام، فيمكث في الأرض ما شـاء الله له أن يمكث، ويكثر أتباعه، وتعظم فتنته، وعند ذلك ينزل نبي الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، فإن الله رفع عيسـى عَلَيْهِ السَّـلَام، توفَّاه؛ بمعنى: وفَّاه اجله الذي كان كتب له على الأرض قبل رفعه ثم رفعه، وينزل في آخر الدنيا؛ ينزل من السـماء بدمشـق ويلتف حوله المؤمنون، فيسـير عيسـى عَلَيْهِ السَّلَام بالمؤمنين؛ بالبقية الباقية من المؤمنين قاصدًا المسيح الدجال، ويكون المسيح الدجال عند نزول عيسـى عَلَيْهِ السَّـلَام متوجهًا إلى بيت المقدس، فيلحق به عيسـى عَلَيْهِ السَّـلَام عند باب لد؛ وهي مدينة من مدن فلســـطين قُرب بيت المقدس، فإذا رآه الدجال؛ هذا الذي كان عظيم الفتنة، ذاب كما يذوب الملح في الماء، ويقول له عيسى عليه عَلَيْهِ السَّلَام: «**إِنَّ لِي فِيكَ ضَـرْبَةً، لَنْ تفوتني**»[1]، فيتداركه عيسـى عَلَيْهِ السَّـلَام بحربته فيقتله فينهزم أصـحابه ويريح الله الناس من شـره، في قتل مسيح الحق مسيح الدجال؛ مسيح الضـلالة، وقد روى الإمام مسـلم حديثًا عظيمًا فيه صفة الدجال، وفيه فوائد عظيمة.

---

(١) رواه ابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: فِتْنَةِ الدَّجَالِ، وَخُرُوجِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَخُرُوجِ يَأْجُوجَ، وَمَأْجُوجَ، برقم: (٤٠٧٧)، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف ابن ماجه، برقم: (٤٠٧٧).

نحن يا أحبة نتقرب إلى ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بتقرير أمورٍ عظيمة ثبتت في كتاب ربنا وسنة نبينا صَــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّم، من خلال شــرح كتابٍ عظيمٍ وجيزٍ نافعٍ نفعًا عظيمًا هو كتاب: الأصــول الثلاثة، ونحن نشــرح في مرتبة الإيمان، وهي المرتبة الثانية من مراتب ديننا، **إذ أن ديننا له ثلاث مراتب:**

- **أولها**: الإسلام.
- **وثانيها**: الإيمان.
- **وثالثها**: الإحسان.

وقد شــرحنا الإســلام وما يتعلق به، وبدأنا نشــرح الإيمان وما يتعلق به، وشــرعنا في أركان الإيمان، وانتهى بنا المجلس في يوم أمس إلى الركن الخامس من أركان الإيمان، وهو الإيمان باليوم الآخر، **وقلنا إن الإيمان باليوم الآخر فيه أربعة أمور:**

١) الإيمان بالقبر وأحواله وأهواله، مما صحت به الأخبار مما جاء في كتاب الله، وصحَّت به الأخبار عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وفرغنا من شرحه.

٢) والأمر الثاني: هو الإيمان بالبعث ومقدماته، وقد شـــرعنا في هذا الأمر، وقلنا: إن مقدمات البعث هي أشراط الساعة -علامات الساعة- التي تدل على اقتراب الساعة وعلى اقتراب البعث، وذكرنا أنواع أشــراط الســاعة، **وقلنا إنها في الجملة تُقسَّــم عند أهل العلم إلى ثلاثة أقسام:**

- **القسم الأول**: الأمارات البعيدة بالنسبة لما بعدها من الآيات.
- **والثاني**: الأمارات المتوسطة.
- **والثالث**: الأمارات القريبة.

والأمارات البعيدة والأمارات المتوســطة تســمى عند علمائنا: بأشــراط الســاعة الصغرى، وأما الأمارات القريبة من يوم القيامة فتسمى عند علمائنا بأشراط الساعة الكبرى.

وكنا قد شرعنا في بيان شيءٍ من أشراط الساعة الكبرى، وتكلمنا عن المهدي، وتكلمنا عن خروج الدجال، وبيَّنا عظيم فتنته نعوذ بالله من فتنته، ووقف بنا الكلام عند قول: إن الإمام مسلمًا رَحِمَهُ اللَّه قد روى حديثًا عظيمًا عجيبًا بيَّن فيه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أمورًا عظيمة تتعلق بالدجال، فعن فاطمة بنت قيس رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وأَرْضَاها أنها قالت: سمعتُ نداء المنادي -منادي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم- ينادي: الصلاة جامعة، فخرجتُ إلى المسجد، فصليت مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، فكنت في صفٍّ النساء التي تلي ظهور القوم، فلما قضى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم صلاته؛ جلس على المنبر وهو يضحك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، فقال: «لِيَلْزَمْ كُلُّ إِنْسَانٍ مُصَلَّاهُ»، ثم قال: «أَتَدْرُونَ لِمَ جَمَعْتُكُمْ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إِنِّي وَاللهِ مَا جَمَعْتُكُمْ لِرَغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ، وَلَكِنْ جَمَعْتُكُمْ؛ لِأَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ كَانَ رَجُلًا نَصْرَانِيًّا، فَجَاءَ فَبَايَعَ وَأَسْلَمَ، وَحَدَّثَنِي حَدِيثًا وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْ مَسِيحِ الدَّجَّالِ، حَدَّثَنِي أَنَّهُ رَكِبَ فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ، مَعَ ثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْ لَخْمٍ وَجُذَامَ، فَلَعِبَ بِهِمِ الْمَوْجُ شَهْرًا فِي الْبَحْرِ، ثُمَّ أَرْفَئُوا إِلَى جَزِيرَةٍ فِي الْبَحْرِ حَتَّى مَغْرِبِ الشَّمْسِ، فَجَلَسُوا فِي أَقْرُبِ السَّفِينَةِ فَدَخَلُوا الْجَزِيرَةَ فَلَقِيَتْهُمْ دَابَّةٌ أَهْلَبُ»[1]، والأهلب كما قال العلماء: هو غليظ الشعر وقد فُسِّر في الحديث، «فَلَقِيَتْهُمْ دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ، لَا يَدْرُونَ مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ، مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ، فَقَالُوا: وَيْلَكِ مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ» قال العلماء: اسمها الجسَّاسة؛ لأنها كانت تتجسس الأخبار للدجال، «قَالُوا: وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟ قَالَتْ: أَيُّهَا الْقَوْمُ انْطَلِقُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ، فَإِنَّهُ إِلَى خَبَرِكُمْ بِالْأَشْوَاقِ، قَالَ: لَمَّا سَمَّتْ لَنَا رَجُلًا فَرِقْنَا مِنْهَا أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً، قَالَ: فَانْطَلَقْنَا سِرَاعًا، حَتَّى دَخَلْنَا الدَّيْرَ، فَإِذَا فِيهِ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ قَطُّ خَلْقًا، وَأَشَدُّهُ وِثَاقًا، مَجْمُوعَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى كَعْبَيْهِ بِالْحَدِيدِ»، وهذا يدل على: عظيم خلقة الدجال، وعلى أنه لا يملك نفعًا

(١) رواه مسلم، كتاب: الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، باب: فِي خُرُوجِ الدَّجَّالِ وَمُكْثِهِ فِي الْأَرْضِ، برقم: (٢٩٤٢).

ولا ضـــرًّا إلا ما أراد الله عَزَّ وَجَلَّ أن يجريه على يديه بأمره وإذنه سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى فتنةً للخلق، وإلا فقد رأوه موثوقًا في أعظم وِثاق.

قال: «قُلْنَا: وَيْلَكَ مَا أَنْتَ؟ قَالَ: قَدْ قَدَرْتُمْ عَلَى خَبَرِي، فَأَخْبِرُونِي مَا أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ أُنَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ رَكِبْنَا فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ، فَصَادَفْنَا الْبَحْرَ حِينَ اغْتَلَمَ فَلَعِبَ بِنَا الْمَوْجُ شَـهْرًا، ثُمَّ أَرْفَأْنَا إِلَى جَزِيرَتِكَ هَذِهِ، فَجَلَسْـنَا فِي أَقْرُبِهَا، فَدَخَلْنَا الْجَزِيرَةَ، فَلَقِيَتْنَا دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّـعَرِ، لَا يُدْرَى مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثْرَةِ الشَّـعَرِ، فَقُلْنَا: وَيْلَكِ مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَةُ، قُلْنَا: وَمَا الْجَسَّاسَةُ؟ قَالَتْ: اعْمِدُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ، فَإِنَّهُ إِلَى خَبَرِكُمْ بِالْأَشْـوَاقِ، فَأَقْبَلْنَا إِلَيْكَ سِـرَاعًا، وَفَزِعْنَا مِنْهَا، وَلَمْ نَأْمَنْ أَنْ تَكُونَ شَـيْطَانَةً، فَقَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَخْلِ بَيْسَانَ»، وبيسان: هي مدينةٌ في الأردن إلى جهة فلسطين، «قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: أَسْأَلُكُمْ عَنْ نَخْلِهَا، هَلْ يُثْمِرُ؟ قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ لَا تُثْمِرَ، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ بُحَيْرَةِ الطَّبَرِيَّةِ، قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: هَلْ فِيهَا مَاءٌ؟ قَالُوا: هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ، قَالَ: أَمَا إِنَّ مَاءَهَا يُوشِكُ أَنْ يَذْهَبَ، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ عَيْنِ زُغَرَ؟» وهي بلدة في الجانب القبلي من الشـام، «قَالُوا: عَنْ أَيِّ شَـأْنِهَا تَسْـتَخْبِرُ؟ قَالَ: هَلْ فِي الْعَيْنِ مَاءٌ؟ وَهَلْ يَزْرَعُ أَهْلُهَا بِمَاءِ الْعَيْنِ؟ قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ، هِيَ كَثِيرَةُ الْمَاءِ، وَأَهْلُهَا يَزْرَعُونَ مِنْ مَائِهَا، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَبِيِّ الْأُمِّيِّينَ مَا فَعَلَ؟» فهو يعلم أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم سيخرج.

«قَالُوا: قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَنَزَلَ يَثْرِبَ، قَالَ: أَقَاتَلَهُ الْعَرَبُ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: كَيْفَ صَـنَعَ بِهِمْ؟ فَأَخْبَرْنَاهُ أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ عَلَى مَنْ يَلِيهِ مِنَ الْعَرَبِ وَأَطَاعُوهُ، قَالَ لَهُمْ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ؟ قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنَّ ذَاكَ خَيْرٌ لَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ»، وهذا يدلك على أنه دجال، فإنه يعلم أن الخير لهم أن يطيعوا النبي صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّم، ومع ذلك يخرج ويكذب على الناس، ويزعم أنه إله.

قال: «وَإِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنِّي، إِنِّي أَنَا الْمَسِيحُ، وَإِنِّي أُوشِكُ أَنْ يُؤْذَنَ لِي فِي الْخُرُوجِ، فَأَخْرُجَ فَأَسِيرَ فِي الْأَرْضِ فَلَا أَدَعَ قَرْيَةً إِلَّا هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ»، وهذا يدل على أنه سيمسح الأرض جميعها، ويدخل جميع القرى غير مكة وطيبة.

قال: «فَهُمَا مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ كِلْتَاهُمَا، كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً – أَوْ وَاحِدًا – مِنْهُمَا اسْتَقْبَلَنِي مَلَكٌ بِيَدِهِ السَّيْفُ صَلْتًا، يَصُدُّنِي عَنْهَا، وَإِنَّ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلَائِكَةً يَحْرُسُونَهَا»، وهذا يدل على شريف هاتين المدينتين العظيمتين.

قالت فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: وطَعَنَ بِمِخْصَرَتِهِ فِي الْمِنْبَرِ: «هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ، هَذِهِ طَيْبَةُ»؛ أي: طيبة التي ذكرها الدجال أنه لا يدخلها هي هذه المدينة التي نحن فيها، ثمَّ قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: «أَلَا هَلْ كُنْتُ حَدَّثْتُكُمْ ذَلِكَ؟» فَقَالَ النَّاسُ: نَعَمْ، فكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أخبر الناس بهذه الأخبار من قبل، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: «فَإِنَّهُ أَعْجَبَنِي حَدِيثُ تَمِيمٍ، أَنَّهُ وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْهُ، وَعَنِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ، أَلَا إِنَّهُ فِي بَحْرِ الشَّأْمِ، أَوْ بَحْرِ الْيَمَنِ، لَا بَلْ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ، مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ، مَا هُوَ وَأَوْمَأَ بِيَدِ المشرق، وأومأ بيده الشريفة» صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إلى المشرق.

فهذه جملة أيها الأحبة من أخبار الدجال، ومن عظيم فتنته نعوذ بالله من شره ومن شر فتنته.

إذا علمنا ذلك فإن نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وهو بنا رؤوف رحيم قد بين لنا أمورًا تقينا بحول الله وقوته من شر فتنة المسيح الدجال.

قال العلماء: وهي جنس يدل على أسباب الوقاية من شر الفتن.

فينبغي علينا أن نتعلمها فإن أحدنا لا يدري لعل الدجال يدركه -نعوذ بالله من شره-، ومن ذلك أن نعلم أحوال الدجال وصفاته، فإن في ذلك عصمةً من فتنته بإذن الله.

قال العلماء: ومن ذلك يؤخذ أنه من أسباب العصمة من الفتن أن يعلم المسلم الفتن وأوصافها، وأحوالها، وأحوال أهلها وأن يحذر منها ويحذر من أهلها، فهذا من أعظم أسباب النجاةِ من الفتن: أن يأخذ الإنسان العلم بالفتن عن أهل العلم، عن أهل السنة، عن أهل البصيرة، فإنه إذا كان على علمٍ بالفتن فإنه بحولِ الله وقوته لا تضره فتنة، ولا يغره صاحب فتنة، وإنما يكون على بصيرةٍ من أمره.

ومن ذلك أيضًا أن يكثر المسلم من الاستعاذة من فتنة المسيح الدجال، وقد جاء استحباب الاستعاذة من فتنته في التشهد الأخير في كل صلاة، يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: «**إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ**»(1)، رواه مسلمٌ في الصحيح.

فينبغي للمسلم أن يحافظ على الدعاء في آخر كل صلاةٍ يصليها، وهذا الدعاء عند جمهور أهل العلم مستحبٌ استحبابًا مؤكدًا.

ومن هنا قال أهل العلم: إن من أعظم أسباب العصمة من الفتن أن يكثر المسلم من الدعاء والتوسل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بأن يعصمه من الفتن، وأن يتعوذ من الفتن وأن يكون كثير التعوذ من الفتن، وقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كثير التعوذ من الفتن.

---

(1) رواه مسلم، كتاب: الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةَ، باب: مَا يُسْتَعَاذُ مِنْهُ فِي الصَّلَاةِ، برقم: (٥٨٨).

ومن ذلك أيضًا أن يحفظ المسلم فواتح سورة الكهف وأواخرها، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ»[1] رواه مسلم، وعند أبي داوود في رواية: «مَنْ حَفِظَ مِنْ خَوَاتِيمِ سُورَةِ الْكَهْفِ عَشْرَ آيَاتٍ عُصِمَ مِنْ الدَّجَّالِ»[2]، فيشرع للمسلم أن يحفظ العشر الآيات الأول من سورة الكهف، وأن يحفظ العشرة الآيات الأخر فإن في ذلك إن شاء الله عصمةً عظيمة من فتنة الدجال.

ومن هنا قال العلماء: إن حفظ القرآن والعلم بالقرآن علمًا صحيحًا كما علمه السلف الصالح رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ من أسباب العصمة من الفتن صغيرها وكبيرها، فمن حفظ كتاب الله، وعلم ما في كتاب الله على ما فهمه سلف الأمة رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ كان معصومًا بحول الله وقوته من الفتن كلها صغيرها وكبيرها.

ومن ذلك أيضًا أن يبتعد المسلم عن المسيح الدجال إن خرج وهو حي، وألا يقترب منه، يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: «مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ، فَوَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ، مِمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ»، أَوْ «لِمَا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ»[3] رواه أبو داوود وإسناده صحيح، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يرشدنا ويعلمنا «مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ»؛ يعني: فليبتعد عنه مهما كان الحال، فإن الرجل يأتيه وهو يحسب ويظن أنه مؤمن لما عنده من الخير وأن الدجال لن يفتنه، ولكنه إذا أتى عند الدجال فتن به لما بُعث به من الشبهات.

---

(١) رواه مسلم، كتاب: صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا، باب: فَضْلِ سُورَةِ الْكَهْفِ، وَآيَةِ الْكُرْسِيِّ، برقم: (٨٠٩).

(٢) رواه أبو داود، كتاب: الْمَلَاحِمِ، باب: خُرُوجِ الدَّجَّالِ، برقم: (٤٣٢٣)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، برقم: (٥٨٢).

(٣) رواه أبو داود، كتاب: الْمَلَاحِمِ، باب: خروج الدجال، برقم: (٤٣١٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، برقم: (٦١١٩).

قال علماؤنا: وهذا يدل على أن من أعظم أسـباب العصـمة من الفتن أن يبتعد المسـلم عنهـا وعن أهلهـا، وألا يقترب منهم وألا يخـالطهم إلا إذا كـان على قوةٍ من العلم يرد عليهم ويناظرهم بالأسلوب الشرعي، وإلا فالأصل بالمسلم أن يبتعد عن الفتن وأهلها مهما كان حاله، ولا يغتر بما عنده من الخير، ولذا كان السـلف رِضْـوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ يحذرون من الاسـتماع لأهل البدع، فإن بعض أهل البدع قد أوتوا لســـانًا قد يقع منهم كلام يدخل في قلب المؤمن، فإذا دخل لا يكاد يخرج.

ولذا من أعظم أسـباب العصـمة من الفتن أن يلزم الإنسـان السـنة وأهلها، وأن يبتعد عن الفتن وأهلها مهما كان الأمر، وكلما كان الإنســـان عن الفتن أبعد كان إلى الســـنة أقرب وإلى النجاة أقرب.

ولذا صـــح عنه صَـــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّم أنه قال: «**تَكُونُ فِتْنَةٌ، النَّائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمُضْطَجِعِ، وَالْمُضْطَجِعُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَاعِدِ، وَالْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّـاعِي**»[1] كلٌ بحسـب بعده عن الفتنة، فالمضـجع هو أبعد الناس عن الفتنة فهو خيرهم، ثم يليه القاعد، ثم يليه القائم، ثم يليه الماشـــي، ثم يليه الذي يجري إليها جريًا، ولهذا يا عبد الله من الســنة أن تبتعد عن مواقع الفتن وأن تحذر، فإن النبي صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّم جعل لك ذلك أصلًا، ومن العصمة من فتنة الدجال أن يبتعد المؤمن عن الدجال إذا خرج وهو حي.

ثم إن الذي ينبغي على المؤمنين أن ينشــروا الأحاديث الصـــحيحة الواردة في فتنة الدجال بيانًا للمؤمنين وتحذيرًا من شـره، وحتى لا يُغفل عن ذكره وينســى، وقد جاء في بعض الروايات أنه يخرج بغضبة يغضبها إذا نُسي ذكره، فينبغي الاهتمام بهذا الأمر.

---

(١) رواه أحمد في مسنده، برقم: (١٦٩٧٤)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، برقم: (٣٢٥٤).

أيضًا من علامات الساعة الكبرى: نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، نزول نبي الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، فعيسى عَلَيْهِ السَّلَام رفعه الله عَزَّ وَجَلَّ إليه، كان اليهود قد طلبوه، وأرادوا قتله على عادتهم -قبحهم الله- في قتل الأنبياء، فشُبه لهم وألقيت صورته على صورة شاب فأخذه اليهود، وظنوا أنه عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، وعيسى عَلَيْهِ السَّلَام قد رفعه الله، فقتلوا الشاب وصلبوه، وعيسى عَلَيْهِ السَّلَام قد رفعه الله، وسينزل إلى الأرض قبل قيام الساعة حكماً عدلًا، ومن أفعاله عَلَيْهِ السَّلَام: أنه يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال إذا نزل عَلَيْهِ السَّلَام حتى لا يقبله أحد، وينزل الروحاء؛ **والروحاء**: مكان قريب من المدينة يبعد ما يقرب من ثمانين كيلًا عن المدينة كان في طريق الحاج القديم إلى مكة، وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قد مر بالروحاء وهو ذاهب إلى حجه، واليوم عدل الناس إلى طريق آخر، ويظهر والله أعلم: أنه سيعود الناس إلى الطريق القديم في الحج، فعيسى عَلَيْهِ السَّلَام سيحج وينزل الروحاء، ويحج ويعتمر أو يجمع بين الحج والعمرة، ويدعو عَلَيْهِ السَّلَام إلى الإسلام، ولا يدعو إلى النصرانية، وإنما يدعو إلى الإسلام، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: «لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ»[1]؛ يعني: عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، فنبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم تلا عيسى عَلَيْهِ السَّلَام، قال: «وَإِنَّهُ نَازِلٌ»، ووالله إنه نازل؛ وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: «فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ رَجُلٌ مَرْبُوعٌ»، **مربوع**؛ أي: رجل بين الطول والقصر، ليس بالطويل ولا بالقصير، «إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، بَيْنَ مُمَصَّرَتَيْنِ، كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ، وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ، فَيُقَاتِلُ النَّاسَ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِسْلَامَ، وَيُهْلِكُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، ثُمَّ تَقَعُ الْأَمَنَةُ عَلَى

---

(١) رواه أبو داود، كتاب: الملاحم، باب: خروج الدجال، برقم: (٤٣٢٤)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، برقم: (٢١٨٢).

الْأَرْضِ»[1]، يعني: يقع الأمان العظيم في الأرض، «حَتَّى تَرْعَى الْأَسْـوَدُ مَعَ الْإِبِلِ، وَالنُّمُورُ مَعَ الْبَقَرِ، وَالذِّئَابُ مَعَ الْغَنَمِ، وَيَلْعَبُ الصِّبْيَانُ مَعَ الْحَيَّاتِ لَا تَضُـرُّهُمْ»، قال صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّم: «فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ سَـنَةً، ثُمَّ يُتَوَفَّى وَيُصَـلِّي عَلَيْهِ الْمُسْـلِمُونَ»، رواه الحاكم وصححه، ورواه أبو داوود وإسناده صحيح.

ويقتل عَلَيْهِ السَّلَام الدجال، فيقتل المسيح عَلَيْهِ السَّلَام مسيح الضلالة الدجال كما تقدم معنا، ويقع الأمن العجيب الذي أخبر به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم حتى يبلغ الأمن أن السباع المفترسـة تخالط الأنعام ولا تضـرها، وأن الصـبيان يلعبون بالحيات كأنها من لعب الأطفال ولا تضرهم.

وقد وصـف نبينا صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّم نزول عيسـى عَلَيْهِ السَّـلَام بأنه ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمَشق أو دِمشق -تضبط هكذا وتضبط هكذا- شرقي دِمشق أو دمَشق، بين مهرودتين أي: أنه لابس ثوبين مصـبوغين بورس ثم بزعفران، واضـعًا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفع تحدر منه جمان كاللؤلؤ عَلَيْهِ السَّلَام، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: «فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِـهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفَسُـهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ»[2]، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: «فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَـمَهُمُ اللهُ مِنْهُ، فَيَمْسَـحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ»، روى ذلك الإمام مسـلم في صـحيحه، ثم يقع بنبي الله عيسـى ومن معه من المؤمنين حوادث مع يأجوج ومأجوج، وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله.

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه، برقم: (٤١٦٣)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء منها، برقم: (٢١٨٢).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، باب: ذِكْرِ الدَّجَّالِ وَصِفَتِهِ وَمَا مَعَهُ، برقم: (٢٩٣٧).

من أمارات الساعة الكبرى: خروج يأجوج ومأجوج، ويأجوج ومأجوج هم من بني آدم من ذرية آدم عَلَيْهِ السَّلَام، صغار العيون، شهب الشعور، عراض الوجوه، وجوههم متنورة كأن وجوههم المجان المطرقة؛ **المجان:** هي الترس، **والمطرقة:** هي المجلدة التي وضع عليها الجلد فوق الجلد، والمقصود أن وجوههم عريضة كالترس وأنها متنورة، وهم الذين بنى ذو القرنين السد ليحجز بينهم وبين جيرانهم؛ لأنهم مفسدون في الأرض كما قال ربنا: ﴿قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾[1] هكذا عبد الله يكون عارفًا بفضل الله ورحمته، فمهما عمل من عمل، ومهما أوتي من قوة لا يقول: إنما أوتيته لفضل عندي وإنما هذا من فضلي، وإنما يقول: هذا رحمة من ربي، فالحاج الذي أنعم الله عليه بالحج ويسر الله عليه بالحج لا يمتن بحجه على الله، ولا يبطر بحجه على الله، ولا يحارب الله فيما يأتي من زمانه بحجة أنه قد حج وقد سقطت عنه ذنوبه، وإنا يقول، هذا من فضل ربي، فيزداد شكرًا لله، ويزداد تواضعًا لله، ويزداد عبادةً لله.

قال: ﴿قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾[2]، فهذا السد هو الحاجز بين يأجوج ومأجوج والبشر، ويسعى هؤلاء لنقض هذا السد ويحفرونه كل يوم، حتى إذا كادوا يخرقونه قال الذي عليهم: ارجعوا فستخرقونه غدًا، فإذا عادوا أعاده الله كما كان أو أشد، حتى إذا بلغوا مدتهم المؤجلة التي شاءها الله عَزَّ وَجَلَّ، وحفروا في السد وأرادوا العودة قال

---

(١) سورة الكهف: (٩٤ – ٩٨).

(٢) سورة الكهف: (٩٨).

لهم الذي عليهم: ارجعوا فســتخرقونه غدًا إن شــاء الله، فيرجعون وهو على هيئته عندما تركوه بالأمس، فيخرقونه ويخرجون إلى الناس، وهم من كل حدبٍ ينســلون فهم عددٌ كبيرٌ جدًا، وعيسى عَلَيْهِ السَّلَام إذ ذاك في الأرض قد أنزله الله عَزَّ وَجَلَّ كما تقدم، فيوحي الله إلى عيسى عَلَيْهِ السَّــلَام: «إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي، لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ»[1]، أي: لا قدرة لأحدٍ على قتالهم، «فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ».

قال العلماء: يؤخذ من هذا أن المؤمنين إذا لم تكن لهم قدرةٌ على قتال أعدائهم، فإنهم ينبغي أن يتخذوا الوســائل التي تؤدي إلى ســلامة المؤمنين وإلى حفظ المؤمنين، «فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ»، وهذا يدل: على كثرتهم، وأن عددهم كثير جدًا، «ثُمَّ يَسِــيرُونَ حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى جبل بيت المقدس، فيقولون: لَقَدْ قَتَلْنَا مَنْ فِي الْأَرْضِ هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مَنْ فِي السَّــمَاءِ، فَيَرْمُونَ بِنُشَّــابِهِمْ إِلَى السَّــمَاءِ»[2]، يعني: برماحهم، «فَيَرُدُّ اللهُ عَلَيْهِم نُشَّابَهُمْ مَخْضُوبَةً دَمًا، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام وَأَصْحَابُهُ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ من المال الكثير لأحدنا من الحصــار الذي هم فيه، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ يدعون الله، فَيُرْسِلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ على يـأجوج ومـأجوج النَّغَفَ فِي رِقَـابِهِمْ»، **والنغف**: دود معروف يوجـد في أنوف الإبـل وغيرها من الأنعام.

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، باب: ذِكْرِ الدَّجَّالِ وَصِفَتِهِ وَمَا مَعَهُ، برقم: (٢٩٣٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، باب: ذِكْرِ الدَّجَّالِ وَصِفَتِهِ وَمَا مَعَهُ، برقم: (٢٩٣٧).

«فَيُصْــبِحُونَ فَرْسَــى»؛ أي: قتلى «كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ»، فيصــبح المســلمون لا يسمعون لهم حسًا، فَيَقُولُونَ: «مَنْ رَجُلٌ يَشْرِي نَفْسَهُ، وَيَنْظُرُ مَا فَعَلُوا؟ فَيَنْزِلُ مِنْهُمْ رَجُلٌ قَدْ وَطَّنَ نَفْسَــهُ عَلَى أَنْ يَقْتُلُوهُ، فَيَجِدُهُمْ مَوْتَى فَيُنَادِيهِمْ أَلَا أَبْشِــرُوا فَقَدْ هَلَكَ عَدُوُّكُمْ، فَيَخْرُجُ النَّاسُ، وَيَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام وَأَصْحَابُهُ فَلَا يَجِدُونَ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا قَدْ مَلَأَهُ نَتْنُهُمْ، وَدِمَاؤُهُمْ، فَيَرْغَبُ نبي الله إِلَى عيسى عَلَيْهِ السَّـلَام اللَّهِ تعالى، فَيُرْسِـلُ عَلَيْهِمْ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الجمل، فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَــاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُرْسِــلُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَطَرًا لَا يُكِنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، فيغســـل الأرض حتى يتركها كالمرآة، وســـترعى المواشي والدواب لحوم يأجوج ومأجوج فتسمن سمنًا عظيمًا»[1].

أيضًــا من علامات الســاعة الكبرى: طلوع الشــمس من المغرب، الله من قدرته في آخر الزمان يطلع الشــمس من المغرب، وإبراهيم عَلَيْهِ السَّـلَام أعجز النمرود بهذه الآية العظيمة فقال لــه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾[2]، والله عَزَّ وَجَلَّ بقدرته يجعل الشــمس تطلع في آخر الزمان من مغربها، وإذا طلعت الشــمس من مغربها لا يقبل الله إيمانًا من كافر ولا توبةً من فاسق، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗا﴾[3]، وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا آمَنَ النَّاسُ

(١) رواه ابن ماجة، كتاب: الفتن، باب: فِتْنَةِ الدَّجَالِ، وَخُرُوجِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَخُرُوجِ يَأْجُوجَ، وَمَأْجُوجَ، برقم: (٤٠٧٥)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجة، برقم: (٤٠٧٥).

(٢) سورة البقرة: (٢٥٨).

(٣) سورة الأنعام: (١٥٨).

كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ فَيَوْمَئِذٍ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾»[1] متفق عليه، وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»[2]رواه مسلم في الصحيح.

أيضًا من علامات الساعة الكبرى: ظهور دابةٍ من الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[3] فعند فساد الناس وإعراضهم عن آيات الله يخرج الله للناس دابةً، هذه الدابة تسم الناس، فالمؤمن تجلو وجهه حتى يشرق فيصبح وجهه مشرقًا ويكون ذلك علامةً على إيمانه، والكافر تسمه على أنفه حتى يكون ذلك علامةً على كفره.

ومن علامات الساعة الكبرى أيضًا: خروج نارٍ عظيمة من اليمن من قعر عدن تطرد الناس إلى محشرهم، وعند ظهور هذه النار من اليمن تنتشر في الأرض وتسوق الناس إلى أرض المحشر إلى الشام فتجمعهم فيها، وهذا الحشر في الدنيا، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: «**يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ، رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ، وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَعَشَرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَتَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارُ تَبِيتُ مَعَهُمْ، حَيْثُ بَاتُوا وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا، وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا**»[4]متفقٌ عليه.

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بَيَانِ الزَّمَنِ الَّذِي لَا يُقْبَلُ فِيهِ الْإِيمَانُ، برقم: (١٥٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب: التوبة، باب: قَبُولِ التَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوبِ وَإِنْ تَكَرَّرَتِ الذُّنُوبُ وَالتَّوْبَةُ، برقم: (٢٧٥٩).

(٣) سورة النمل: (٨٢).

(٤) رواه مسلم، كتاب: الجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا، باب: فَنَاءِ الدُّنْيَا وَبَيَانِ الْحَشْرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، برقم: (٢٨٦١).

وقال النبي صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّم عن أمارات الساعة: «وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ»[1] رواه مسلم.

فهذه بعض علامات الساعة الكبرى التي صحت بها الأخبار عن النبي صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّم، ونحن قُلنا إن من الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالبعث ومقدماته، فهذا هو الإيمان بمقدمات البعث.

وأما الإيمان بالبعث، فالبعث: هو إحياء الموتى حين ينفخ في الصور النفخة الثانية فيقوم الناس لرب العالمين على الصفة التي وردت في الحديث، حفاة غير منتعلين، عراة غير مستترين، غرلًا غير مختونين، فهم يعودون إلى أصل خلقتهم، ولدوا حفاة عراةً غرلًا فيبعثون كذلك كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[2]، فيعيد الله عَزَّ وَجَلَّ الخلق كما كانوا فيعودون كما ولدوا.

وحقيقة البعث أن الله تعالى يجمع أجساد المقبورين التي تحللت، ويُعيدها بقدرته كما كانت، ثم يُعيد الأرواح إليها ويسوقهم إلى محشرهم لفصل القضاء قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[3]، وعن حذيفة رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّم: «إن رجلًا حضره الموت لما أيس من الحياة أوصى أهله: إذا مت فاجمعوا لي حطبًا كثيرًا، ثم أوروا لي نارًا، حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فخذوها

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، باب: فِي الْآيَاتِ الَّتِي تَكُونُ قَبْلَ السَّاعَةِ، برقم: (٢٩٠١).

(٢) سورة الأنبياء: (١٠٤).

(٣) سورة يس: (٧٨ – ٧٩).

فاطحنوها، فذروني في اليم في يوم حار أو راح، فجمعه الله، فقال: لما فعلت؟ قال: من خشيتك، فغفر له»[1]، وهذا الحديث عند البخاري ورواه مسلمٌ بمعناه، فهذا دليلٌ ظاهر يدل على أن الله عَزَّ وَجَلَّ يعيد الأجساد.

وقد جاء في الســـنة بيان كيفية البعث، وأن الله يُنزل إلى الأرض ماءً، جاء في بعض الروايات أنه مثل مني الرجال، فينبت به أهل القبور كما ينبت العشـــب بالماء، فقد جاء في حديث أبي هريرة رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ أن الرسـول صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّم قال: «**مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ**» يعني: النفخة الأولى والثانية، «**أَرْبَعُونَ، قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَـهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ**، -أي: لم يخبرهـم-، «**ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّـمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ، كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَـانِ شَـيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ**» أي: آخر ما في ظهر الإنسان، «**وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[2]، والحديث في الصحيحين.

فدل هذا الحديث: على أن أهل القبور يبقون في قبورهم بين النفختين أربعين، ولم يأت تحديد هذه الأربعين؛ لأن أبا هريرة رَضِــيَ اللهُ عَنْهُ لما سـئل: أربعون يومًا؟ قال: أبيت، أربعون شـــهرًا؟ قال: أبيت، أربعون ســنَةً؟ قال: أبيت، ثم إذا أراد الله بعث الخلائق أنزل مطرًا ماءً من الســـماء، كما قلنا جاء في بعض الروايات أنه مثل مني الرجال، فينبت أهل القبور كما ينبت العشب من الماء.

وهذا بخلاف الأنبياء عَلَيْهِم السَّـلَام، فإن الأنبياء عَلَيْهِم السَّــلَام كرمهم الله فحرم على الأرض أن تأكل أجسادهم، فأجساد الأنبياء عَلَيْهِم السَّلَام لا تبلى ولا يدركها البلاء.

---

(١) رواه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار، برقم: (٣٤٧٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، باب: مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ، برقم: (٢٩٥٥).

وقد دلت الأدلة من الكتاب، والســـنة، والإجماع والمعقول على بعث الله تعالى للأموات، قـال تعـالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[1] الذي خلق الخلق أول مرة قادرٌ على أن يعيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومن الســـنة أحاديث كثيرة منها ما جاء عن النبي صَـــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّم أنه قال: «لَا تُفَضِّـــلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللهِ»[2]هذا الحديث له قصـة، كان يهوديٌ يبيع في السـوق فقال: والذي اصـطفى موسـى على البشـر، فلطمه مؤمن، وقال: لا تقل هذا، فسـمع النبي صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ذلك فدخل، ثم خرج وهو غاضب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وقال: «لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللهِ، فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّـورِ فَيَصْـعَقُ مَنْ فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَـاءَ اللهُ، قَالَ: ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ، أَوْ فِي أَوَّلِ مَنْ بُعِثَ، فَإِذَا مُوسَـى عَلَيْهِ السَّلَامُ آخِذٌ بِالْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَحُوسِـبَ بِصَـعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ، أَوْ بُعِثَ قَبْلِي»[3] والحديث عند البخاري؛ يعني: لا أدري أكان قد صعق ثم بعث قبلي، أم أن الله استثناه من الصعق جزاء الصعق يوم الطور، فكان من الذين استثناهم الله من الصعق، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يقول: لا أدري، فإنه صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّم بعث، أول من بعث، وكان صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّم يبعد التراب عن رأسه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فرأى موسى عليه قائمًا بقوائم العرش –بقائمةٍ من قوائم العرش–، فيقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: «لا أدري أكان ممن استثناهم الله فلم يصعق، أم بعث قبلي».

---

(١) سورة التغابن: (٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: {وإن يونس لمن المرسلين}، برقم: (٣٤١٤).

(٣) سبق التخريج.

هذا الحديث: «لَا تُفَضِّـــلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللهِ» لا يتعارض مع ما تقدم معنا أن الأنبياء يتفاضلون، وإنما المراد لا تفضلوا بين أنبياء الله تفضيلًا فيه تنقصٌ لبعضهم؛ يعني: لا تعتقدوا النقص في الأنبياء أو لا تفضلوا تفضيلًا يؤدي إلى الفتنة والخصومة كما حدث، وإلا فتفضيل الأنبياء ثابت، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يقول: «أَنَا سَيِّدُ البشر»[1]، وهذا يشمل الأنبياء وغيرهم من البشر.

وأجمع المسلمون على ثبوت البعث وهو مقتضى الحكمة؛ حيث تقتضي الحكمة أن يجعل الله للخلق معادًا يبعثهم فيه ليجازيهم على ما كلفهم، فالله عَزَّ وَجَلَّ كلفنا في الدنيا وسيجازينا، فالحكمة مقتضـــية أن يجعل الله عَزَّ وَجَلَّ للخلق معادًا، فالله لم يخلق الناس عبثًا، وإنما خلقهم لعبادته وجعل للعبادة جزاء، فمن الحكمة أن يجعل لهم معادًا.

والعقل أيضًـــا يدل على البعث؛ أعني: يدل على إمكانه، فإن البعث إعادةٌ للخلق وكل عاقل يدرك أن إعادة الخلق أهون من الابتداء، فالله الذي خلقهم أول مرة قادرٌ ســـبحانه على أن يعيدهم عند البعث؛ هذا الأمر الثاني من أمر الإيمان باليوم الآخر.

وأما الأمر الثالث: فهو الإيمان بما يكون في اليوم الآخر من الأمور العظيمة من الحشـــر، والحساب، والجزاء، والميزان، والشفاعة، والصراط، والحوض.

أما الحشــر: فقد دلت النصوص على أن الناس يحشرون حفاة، عراة، غرلًا قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2]، وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، يَقُولُ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ

(١) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً فِيهَا، برقم: (١٩٤)، بلفظ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(٢) سورة المطففين: (٦).

اللهِ النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا؟ -لأنهم عراة-، فعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها تقول: النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فقَالَ: «يَا عَائِشَةُ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ»[1] رواه مسلم في الصحيح.

وهذا الحشر عام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾[2].

ويحصل للناس في أرض المحشر أمور عظام منها: ما جاء عن المقداد بن الأسود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: «تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ»، قال الراوي: (فلا أدري أهو الميل الذي في الأرض، أم الميل الذي في المكحلة؟)، المهم أن المقصود: أنها تدنى منهم وتقترب منهم اقترابًا شديدًا، «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا، وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ»[3]، أي: أن العرق يصل إلى فمه، كل بحسب عمله، رواه مسلم.

ويكرم الله في هذا الموقف العظيم أقوامًا فيظلهم في ظله ففي الحديث: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا، باب: فَنَاءِ الدُّنْيَا وَبَيَانِ الْحَشْرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، برقم: (٢٨٥٩).

(٢) سورة الحج: (١ - ٢).

(٣) رواه مسلم، كتاب: الجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا، باب: فِي صِفَةِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَعَانَنَا اللهُ عَلَى أَهْوَالِهَا، برقم: (٢٨٦٤).

مُعلَّقٌ فِي الْمَسَــاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ يَمِينُهُ مَا تُنْفِقُ شِـمَالُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا، فَفَاضَـتْ عَيْنَاهُ»[1] متفق عليه، هؤلاء السـبعة قد أكمل كل واحد منهم العبادة التي قام بها فجاء بها على وجه الكمال، فأكرمهم الله بهذا الظل العظيم، وجاء عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أنه قال: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَـعَ عَنْهُ، أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ»[2]وهذا عند مسـلم، وفي رواية للترمذي: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا، أَوْ وَضَـعَ لَهُ، أَظَلَّهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ»[3]، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم: «كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَـدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَـلَ بَيْنَ النَّاسِ»[4]رواه الحاكم وصـــححه، وابن حبان، وابن خزيمة، هؤلاء المكرمون الذين يكرمهم الله عَزَّ وَجَلَّ بهذا المقام العظيم نظمهم أبو شامه في بيتين فقال:

وَقَالَ النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى إِنَّ سَبْعَةً *** يُظِلُّهُمُ اللَّهُ الْكَرِيمُ بِظِلِّهِ

مُحِبٌّ عَفِيفٌ نَاشِئٌ مُتَصَدِّقٌ *** وَبَاكٍ مُصَلٍّ وَالْإِمَامُ بِعَدْلِهِ[5]

وزاد حافظ ابن حجر:

وَزِدْ سَبْعَةً إِظْلَالَ غَازٍ وَعَوْنَهُ *** وَإِنْظَارَ ذِي عُسْرٍ وَتَخْفِيفَ حِمْلِهِ

وَإِرْفَادَ ذِي غُرْمٍ وَعَوْنَ مُكَاتَبٍ*** وَتَاجِرَ صِدْقٍ فِي الْمَقَالِ وَفِعْلِهِ

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الكسوف، باب: فَضْلِ إِخْفَاءِ الصَّدَقَةِ، برقم: (١٠٣١).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ، باب: حَدِيثِ جَابِرٍ الطَّوِيلِ وَقِصَّةِ أَبِي الْيَسَرِ، برقم: (٣٠٠٦).

(٣) رواه الترمذي، كتاب: أبواب البيوع، باب: مَا جَاءَ فِي إِنْظَارِ المُعْسِرِ وَالرِّفْقِ بِهِ، برقم: (١٣٠٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم: (٩٠٩).

(٤) رواه الحاكم في مستدركه، برقم: (١٥١٧).

(٥) فتح الباري لابن حجر: (١٤٣/٢).

(**إظلال غازٍ**) أي: أن يظل الغازي فيجعل الظل على رأسه.

وقد جود الحافظ ابن حجر الأحاديث الواردة في هؤلاء السبعة، ثم ذكر سبعة آخرين في بيتين قال: ((**إن الأحاديث الواردة فيهم ضعيفة**))، ثم زاد سبعة آخرين في بيتين قال: ((**إن الأحاديث الواردة فيهم ضعيفة**))[1]، فكان في الصحيح أربعة أبيات، وكان فيما ورد من وصف في أحاديث ضعيفة أربعة أبيات ذكر هذا الحافظ في فتح الباري؛ هذا ما يتعلق بالحشر.

---

(١) فتح الباري لابن حجر: (١٤٣/٢).

كُنا نتكلم عن المرتبة الثانية من مراتب ديننا ألا وهي: مرتبة الإيمان، وقد تكلمنا عن أركان الإيمان وبينا أنها ســـتة أركان، وتكلمنا عن الركن الأول، والركن الثاني، والثالث، والرابع ووصــلنا إلى الركن الخامس؛ فكنا نتكلم عن الإيمان باليوم الآخر، وقلنا إن اليوم الآخر هو اليوم الأخير وأوله القبر فإن القبر أول منازل الآخرة؛ **ولذا فإن الإيمان باليوم الآخر يتضمن الإيمان بأربعة أمور**:

الأمر الأول: الإيمان بالقبر، وأحواله، وأهواله ما يقع فيه من الفتنة والسـؤال، وما يقع فيه من العذاب والنعيم، وما صحت به الأخبار من مجيء ملكين إلى الميت فيه.

وأما الأمر الثاني: فهو الإيمان بالبعث ومقدماته، وقلنا إنَّ مقدمات البعث: هي أشــراط الساعة، وبيّنا ما يتعلق بها بقسميها الأكبر والأصغر، بأقسامها البعيدة، والمتوسطة، والقريبة، ثم تكلمنا عن البعث، ووصـل بنا الكلام إلى الأمر الثالث: وهو الإيمان بما جاء في اليوم الآخر من الحشــر، والحســاب، والجزاء، والصــراط، والميزان، والحوض، وتكلمنا عن الحشــر وعن الإيمان بالحشر وبيّنا ما يتعلق به، ثم وقفنا عند هذه النقطة.

فمن الإيمان باليوم الآخر: أن يؤمن العبد إيمانًا جازمًا بالحســـاب والجزاء؛ فإن العبد يُحاسب في اليوم الآخر على عمله ويُجازى عليه عند لقاء الله عَزَّ وَجَلَّ، دلَّ على ذلك الكتاب، والســـنة، وإجماع العلماء، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾[1].

(١) سورة الغاشية: (٢٥ – ٢٦).

فالحســاب يكون بعد الإياب، يكون بعد البعث، وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[(١)]؛ وهذا دليلٌ على الحســاب، وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٌ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[(٢)].

❖ **والمؤمن في ذنوبه على حالين:**

إمَّا أن يكون مســـتترا بها حييًا؛ وهذا يرجى أن يدخل في حديث ابن عمر رَضِــيَ اللهُ عَنْهُمَا: أن النبي صَــلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ قال: «**إنَّ اللَّهَ يُدْنِي المُؤْمِنَ، فَيَضَــعُ عليه كَنَفَهُ ويَسْتُرُهُ، فيَقولُ: أتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فيَقولُ: نَعَمْ أيْ رَبِّ، حتَّى إذَا قَرَّرَهُ بذُنُوبِهِ، ورَأَى أنَّه قَدْ هَلَكَ، قالَ: قِدْ سَـــتَرْتُهَا عَلَيْكَ في الدُّنْيَا، وأَنَا أغْفِرُهَا لكَ اليَومَ، فيُعْطَى كِتَابَ حَسَـنَاتِهِ، وأَمَّا الكَافِرُ والمُنَافِقُونَ، فيَقولُ الأشْـهَادُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٣)]**»[(٤)]، رواه الإمام البخاري في الصحيح.

والقسم الثاني: من المذنبين المؤمنين من لا يكون مستحيًا من الله ولا من خلقه بل يكون مجاهرًا بذنبه، بل قد يســتره الله عَزَّ وَجَلَّ ثم يتحدث بالذنب ينشــره بين النَّاس، وهذا قد يحرم المعافاة، فقد قال النبي صَــلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إلاَّ الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمَجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ عَمَلاً بِاللَّيْلِ، ثُمَّ يُصْــبِحَ وَقَدْ سَــتَرَهُ اللَّهُ، فَيَقُولَ: يَا فُلاَنُ قَدْ**

---

(١) سورة الأنعام: (١٦٠).

(٢) سورة الأنبياء: (٤٧).

(٣) سورة هود: (١٨).

(٤) رواه البخاري، كتاب: المظالم والغصب، باب: قول الله تعالى: {ألا لعنة الله على الظالمين}، برقم: (٢٤٤١).

عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْــتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْــبِحُ يَكْشِــفُ سِــتْرَ اللهِ تَعَالَى»[1]رواه البخاري في الصحيح.

حديث ابن عمر رَضِــيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الذي ذكرناه: وهو أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يدني المؤمن؛ هذا الحـديـث فـيـه صــفـاتٌ لـلـحســاب يـوم الـقـيـامـة مـنـهـا: أنَّ المؤمنَ يُعرض عليه عمله عرضًـا بينه وبين ربه سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيسـتر الله عليه حتى في يوم الحسـاب كما سـتر عليه في الدنيا، فيقرر الله عَزَّ وَجَلَّ المؤمن بذنبه، ثم يغفر له ذنوبه ويسـترها عليه وهذا هو العرض هذا هو العرض، وقد جاء قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾[2] فسره النبي صَـلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ بالعرض فقال: «إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكْ»[3] متفقٌ عليه والحديث في الصحيحين.

ومن الناس من يحاسـب بمناقشـة الحسـاب وقد قال النبي صَـلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ»[4] متفقٌ عليه، وفي روايةٍ قال النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس أحدٌ يحاسـب يوم القيامة إلا هلك» والرواية في الصـحيحين، **والمقصـود بالحسـاب هنا**: حسـاب المناقشة فمن نوقش الحساب فإنه يهلك ويعذب، ومن الناس من يحاسب بأن ينادى عليه على رؤوس الخلائق وهؤلاء هم الكفار.

وقد أجمع المسـلمون على إثبات الحسـاب والجزاء على الأعمال؛ والحسـاب: هو مقتضـى الحكمة فإن الله تَعَالَى أنزل الكتب، وأرسـل الرسـل، وبين الحلال وبين الحرام، وفرض على العباد

---

(١) رواه البخاري، كتاب: الأدب، باب: ستر المؤمن على نفسه، برقم: (٦٠٦٩).

(٢) سورة الانشقاق: (٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: من نوقش الحساب عذب، برقم: (٦٥٣٧).

(٤) رواه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: من نوقش الحساب عذب، برقم: (٦٥٣٦).

قبول ما جاءت به الرسل عَلَيْهِمْ السَلَامْ، والعمل بما جاء به الرسل عَلَيْهِمْ السَلَامْ وسيسأل الله عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة الرسل عن أقوامهم ويسأل الناس عن أعمالهم، فالله عَزَّ وَجَلَّ يسأل الرسل يوم القيامة عن أقوامهم، ويسـأل الناس عن أعمالهم قال تَعَالَى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾[1].

وسيحاسب الله عَزَّ وَجَلَّ عبده ويكلمه كما قال النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ مِنْ عَنْ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا ما قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْـأَمَ مِنْهُ، فَلا يَرَى إلا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَمَامَهُ، فَلا يَلْقَى إلا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»[2] متفقٌ عليه.

والله عَزَّ وَجَلَّ عند الحساب يبعث على العبد شهودًا فيبعث عليه الملائكة شهودًا، ويبعث عليه الأرض التي كان عليها تشهد له أو عليه، ثم تشهد عليه جوارحه، وسيعطي الله عَزَّ وَجَلَّ في يوم الحساب كل ذي حقٍ حقه يقول النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ**»[3] رواه مسلم.

وقال النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كانت له مظلمةٌ عند أخيه من عرضه أو شيء فليتحلل منه اليوم من كانت له مظلمةٌ لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلل منه اليوم قبل ألا يكون دينارٌ ولا درهم إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له**

---

(١) سورة الأعراف: (٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب: التوحيد، باب: كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، برقم: (٧٥١٢)، ورواه مسلم، كتاب: الكسوف، باب: الْحَثِّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، أَوْ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ وَأَنَّهَا حِجَابٌ مِنَ النَّارِ، برقم: (١٠١٦).

(٣) رواه مسلم، كتاب: الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، باب: تَحْرِيمِ الظُّلْمِ، برقم: (٢٥٨٢).

حسنات أخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه»[1] رواه البخاري، وفي روايةٍ للبخاري أيضًا قال النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كانت عِندَهُ مظلمةٌ لأخيه، فليتحلَّلهُ منها؛ فإنه ليس ثمَّ دينارٌ، ولا درهم مِن قَبْلِ أَنْ يُؤخذُ لِأَخيهِ مِن حسناته، فإن لم يكن له حسنات؛ أُخِذَ من سيئات أخيه فطُرِح عليه**»[2]؛ فالنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبيِّن لنا أنَّ كل ذي حقٍ سيأخذ حقه يوم القيامة، وبيَّن لنا أمرًا عظيمًا وهو أنَّ من كان لأخيه حقًّا عنده فليتخلَّص منه اليوم وليتحلَّله منه اليوم قبل أن يكون الحساب يوم القيامة، وليس ثَمَّ هناك إلا الحسنات والسيئات؛ فإن كان للظالم حسناتٌ أُخِذ من حسناته بقدر المظلمة، وإن لم يكن له حسنات أُخذ من سيئات المظلوم فطرحت عليه، بل إذا نجا المؤمنون من النار وتجاوزوا الصراط، فإنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ لا يُدخلُهم الجنة حتى يأخذ لكل ذي حقٍ حقه؛ روى البخاري عن أبي سعيدٍ الخدري: قال: قال النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَخْلُصُ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَارْ**» يعني: يتجاوزون الصراط، «**فيُحبَسون على قنطرةٍ بين الجنة والنار، فيُقتَصُ لبعضهم من بعض مظالمَ كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هُذِبُوا ونُقُوا أُذِن لهم في دخول الجنة**»، بعض الناس يقول إذا دخل الناس الجنة كيف يعرف كلُ واحدٍ منزله يقول النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث: «**فَوَالَذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَة مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُنْيَا**»[3]؛ فكل واحدٍ يهتدي لمنزله في الجنة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب: المظالم والغصب، باب: من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له، هل يبين مظلمته، برقم: (٢٤٤٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: القصاص يوم القيامة، باب: (٦٥٣٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: القصاص يوم القيامة، برقم: (٦٥٣٥).

لكنَّ الشاهدَ هنا: أن الله عَزَّ وَجَلَّ يُعطي لكل ذي حق حقه حتى بعد أن يجتاز المؤمنون الصـــراط؛ فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يقتصُ لبعضـــهم من بعض حتى لا تبقى مظلمة، فلا يدخل أحد الجنة وفي عُنقِه مظلمةٌ لأحدٍ من إخوانه.

❖ أمَّا الميزان:

فالميزان حق، وميزانٌ حقيقي يُنصَبُ يوم القيامة له كفتان، وله لسـان، توزن فيه الأعمال وغيرها كما ســيأتي إن شـــاء الله، فيَرجُح بمثقال ذرةٍ من خير أو شـــر، قال تَعَالَىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1]؛ فالوزن يومئذٍ في يوم القيامة حق يقينٌ لا شـك فيه، فمن ثقلت موازينه فهو الناجي، ومن خفت موازينه فهو المخذول، من ثقلت موازينه فهو المفلح، ومن خفَّت موازينه؛ فهو الذي ظلم نفسه في الدنيا، وجاء في الحديث قول النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنْ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانْ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهْ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمْ**»[2]والحديث عند البخاري في الصحيح.

والشــاهد: أن النبي صَـلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ أثبت الميزان فقال: «**ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانْ**»، وثبت في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يجتزُّ سواكاً من الأراك للنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ، فانكشــف ســاقاه، وكان رَضِــيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَــاهْ دقيقَ الســاقين جداً، فضــحك منه الصـــحابة؛ ضَــحِكَ الصـــحابة رِضْـوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ فقال: النبي صَــلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ: « **مِمَّ تَضْـحَكُونَ؟**» ما الذي يضــحككم، قالوا: من دِقَّةِ ســاقيه، قال: النبي صَـلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ:

---

(١) سورة الأنبياء: (٤٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: {ونضع الموازين القسط ليوم القيامة}، برقم: (٧٥٦٣).

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ»[1] رواه ابن حبَّان وأحمد واسناده صحيح.

✍ والذي يُوزن في الميزان ثلاثة أمور كما دلَّت عليه الأدلة:

الأمر الأول: الأعمال سواءً أن كانت من خير أو شر، وقد دلَّت على ذلك الأدلة، ومنها ما تقدم قول النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنْ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانْ»[2] فهذا يدل على أن الأعمال من الأقوال والأفعال تُوزن يوم القيامة.

والأمر الثاني: صحف الأعمال، فإن كل واحدٍ مِنَّا له صحف تُكتب فيها أعماله من خيرٍ أو شر، وهذه الصحف تُوزن يوم القيامة.

يدل على ذلك أن الرسول صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللَّهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا»[3] تسعة وتسعون صحيفة من أعماله، «كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ» لا إله إلا الله، تسعة وتسعون سجلًّا كل سجل مثل مد البصر «ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ الله: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»؛ تسعة وتسعون سجلًا فيها السيئات وبطاقة واحدة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد عبده ورسوله، فيقول: «يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ»

---

(١) رواه أحمد في مسنده، برقم: (٣٩٩١)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، برقم: (٢٧٥٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: {ونضع الموازين القسط ليوم القيامة}، برقم: (٧٥٦٣).

(٣) رواه الترمذي، كتاب: أبواب الإيمان، باب: مَا جَاءَ فِيمَنْ يَمُوتُ وَهُوَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، برقم: (٢٦٣٩)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، برقم: (٥٥٥٩).

يعني: ما تنفع هذه البطاقة مع هذه السجلات، تسعة وتسعون سجلًا كل سجل منها مثل مَد البصر، فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: « إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ»، قال: «فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ» رواه الترمذي واسناده صحيح.

فهنا دل ذلك: على أن الصحف التي فيها الأعمال توزن فتوضع صحف السيئات في كفه، وتوضع صحف الحسنات في كفه.

والأمر الثالث الذي يُوزن: هو العامل، فالعامل يُوزن لكن ثقل العامل ليس بكثرة الشحم و اللحم، وإنما ثِقَل العامل بحسب أعماله الصالحة يدل ذلك قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[1]؛ فلا وزن لهم في الميزان.

وحديث ابن مسعود الذي تقدم معنا أن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال عن ساقيه عبد الله بن مسعود مع دقتهما: إنهما أثقل في الميزان من أحد، يدل على أن العامل يوزن لكن كما قلنا: ثقل العامل ليس بشحمه ولحمه، وإنما ثقله بعمله الصالح الذي يقدمه.

❖ وأما الشفاعة:

وما أدراك ما الشفاعة؛ **فالشفاعة في اللغة**: الوسيلة والطلب؛ يقال: شفع فلان إلى فلان أي طلب منه.

وفي العرف: سؤال الخير للغير؛ يسأل الإنسان الخير لغيره؛ اليوم الناس تسميها الواسطة؛ الشفاعة.

---

(١) سورة الكهف: (١٠٥).

وأما الشفاعة عند الله: فهي سؤال الله عَزَّ وَجَلَّ الخير والتجاوز عن الذنوب للغير؛ قلنا: سؤال الله الخير؛ ليدخل في ذلك شفاعة النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للناس بدخول الجنة فإنه سؤال خير، وقلنا: والتجاوز عن الذنوب للغير؛ ليدخل في ذلك مثل شفاعة النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل الكبائر من أمته.

والشفاعة مبدؤها من الله وإتمامها من الله؛ فالشفاعة لله ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾[1]، فلا يملك أحد مهما علا شأنه، ومهما علا شرفه الشفاعة وإنما الشفاعة لله عَزَّ وَجَلَّ؛ هو سبحانه يتكرم بها فيعطيها من يشاء؛ ولذا ضل أقوام فجعلوا الشفاعة للبشر مثلًا أو للأصنام ولم يجعلوها لله عَزَّ وَجَلَّ كاعتقاد الكفار أن الأصنام وما يعبدون تشفع لهم بذاتها، وبعض المسلمين ضل في هذا الباب: فيعتقد أن الشفعاء يشفعون بقوتهم، وذاتهم، وجاههم فيطلبون الشفاعة ويسألون الشفاعة من الشفعاء هنا؛ فيأت بعض المؤمنين إلى القبر ويقول: إني أسألك الشفاعة، وهذا خطأ وضلال في الباب.

فالشفاعة حقيقة ثابتة مبدؤها من الله وإتمامها من الله كما سيأتي في شرطي الشفاعة؛ والشفاعة لها حكمة عظيمة؛ **فحكمتها تعود إلى أمرين**:

الأمر الأول: إظهار كرامة الشافع، وبيان عظيم منزلته عند الله.

والأمر الثاني: رحمة الله بالمشفوع له؛ فالشفاعة سبب من أسباب رحمة الله بالخلق، والشفاعة كما قلنا: لله جميعًا.

---

(١) سورة الزمر: (٤٤).

✍ ولذا لا تقبل الشفاعة، ولا تنفع الشفاعة إلا بشرطين:

الشرط الأول: إذن الله للشافع أن يشفع، وقد أجمع على ذلك أهل العلم يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[1] فلا يشفع أحد عند الله مهما بلغ جاه حتى سيد الشفعاء محمد بن عبد الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يشفع إلا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والشرط الثاني: رضى الله عن المشفوع له أن يرضى الله عن المشفوع له قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[2]، والمعلوم أن الله لا يرتضي إلا أهل التوحيد، أما أهل الشرك والكفر فلا يرتضيهم الله، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين بإخراجهم من النار، ولا استغفار الشافعين لهم لمغفرة ذنوبهم ولو كان الشفيع أعظم الشافعين جاهًا؛ ثبت في صحيح البخاري عن أبي هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**يلقى إبراهيم عَلَيْهِ السَلَامْ أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة**»؛ لأنه من الكفار «**فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني، فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب أنت وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون وأي خذي أخزى من أبي الأبعد فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: إني حرمت الجنة على الكافرين**»[3]، فلا يقبل الله عَزَّ وَجَلَّ شفاعة في كافر لإدخاله الجنة، أو إخراجه من النار، وجاء في الحديث أن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: « «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا**»[4] متفق عليه واللفظ لمسلم؛ فهنا النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماذا قال؟ قال: «**فَهِيَ نَائِلَةٌ**

---

(١) سورة البقرة: (٢٥٥).

(٢) سورة الأنبياء: (٢٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: {واتخذ الله إبراهيم خليلًا}، برقم: (٣٣٥٠).

(٤) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: اخْتِبَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعْوَةَ الشَّفَاعَةِ لِأُمَّتِهِ، برقم: (١٩٩).

إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ» ماذا؟ لا يشرك بالله شيئًا.

وأيضًا جاء في صحيح البخاري عن أبي هُريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: «يا رسول الله أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة؟» فقال: «أسعد النَّاس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه»[1] ليس كل من قال: لا إله إلا الله، من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه هذا هو أسعد الناس بشفاعة النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال العلماء: وكلما كان العبد لله أخلص كان لشفاعة النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقرب.

وقد دلت السنة على ثبوت الشفاعة وعلى أنواع: ومن ذلك قول النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ»[2] فالشفاعة تكون للملائكة، وتكون للأنبياء، وتكون للمؤمنين، فيقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ»[3] رواه مسلم في الصحيح، وقد تقدم معنا الحديث بتمامه، عندما تكلمنا عن تعريف الإيمان، والأحاديث في هذا كثيرة جدًا.

✍ والشفاعة تنقسم من حيث الأصل إلى قسمين:

القسم الأول: الشفاعة المردودة؛ التي لا تنفع ولا يقبلها الله عَزَّ وَجَلَّ وهي التي خلت من الشرطين المذكورين لم يأذن الله عَزَّ وَجَلَّ فيها، أولم يرض عن المشفوع له، فهذه الشفاعة منفية، ومردودة، ولا تنفع يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا

---

(١) رواه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب، برقم: (٦٥٧٠).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: مَعْرِفَةِ طَرِيقِ الرُّؤْيَةِ، برقم: (٣٠٢).

(٣) سبق تخريجه.

﴿يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ﴾[1]؛ يعني: لا يُقبل منها شفاعة بدون إذن الله ورضاه، فاعتقاد أن الشفعاء يشفعون ابتداءً بجاههم بدون إذن الله اعتقادٌ باطل، واعتقاد أن الشفعاء يشفعون لمن شاءوا اعتقادٌ باطل، فهذه الشفاعة مردودة غير نافعة لا تقبل ولا تنفع.

والقسم الثاني: الشفاعة المقبولة النافعة، وهي التي تحققت فيها الشروط المذكورة.

ⓘ ومحمد صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيد ولد أدم وهو سيد الشفعاء يوم القيامة، **وقد ثبت له بالأدلة ثمانية أنواع للشفاعة:**

النوع الأول: الشفاعة العظمى في أهل الموقف حتى يُقضى بينهم، وهي المقام المحمود.

والنوع الثاني: شفاعته لأهل الجنة ليدخلوها، شفاعته في أن يؤذن لأهل الجنة بدخولها.

والنوع الثالث: شفاعته في قوم أن يدخلوا الجنة بغير حساب.

والنوع الرابع: شفاعته في قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم أن يدخلوا الجنة.

والنوع الخامس: شفاعته في رفع الدرجات في الجنة، وزيادة الثواب وهي متفق عليها بين المسلمين، ولا يكاد ينكرها مسلم، وإن حكي عن بعض أهل البدع إنكار هذه الشفاعة.

والنوع السادس: شفاعته في قوم استحقوا النار من الموحدين أن لا يدخلوها.

والنوع السابع: شفاعته في أهل الكبائر من أمته ممن دخل النار أن يخرج منها، وشفاعة النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل الذنوب أجمع عليها السلف الصالح من الصحابة، والتابعين، والأئمة الأربعة وغيرهم من السلف الصالح، ونفاها بعض أهل بدع كالخوارج والمعتزلة.

---

(١) سورة البقرة: (٤٨).

والنوع الثامن: شفاعته في تخفيف العذاب عن بعض من دخل النار كشفاعته لعمه أبي طالب، النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يشفع لأبي طالب في الإخراج من النار؛ لأنه كما تقدم معنا لا تنفع الشفاعة للكافر في إخراجه من النار؛ لكنه يشفع لأبي طالب بأن يخفف عنه العذاب جزاء ما عمله من حماية النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المشركين، وقد قال النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أبي طالب: «**هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»[1]، وقال صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ، يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ**»[2]وهذا أهون الناس عذابًا يوم القيامة يُجعل في ضحضاحٍ من النار يبلغ كعبيه يَغلي منه دماغه فكيف بمن دخل النار؟ أعني: بمن لم يخفف عليه وإلا فأبو طالب داخلٌ في النار، النار عذابها شديد نعوذ بالله من النار، نعوذ بالله من النار.

✍ والخاص بالنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الشفاعة، يعني التي يختص بها النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **ولا يشفع فيها أحدٌ سواه ثلاثة:**

الشفاعة العظمى: للناس ليقضي الله عَزَّ وَجَلَّ بينهم يوم القيامة، وهذه خاصة بالنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتأخر عنها الأنبياء عَلَيْهِمْ السَلَامْ جميعًا؛ قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حدثنا محمدٌ صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ لَهُ: اشْفَعْ لِذُرِّيَّتِكَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّهُ خَلِيلُ اللهِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى عَلَيْهِ**

(١) روته البخاري، كتاب: الإيمان، باب: شَفَاعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي طَالِبٍ وَالتَّخْفِيفِ عَنْهُ بِسَبَبِهِ، برقم: (٣٥٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب: المناقب، باب: قصة أبي طالب، برقم: (٣٨٨٥).

السَّـلَامُ، فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللهِ، فَيُؤْتَى مُوسَـى، فَيَقُولُ: لَسْـتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَـى عَلَيْهِ السَّـلَامُ، فَإِنَّهُ رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ، فَيُؤتَى عِيسَـى، فَيَقُولُ: لَسْـتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأُوتَى فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ الْآنَ، يُلْهِمُنِيهِ اللهُ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ: يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: انْطَلِقْ، فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ بُرَّةٍ، أَوْ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى رَبِّي فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَـاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ لِي: انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَى رَبِّي فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ لِي: انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَل، ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى رَبِّي فِي الرَّابِعَةِ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ لَكَ – أَوْ يقول: لَيْسَ ذَاكَ إِلَيْكَ – وَلَكِنْ وَعِزَّتِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي، لَأُخْرِجَنَّ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[1]، وفي رواية فأقول: «يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ»[2].

---

(١) رواه البخاري، كتاب: التوحيد، باب: كلام الرب عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، برقم: (٧٥١٠).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً فِيهَا، برقم: (٣٢٧).

✍ هذا الحديث فيه أنواع شفاعاتٍ للنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

- فيه شفاعته صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمته ليخرج من دخل النار من أمته ويأذن الله عَزَّ وَجَلَّ له في ذلك.
- وفيه شفاعته لدخول الجنة لأمته لمن لا يكون عليه حساب، فيأذن الله عَزَّ وَجَلَّ له، وجاء في الحديث أيضًا الشفاعة العظمى وهي شفاعته صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الناس ليقضى بينهم يوم القيامة كما ثبت ذلك في الصحيحين.

النوع الثاني: شفاعته في عمه أبي طالب فهذه خاصة بالنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

النوع الثالث: شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها.

وبقية الشفاعات يشترك معه فيها غيره ممن أذن الله عَزَّ وَجَلَّ لهم في الشفاعة.

إذن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يشفعُ أنواعًا من الشفاعات منها ما يشترك فيه مع غيره، ومنها ما يختصه الله به، وما يختصه الله به ثلاثة أنواع: الشفاعة العظمى، وشفاعته في عمه أبي طالب، وشفاعته في دخول الجنة لأهلها.

❖ **أما الحوض:**

والإيمان به من الإيمان باليوم الآخر فهو حوضٌ عظيم يَردهُ النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وترده أمته، ويذودُ عنه النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأقوام فإنه لأمة النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأقوام فإنه لأمة النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أشد بياضًا من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحًا من المسك، طوله وعرضه سواء زواياه سواء مسيرة شهرٍ يمد ماءه من نهر الكوثر من الجنة يشخب فيه ميزابان من الجنة.

وفي الحديث يقول النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن قَدْرُ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ مكة إلى صَنْعَاءَ مِنَ الْيَمَنِ، وَإِنَّ فِيهِ مِنَ الْأَبَارِيقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ»[1]، وقال صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ، وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الْوَرِقِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا»[2]، هذا الحوض العظيم ترده أمة محمدٍ صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويُسقي النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته بيده الشريفة.

وقد روى مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُرِيتُ أَنِّي أَنْزِعُ عَلَى حَوْضِي أَسْقِي النَّاسَ، فَجَاءَنِي أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ الدَّلْوَ مِنْ يَدِي لِيُرَوِّحَنِي، فَنَزَعَ دَلْوَيْنِ، وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ، فَجَاءَ ابْنُ الْخَطَّابِ فَأَخَذَ مِنْهُ، فَلَمْ أَرَ نَزْعَ رَجُلٍ قَطُّ أَقْوَى مِنْهُ، حَتَّى تَوَلَّى النَّاسُ، وَالْحَوْضُ مَلْآنُ يَتَفَجَّرُ»[3]، النبي

---

(١) رواه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: في الحوض، برقم: (٦٥٨٠)، ورواه مسلم، كتاب: الفضائل، باب: إِثْبَاتِ حَوْضِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصِفَاتِهِ، برقم: (٢٣٠٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: في الحوض، برقم: (٦٥٧٩)، ورواه مسلم، كتاب: الفضائل، باب: إِثْبَاتِ حَوْضِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصِفَاتِهِ، برقم: (٢٢٩٢).

(٣) رواه مسلم، كتاب: فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، باب: مِنْ فَضَائِلِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، برقم:

صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسقي أمته من حوضه، ويشرب الناس من الحوض وينصرفون، والحوض ملآن يتفجر بالماء، والنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرف أمته جميعًا بسيماهم، وسيماهم هي أثر الوضوء فإن الصحابة قالوا: «**يَا رسول اللهِ أَتَعْرِفُنَا يومئذٍ؟**»؛ يعني يوم الحوض، قال: «**نَعَمْ لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ غَيْرِكُمْ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ**»[1]رواه مسلم، لكن سيرد الحوض من أمة محمدٍ صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تكون عليه سيما الوضوء فيكون مصلِّيًا متوضئًا ومع ذلك يُرَدُّ عن الحوض، ويذاد عن الحوض، ولا يشرب من الحوض بسبب البدع بسبب الإحداث، فالبدع شؤمها عظيم؛ المحدثون في دين الله كثير منهم يريدون رضوان الله، لكنهم أخطأوا الطريق ما ساروا على سنة رسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيُرَدُّ أقوامٌ عن الحوض لما أحدثوه من البدع، يقول النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **إِنِّي عَلَى الْحَوْضِ حَتَّى أَنْظُرَ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ، وَسَيُؤْخَذُ أُنَاسٌ دُونِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ مِنِّي وَمِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ: أَمَا شَعَرْتَ مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ؟ مَا بَرِحُوا يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ**»[2]متفقٌ عليه.

وهذا الحديث حديث عظيم فيه الدلالة على: أن البدع شؤمها عظيم، وأن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعلم الغيب، ولا يعلم ما أحدثه الناس بعده، فالذين يأتون إلى قبر النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويدعونه، ويقولون: أنت أعلم بحالنا يا رسول اكشف عنا الضر، هؤلاء يقعون في الشرك الأكبر والعياذ بالله، النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يدري ما أُحدث بعده صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي رواية يُقال: «**إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**»[3]، وفي رواية قال: «**أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ أُنَادِيهِمْ أَلَا هَلُمَّ**»[4]لماذا

.(٢٣٩٢)

(١) رواه مسلم، كتاب: الطهارة، باب: اسْتِحْبَابِ إِطَالَةِ الْغُرَّةِ وَالتَّحْجِيلِ فِي الْوُضُوءِ، برقم: (٢٤٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الفضائل، باب: إِثْبَاتِ حَوْضِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصِفَاتِهِ، برقم: (٢٧).

(٣) رواه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: {وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم}، برقم: (٤٦٢٥).

(٤) رواه مسلم، كتاب: الطهارة، باب: اسْتِحْبَابِ إِطَالَةِ الْغُرَّةِ وَالتَّحْجِيلِ فِي الْوُضُوءِ، برقم: (٢٤٩).

يناديهم؟ لأنه يرى فيهم أثر الســجود، يرى فيهم أثر أنهم من أمته، فيناديهم: «أَلَا هَلُمَّ» إلى الحوض، وهم يذادون ويطردون عن الحوض، قال: «فيقال: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا».

فالبدع شؤمها عظيم، هذا الحوض هو حوض النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والإيمان به من الإيمان باليوم الآخر.

❖ وأما الصراط:

فالصراط جسر ممدود على متن جهنم، وهو طريق أهل المحشر إلى الجنة، وقد دلت الأدلة على إثباته، قال تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[1] يعني وارد ماذا ؟ وارد النار، ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[2].

ذكر أكثر المفسرين أن ورود النار هنا: هو المرور على الصراط، فإن كل الناس سيمرون على الصراط، وفي الصحيحين قال النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهراني جهنم، قال الصحابة: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: مدحضة مزلة، عليه خطاطيف، وكلاليب، وحسكة تكون بنجد يقال لها السعدان، يجوز المؤمن كطرف العين**»[3]، يعني بعض المؤمنين يجتاز هذا الجسر كطرف العين، بمقدار ما تغمض العين ثم تُفتح، «**يجوز المؤمن كطرف العين وكالبرق**»؛ يعني بسرعة البرق، «**وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل، وكالراكب قال: فناج مسلم**»، لا يصاب بشيء، «**وناج مخدوش**» تخدشه الكلاليب لكنه ينجو، «**ومكدوس في نار جنهم، حتى يمر آخرهم يسحب سحبًا**»، وفي رواية: «**يزحف زحفًا**» فآخر المؤمنين يمر إلى الجنة يزحف زحفًا على الصراط، وقال النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته**»، أول من يجوز الصراط هو محمد بن عبد الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «**ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذ: «اللهم سلم سلم، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان**

---

(١) سورة مريم: (٧١).

(٢) سورة مريم: (٧١ – ٧٢).

(٣) رواه البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة}، برقم: (٧٤٣٩).

غير أنه لا يعظم قدر عظمها إلا الله تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم من يوبق بعمله فيقع في النار، ومنهم من يخردل ثم ينجو»[1] رواه البخاري في الصحيح، وجاء في وصفه عن أبي سعيد الخدري أنه أدق من الشعر، وأحد من السيف، لا يقدر أحد أن يثبت عليه إلا من ثبته الله سُــبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه يُنصـــب في ظلمة فيُعطى الناس أنوارًا على قدر أعمالهم يجوزون بها الصراط، ويمرُّون على قدر إيمانهم، فهذه الأمور الإيمان بها من الإيمان باليوم الآخر.

(١) رواه البخاري، كتاب: الأذان، باب: فضل السجود، برقم: (٨٠٦).

❖ وأما الأمر الرابع: فهو الإيمان بالجنَّة والنار.

الجنة: هي دار الثواب لمن أطاع الله؛ موضعها في السماء السابعة عند سدرة المنتهى، وهي مئة درجة ما بين كل درجةٍ والأخرى كما بين السماء والأرض يتفاوت أهلها في النعيم.

وأعلى الجنَّة هو الفردوس الأعلى، وفوق الفردوس العرش، وللجنَّة ثمانية أبواب ففي الحديث: «**فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ، فِيهَا بَابٌ يُسَمَّى الرَّيَّانَ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ**»[1]، نعيمها لا تدركه العقول ما وُجد فيها من أمورٍ توجد في الدنيا إنما هو الاسم فقط، يقول الله كما في الحديث القدسي: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»[2]، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[3]

أمَّا النار: فهي دار العقاب أعدَّها الله للكافرين والمنافقين، ويدخل ناسٌ من الموحدين لعصيانهم لكنهم لا يُخلَّدون فيها، قال أهل العلم: الدَّاخلون للنار ينقسمون إلى ثلاثة: مخلدٌ أبدًا، ومخلدٌ أمدًا، ومستوفٍ زمنًا.

مخلدٌ أبدًا: فلا يخرج منها أبدًا يُقال لهم خلودٌ فلا موت وهؤلاء هم الكفار والمنافقون.

ومخلدٌ أمدًا: أي أنه يُخلَّد خلودًا له أمد ينتهي إليه ثم يخرج من النار، لكنه لطول مُكثه في النار كأنه مخلد؛ وهذا لبعض العصاة الذين يعظم عصيانهم كقاتل النفس عمدًا فإنه يُخلَّد في النار خلودًا مؤمدًا له وقت وأجل.

ومستوفٍ زمنًا: هذا لبعض العصاة الذين يدخلون النار ثم يُخرجون منها بحسب ذنوبهم.

---

(١) رواه البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: صفة أبواب الجنة، برقم: (٣٢٥٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم: (٣٢٤٤).

(٣) سورة السجدة: (١٧).

ودخول النار عذابٌ عظيم ولو كان برهةً من الزمن، وقد ثبت في الصحيحين: «**أنه يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْعَمِ رجلٍ كان في الدُّنْيَا مِنَ أهل النار، فَيُغْمَسُ غمسة في النار، ثُمَّ يُخْرَجُ منها فيُقَالُ: هل رأيت نعيمًا فيقول: لا ما رأيت نعيمًا قط**»[1]؛ غمسة في النار أنست أنعم أهل الدنيا نعيمه ممن كان من أهل النار، فكيف بدخول النار؟.

كثيرٌ من الناس تغرُّهم الدنيا وتغرُّهم الملذات، ويغرُّهم المقام والشرف في الدنيا فيقدمون على المحرمات طلبًا للنعيم والرفاهية واللَّذة، والغمسة الواحدة في النار تنسي صاحبها نعيم الدنيا كله.

والنار فيها أنواعٌ من العذاب والنكال يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[2]، ولها دركات بعضها أسفل من بعض، قال عبد الرحمن بن أسلم: ((**درجات الجنةِ تذهبُ علوًّا، ودرجاتُ النارِ تذهبُ سُفُولاً**))[3]، فأقبحها هي الدركة السفلى من دركات النار وهي للمنافقين، ولها سبعة أبواب وهي نارٌ عظيمة فإن نار الدنيا جزءٌ من سبعين جزءً من نار جهنم وأطفأت بالماء مرتين؛ نار الدنيا كلها جزء من سبعين جزءً من نار جهنم وقد أطفأت بالماء مرتين فكيف بنار جهنم؟ نعوذ بالله من نار جهنم، والنصوص في وصف الجنَّة ووصف النَّار كثيرةٌ جدًا.

---

(١) رواه ابن ماجة، كتاب: الزهد، باب: ذكر الشفاعة، برقم: (٤٣٢١)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجة، برقم: (٤٣٢١).

(٢) سورة الكهف: (٢٩).

(٣) تفسير ابن رجب الحنبلي: (١/٣٦٨).

❖ **والإيمان بالجنَّة والنَّار يقوم بأمور:**

الأمر الأول: الاعتقاد الجازم الذي لا يتطرق إليه شك أنهما حق.

والأمر الثاني: اعتقاد وجودهما الآن، وأن النَّار موجودة والجنَّة موجودة؛ كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ في الجنَّة في الحديث الذي معنا: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّـالِحِينَ**»[1]، وفي رواية: «**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**»[2].

الأمر الثالث: اعتقاد دوامهما وبقائهما، وأنهما لا تفنيان أبدًا، ولا يفنى من فيهما؛ فالجنَّة باقية لا تفنى، ومن دخلها لا يفنى فإنه يؤتى بالموت فيُذبح، ويُنادى أهل الجنَّة: «**يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ**»[3] والنَّار لا تفنى، ولا يفنى عذابها، ولا يفنى من فيها؛ فلابدَّ من الإيمان بهذا الأمر؛ لابدَّ من أن نؤمن بأن الجنَّة والنَّار حق، وأنهما موجودتان، وأنهما باقيتان دائمتان لا تفنيان، وأنه لا يفنى من فيهما.

وبهذا نكون قد مررنا مرورًا سـريعًا على الإيمان باليوم الآخر وإلَّا فهنالك مباحث لو كان عندنا وقتٌ لفصَّـــلناها لكن هذا هو المطلوب الإيمان باليوم الآخر؛ أن نؤمن بالقبر وأحواله وأهواله، وأن نؤمن بالبعث ومقدماته، وأن نؤمن بالحشر، والحساب، والجزاء، والميزان، والحوض، والشـــفاعة، والصـــراط، وأن نؤمن بالجنَّة والنَّار؛ وهذا هو الركن الخامس من أركان الإيمان، وإن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ نتكلم عن الركن السادس وهو: الايمان بالقدر خيره وشرِّه.

---

(١) رواه البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، برقم: (٣٢٤٤).

(٢) رواه أحمد في مسنده، برقم: (١٥٦٥٥).

(٣) رواه مسلم، كتاب: الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا، باب: النَّارُ يَدْخُلُهَا الْجَبَّارُونَ وَالْجَنَّةُ يَدْخُلُهَا الضُّعَفَاءُ، برقم: (٢٨٤٩).

يقول المصنف رحمة الله عليه: "وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّه ".

الشَّرْح:

هذا هو الركن الســـادس من أركان الإيمان، والإيمان بالقضـــاء والقدر ركن عظيم هو من أعظم أسـباب اطمئنان القلب لو ءامن الناس بالقدر حق الإيمان لما شـقي أحد منهم، فالمؤمن بالقدر حقًا قبل نزول المقدور يعلم أن الأســـباب من قدر الله فيبذلها ويؤديها متوكلًا على ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبعد نزول المقدور يعلم متيقنًا أنه لو سـاق الدنيا وما فيها لما صُـرف ذلك عنه فيســلم الأمر لله ولا يتســخط ولا يجزع، لو ءامن الناس بالقدر حق الإيمان كما جاء في كتاب الله، وفي سُـنَّة رسـول الله صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَمْ على ما فهمه سـلف الأمة لا طمئنت قلوبهم، واســتقامت أحوالهم فيكونون باذلين للأسـباب مجتهدين في الأســباب متوكلين على مســببها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عالمين أنه إذا نزل المقدور وأصاب فإنه لو سيقت الأسباب جميعًا لما منعت من ذلك المقدور شيئًا هكذا يطمئن قلب المؤمن بالقضاء والقدر، وعلماؤنا يقولون: الإيمان بالقدر، ويقولون: الإيمان بالقضاء، ويقولون: الإيمان بالقضاء والقدر، فما معنى القدر وما معنى القضاء.

أما القضــاء: فالقضــاء في اللغة: هو الحكم والفصــل ومنه التقاضــي، يســمى القاضــي قاضيًا؛ لأنه يحكم بين الناس ويفصل بينهم في النزاع.

وفي اصـطلاح علماء التوحيد القضـاء: هو ما قضـاه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في خلقه من إيجاد، أو إعدام، أو تغيير.

وأما القدر: فالقدر في اللغة: مصـــدر قدَّرت الشـــيء أقدره إذا أحطت بمقداره؛ يقال: قَدَرت الشيء أَقْدُرُه، وقدَّرت الشيء أُقَدِّره أي: أحطت بمقداره.

وفي اصطلاح علماء التوحيد القدر هو: ما قدره الله سبحانه في الأزل بأن يكون جار في خلقه بناءً على علمه السابق كما سنبينه إن شاء الله في كلامنا عن مراتب القدر.

✍ وعلى هذا لابد أن يرد في الذهن سؤال: هل هناك فرق بين القضاء والقدر؟

العلماء يقولون: إن القضـــاء والقدر كالإيمان والإســـلام إذا افترقا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا، فإذا قيل القضـاء فهو بمعنى القدر كذلك، وإذا قيل القدر فهو بمعنى القضـاء كذلك، أما إذا قيل القضاء والقدر فيفرق بينهما؛ فيقال: القضاء هو الفراغ من الشيء، والقدر: هو تقدير الشيء قبل قضاءه، فيكون القدر سابقًا على القضاء.

يمثل بعض العلماء مقربًا المعني يقول: يمثل له بمنزلة الثوب، فالثوب يفصـــله الخياط ويقدره قبل أن يخيطه، ثم يخيطه فيفرغ منه فهو يفصله ويقدره فهذا بمنزلة القدر، ثم يخيطه ويفرغ منه وهذا بمنزلة القضاء.

فالقدر سـابق للقضـاء وهما متلازمان؛ لذا يقول ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ: ((**فالقَضـاء والقَدَر أَمْرَانِ مُتَلازِمان لَا يَنْفَك أحدُهما عَنِ الآخَر**))[1]، لماذا؟ قال: لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضـــاء فمن رام الفصـــل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضـــه فالقضاء والقدر متلازمان.

إذا عرفنا هذا فإن الإيمان بالقدر ركن عظيم من أركان الإيمان دل عليه كتاب ربنا، وسـنة نبينا، وإجماع سـلف الأمة، فمن الكتاب قول الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾[2]،

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر: (٤/ ٧٨).

(٢) سورة القمر: (٤٩).

وقول الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[1]، وكذلك في قوله تَعالَى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[2]، والأدلة من الكتاب كثيرة جدًا.

ومن السُّنَّة حديث جبريل المشهور الذي سيأتينا إن شاء الله في كلام الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلّ، أيضا روى مسلمٌ في صحيحه عن عبد الله ابن عمر ابن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْه وعن أبيه قال: سمعت رسول الله صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ يقول: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**»[3]، وهذا نص جلي ظاهر في إثبات القدر، وقد أجمعت الأمة على إثبات القدر، فالإيمان بالقدر محل إجماع الصحابة، وإجماع التابعين، وإجماع الأئمة المتبوعين من أمة محمد صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ.

يقول طاووس من التابعين: ((**أَدْرَكْتُ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُونَ كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ**))، وهذا في صحيح مسلم.

كذلك قال طاووس: سمعت عبد الله ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يقول: قال رسولُ اللهِ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ**»[4] رواه مُسلمٌ في الصحيح.

---

(١) سورة الأحزاب: (٣٨).

(٢) سورة الفرقان: (٢).

(٣) رواه مسلم، كتاب: القدر، باب: حِجَاجِ آدَمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، برقم: (٢٦٥٣).

(٤) رواه مسلم، كتاب: القدر، باب: كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، برقم: (٢٦٥٥).

✍ إذن القدرُ ثابتٌ بالكتابِ، والســـنةِ، والإجماع، والإيمانُ به ركنٌ عظيمٌ من أركانِ الإيمان، والإيمانُ بالقدر يتحقق بأن نؤمنَ بمراتبه الأربع، **فالقدرُ له مراتبٌ أربع:**

أولها: العلم، ونعني عِلمَ الله تَعَالى بكل شيء من الموجوداتِ، والمعدومات، والممكناتِ، والمستحيلات وإحاطته بذلك علمًا، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أحاط بكل شيءٍ علمًا لا يَخرجُ عن علمه شيءٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ الله عَلمَ كل شيء جملةً وتفصيلًا أزلًا وأبدا علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون فما غاب عن علم رَبنا سُــبْحَانَهُ وَتَعَالَى شــيء، يقول الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾[1]، جاء عن ابن عباس رَضِــيَ اللهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ سُئِلَ عن أولاد المشركين فقال النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: «**اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ**»[2]وهذا في الصــــحيحين، فالله يعلمُ ما لم يكن لو كان كيف يكون، فهؤلاء أولاد المشــركين الذين ماتوا الله أعلم ما كانوا عاملين، فالله عَزَّ وَجَلّ أحاط بكل شــيءٍ علمًا، فربُنا سُــبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلِم كل شــيءٍ على ما هو عليه فعَلِم مثلًا: أن فلانًا يؤمن ويعمل الصــالحات فيدخل الجنة، وأن فلانًا يكفرُ ولا يعملُ الصــالحات فيدخل النار، وأن فلانًا يتزوج فلانة ويُنجب منها، وأن فلانًا لا يتزوج، وأن فلانًا يتزوج ولا يُنجب عَلِمَ بكل شـــيءٍ على ما هو عليه، وهذه هي المرتبة الأولى.

والمرتبة الثانية: كتابة الله عَزَّ وَجَلّ لكل شــيء مما هو كائن إلى قيام الســاعة، الله علم كل شــيء على حقيقته على ما هو عليه فكتبهُ إلى قيام الســاعة قال تَعَالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[3]،

---

(١) سورة الطلاق: (١٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: ما قيل في أولاد المشركين، برقم: (١٣٨٤).

(٣) سورة الحج: (٧٠).

فجمع اللهُ عَزَّ وَجَلّ في هـذه الآية بين المرتبتين المرتبة الأولى وهي العلم، والمرتبة الثانية وهي الكتابة، وبعضُ أهل العلم يجعلُ المرتبتين مرتبةً واحدة كشـيخ الإسـلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله، ثم يُفرّع عنها خصلتين العلم والكتابة، وقد مر معنا حديث عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن الله كتب مقادير الخلائق.

أما المرتبة الثالثة: فهي المشـيئة، فلله عَزَّ وَجَلّ المشـيئةُ النافذة والقدرةُ الشـاملة التي لا يخرج عنها شيء فما شاء كان وما لم يشاء لم يكن ولا يكون شيءٌ في مُلكِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دون مشيئته؛ بل ما شاء الله أن يكون شاء ولو لم يشأ الناس، وما شاء الله عَزَّ وَجَلّ ألا يكون فلا يكون ولو شـاء الناس، فجميع الكائنات لا تكون إلا بمشـيئة الله عَزَّ وَجَلّ يقول الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2]، وسنتكلم إن شاء الله عن مشيئة العبد في بحثٍ مستقل، كذلك الله عَزَّ وَجَلّ يقول: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ﴾[3]، وكذلك الله عَزَّ وَجَلّ يقول: ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[4].

إذن الله عَزَّ وَجَلّ له مشيئة نافذة فما شاء كان وما لم يشاء لم يكن، كذلك جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمْ فِي الدُّعَاءِ، فَإِنَّ اللهَ صَانِعٌ مَا شَاءَ، لَا مُكْرِهَ لَهُ**»[5]وهذا في الصحيحين فإن الله صانعٌ ما شاء لا مُكره له، ولذلك لا ينبغي في الدعاء

---

(١) سورة يس: (٨٢).

(٢) سورة التكوير: (٢٩).

(٣) سورة القصص: (٦٨).

(٤) سورة إبراهيم: (٢٧).

(٥) رواه مسلم، كتاب: الذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، باب: الْعَزْمِ بِالدُّعَاءِ وَلَا يَقُلْ إِنْ شِئْتَ، برقم: (٢٦٧٩).

إذا دعا العبد أن يقول: اللهم اغفر لي إن شـاء الله، أو إذا دُعِيَ له، أو لأبيه، أو لأمه أن يقول إن شـاء الله، بعض الناس إذا قلت له: أسأل الله أن يغفر لك، قال: إن شـاء الله، إذا قلت له: أسـأل الله أن يغفر لوالديك يقول: إن شـاء الله، بل الداعي يجزم ويعزم فيقول: اللهم اغفر لي اللهم ارحمني والمدعوُّ له كذلك يجزم ويعزم فلا يقول إن شاء الله وإنما يقول: آمين، إذا قيل اللهم اغفر لفلان فإنه يقول آمين، والله سـبحانه قد يشـاء الشـيء وهو يحبه ويرضـاه ويريده كونًا وشـرعًا، وقد يشـاء الشـيء وهو لا يحبه لكنه يريده كونًا لحكمة عظيمة هو يُريدها سُـبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الله عَزَّ وَجَلّ قد يريد الشيءَ كونًا وقدرًا لكنه لا يريده شرعًا وأمرًا، وإرادته الشـيء كونًا مع عدم إرادته شرعًا لحكمة يُريدها الله عَزَّ وَجَلّ مثلًا: المعاصي كائنة بمشيئة الله ليست خارجةً عن مشيئة الله والله لا يحبها، ولا يريدها شرعًا بل نهى عنها، والطاعات من التوحيد، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والذكر يريدها اللهُ عَزَّ وَجَلّ شرعًا ويحبها؛ يتحصل لنا من هذا أن نعلم أن لربنا إرادتين.

❖ **فالإرادة نوعان:**

النوع الأول: الإرادة الكونية القدرية، وهذه لا يخرج عنها شـيء سـواءً كان محبوبًا لله، أو مبغضًا، والمراد بها واقع لا محالة لا يتخلف، فإذا أراد الله شيئًا كونًا وقع ولابد.

والنوع الثاني: إرادةٌ شرعيةٌ أمرية، وهذه الإرادة لا تتعلق إلا بما يحبه الله ويرضاه، ولا يلزم منها وقوع المراد أي: قد يريد اللهُ الشـيءَ شـرعًا ولا يقع؛ لأنه لم يرده كونًا، هنا يأتي سـؤال هل تجتمعُ الإرادة الكونية والقدرية؟ وهل تفترقان؟ أقول نعم، قد تجتمع الإرادةُ الكونيةُ والشـرعية في شـيءٍ واحد كإيمان أبي بكر الصـديق رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ، إيمانُ أبي بكر الصـديق رَضِـيَ اللهُ عَنْهُ اجتمعت فيه الإرادة الكونية، والإرادة الشـــرعية فأراد الله شـــرعًا من أبي بكرٍ أن يؤمن وأمره بالإيمان، وأراد منه كونًا أن يؤمن فكان مؤمنًا فهنا وُجِدت الإرادة الكونية والشـرعية في شـيءٍ واحد.

وقد تنتفي الإرادتان في شيء؛ يكون الله عَزَّ وَجَلّ لم يرد شيئًا كونًا ولم يرده شرعًا؛ ككُفر المؤمن الذي مات على الإيمان كُفر المؤمن الذي مات على الإيمان لم يرده الله كونًا، ولذلك آمن ومات على الإيمان فلم يكفر ولم يرده شــــرعًا ولذلك نهاه الله عن الكفر؛ فهنا انتفت الإرادتان الإرادة الكونية القدرية والإرادة الشرعية.

وقد توجد الإرادة الكونية دون الشرعية ككُفر أبي جهل أبو جهل كافر ومات كافرًا؛ كُفر أبي جهل أراده الله كونًا، ولذلك وقع لكن هل أراده الله أمرًا وشــــرعًا؟ الجواب: لا، بل الله نهاه عن الكفر؛ فهنا وُجدت الإرادة الكونية وانعدمت الإرادة الشرعية.

وقد توجد الإرادة الشــرعية دون الكونية يعني: يكون الله أراد شــيئًا شــرعًا ولم يرده كونًا؛ مثل: إيمان أبي لهب أبو لهب كافر مات كافرًا؛ إيمان أبي لهب هل أراده الله شرعًا؟ الجواب: نعم، ولذا أمره الله بالإيمان لكن هل أراده كونًا وقدرًا؟ نقول: لا ولذلك لم يؤمن.

إذن نقول: قد تجتمع الإرادة الكونية والشــــرعية في أمرٍ واحد من جهة، وقد تنتفي الإرادتان في أمرٍ واحدٍ من جهة، وقد توجد الإرادة الكونية وتنتفي الشـــــرعية من جهة، وقد توجد الإرادة الشرعية وتنتفي الإرادة الكونية من جهة كما مثلنا؛ إذن لا تلازم بين الإرادتين.

فإن قال قائل: مادام أن الله لا يريد الكفر شــــرعًا فلم يريده كونًا؟ إن قال لنا قائل: ربنا سبحانه إن كان لا يريد الكفر شرعًا ولا شك في هذا فلِمَ يريده كونًا وقدرًا؟

فنقول جازمين معتقدين: إن ربنا حكيمٌ عليم قَدَّر الأشياء لِحِكَمٍ عظيمة فلا شك أن ما أراده الله عَزَّ وَجَلّ كونًا إنما يجري على حكمةٍ عظيمة كل قدر الله بحكمةٍ عظيمة وفائدةٍ مستقيمة ما قَدَّر الله شيئًا إلا لحكمة، ما خلق الله شيئًا إلا لحكمة، وما شرع الله شيئًا إلا لحكمة فربنا حكيمٌ عليم، لكن الحكمة قد تكون في المراد ذاته كالصـــلاة، والزكاة، والصـــيام، والحج، وقد تكون في غيره؛ أي: الحكمة في المراد كونًا قد تكون في غيره ليســـت فيه؛ مثال

ذلك: الكفر فإن الله يريده كونًا ولا يريده شـــرعًا لماذا؟ أراده كونًا لما يترتب عليه من المصـــالح العظيمة الكفر تترتب عليه مصـــالح للبشـــر فلولا الكفر لما تميَّز المؤمن من الكافر، ولولا الكفر لكان الناس جميعًا مؤمنين ولم يتميَّز المؤمن من الكافر، ولم يتميَّز مَن يستحقُّ الجنة ممَّن يستحقُّ النار ولولا الكفر لما عرف المؤمن نعمة ربه عليه بالإيمان، ولولا وجود الكفر، ومشاهدة قبحه لما عرف المؤمن عظيم نعمة الإيمان، ولذلك يُقال: وبضدها تتميَّز الأشياء؛ فإذا رأى المؤمن الكفار وما هم عليه من بهيمية، وما هم عليه من انحطاط مهما قالوا من حضـــارتهم الآن بعض الناس ينظر نظرة سـطحية قاصـرة فيقول: الكفار متحضـرون متقدمون لكن لو نظر نظرةً متعمِّقةً في حياتهم لوجد البهيمية واضحةً في علاقاتهم، في تصرفاتهم، في حياتهم، في فراغ قلوبهم، فإذا رأى المؤمن حال الكفار وما هم فيه من بهيمية زاده ذلك اعتزازًا بدينه، وتمسُّـــكًا بدينه وفي ذلك حكمةٌ عظيمة.

إذن الله عَزَّ وَجَلّ قد يريد الشيء كونًا لحِكَمٍ عظيمة من ذلك مثلًا: ما يضربه العلماء من مثال: في إيلام الأطفال، الله عَزَّ وَجَلّ أراد كونًا وقدرًا أن يتألم الأطفال وهذا فيه حِكَمٌ عظيمة؛ قال بعض أهل العلم: في إيلام الأطفال صونهم عمَّا يؤذيهم، فالطفل ليس له عقلٌ كاملٌ يزجره عمَّا يؤذيه، ولا يمكن أن يُحاط بالرعاية طوال اليوم فتألُّمُه يزجره، يعني: مثلًا الطفل إذا رأى النار ليس له عقلٌ كاملٌ يحجزه عن النار، ولا يمكن أن يكون معه والده طوال الوقت؛ لكن لو أنه مَدَّ يده على النار فآلمته وأحرقته فإنه لا يرجع إليها أبدًا وفي ذلك حفظٌ له، أيضًـا قال العلماء: فيها من الحكمة أن الله يُهَيِّئُهم لتحمُّل التكاليف فإن التكاليف فيها شـيءٌ من المشـقة، والنعيم لا يُدرَك بالنعيم ومَن آثر الراحة فاتته الراحة والجنة لا تُنال إلا على جسـرٍ من التعب؛ فكان في إيلام الأطفال تهيئةٌ لهم لتحمُّل التكاليف.

إذن نعتقد اعتقادًا جازمًا أن ربنا إذا شـاء شيئًا كونًا وقدرًا ففيه حكمٌ عظيمة، لكن هذه الحكمة قد تكون في المراد ذاته، وقد تكون في غيره أي: فيما يترتـب عليه والله حكيم عليم،

ولذا قال المصَـنِّف رَحِمَهُ الله: "وتؤمن بالقَدَر خيرِهِ وشَـرِّهِ" فكل الأمور المقَدَّرة من الخير والشـر هي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالله خلق الخير، والله خلق الشـر، وقَدَّر الخير وقَدَّر الشر؛ والشـر بالنســـبة إلى خلق الله خير ففيه حِكَمٌ عظيمة كل ما قَدَّرَه الله خير وإن كان فيه شــــرٌّ لبعض المخلوقين، فكل ما قَدَّر الله فيه من المصـــالح العظيمة ما تقوم به الدنيا والآخرة؛ هذه المرتبة الثالثة.

أما المرتبة الرابعة من مراتب القدر فهي: خلق الله للأشـياء وإيجادها، وقدرته الكاملة على ذلك فهو سبحانه خالقٌ لكل عمل وكل عامل فكل عاملٍ خلقه الله وكل عمل خلقه الله، الله عَزَّ وَجَلّ يقول: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾[1]؛ الله خالقٌ كل عامل سواءً كان محسنًا، أو مســـيئًا، والله خالقٌ كل متحركٍ وحركته، وكل عاملٍ وعمله وكل ســـاكنٍ وســـكونه، فجميع الكائنات مخلوقةٌ لله بذاتها، وصفاتها، وأعمالها، وحركاتها الله خالقٌ لكل شيء، وهذا من كمال قدرة الله ســبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يقول اللهُ عَزَّ وَجَلّ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾[2]، وكما قلنا اللهُ يقول: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾[3]، وجاء عن عمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْه عن النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ أنه قال: «**كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَـيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُــهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ كَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَــيْءٍ، ثُمَّ خَلَقَ السَّـمَوَاتِ وَالْأَرْضَ**»[4]رواه البخاري.

---

(١) سورة الصافات: (٩٦).

(٢) سورة الزمر: (٦٢).

(٣) سورة الصافات: (٩٦).

(٤) رواه البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: ما جاء في قول الله تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه}، برقم: (٣١٩١).

إذن اللهُ عَلِمَ الأشـــياء على ما هي عليه وكتبها، وشـــاءها، وخلقها، وأوجدها؛ فيجب الإيمان بهذه المراتب، وقد نظمها الناظم في بيتٍ واحد فقال:

عِلمٌ كتابة مولانا مشيئتهُ* وخلقُهُ وهو إيجادٌ وتكوينُ.**

هذه المراتب الأربعة:

علمٌ كتابةُ مولانا مشيئتُه* وخلقُه وهو إيجادٌ وتكوينٌ**(١)

هذه هي مراتب الإيمان بالقضاء والقدر.

✍ فإذا علمنا أنه يلزمنا أن نؤمن بالقضـاء والقدر، **فهنا يثور في أنفسنا سؤال وهو: هل يجب على المسـلم أن يُسَـلِّم ويرضـى بالقضـاء والقدر، إذا آمن بالقدر بمراتبه، فهل يجب عليه أن يُسَلِّم ويرضى بالقدر؟**

فنقول مجيبين على هذا السؤال: إن قضاء الله نوعان:

النوع الأول: قضاءٌ شرعي؛ أي: الأمور التي شرعها الله أمرًا ونهيًا؛ وهذا يجب الرضى به، والتســـليم له، واعتقاد أن في امتثال المأمور الخير، وفي اجتناب المنهي عنه الخير؛ هذا قضـــاءٌ شـــرعي يجب الرضـى والتسـليم به، يقول الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ﴾(٢)، فإذا قضـى اللهُ عَزَّ وَجَلّ شـيئًا شـرعًا فإنه لا يَحِلُ لِمُؤمِنٍ وَلا مُؤمِنَة إلَّا أن يرضـى به ويسـلـم له بل يطمئن القلب به، كما قال اللهُ عَزَّ وَجَلّ: ﴿

(١) التحفة السنية شرح منظومة ابن أبي داود الحائية: (٧٣).

(٢) سورة الأحزاب: (٣٦).

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1].

إذن النوع الأول: هو قضاءُ الله الشرعي، ويجب الرضى به، والتسليم له، واعتقاد أن الخير فيه.

أما النوع الثاني: فهو القضاء الكوني القدري، وهذا قسمان:

القسم الأول: قضاءٌ بأمرٍ يحبه الإنسان ويطلبه ويريده؛ كالنجاح مثلًا: والتوفيق، والولد، وسعة الرزق، هذه أمور يحبها الإنسان أو يبغضها؟ يحبها ويريدها، وتقع بقضاء الله عَزَّ وَجَلّ، والتسليم لهذه الأمور والرضى بها أمر بدهي طبعي، كل إنسان يحب هذه الأمور ويرضى بها ويسلم لها فلا نتكلم في هذا القسم إطالة فيه بل أمره واضح.

أما القسم الثاني: فهو القضاء بما لا يرغب فيه الإنسان، ولا يحبه، ولا يريد أن يقع عليه، كالفقر مثلًا: وضيق الرزق، وموت الحبيب كموت الوالد، وموت الولد، وموت الزوجة، وموت الجار المحب ونحو ذلك، فهذا يقع بقدر الله والمرء لا يحبه ولا يريده، ولا يريد أن يقع.

✍ فهذا النوع إذا نزل بالإنسان، وأصاب الإنسان لا يخلو الإنسان فيه من أمور:

الأمر الأول: أن يتسخط، ويظهر السخط على هذا المقدور، فيتسخط على قضاء الله وقدره بالقول أو بالفعل، بالقول كأن يقول: كما يقوله بعض الجهلة ما ذنبي أنا حتى يحصل لي كذا، ما ذنبي أنا ما أذنبت حتى يقع لي كذا، بعض الناس إذا نزلت به مصيبة إذا خسر ماله قال: أنا ما ذنبي، والله حرام، هذا تسخط بالقول على قدر الله عَزَّ وَجَلّ، أو بعض الناس يُقال: فلان ما يستاهل والله، بعض الناس إذا بلغ أنه مات لفلان أبناءه في حادث قال: والله ما

(١) سورة النساء: (٦٥).

يستاهل؛ يعني: ما يستحق، هذا نوع من التسخط على قدر الله، ومن التسخط بالفعل ما يقع من بعض الناس من ضــرب الوجه، أو شــق الثياب، أو حلق الشـعر، بعض الناس إذا نزلت به مصيبة ذهب وحلق شعره لنزول المصيبة، فهذا نوع من أنواع التسخط بالفعل، بعض الناس إذا قيل له فلان مات ضـــرب وجهه، وهذا نوع من أنواع التســـخط، يقول النَّبِيّ صَـــلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، أَوْ شَقَّ الْجُيُوبَ، أَوْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**»[1] رواه البخاري في الصحيح.

جمع النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ هنا بين التسخط بالقول والتسخط بالفعل، «**لَيْسَ مِنَّا**» يعني: ليس على طريقتنا، فليس من أفعال المســـلمين من ضـــرب الخدود وشـــق الجيوب، قال العلماء: (هذا مثالٌ وليس حصرًا) فيدخل فيه كل فعل يدل على التسخط عند نزول المصيبة.

«**أو دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ**»؛ أي: تســـخط بالقول، فيدخل فيه كل قول يدل على التسخط عند نزول المصيبة، وهذا الأمر أعني: التسخط مع كونه معصية فإنه سخف في العقل لماذا؟ لأن هذا التســـخط لن يزيل المقدور، فهو كما قال بعض العلماء في عبارة رشـــيقة جميلة قال: ((**يترتب عليه المحذور ولا يدفع المقدور**)) يترتب عليه المحذور؛ لأنه معصية، ولا يدفع المقدور فلا يستفيد من تسخطه شيئًا؛ بل قد يكون تسخطه أعظم مصيبة من المصيبة؛ لأن المصيبة تكون في أمر دنيوي أحيانًا، والتسخط مصيبة في ماذا؟ مصيبة في الدين، فقد تكون أعظم من المصيبة التي نزلت بالإنسان.

وقد دل النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ على المنهج الشرعي عند نزول المصيبة بل للتعامل مع المقدور قبل نزول المصيبة وبعد نزول المصيبة، فقال صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: «**احْرِصْ عَلَى مَا**

(١) رواه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: ليس منا من ضرب الخدود، برقم: (١٢٩٧).

يَنْفَعُكَ، وَاسْـتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَـابَكَ شَـيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَـاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّـيْطَانِ»[1]رواه مسـلم بهذا اللفظ، هنا النَّبِيّ صَـــلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَمْ يقول: **«احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ»**، كيف؟ ببذل الأســـباب، ولا تتكل عليها واســـتعن بالله ولا تعجز متحججًا بالقدر، فتقول: إن قدر الله لي الولد سـيأتيني الولد، إن قدر الله لي الرزق سـيأتيني الرزق، إن قدر الله لي دخول الجنة سـأدخل الجنة، هذا عجز، وإنما تفعل وتحرص على ما ينفعك وتســـتعين بالله، هذا متى؟ قبل نزول المقدور، فإذا نزل المقدور **«وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»**.

إذن الحالة الأولى: عند نزول المصيبة التسخط، وهذه الحالة حرام ومعصية.

الحالة الثانية: الصبر، ما معنى الصبر؟

معنى الصــبر: أن العبد إذا نزلت به المصـيبة يصـبر بأن يحبس نفسـه عما يغضــب الله، يجزع للمصـيبة ويتأ لم ويحزن ولكنه يحبس نفسـه عن أن يفعل شـيئًا يغضـب الله، أو يقول شـيئًا يغضب الله، فلا يقول إلا ما يرضي الله، وهذا هو الصبر عند نزول المصائب، وهو واجب، هذه المرتبة واجبة من الواجبات الشرعية، والصبر يكون عند نزول المصيبة، عند الصدمة الأولى، ليس الصابر من نزلت به المصيبة ثم خالطها حتى تعوَد عليها ثم صبر، وإنما الصابر الذي إذا نزلت به المصيبة صبر واسترجع، فإن النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ مرَّ على امرأة تبكي على قبر فقال: **« يا أمة الله اتقي الله واصبري، قالت: إليك عني فإنك لم تصب بمصيبتي»**، ما عرفته، وإلا لو عرفت النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ لتأدبت معه، لكنها ظنته يعني رجلًا ينصحها، قال: **« يا أمة الله اتقي الله واصــبري، قالت: إليك عني فإنك لم تصــب بمصــيبتي»**، بعض الناس يقول

---

(١) رواه مسلم، كتاب: القدر، باب: فِي الْأَمْرِ بِالْقُوَّةِ وَتَرْكِ الْعَجْزِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ وَتَفْوِيضِ الْمَقَادِيرِ لِلَّهِ، برقم: (٢٦٦٤).

هذا اليوم فإذا نصـــحته في أمر قال يعني بعض الناس يقول بالعامية: الذي يعد الفرش ليس كالذي يأكله، الذي يعد الضـرب وينظر ليس كالذي يتلقى الضـرب، بعض الناس إذا قلت له نزلت بك هذه المصيبة فاصبر، بعض الناس مثلًا: قد يسـجن فتقول له: يا أخي اصـبر فلك في ذلك خير، فيقول كأنه يقول إليك عني فإنك لم تصــب بمصــيبتي، فتركها النَّبِيّ صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ وانصرف، ثم أُخبرت به، أُعلمت أنه النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ فذهبت تلتمسه فجاءت إليه فقالت: يا رســول الله لم أعرفك، فلم يلمها النَّبِيّ صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَمْ على أنها قالت له إليك عني، لكنه لامها على شيء أخر فقال: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى**»[1]، وهذا في الصــحيحين رواه البخاري ومســلم، فالصـبر واجب ويكون عند الصـدمة الأولى، والأدلة على الصبر كثيرة جدًا.

أما الحالة الثالثة: فهي الرضــى، والرضــى حالة فوق الصــبر، الرضــى اطمئنان القلب بقضـاء الله وعدم التسـخط، والتسـليم للقضـاء تسـليمًا ولا يفعل ما حرمه الله، الرضـى اطمئنان القلب بقضــاء الله فإذا نزلت المصـيبة يكون القلب مطمئنًا بقدر الله، ويصـبر أيضًــا، فالراضـي صــابر وزيادة، صــابر فيحبس نفســه عن أن يفعل، أو يقول ما يغضــب الله عند نزول المصـيبة وزائد على هذا أن قلبه مطمئن، فهذا هو الرضــى، فهو يطمئن قلبه بالمصــيبة لماذا؟ لأنه يعتقد اعتقادًا جازمًا أنه إذا أصـابته سراء فشكر كان خيرًا له، وإذا أصـابته ضراء فصبر كان خيرًا له، فيصبر ويطمئن بالمصيبة؛ لأنه يعلم أنها خير لكن ليس الرضى أن يطلب العبد المصيبة، فالمصيبة خير إن وقعت وصــبر عليها الإنســان، لكنها لا تطلب، وأنا أضــرب مثالًا دائمًا بموت الولد، موت الولد فيه أجر عظيم، وهو خير إن صبر الإنسان، لكن لا يجوز أن يُطلب، لا يجوز للأب مثلًا أن يدعو أن يقبض الله أرواح أبنائه قبل البلوغ، لكن إذا وقع فقبض الله روح الابن قبل البلوغ فإنها مصيبة، إن صبر عليها واسترجع بنى الله له بيتًا في الجنة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: زيارة القبور، برقم: (١٢٨٣).

إذن انتبهوا عندما نقول الرضى بالمصيبة، أي: بعد وقوعها، ولا يعني هذا أنها تُطلب كما يفعله بعض المتكلفين.

❖ هل الرضى واجب؟

ذكر بعض أهل العلم: أن الرضى واجب، لكن الذي عليه الجمهور وهو الذي يظهر لي أنه الصواب والله أعلم أن الرضى مستحب، فالصبر واجب والرضى مستحب لماذا؟ لأنه ليس في قدرة كل إنسان أن يرضى بالمصائب، والله عَزَّ وَجَلّ يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1]، فمادام أنه ليس في قدرة كل إنسان فإنه لا يكون واجبًا، ولكنه يكون مستحبًا من فعله نال الثواب، ومن تركه لا يترتب عليه عقاب.

✍ هل فوق هذه الحالة حالة؟

نقول نعم، **الحالة الرابعة**: هي الشكر على المصيبة، وهذه حالة الخُلَّص من عباد الله؛ الشاكر صابرٌ راضٍ ويزيد الشكر هو ينال مرتبة الصبر، وينال مرتبة الرضا، ويزيد الشكر وهذه أعلى الدرجات، ولا يصل إليها إلا الخلّص من عباد الله، وذلك بأن يُسلِّم العبد لقضاء الله، ويحبس نفسه عما حرم الله وهذا الصبر، ويطمئن بقضاء الله وهذا ماذا؟ الرضا، ويستشعر ما يحصل له من النعم بسبب المصيبة فيشكر الله وهذه مرتبة الشكر.

يعني بعض الخلّص من عباد الله إذا نزلت به المصيبة لا يتعلق قلبه بالمصيبة، وإنما يتعلق بما يترتب على المصيبة من الثواب والنعمة فيشكر الله على المصيبة لما ترتب عليها من النعم.

---

(١) سورة البقرة: (٢٨٦).

✍ فالشاكر يرى أن للمصيبة جهتين:

١) جهةً مؤلمة، وهي ذات المصيبة.

٢) وجهةً سارة، وهي جهة ما يترتب على المصيبة من النعم التي تحصل له فيشكر الله، ولا ينافي الشكر ألم القلب، بل الشاكر يتألم قلبه بحكم طبيعة البشر، وقد تدمع عينه بحكم طبيعة البشر، ورقة القلب؛ لكنه ينظر إلى ما يترتب على النعمة فيشكر الله عليها.

✍ ومنهم من هو دون هذا فالشكر مرتبتان:

١) المرتبة العليا أن ينظر إلى ما يترتب على المصيبة من النعم فيشكر الله على المصيبة.

٢) والمرتبة الثانية أن ينظر إلى ما بقي عنده من نعم الله فيشكر الله على تلك النعم.

وكلاهما من الشكر لكنَّ الأولى أعلى، وأعطيكم مثالًا: رجل عنده عشرةٌ من الولد مات له ولدٌ واحد، فتذكر ما يحصل له من الثواب إن صبر على فقد ولده واسترجع، فشكر الله على هذه النعمة؛ صبر، ورضي، وشكر هذا بأعلى المنازل.

رجل رزقه الله عشرةً من الولد فمات ولدٌ من أولاده، فتذكر أن الله أبقى له تسعة، فشكر الله على بقاء التسعة لا على المصيبة التي ترتب عليها الثواب؛ هذا شكر عند نزول المصيبة لكنه دون النوع الأول، كما قال بعضهم: اللهم لك الحمد إن كنت أخذت فقد أبقيت، وإن كنت منعت فقد أعطيت.

وهذه درجة من درجات الشكر وهذه المرتبة تحصل للإنسان بفضل الله وليست واجبة بالاتفاق، ولكنها منزلة عالية.

✍ فقد يقول قائل: كيف أصل إليها؟

فأقول إن العلماء يقولون: تحصل بفضل الله بالدربة والتدريب؛ بأن يدرب الإنسان نفسه عليها، مثلًا: يدرب نفسه عليها في صغار المصائب، فإذا نزلت به مصيبة صغيرة درّب

نفســه على الشـكر، فإذا تدرّب على ذلك واعتاده ينتقل إلى ما هو أعلى حتى يكون من عباد الله الخُلَّص الشاكرين لله.

إذا عرفنا الإيمان بالقضـــاء والقدر، ومراتب الإيمان بالقدر بحســـب مراتب القدر، وحال الناس عند نزول القدر؛ **فيأتي سـؤال: هل للعبد مشـــيئة؟ هل قدر الله الذي نؤمن به ينافي مشيئة العبد؟**

فنقول: مما لاشك فيه أن للعبد مشيئة أثبتها الله عَزَّ وَجَلّ، فالله ربنا الذي أخبرنا بمشيئته أخبرنا أن للعبد مشيئةً، فنؤمن بمشيئة العبد وأن له مشيئة كما نؤمن بمشيئة ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا تنافي بين مشيئة الله ومشيئة العبد، يقول الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾[1] ﴿فَمَن شَآءَ﴾، وهذه مشـيئة العبد ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾، ويقول الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾[2] ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ وهـذه قـدرة للعبـد، وقـال الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فأثبت المشـيئتين: مشـيئة الرَّب سـبحانه، ومشـيئة العبد، ونؤمن بالمشيئتين كما أثبتهما الله عَزَّ وَجَلّ.

ومشيئة العبد تحت مشيئة الله الكونية القدرية لا تخرج عن مشيئة الله، لكن الله عَزَّ وَجَلّ هدى العبد النَّجدين وبيّن له طريق الخير وطريق الشــر، فمن قال: إنه لا مشــيئة للعبد في الخير ولا في الشـر فقد كذب على الله، ومن قال إن العبد يشـاء شـيئًا فيكون والله عَزَّ وَجَلّ لم يشـأه فقد كذب على الله، بل للعبد مشـيئة لا شـك فيها لكنها تكون تحت مشـيئة الله، فالعبد فاعل باختياره وهو تحت مشيئة الله عَزَّ وَجَلّ.

---

(١) سورة النبأ: (٣٩).

(٢) سورة التغابن: (١٦).

✍ **يترتب على هذا سؤال مهم وهو: هل للعاصي أن يحتجَّ على المعصية بالقدر؟**

بعض الناس إذا قلت له أرى أنك تكثر الكذب، منهجك الكذب دائمًا (تكذب فاتقي الله ولا تكذب، قال: قدر الله.

بعض الناس الذين يشـــربون الدخان إذا قلت له: يا أخي أترك الدخان، الدخان حرام، قال: ماذا أفعل، قدَّره الله علي، كتبه الله علي، فهل للعبد أن يحتجّ بالقدر على المعصـــية؟ فنقول: لا حجة لأحد في ارتكاب ما حرم الله بقدر الله عَزَّ وَجَلّ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله: ((**فَإِنَّ آدَمَ احْتَجَّ بِالْقَدَرِ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْتَجَّ بِالْقَدَرِ عَلَى الذَّنْبِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْـــلِمِينَ وَسَـــائِرِ أَهْلِ الْمِلَلِ وَسَـــائِرِ الْعُقَلَاءِ**))[1]، الله عَزَّ وَجَلّ عاب على الكفار أنهم احتجوا بالقدر على كفرهم؛ قال الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾[2]، فيحتجُّون بمشيئة الله على استمرارهم بكفرهم، وعلى عدم ترك الكفر؛ يقول الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا﴾، ولو كان لهم في القدر حُجّة لَمَا ذاقوا بأس الله عَزَّ وَجَلّ، فليس في القدر حُجّة، يقول النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا قَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ أَوْ مِنَ الجَنَّةِ، فقال رجل من القوم: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ يا رسول الله؟**»، مادام أنه قد فُرغ وكل مكتوب مقعده، قَالَ النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: «**لا، اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ، ثم قرأ:** ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾»[3]وهذا في الصحيحين، وفي لفظ لمسلم: «**فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»[4]

---

(١) مجموع الفتاوى: (٨/١٧٩).

(٢) سورة الأنعام: (١٤٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب: القدر، باب: {وكان أمر الله قدرا مقدورا}، برقم: (٦٦٠٥).

(٤) رواه مسلم، كتاب: القدر، باب: كَيْفِيَّةِ خَلْقِ الْآدَمِيِّ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَكِتَابَةِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقَاوَتِهِ وَسَعَادَتِهِ، برقم: (٢٦٤٧).

فالله عَزَّ وَجَلّ أمر المكلّف، ونهاه وجعل له استطاعة، وجعل له قدره فليس له أن يحتجَّ بالقدر على المعاصي.

الإنسان قبل الفعل، قبل أن يفعل الشيء أمامه طريقان: طريق الخير وطريق الشر، فإما أن يسلك طريق الخير، وإما أن يسلك طريق الشر، مثلًا: الرجل والعياذ بالله قبل أن يزني أمامه طريقان: طريق العفّة، وطريق الزنى فهو لا يعلم ما قدّره الله، وإنما يفعل باختياره فيذهب للعفّة، أو يذهب للزنا فليس له أن يفعل الشر ويحتجّ بالقدر.

بمعنى آخر نقول: فعل الإنسان للشر سابق على علمه بالقدر، فليس له أن يحتجّ بالقدر، ثم هناك حُجّة واضحة جدًا تدل على أنه ليس لأحد أن يحتجّ بالقدر على الذنوب، نحن نرى الإنسان في الأمور الدنيوية يحرص على ما ينفعه، ويحرص على ما يسبب له الخير، يتزوج من أجل أن يرزق بالولد، ويعمل من أجل أن يحصل على المال، ولا يحتجّ بالقدر، ما يجلس ويقول أنا لا أتزوج إذا كتب الله لي الولد سيأتي ولو من حجر، ما يجلس في بيته ويقول أن سأجلس في البيت وإذا كتب الله لي الرزق سيتسع رزقي، كل العقلاء يلومون مَن فعل هذا، فكيف يحتجّ بالقدر على المعايب على الذنوب؟ بل لو أن شخصًا أصابه بحادث ما يأتي ويقول مثلًا: هذا بقدر ولا يلوم الذي فعل، ولو ضربه شخصٌ على وجه لما قال هذا قدر الله بل يرد عليه، ويلومه، ويعنّفه فكيف يأتي بالأمر والنهي ويحتجّ بالقدر وبهذا نعرف أنه لا حجة لأحد في الاحتجاج بالقدر على المعايب التي هي الذنوب.

لكن لو أن الإنسان ذكر قدر الله في ذنب قد تاب منه فهذا قال العلماء إنه سائغ؛ فيأتي مثلًا: فيكون قد زنى مثلًا وتاب إلى الله فيقول: قدّر الله عليّ الزنى ففعلت وتبت والحمد لله، فهذا سائغ؛ لأنه وقع بقدر الله وهو لا يحتجّ بالقدر على الاستمرار في الذنب لكنه يثبت الثابت وهو أنه بقدر الله، وقد ترك الذنب، وتاب إلى الله عَزَّ وَجَلّ، لكن هل للعبد أن يحتج بالقدر على المصائب؟ نقول: نعم؛ ولذلك من عبارات العلماء: ((**يُحتجّ بالقدر على**

المصـــائب ولا يُحتجّ بالقدر على المعائب)) فلا يُحتجّ بالقدر على المعاصـــي؛ لكن يُحتجّ بالقدر على المصائب التي تنزل على الإنسان، ولهذا لاما موسى عَلَيْهِ السَّلامْ آدم عَلَيْهِ السَّلامْ بأنه أخرج نفسه وأخرجنا من الجنة، فقال آدم عَلَيْهِ السَّلامْ: **«أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ قال النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»**[1] هنا موسى عَلَيْهِ السَّلامْ لم يلُمه على الذنب وإنما لامه على المصيبة التي ترتبت على فعله، ماهي المصيبة؟ خروج آدم وذريته من الجنة، فلامه على هذا فاحتجَّ آدم بقدر الله على هذه المصيبة، فحجَّ آدم موسى، ولم يلمه موسى على الذنب، لماذا؟ لأن آدم عَلَيْهِ السَّلامْ تاب وقبِل الله توبته: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾[2] وما كان موسى عَلَيْهِ السَّلامْ وهو نبي الله ليلوم آدم على ذنب قد تاب منه وتاب الله عليه، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

إذن موسى عَلَيْهِ السَّلامْ لم يلمه على الذنب، وإنما لامه على المصيبة فاحتجَّ آدم بالقدر على المصيبة، إذن نقول: المؤمن يؤمن بالقدر، ويفعل المأمور، ويترك المحظور، ويصبر على المقدور من المصائب ويستغفر من الذنوب، والمعائب، ويشكر الله على النِّعم والمواهب، قال تَعَالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾[3] هذه أحوال المؤمن يؤمن بقدر الله، ويفعل المأمور لأمر الله، ويجتنب المحظور لنهي الله، ويصبر على المقدور من المصائب، ويستغفر الله من ذنوبه والمعائب التي وقع فيها، ويشكر الله على نعمه والمواهب التي وهبها له وهذه حال المؤمن.

---

(١) رواه مسلم، كتاب: القدر، باب: حِجَاجِ آدَمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، برقم: (٢٦٥٢).

(٢) سورة البقرة: (٣٧).

(٣) سورة غافر: (٥٥).

هذه بعض المباحث التي اقتطفتها من كلام أهل العلم فيما يتعلّق بالإيمان بالقضـــاء والقدر، وقد قلت إن بعض مباحث أركان الإيمان يمكن بســـطها أكثر إلا أنّا أتينا بالمهمّات، ونبّهنا على الأمور المدلهمّات حتى لا يقع الإنسان فيها في محظورٍ من المحظورات.

"والدليل على هذه الأركان الســتة قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْــرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾".

الشَّرْح:

الشيخ عندما ذكر أركان الإيمان الستة ذكر الدليل عليها، فبدأ بهذه الآية، وهذه الآية فيها دليل على خمســة أركان من أركان الإيمان وهو: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين، فـالله عَزَّ وَجَلّ يقول: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾[1]، يعني: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ﴾ في التوجه إلى جهة المشرق أو المغرب فليس هذا كافيًا في حقيقة البر، لكن البر الحقيقي إنما هو في الإيمان والأعمال مع الإيمان.

والبر كما قال العلماء: اســم جامع لكل ما يحبه الله ويرضــاه من أعمال الخير، فليس الذي يجمع الخير أن تولوا وجوهكم قبل المشــرق أو قبل المغرب لكن الذي يجمع الخير كله أن تؤمنوا بالله، واليوم الآخر، والملائكة، والكتب، والنبيين.

يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ الله: ((**مَنِ اتَّصَــفَ بِهَذِهِ الْآيَةِ، فَقَدْ دَخَلَ فِي عُرَى الْإِسْلَامِ كُلِّهَا، وَأَخَذَ بِمَجَامِعِ الْخَيْرِ كُلِّهِ**))[2].

فهذه خمسة أركان، وبقي الركن السادس سيستدل له الشيخ أيضًا من القرآن فيقول.

---

(١) سورة البقرة: (١٧٧).

(٢) تفسير ابن كثير: (١/٤٨٦).

ودليل القدر: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾

الشَّرْح:

دليل القدر قول الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[1] وقد تقدمت معنا الإشارة إلى أدلة القدر.

يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ الله عن هذه الآية: ((يَسْتَدِلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أئمةُ السُّنَّةِ عَلَى إِثْبَاتِ قَدَرِ اللَّهِ السَّابِقِ لِخَلْقِهِ، وَهُوَ عِلْمُهُ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ كَوْنِهَا وَكِتَابَتُهُ لَهَا قَبْلَ بُرْئِهَا))[2]. يشير إلى مراتب القدر التي تكلمنا عنها سابقًا.

يقول ابن كثير: ((وَرَدُّوا بِهَذِهِ الْآيَةِ وَبِمَا شَاكَلَهَا مِنَ الْآيَاتِ عَلَى الفرْقة القَدرية الَّذِينَ نَبَغُوا فِي أَوَاخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم))[3]، نعم هذه الآية فيها إثباتٌ للقدر، وردٌ على القدرية، وقد تقدم معنا ما يتعلق بإثبات القدر.

---

(١) سورة القمر: (٤٩).

(٢) تفسير ابن كثير: (٧/٤٨٢).

(٣) تفسير ابن كثير: (٧/٤٨٢).

قال رحمة الله عليه: "الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ".

الشَّرْح:

أي: **المرتبة الثالثة من مراتب الدين؛ ديننا كما قلنا ثلاث مراتب:**

١) الإسلام.

٢) والإيمان.

٣) والإحسان.

فالمرتبة الثالثة: من مراتب الدين هي مرتبة الإحسان، وهي المرتبة العليا ولا يصل إليها إلا من حقق المرتبتين الأوليين، فلا يكون محسنًا إلا من كان مؤمنًا مسلمًا، فكل محسنٍ مؤمن وليس كل مؤمنٍ محسنًا فقد يؤمن العبد لكنه لا يحقق مرتبة الإحسان.

وقد قال العلماء: إن الله عَزَّ وَجَلّ قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[1]، انتبه هنا يا عبد الله أنظر كم مرة ذكر الإحسان؛ ذكر مرتين: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾ هذا الإحسان الأول ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، فذكر الله إحسان الدين وهذه هي المرتبة التي معنا مرتبة الإحسان، وذكر ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، وهذا يشمل الإخلاص لله، والإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله.

قال العلماء: **((ومدار الإحسان على الحب، والخوف، والرجاء))** مدار الإحسان على الحب، والخوف، والرجاء، ولذا قال الله: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ

---

(١) سورة النساء: (١٢٥).

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، **وَادْعُوهُ**: هذا الإخلاص ولا تدعوا غيره، ﴿خَوْفًا﴾ هذا الخوف، ﴿وَطَمَعًا﴾ هذا الرجاء، ثم جاء النتيجة ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾فمن دعا الله مخلصاً خائفاً راجياً فهو محسن، إذن مدار الإحسان على الإخلاص، والخوف، والرجاء.

والإحسان في اللغة: هو فعل الحسن؛ فعل الشيء الحسن إحسان، وهو ضد الإساءة.

✍ والإحسان إذا أطلق في الشرع يشمل نوعين:

النوع الأول: إحسان في حقوق الخلق، والإحسان في حقوق الخلق منه:

- ما هو واجب.
- ومنه ما هو مستحب.

فمثلًا: بر الوالدين بر الوالدين إحسان، وهو واجبٌ؛ الإحسان إلى الوالدين، ومحبتهما، ولين الجانب لهما، وصدق الحديث معهما، وتخير ألطف الكلام للحديث معهما واجب من الواجبات الشرعية.

وصلة الأرحام إحسان، وهي واجبةٌ من الواجبات الشرعية؛ القيام بحق ولي أمر المسلمين من تعزيره، وتوقيره، وطاعته إحسان، وهو واجبٌ من الواجبات الشرعية، فهذا النوع الأول من أنواع الإحسان وهو الإحسان في حقوق الخلق.

والنوع الثاني: الإحسان في عبادة الله.

(١) سورة الأعراف: (٥٦).

فإن قال قائل: كيف أحسن في عبادة الله؟

نقول فسر النبي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ الإحسان في عبادة الله: «بِأَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1]، ولذا قال العلماء: الإحسان درجتان وليس درجةً واحدة، **إحداهما أعظم من الأخرى:**

أما الأولى والعظمى فهي: أن تعبد الله كأنك تراه، وهذه العبادة كما يقول العلماء عبادة طلبٍ وشوق ينشط لها الإنسان نشاطاً عجيباً؛ لأنه أحب الله عَزَّ وَجَلّ، وراقب الله عَزَّ وَجَلّ مراقبةً عظيمة حتى استشعر أنه يراه، فيعمل العمل وقلبه مستشعرٌ أنه يرى ربه؛ كأنه يرى الله عَزَّ وَجَلّ وهذه مرتبةٌ عظيمة، ولا تحصل إلا للخلص من عباد الله؛ لكن المؤمن لا يقول أنا لا أستطيع أن أكون على هذه الدرجة، بل بالدربة بفضل الله يستطيع أن يحصله؛ بأن يدرب نفسه أن يدرب نفسه على الإخلاص، أن يدرب نفسه على الخوف والرجاء، أن يدرب نفسه على مراقبة الله عَزَّ وَجَلّ، أن يجاهد قلبه على استشعار أن الله يراه ثم يصل إلى درجة أن يعبد الله عَزَّ وَجَلّ كأنه يراه.

وهذه الدرجة العظيمة إذا حصلت للمؤمن حصلت له فائدتان عظيمتان، وبعثه ذلك على أمرين كبيرين:

أما الأول: فهو الإخلاص لله، أعني كماله فإن أصل الإخلاص طريق الإحسان، والإحسان طريق تمام الإخلاص؛ يعني: من أراد أن يصل إلى الإحسان لا بد أن يجاهد نفسه على الإخلاص لله، فإذا وصل إلى هذه المرتبة فإن هذا يقوده إلى كمال الإخلاص لله سُبْحَانَهُ

---

(١) رواه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، برقم: (٥٠).

وَتَعَالَى؛ فإن من عبد الله كأنه يراه أخذ ذلك بمجامع قلبه، وأصـــول عمله فكان عمله كله خالصاً لله لا يخلطه شيءٌ البتة.

وأما الأمر الثاني: فهو إتقان العبادة، والمجيء بها على الوجه الأكمل، فمن عبد الله كأنه يراه لا شك أنه سيحرص على أن تكون عبادته على الوجه الأكمل، هذه المرتبة الأولى والدرجة الأولى للإحسان.

أما الدرجة الثانية: فهي عبادة الله عَزَّ وَجَلّ وأنت تعلم أنه يراك؛ إن لم تحصـل أن تعبد الله كأنك تراه فاعبد الله وأنت تعلم أنه يراك فإن الله سميعٌ بصـير، والله عَزَّ وَجَلّ يراك قال النبي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: «**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[1]؛ إن لم تستشعر بقلبك وأنت تعبد الله كأنك تراه فتأتي الدرجة الثانية وهي أنك تعبد الله وأنت تعلم، وتعتقد، وتوقن أنه يراك، وهذه يســميها العلماء عبادة الهرب والخوف؛ الدرجة الأولى يســميها العلماء: عبادة الطلب والشـوق درجة الطلب والشـوق، وهذه الدرجة يسـميها العلماء: بدرجة الهرب والخوف؛ ولهذا كانت هذه المرتبة عند المحققين من العلماء دون المرتبة الأولى، ولذلك أخرها النبي صَــلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ فقال : «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

يقول بعض السلف مقررًا هاتين المرتبتين: ((**مَنْ عَمِلَ لِلَّهِ عَلَى الْمُشَاهَدَةِ، فَهُوَ عَارِفٌ، وَمَنْ عَمِلَ عَلَى مُشَــاهَدَةِ اللَّهِ إِيَّاهُ، فَهُوَ مُخْلِصٌ وفي كلٍ خير**))[2]؛ من عمل لله على المشـاهدة كأنه يرى الله فهو عارفٌ وهذه درجة كمال، ومن عبد الله عَزَّ وَجَلّ وهو يعلم أن الله يراه فهو مخلصٌ لله وفي كلٍ خير، إذن مراتب الدين الإسلام، والإيمان، والإحسان.

---

(١) رواه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: سؤال جبريل النبي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، برقم: (٥٠).

(٢) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم بن رجب: (١٢٩).

يقول العلماء: **((وهي دوائر بعضــها أوســع من بعض فأوســعها دائرة الإســلام، ثم تضيق إلى دائرة الإيمان، ثم تضييق إلى دائرة الإحسان))**، وكما تقدم معنا لا يكون محسنًا إلا من كان مؤمنًا.

وهذه المراتب الثلاث إذا ذكرت مجتمعة فلكل كلمةٍ معنى؛ الإســـلام كما تقدم معنا هو الأعمال الظاهرة، والإيمان هو الإيمان بالأمور الغيبية؛ الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورســـله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، والإحسان يقصد به أعلى درجات العبادة، أما إذا انفرد واحدٌ منها فذكر الإســلام، أو ذكر الإيمان، أو ذكر الإحســان فإنه يشــمل الجميع يشــمل الأعمال الظاهرة، والباطنة، وإحسان العبادة.

قال رحمة الله عليه: "الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ رُكْنٌ وَاحِدٌ، وهو: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، **وقَـوْلُـهُ:** ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1]، **وقَوْلُهُ تعَالَى:** ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[2].

الشَّرْح:

كل هذه الآيات دليلٌ على هذه المرتبة، والآية الأولى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[3] دليلٌ على الإحسان، ودليلٌ على أن المحسنين لهم معيَّةٌ خاصة، فالله معهم إكرامًا لهم، وهذا الإكرام خاصٌ بهم.

فهذه المعية معية خاصة؛ والمعية نوعان:

- معية عامة.
- ومعية خاصة.

والمعية الخاصة: يتفاضل فيها الناس وبحسب درجات أعمالهم.

والآيات الأخرى تدل على مراقبة الله عَزَّ وَجَلّ والإحسان في العمل بمراقبة الله عَزَّ وَجَلّ.

---

(١) سورة الشعراء: (٢١٧ - ٢٢٠).

(٢) سورة يونس: (٦١).

(٣) سورة النحل: (١٢٨).

قال رحمة الله عليه: " وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورُ عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»[1].

الشَّرْح:

الدليل من السنة على المراتب كلها حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامْ؛ هذا الحديث الذي رواه الإمام مسلمٌ في صحيحه، ومعناه عند البخاري، لكنَّ الحديث بهذه القصة وهذا السياق رواه الإمام مسلمٌ في الصحيح، حديثٌ عظيم يقول فيه أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ

(١) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: معرفة الْإِيمَانِ، وَالْإِسْلَامِ، والقَدَرِ وَعَلَامَةِ السَّاعَةِ، برقم: (٨).

سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ؛ هذا أخذ منه أهل العلم أنه يستحب للمؤمن أن يكون حسن الهيئة؛ وقد جاء عند النسائي وغيره بإسناد صحيح: «إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ أَحْسَنُ النَّاسِ وَجْهًا، وَأَطْيَبُ النَّاسِ رِيحًا، كَأَنَّ ثِيَابَهُ لَمْ يَمَسَّهَا دَنَسٌ»[1]، قال العلماء يؤخذ من هذا: أنه يستحب للمؤمن أن يكون حسن الهيئة، حسن الثياب، طيب الرائحة.

ثم أن جبريل عَلَيْهِ السَّـــلامْ أتى بهذه الهيئة، قال العلماء: وفي هذا لفتٌ لقلوب الناس؛ لأنه لما جاء بهذه الهيئة ولا يعرفه أحدٌ منهم لفت نظرهم؛ لأنه ســـيأتي بأمر عظيم، وهذا من الســـنة أن يحرص طالب العلم عندما يحدث الناس على لفت قلوبهم إلى ما يريد أن يطرحه عليهم بحسن العبارة ونحوها، وطريقة السؤال مثلًا، ولذا مثلًا: قام رجلٌ إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ فقال: «يَا رسـول اللهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قَامَتْ عَلَيْنَا أُمَرَاءُ يَسْـأَلُونَا حَقَّهُمْ وَيَمْنَعُونَا حَقَّنَا، فَمَا تَأْمُرُنَا؟» فما أجابه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل أعرض عنه، فقام الرجل فسأل الثانية، فأعرض عنه، فقام الرجل فسأل الثالثة، فأجابه وقال: «اسْـمَعُوا وَأَطِيعُوا، فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ»[2] قال بعض العلماء: إنّما أعرض عنه النبي صَـــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ حتى ينتبه الناس؛ لأنه لما سأل فلم يجبه سـينتبه الناس، فلما أعرض عنه المرة الثانية انتبه الناس، فلما انتبه الناس أجابه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجبريل عليه السلام جاء بهذه الهيئة التي تدل على أهمية الأمر.

قال عمر رضي الله عنه: «حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَـعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ»، جاء في رواية النسائي بإسناد صحيح قال: «حَتَّى

---

(١) رواه النسائي، كتاب: الإيمان وشرائعه، باب: صفة الإيمان والإسلام، برقم: (٤٩٩١)، وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: (٣٣/١).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الإمارة، باب: فِي طَاعَةِ الْأُمَرَاءِ وَإِنْ مَنَعُوا الْحُقُوقَ، برقم: (١٨٤٦).

سَلَّمَ فِي طَرَفِ الْبِسَاطِ» لم يدخل مباشرة بل وقف في طرف البساط فسلم، فقال: «السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: أَدْنُو يَا مُحَمَّدُ» يستأذن؛ أقترب؟ «قَالَ: ادْنُهْ، فَمَا زَالَ يَقُولُ: أَدْنُو مِرَارًا، وَيَقُولُ لَهُ: «ادْنُ» حَتَّى وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رُكْبَتَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[1].

قال العلماء: يُؤخذ من هذا التأدب مع العالم، وألا يهجم طالب العلم على العالم بل يستأذنه، ويتلطف في العبارة، وهذا أجمع للقلب ولا شك، فجبريل عَلَيْهِ السَّلَامْ لما جاء على هذه الهيئة وقف على طرف البساط وسلم، ثم استأذن، ثم مشى فوقف فاستأذن فأذن له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمشى، ثم وقف حتى وصل إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: «فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ» يعني: وضع جبريل كفيه على فخذي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما جاء في الرواية الأخرى، كما قال في رواية النسائي «حَتَّى وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رُكْبَتَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ»، وقد تقدم ما يتعلق بكل هذا في شرح مرتبة الإسلام.

قَالَ: «صَدَقْتَ» فتعجب الصحابة، يسأله ويصدقه، قال: أَخْبِرْنِي عن الْإِيمَانُ؟ قَالَ: «الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَالْكِتَابِ، وَالنَّبِيِّينَ، وَتُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ خيره وشره» وقد تقدم تقرير ما يتعلق بهذا.

---

(١) رواه النسائي، كتاب: الإيمان وشرائعه، باب: صفة الإيمان والإسلام، برقم: (٤٩٩١)، وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: (٣٣/١).

قال: «أَخْبِرْنِي مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، وقد تقدم شرح هذا، قال: «أَخْبِرْنِي مَتَى السَّاعَةُ؟ قال: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»، يعني: عن وقتها فإن وقتها لا يعلمه إلا الله، وفي هذا دليل على أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعلم الغيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: «فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا»، أي: أخبرني عن علاماتها، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ، رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»، هنا هذه هي العلامات الصغرى، وبيَّن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمثلةً منها فليست هذه كل أمارات الساعة الصغرى وإنما هذه أمثلة: «أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا»، وفي رواية ربَّها، أي: سيدتها وسيدها، وهذا إشارة إلى كثرة أمهات الأولاد حيث يحصل السبي، ويحصل للرجال إماء -ملك يمين- فيطأ السيد الأمة فتلد منه، هذا الولد سواء كان ذكرًا، أو أنثى يكون حرًا والأمة أمةٌ لأبيه، أمه أمةٌ لأبيه فيكون سيدًا لها، يكون سيدًا لها ما دام أن أباه حيّ.

هنا قال العلماء: سيادة الولد على والده بالتبعية ليست بالاستقلال، هنا الولد سيدٌ لأمه، والبنت سيدةٌ لأمها ما دام أن الوالد حيٌ فهو السيد والولد سيد بالتبعية، لكن إذا مات الأب انقطعت سيادة الابن، فلا يكون سيدًا على أمه بالاستقلال ولذا أم الولد تُعتق بموت سيدها لم؟ لأن الولد لا يملك والده، ولو لم تُعتق لكانت إرثًا يملكها الولد، فهنا انتبهوا لهذه اللطيفة، قال العلماء إن سيادة الولد على والده لا تكون إلا بالتبعية، ولا تكون استقلالًا، ولذلك إذا مات الوالد عتُقت الأمة التي أولدها.

أيضًا قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ، رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»، هذه إشارة إلى أن الناس الفقراء الذين يسكنون البادية، ووصفهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنهم:

حفاة: لا ينتعلون من فقرهم، أو بداوتهم.

عراة: ليس لديهم ما يكتسون به فهم فقراء في حالةٍ من الفقر.

رعاء الشاة يرعون الشياه في البادية يتطاولون في البنيان، وفى هذا إشارة إلى وقوع هذا الأمر، وأن هؤلاء سينزحون إلى المدن، ويبنون المباني الكبيرة كغيرهم، وفي ذلك إشارة إلى حصول الغنى لهم، وقد وقع هذا، وأصبح الحفاة العراة العالة، رعاء الشاه يتطاولون في البنيان، بل أصبحوا حتى في قراهم يفعلون هذا، ويتطاولون في البنيان.

قال العلماء: وفي هذه معجزة من معجزات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث أخبر بأمرٍ لم يكن واقعاً في زمنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوقع.

فمضى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامْ فلبث الصحابة عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئاً، ثم قال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا عُمَرُ هَلْ تَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**»، الله ورسوله أعلم.

✍ وهل يشرع للمؤمن إذا سئل عن أمر أن يقول: الله ورسوله أعلم؟

أما في زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا إشكال، وأما بعد موت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما لو سُئل أحدنا اليوم فإنه يقول الله أعلم بلا إشكال.

✍ لكن هل يقول الله ورسوله أعلم؟

قول العلماء: إن كان الأمر من الأحكام الشرعية فيصح أن يقول الإنسان الله ورسوله أعلم؛ لأنه ما من حكمٍ شرعي إلا وقد علمه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لإن الدين قد كمل في حياة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما إذا كان على غير هذا فإنه لا يصح أن يقول الله ورسوله أعلم بعد موت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَاكُمْ لِيُعَلِّمَكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ»، فهذا الحديث العظيم فيه بيان مراتب الدين.

وبهذا يتم الكلام عن الأصل الثاني من الأصول الثلاثة، فالأصول الثلاثة المهمة العظيمة هي:

- أن تعرف ربك، وهذا الأصل الأول.
- وأن تعرف دينك، وهذا الأصل الثاني، وقد فرغ الشيخ من الأصلين.
- والأصل الثالث: أن تعرف نبيك صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الإمام رَحِمَهُ الله تَعَالى: "الأَصْـلُ الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ، وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِــمٍ، وَهَاشِــمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْـمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَـلُ الصَّـلاةِ وَالسَّلامِ".

الشَّرْح:

نتفقه في درســنا هذا في أمرٍ عظيم؛ نتفقه في الأصــول الثلاثة التي يجب على كل مؤمن ومؤمنة تعلمها، هذه الأصــــول الثلاثة التي مدارها من ربُّك؟ وما ديِّنك؟ ومن نبيُّك؟ وقد منَّ علينا ربُّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فبيَّنا الأصـل الأول، وبيَّنا الأصـل الثاني، واليوم إن شـاء الله عَزَّ وَجَلّ نشرع في بيان الأصل الثالث.

يقول الشـيخ رَحِمَهُ الله عَزَّ وَجَلّ رحمة واسـعة يقول: **"الأَصْـلُ الثَّالِثُ"** أي: من الأصـول الثلاثة التي يجب على كل مؤمن ومؤمنة تعلمها، **"الأَصْـلُ الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ"**، وتأمل رعاك الله كيف أن الشـيخ قال: **"مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ"** فأضـافه إليكم، وفي ذلك اســتثارة للهمم ما دام أنه نبيكم فيجب أن تهتموا بمعرفته، ويجب أن تتعلموا ما يتعلق به صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَمْ، ولا شـك أن معرفة النَّبِيِّ صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَمْ لها شـأنٌ عظيم، فعلى الإنســان أن يعرف نبيه الذي أرســله الله إليه، وأوحى الله عَزَّ وَجَلّ إليه فأحياه الله به والله إن رســول الله صَــلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَمْ قد أحيانا الله به فقد دعانا لما يحيينا، فينبغي علينا أن نهتم بمعرفة النَّبِيّ صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَمْ من أجل أن نعرف حقه علينا، ومن أجل أن نعرف ما جاءنا به صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَمْ وهذا أمر عظيم، ومحمد صَــلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَمْ كان للناس كالمطر للأرض الميّتة أحيا الله عَزَّ وَجَلّ به من شـاء من عباده، ومحمد صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَمْ نبي الناس

أجمعين، ومعرفته تكون بأمور سيذكرها الشيخ منها: معرفة النسب، معرفة نسبه صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، وقد بدأ الشيخ رحمه الله ببيان نسب النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، ونسب النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ من أشرف الأنساب كيف لا يكون كذلك، وقد اصطفاه الله واختاره الله كما قال النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»[1] رواه مسلم في الصحيح.

فالمصطفى مصطفى من مصطفى من مصطفى؛ يعني: من جهة العموم؛ النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ عليه وسلم أخبرنا أن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريشٍ بني هاشم، ثم اصطفى النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ من بني هاشم، فنسب النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ كما قاله الشيخ: **"وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ"**.

ثم ترى الشيخ قال: **"وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ"** فلم يكمل النسب، وإنما قال: **"بْنِ هَاشِمٍ"** ثم قال: **"وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ"** لماذا؟ هذا من فقه الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ رحمةً واسعة؛ فإن الشيخ انتقل إلى الاصطفاء الذي ذكره النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، فقال: **"وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ"**، والنَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ أخبر أن الله اصطفى من قريشٍ بني هاشم.

(١) رواه مسلم، كتاب: الفضائل، باب: فَضْلِ نَسَبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَسْلِيمِ الْحَجَرِ عَلَيْهِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، برقم: (٢٢٧٦).

ثم قال الشيخ: "**وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ**"؛ والنَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ أخبر أن الله عَزَّ وَجَلّ اصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى كنانة من العرب؛ أي من ولد إسماعيل.

قال: "**وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ**"، ونبينا محمد صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ له أسماء دلت عليها الأدلة؛ فمن أسمائه: محمد، وقد خاطبه الله عَزَّ وَجَلّ به؛ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾[1]، فمحمد اسمٌ للنَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، وقد ورد في الكتاب والسنة.

أيضًا من أسمائه التي تطلق عليه صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: أحمد؛ قال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾[2]؛ وهو نبينا صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَم.

ومن أسمائه: الماحي؛ أي: أن الله يمحو به الكفر، قال العلماء: يمحو به الله الكفر بالبيان في الأرض كلها، فالنَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ بيَّن التوحيد أيما بيان، وحذَّر من الشرك أيما تحذير، فمحى الله به الشـرك، وأقام الله به التوحيد بالبيان، ويمحو الله به الشـرك، ويقيم به التوحيد من مكة والمدينة؛ فقد محى الله الشرك من مكة والمدينة في زمنه صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، وقام التوحيد في مكة والمدينة.

---

(١) سورة الفتح: (٢٩).

(٢) سورة الصف: (٦).

ومن أسمائه: المقفي، والعاقب، يقول النَّبِيّ صَـــلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَمْ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا الْمَاحِي، الَّذِي يُمْحَى بِيَ الْكُفْرُ، وَأَنَا الْحَاشِـــرُ الَّذِي يُحْشَـــرُ النَّاسُ عَلَى عَقِبِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ»[1] وهذا في الصـــحيحين، ومعنى العاقب: أنه لا يعقُبه نبي، فليس بعده نبي صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ.

وجاء عن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْه قال: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسَمِّي لَنَا نَفْسَهُ أَسْمَاءً»؛ لأنه قد يأتي شخص يقول: هذه لم ينص في الحديث على أنها أسماء، قال: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا الْمَاحِي»، نقول : قال أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْه: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ يُسَـمِّي لَنَا نَفْسَـهُ أَسْـمَاءً، فَقَالَ: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْمُقَفِّي، وَالْحَاشِرُ، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةُ»[2] رواه مسلم في الصحيح، فمن الأسماء التي كان النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ يسمي نفسه بها نبي التوبة ونبي الرحمة فهذه كلها من أسماء النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب: المناقب، باب: ما جاء في أسماء رسول الله صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، برقم: (٣٥٣٢).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الفضائل، باب: فِي أَسْمَائِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم: (٢٣٥٥).

قال رَحِمَهُ الله: "وَلَهُ مِنَ العُمُرِ ثَلاثٌ وَسِـــتُّونَ سَـــنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاثٌ وَعِشْرُون نبيًا رسولًا".

الشَّرْح:

النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ له من العمر ثلاث وستون سنة، فهذه مدة حياته كلها صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَمْ، فقد مكث النَّبِيّ صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَمْ في الأرض من ولادته إلى وفاته ثلاثًا وسـتين سـنة، تقول أمنا عائشـة رَضِـيَ اللهُ عَنْهَا وعن أبيها: «**تُوُفِّيَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِـتِّينَ سَنَةً**»[1] متفق عليه.

يقول الشـيخ: "**مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ**" أي: أن النَّبِيّ صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَمْ مكث أربعين سنة قبل أن يوحى إليه، كما جاء في حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْه قال: «**أُنْزِلَ عَلَيْهِ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ سَـنَةً**»[2]، رواه البخاري في الصـحيح، فكان من عمر النَّبِيّ صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَمْ أربعون سـنة قبل النبوة، وبقي ثلاثٌ وعشـرون سـنة هذه الثلاث وعشـرون سـنة كان فيها نبيًا رسولًا؛ مكث ثلاثة عشر عامًا في مكة، وعشرة أعوام في المدينة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب: المناقب، باب: وفاة النبي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، برقم: (٣٥٣٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب: المناقب، باب: صفة النبي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، برقم: (٣٥٤٧).

قال رَحِمَهُ الله: نُبِّئَ بـ(اقْرَأ)، وَأُرْسِلَ بـ (الْمُدَّثِّرْ).

الشَّرْح:

النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ كان نبيًا رسولًا كان نبيًا؛ لأنه صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ عندما نزل عليه قول الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[1] ، لم يُأمر بالبلاغ أمرًا عامًا، فلم يُأمر أن يبلغ الناس، وأن يقوم بالدعوة العامة للناس، ولذا يقول الشيخ: "نُبِّئَ بـــاقْرَأ"، وبعدما نزل عليه قول الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾[2] ، جاء هذا بعد فترة من الوحي نُبيء النَّبِيّ صَــلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَمْ بإقرأ، ثم فتر عنه الوحي ثم جاء قول الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ فأُرسل صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ بهذه السورة فكان رسولًا؛ لأنه أُمر فيها بالبلاغ العام صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، فكان صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ نبيًا لم يُأمر بالتبليغ بلاغًا عامًا عند نزول قول الله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، ثم كان رســولًا صَــلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَمْ عندما أُمر بالتبليغ.

وقد بيّنت أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا المراحل التي مرّ بها النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ في نزول الوحي عليه، وهو أنه أول ما بُدء به صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ بالرؤيا الصادقة يراها في المنام صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ فتكون واقعة في الحقيقة كما رآها، ثم نبَّئ، ثم أُرسل تقول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وأرضاها: «**كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ**» فكانت تُرى في الواقع

---

(١) سورة العلق: (١).

(٢) سورة المدثر: (١-٢).

حقيقة، قالت رَضِـــيَ اللهُ عَنْهَا: «ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ أُوْلَاتِ الْعَدَدِ، قالت: قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا» هكذا كان حال النَّبِيُّ صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَمْ، حبب إليه الخلاء فكان يخلو بنفســه في هذا الغار، في غار حراء، وكان يمكث الليالي ذوات العدد يتعبد يتحنث بحســب اجتهاده، وإلا فلم ينزل عليه شــيء، ثم ينزل إلى أهله، ويأخذ الزاد، ثم يرجع، ثم ينزل إلى خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ويأخذ الزاد، ويرجع إلى الغار هكذا.

تقول عائشــة رَضِـيَ اللهُ عَنْهَا: «حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ، فَقَالَ: اقْرَأْ»، يقول النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: «فقلت: مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَمْ يقول: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» قال: «فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي» أي: ضــمّني، «حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ» أي: ضـمّه ضـمًّا شـديدًا، «ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: قُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَــلَنِي، فَقَالَ: أَقْرَأْ، فَقُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، فَأَخَذَنِي، فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَــلَنِي، فَقَالَ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾» الآيات، تقول عائشــة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ، فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، ثُمَّ قَالَ لِخَدِيجَةَ: «أَيْ خَدِيجَةُ، مَا لِي» أصــابه الفزع صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَمْ، وأخبرها الخبر، وقال صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَمْ: «لَقَدْ خَشِـيتُ عَلَى نَفْسِـي» فقالت له خديجة رَضِـيَ اللهُ عَنْهَا: «كَلَّا أَبْشِرْ، فَوَاللهِ، لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا»[1] تقول له كلا لا تخشى شيئًا لا تخشى على نفسك فوالله لا يخزيك الله أبدا، فهي بشارة إلى آخر الحديث، والحديث في الصحيحين.

(١) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بدْءِ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم: (١٦٠).

إلى قول الرســول صَــلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَمْ: «ثُمَّ فَتَرَ الْوَحْيُ عَنِّي فَتْرَةً» يعني: بعد قول جبريل عَلَيْهِ السَّلامْ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ قال: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» عَلَيْهِ السَّلامْ، قال صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: «فَجُئِثْتُ مِنْهُ فَرَقًا» جثى على ركبتيه صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَمْ خائفًا قال: «فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَدَثَّرُونِي، فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾» قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «ثُمَّ تَتَابَعَ الْوَحْيُ»[1]، والحديث في الصحيحين.

إذن هذه مراحل الوحي للنَّبِيّ صَــلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَمْ بدئ بالرؤيا الصــادقة هذا أول ما بدئ به، ثم نزل عليه قول الله عَزَّ وَجلّ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[2] فصـــار نبيًا؛ لأنه أوحي إليه ولم يؤمر بالبلاغ بلاغًا عامًّا، ثم نزل عليه قول الله عَزَّ وَجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾[3] فكان صَــلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَمْ رســولًا، ثم تتابع عليه الوحي إلى أن مات صَــلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ.

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بَدْءِ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم: (١٦١).

(٢) سورة العلق: (١).

(٣) سورة المدثر: (١-٢).

قال رَحِمَهُ الله عليه: "وَبَلَدُهُ مَكَّةُ، وَهَاجَرَ إلى المَدِينَةَ".

الشَّرْح:

أي: أن بلده التي ولد فيها مكة، فولد في مكة، ونشأ في مكة، وبُعث في مكة، ودعا إلى الله في مكة، وهاجر إلى المدينة كما سيأتي إن شاء الله.

"بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَبالَدْعُوة إِلَى التَّوْحِيدِ".

الشَّرْح:

الله أكبر الله أكبر؛ بعثه اللهُ عَزَّ وَجَلّ بشـيرًا ونذيرًا، بعثه الله ببيان الشـرك، والتحذير منه، والتنفير منه، والنّذارة بسوء عاقبته صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، وبعثه الله ببيان التوحيد، والدعوة إليه، وبيان حسن عاقبته في الأولى والأخرى؛ بيّن ذلك بيانًا مفصّلا، فبيّن الشرك بيانًا مفصّلًا، ودعا إلى تركه، وبيّن التوحيد بيانًا مفصّـلًا، ودعا إلى فعله صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، وهذا شـأن الرسـل جميعًـا؛ كمـا قـال اللهُ عَزَّ وَجَـلّ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[1]، ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ هـذا الـدعوة إلى التوحيـد، ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ هذه النّذارة من الشرك.

---

(١) سورة النحل: (٣٦).

قال رَحِمَهُ الله: وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾

الشَّرْح:

قول الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ يعني: يا من تدثّر بثيابه، وتغشّى بها من الخوف، والرعب الذي حصل له من رؤية الملك؛ التدثُّر أصله أن: يلتحف الإنسان باللحاف ليستدفئ به، يقال: تدثر إذا التحف باللحاف طلبًا للدفء، أو أن يتدثّر بثيابه طلبًا للدفء، فالمقصود به: طلب الدفء.

فالنَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ لما حصل له الرعب من رؤية الملك، والفرق أخذ يرجف فؤاده كأنه بردان من شدة الرعب، والفرق الذي حصل له صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ فذهب إلى أهله، وطلب أن يدثروه ليستدفئ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، فخاطبه الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾[1] أي: انهض بعزم، وقوة، ونشاط، وجدّ فخوف المشركين، وحذرهم من الشرك، وحذرهم من العذاب الأليم إن لم يؤمنوا، وادعهم إلى التوحيد، فمعنى ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ كما يبيّن الشيخ: أن ينذر عن الشرك.

---

(١) سورة المدثر: (١-٢).

قال رَحِمَهُ الله: "وَمَعْنَى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾: يُنْذِرُ عَنِ الشِّـرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ، ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الرُّجْزَ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلُهَا".

الشَّرْح:

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾[1] أي: كبر ربك وعظّمه، وتعظيم الله إنما يكون بالتوحيد فما عظّم الله من لم يوحد، فالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ أُمر بأن يكبر الله أي: يُعظّم الله بالتوحيد، فإذا وحّد العبد ربه فإنه عظّمه.

قال: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[2] أي: طهّر أعمالك من الشـرك كما قال الشـيخ، وهذا أحد قولي العلماء في تفسير الآية، وقال بعض أهل العلم ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: طهر ثيابك لعبادة الله عَزَّ وَجَلّ، والمعنى يحتمل الكل ولا مانع من أن يُراد هذا وهذا.

فالطهارة كما يقول العلماء: طهارة معنوية، وطهارة حسية:

فالطهارة المعنوية: هي تطهير القلب من الشـرك، والأخلاق الرديئة؛ أن يطهّر العبد قلبه من الشـرك؛ وأن يطهّر قلبه من الحسـد؛ وأن يطهّر قلبه من البغض للمؤمنين إلى غير ذلك من الأخلاق الرذيلة.

وأما الطهارة الحسّيّة: فهي طهارة الجسد، وطهارة البدن، وطهارة الموطن.

---

(١) سورة المدثر: (٣).

(٢) سورة المدثر: (٤).

قال: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾[1] الرجز: الأصـــنام؛ وقد جاء تفســـيرها في عدد من الآثار الصحيحة بهذا، وهجرها تركها، والبراءة منها ومن أهلها؛ كما تقدم معنا في أول الكتاب.

﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾[2] قال بعض المفســـرين: أي لا تمنن على ربك بما تقوم به؛ ولا تستكثر ما تؤمر به فإنك ستؤمر بأمر عظيم؛ قال العلماء: هذه الآية لتهيئة النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ لما يُلقى إليه وهو أنه أمرٌ عظيمٌ كثير؛ فهو سيحمل شيئًا عظيمًا، مظنّة أن يُمن به، فالنَّبِيّ صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَمْ يُهيأ لحمل الرســالة، وحمل ما ينزل عليه من الوحي، وأنه ســيقوم بأمر عظيم؛ هذا الأمر العظيم لعظمته مظنّة أن يَمن به العبد؛ ولا يُمن إلا بعظيم.

﴿تَسۡتَكۡثِرُ﴾ **أي**: لا تستكثر ما يلقى إليك.

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾[3] **أي**: اصبر على ما تلقاه مخلصًا لله؛ لا تصبر من أجل أن تكون لك دنيا بعد؛ وإنما لربك اصبر؛ فأنت تصبر على ما تلقاه مخلصًا لله؛ وقد امتثل النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَمْ ذلك غاية الامتثال، فقام بعزم، وجدٍّ، ونشــاط، ودعى إلى التوحيد، وحذر من الشـرك، وعمل عملًا عظيمًا، وصــبر صــبرًا عظيما لربه سُــبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فبلغ الرســالة، وأدى الأمانة، وحذر من الشـــرك، وحذر من الشــــرك كله، ودعى إلى التوحيد، ودعى إلى الخير كله؛ وهذا أمر للنَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ وهو سبيله الذي يجب على أمته أن تقتفيه.

فالواجب على مَن يدعو إلى الله أن يقتفي أثر النَّبِيّ صَـــلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَمْ في ذلك، فالداعية إلى الله حقًا هو الذي يدعو إلى التوحيد، ويبينه على سبيل التفصيل، ويحذر من الشرك

---

(١) سورة المدثر: (٥).

(٢) سورة المدثر: (٦).

(٣) سورة المدثر: (٧).

ويبينه على سبيل التفصيل، ويدعو إلى بقية خصال الخير، ويحذر من بقية خصال الشر؛ ويكون في دعوته معظِّما لربه؛ صابرًا في دعوته لربه؛ فلا يصبر حتى يكثر عليه الناس؛ لا يريد هذا؛ وإنما يصـــبر ليكون ســـببًا في هداية الناس؛ الداعية إلى الله يفعل هذا؛ ليس من الدعوة إلى الله أن يخالف هذا الأمر؛ ليس من الدعوة إلى الله أن يأتي قائل فيقول: ندعو إلى الفضـــائل، أما التحذير من الشرك، والتحذير من البدع هذا ينفر القلوب لا ندعو إليه.

نقول: سبحان الله أءنتم أهدى من رسول الله صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ؟ النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ ألم يكن أعظم الناس خلقًا؟

هم يقولون: نحن ندعو إلى الفضـائل، وإذا رأى الناس أخلاقنا اسـتجابوا ونصـبر ونريهم الأخلاق.

قلنا: سبحان الله؛ النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ أعظم الناس خلقًا، وقد راودته قريش على دعوته حتى جاء عنه صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَمْ أن قريشًـا قالت له: إن أردت الملك ملكناك، وإن أردت المال أعطيناك، وإن أردت النكاح زوجناك، على أن يتركهم وشأنهم؛ ألم يكن النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَمْ قادرًا على أن يقول: أرضـــى بالملك فيكون ملكًا عليهم، فيعدله، وخلقه يدعوهم؟

لم يفعل النَّبِيّ صَـــلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَمْ ذلك؛ ولم يترك الدعوة إلى التوحيد، والتحذير من الشـرك بهذه الحجج بل أبى، وجاء عنه أنه قال: «**لووضـعوا الشـمس في يميني، والقمر في يســاري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته**»[1]؛ فالنَّبِيّ صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَمْ هكذا فعل، وهكذا الداعية يجب أن يفعل، ومن قال: إن الدعوة إلى التوحيد تنفر الناس، ولا ينبغي أن يُدعى إلى التوحيد، أو يبدأ إلى التوحيد فهو طاعن في رســـول الله

---

(١) ضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، برقم: (٩٠٩).

صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ.

✍ إذن إذا أردنا أن ندعو، فكيف ندعو؟

ندعو إلى التوحيد تفصيلا، ونحذر من الشرك تفصيلا، وندعو إلى الخير كله، ونحذر من الشر كله معظمين لربنا؛ مخلصين لربنا؛ صابرين لربنا.

✍ كيف نحكم على الداعية؟ الذين يتكلمون اليوم كثير ومع القنوات الفضـــائية أصبحو يعني كأنهم نصف الأمة كثر عددهم كثيرًا؛ فكيف نعرف الداعية، ونحن لا نعرف عينه؛ كيف نعرفه؟

زنوه بهذا فإن علمتموه يدعو إلى التوحيد تفصيلًا، ويحذر من الشرك تفصيلًا، ويدعو إلى السـنة تفصـيلًا، ويحذر من البدعة تفصـيلًا، ويدعو إلى كل ما ثبت عن النَّبِيّ صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَمْ دعوة امتثال وتعظيمًا، ويحذر من كل ما خالف ما جاء به النَّبِيُّ صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَمْ تفخيمًا لما كان عليه صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَمْ فهو الداعية إلى الله الذي يُسـمع له، ويحرص على سماع ما يقول؛ وإن لم تعهدوا عليه هذا فاعلموا أنه ليس على الدعوة التي كان عليها النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ.

قال رَحِمَهُ الله: " أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ".

الشَّرْح:

النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ بقي في مكة على هذا عشر سنين على ما أمره الله يدعو إلى توحيد الله عَزَّ وَجَلّ ويخوف من الشرك، والحظوا أنه كان بين قوم مشركين لم يكن بين الموحدين بعض الناس اليوم يأت إلى بعض طلاب العلم، ويقول: يا أخي كيف تحذر من الشرك وقومك عندهم شرك؟ كيف تدعو إلى التوحيد وقومك عندهم شرك؟

لا لا؛ ادعهم إلى الأمور الأخرى إلى الصلاة، إلى الصيام، إلى قراءة القرآن، وهذه خير لكن لا يجوز أن تترك الدعوة إلى التوحيد ويدعى إليها؛ هذا النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ يدعو قومًا مشركين أهل قوة فيدعوهم إلى التوحيد، ويحذرهم من الشرك.

وفي هذا دلالة: على أن أعظم ما يُدعى إليه توحيد رب العالمين، وأن يحذر من الشرك ووالله إنه لحقيقٌ بهذا، كيف وهو المقصود الأعظم من خلق الناس ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] يعني: ليوحدون، وهو المقصود الأعظم من بعثة الرسل، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّاغُوتَ﴾[2].

(١) سورة الذاريات: (٥٦).

(٢) سورة النحل: (٣٦).

إذن حبيبنا نَبِيُّنَا صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ بقي في مكة عشر سنين يقرر التوحيد ويدعو إليه، ولم ينقطع أيضًا عن تقرير التوحيد بعدما هاجر إلى المدينة، بل كان يدعو إلى التوحيد إلى آخر لحظة في حياته صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، وكان في مرض موته صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ يدعو إلى التوحيد ويحذِّر من الشرك فيقول: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[1]؛ يدعو إلى التوحيد، ويحذِّر من الشرك إلى آخر حياته صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ.

✍ فهناك مغالطة يقولها بعض الناس، وهو أنهم يقولون: "إنما النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ دعا إلى التوحيد في مكة، أما عندما جاء إلى المدينة فإنه دعا إلى الأعمال والفضائل؛ ولذلك نحن الآن في أمة مؤمنة مسلمة، فما نحتاج أن ندعو إلى التوحيد، لكن ندعو إلى الفضائل!

نقول النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ بقي يدعو إلى التوحيد، ويحذِّر من الشرك إلى أن مات صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، وهو أعظم ما دعا إليه، وهكذا ينبغي أن يكون الداعية الحريص على الأمة.

الداعية إلى الله يرحم الخلق فيخاف عليهم من النار؛ فيدعوهم إلى التوحيد ويحذِّرهم من الشرك ليسْلموا من النار، وبعض الناس قد ينظر إلى الخلق بعينٍ أخرى؛ فلا يدعوهم إلى التوحيد ولا يحذّرهم من الشرك، فيغرّهم ويضرّهم، فبعض المنتسبين للإسلام يبقون على أعمال شركية وقد لا يعلمون، ويأتي طالب علم يغرّهم، ولا يدعوهم إلى ترك هذا الشرك، ولا يبيّن لهم أن هذا شرك، وهذا والله يضرّ الأمة.

لا ينفع الأمة، ولا يجمع الأمة إلا بفضل الله عَزَّ وَجَلّ من يدعو إلى التوحيد، ويحذِّر من الشرك، وهكذا كان حال النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، فتأمل هذا يا رعاك الله؛ النَّبِيّ صَلَى اللهُ

(١) رواه البخاري، كتاب: الصلاة، باب: الصلاة في البيعة، برقم: (٤٣٥).

عَلَيْهِ وَسَلَّمْ يقضي ثلاث عشر سنة في مكة، وعشر سنين في المدينة يدعو إلى التوحيد، ويحذِّر من الشرك حتى هاجر إلى المدينة؛ عشر سنين قضاها في مكة قبل الإسراء، وثلاثًا بعد الإسراء، وعشر سنين في المدينة؛ ثلاثةٌ وعشرون عامًا يدعو إلى التوحيد، ويحذر من الشرك، فكيف يحل لمؤمن أن يقول: أنتم تعظمون شأن التوحيد وتعقدون شأن التوحيد، التوحيد يمكن أنه نعلِّمه في دقائق! كيف يحلّ هذا!! النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ بقي هذا العمر يدعو إلى التوحيد ويفصِّله، ووالله لو بقينا أعمارنا ندعو إلى التوحيد، ونفصِّل التوحيد، ونحذِّر من الشرك ونفصِّل الشرك لما كفى العمُر، وهذا حال النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ.

قال رَحِمَهُ الله: "وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ".

✍الشَّرْح:

يعني: بعد العشر التي قضاها يدعو إلى التوحيد، وقد لاقى ما لاقى من قومه من صدّ، ومن استهزاء عُرج به على السماء.

"عُرِجَ بِهِ" يعني: صُعد به إلى السماء، وهذا من معجزات النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، ومن خصائصه العظيمة التي فُضِّل على البشر بها صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ.

وقع له الإسراء والمعراج قبل الهجرة، فبينما هو نائم في الحِجر في الكعبة أتاه آتٍ فشقّ ما بين نحره إلى أسفل بطنه، شقه شقًا، ثم استخرج قلبه الشريف صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ فملأه حكمةً وإيمانا؛ تهيئةً لما سيقوم به، ثم أُتي بدابةٍ بيضاء دون البغل وفوق الحمار، يُقال لها: البراق.

❖ **قال العلماء: سُميَ البراق براقًا:**

- من البرق لسرعته؛ فهو سريعٌ كالبرق.
- وقيل: لشدة صفائه؛ فلونه صافٍ يبرق.
- وقيل: لكونه أبيض.
- وقيل: لأن بياضه يُخلط بلون، كما تقول العرب: "شاة برقاء"، أي: فيها بياض وسواد.

والبراق يضع خطوه عند منتهى طرْفه؛ وهذا دليل على سرعته، فركبه النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ بصحبة جبريل حتى وصل بيت المقدس، وهذا هو الإسراء، **فالإسراء**: هو السير ليلًا، فالنَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ ركب البراق حتى وصل بيت المقدس، فنزل هناك وصلى بالأنبياء عَلَيْهِم السَّلامْ إمامًا، فالنَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ إمام الأنبياء.

وهذا دليلٌ في بيان فضل النَّبِيِّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ وبيان شرفه، وأنه الإمام المتبوع لكل بشر، فلا يحلّ لبشريٍّ بعد بعثته أن يتَّبع غيره صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ؛ فلو بُعث نبي من قبره ما وسعه إلا أن يتَّبع النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، ولذا عيسى عَلَيْهِ السَّلامْ عندما ينزل في آخر الزمان كما تقدم معنا يحكم بشريعة محمد صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ؛ فالنَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ هو المتبوع بعد بعثته صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ، ودينه ناسخ للأديان كلها.

والنَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ بعدما صلى بالأنبياء وقع له أمر عجيب؛ جاءه جبريل عَلَيْهِ السَّلامْ بإناءين: إناء من خمر، وإناء من لبن، فقال له: **«اختر بإناءين أيهما شئت»**؛ اشرب أحدهما بالتخيير، فاختار النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ اللبن فشربه، فقال جبريل عَلَيْهِ السَّلامْ: **«هُدِيتَ لِلْفِطْرَةِ، ولَوْ شربتَ الخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ»**[1]، فالنَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ هُدي للفطرة، والتوحيد، والإسلام.

قال الحافظ بن عبد البر: **((والمعنى –والله أعلم– هُديت لعلامة الإسلام والاستقامة))**[2]؛ لأن إناء الخمر كان علامةً على الغواية، وإناء اللبن كان علامةً على الهداية والاستقامة والتوحيد؛ فلما أخذ النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ إناء اللبن، وشربه كان ذلك علامةً على الهداية والاستقامة.

---

(١) رواه الترمذي، كتاب: أبواب تفسير القرآن، باب: وَمِنْ سُورَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، برقم: (٣١٣٠)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي، برقم: (٣١٣٠).

(٢) لم أجد الأثر.

فلذا يقول العلماء: من فقه الرؤى؛ أن رؤية اللبن في المنام تعني العلم والاســـتقامة، فمن رأى أنه يشـرب لبنًا في المنام، أو يُسـقى لبنًا؛ فهذه علامة على الاسـتقامة، وعلامة على سـعة العلم، ولـذا الشـــيخ حـافظ الحكمي رَحِمَهُ الله وهو آيةٌ من آيـات الله في الحفظ، وداعيةٌ إلى التوحيد، والسـنة رأت امرأةٌ وهو صـغير أن هناك لبنًا ينزل من السـماء فيقع في في الشـيخ، وأنه ممتد من السماء إلى الأرض، والشيخ فاتحٌ فمه يشرب، وهو شاب صغير لا زال صغيرًا في ذلك الوقت، فعبّرها العلماء بالعلم، فكان الشـيخ حـافظ رَحِمَهُ الله وقد مات شـابًا آيةً من آيات الله في العلم.

ولذا يقول العلماء: من فقه الرؤى أن رؤية اللبن في الرؤيا تدل على الاســتقامة، والهداية، والعلم، كما أن رؤية الخمر في الرؤيا تدل على الغواية والمعصـــية، ولذا المعبرون الذين يعلمون السـنَّة من حكى لهم أنه رأى رؤيا يشـرب فيها خمرًا أرشـدوه إلى أنه يفعل معصـيةً كبيرة، وأنه ينبغي أن يراجع نفسه في هذا؛ فالنَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ اختار الفطرة فاختار اللبن، والمقصود أنه اختار الفطرة كما قيل هديت للفطرة أي: هديت لعلامة الفطرة، وإلا فاللبن ليس الفطرة لكنه علامةٌ على الفطرة.

«ثُمَّ عُرِجَ به جبريل إِلَى السَّمَاءِ الدنيا فَاسْتَفْتَحَ فقيل من هذا؟» يعني: استفتح جبريل **«فقيل من هذا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟»**، يعني: علامة على أنه يفتح للنَّبِيِّ صَـــلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَمْ، **«إذا بعث إليه قال: نعم قيل: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ فتفتح له فيجد فيها آدم عَلَيْهِ السَّـلامْ وجده في السـماء الدنيا فقال جبريل: هذا أبوك آدم فسـلم عليه فرد عَلَيْهِ السَّـلامْ، وقال: مرحبًا بالابن الصـالح، والنَّبِيّ**

الصـالح وإذا على يمينه أسـودة وعلى يسـاره أسـودة، على يمينه أرواح السـعداء، وعلى يسـاره أرواح الأشـقياء من ذريته، فإذا نظر إلى اليمين ورأى السـعداء سـرَّ وضـحك آدم عَلَيْهِ السَّـلامْ سـرَّ وضـحك، وإذا نظر إلى الشـمال ورأى الأشـقياء من ذريته بكى عَلَيْهِ السَّلامْ، ثم عرج جبريل بالنَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ إلى السماء الثانية»[1] وحصل له فيها ما حصل.

(١) رواه البخاري، كتاب: المناقب، باب: المعراج، برقم: (٣٨٨٧).

وكنا في مجلسنا بالأمس نتحدث عن الأصل الثالث، وهو أصلٌ عظيم، هو معرفة نبينا محمد صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، وكنا قد ذكرنا أن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ عاش ثلاثةً وستين عاما هذه حياته كلها، قضى أربعين عامًا قبل البعثة، وثلاثاً وعشرين سنة بعد البعثة، قضى منها ثلاث عشرة سنة بمكة، قضى عشر سنين في أولها يدعو إلى التوحيد، ويحذر من الشرك، ثم أسري به إلى بيت المقدس صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، وتكلمنا عن هذا **«ثم عرج به جبريل عَلَيْهِ السَلَامْ إلى السماء الدنيا فاستفتح فقيل: من هذا؟ فقال: جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمدٌ، قالوا: أو بعث إليه؟ قال: نعم، فقال الملائكة الموكلون بالسماء الدنيا: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، ثم فتح له فوجد في السماء الدنيا آدم عَلَيْهِ السَّلَامْ أبا البشر عَلَيْهِ السَلَامْ، فقال له جبريل عَلَيْهِ السَّلَامْ: أبوك آدم فسلم عليه، فسلم عليه النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ فرد عَلَيْهِ السَّلَامْ، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح»**[(١)].

ومن هنا قال أهل العلم: إنه لا حرج على المؤمن إذا سلم أن يزيد ما جرت العادة بالترحيب به، يعني: لا حرج أن يقول: السلام عليكم، ويقول الآخر: وعليكم السلام، يقول آخر: مرحبًا بك، أو يقول مثلاً: أسأل الله أن يصبحك بالخير أو نحو ذلك من الأمور.

«فآدم عَلَيْهِ السَّلَامْ رد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح، وإذا على يمينه أسودة، وعلى يساره أسودة، على يمينه أرواح السعداء من ذريته، وعلى يساره أرواح الأشقياء من ذريته، فإذا نظر إلى اليمين ضحك، وإذا نظر إلى اليسار بكى عَلَيْهِ السَّلَامْ، ثم عرج جبريل بالنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ إلى السماء الثانية فاستفتح، وقيل له: كما قيل في السماء الدنيا فتح له فوجد النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ فيها ابنا الخالة عيسى ويحيى عَلَيْهِمَا السَّلَامْ، فقال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامْ: هذا يحيى وعيسى فسلِّم

---

(١) سبق تخريجه.

عليهما، فسلَّم عليهما فردا السلام، وقالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم عرج جبريل بالنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل، وقيل له كما قيل في السابق، ففتح فوجد فيها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامْ، وقد أعطي شطر الحسن»، أي: أعطي نصف الجمال، نصف جمال الناس أعطيه نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامْ، **«فقال له جبريل عَلَيْهِ السَّلَامْ: هذا يوسف فسلِّم عليه، فسلَّم عليه فرد السَّلام، وقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم عرج جبريل عَلَيْهِ السَّلَامْ بالنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ إلى السماء الرابعة، فاستفتح فقيل له كما قيل سابقاً، ففتح له فوجد فيها إدريس عَلَيْهِ السَّلَامْ، فقال جبريل هذا إدريس فسلِّم عليه، فسلَّم عليه فرد السلام، وقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم عرج به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامْ إلى السماء الخامسة فاستفتح، فقيل له كما قيل في السابق، ففتح له فوجد فيها هارون بن عمران أخا موسى عَلَيْهِ السَّلَامْ، فقال جبريل هذا هارون فسلِّم عليه، فسلَّم عليه فردَّ هارون عَلَيْهِ السَّلَامْ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، وعرجَ به جبريل إلى السماء السادسة فاستفتح، فقيل له كما قيل في السابق فَفُتح له فوجد فيها موسى عَلَيْهِ السَّلَامْ، فقال جبريل: هذا موسى فسَلِم عليه فسلَمَ عليه فردَّ عليه السلام، وقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، فلمَّا تجاوزه صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ بكى موسى، لـمَّا تجاوزه النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ بكى موسى عَلَيْهِ السَّلَامْ، فقيل له: ما يُبكيك؟ قال أبكي أنَّ غلاماً بُعث من بعدي يدخل الجنَّة من أمته أكثرَ ممن يدخلُها من أمتي، بكى موسى عَلَيْهِ السَّلَامْ حُزنًا على أمته، وليس حسداً للمؤمنين»**، ليس حسداً لأمة محمد صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، بل موسى عَلَيْهِ السَّلَامْ يحبُ هذه الأمة، ولذلك سيأتي كيف أرشد النبيَّ صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ إلى المراجعة في فَرضِية الصلاة، لكنه بكى حزناً على أمته، أنَّ أمة محمدٍ صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ يدخلون الجنّة أكثر ممن يدخلُها من أمته، **«ثم عرج جبريل بالنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ إلى السماء السابعة فاستفتح كما**

سبق، فقيل له كما سبق، فَفُتح له فوجد فيها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامْ في السماء السابعة مُسنِدًا ظهره إلى البيت المعمور، فإذا به يدخله كل يومٍ سبعون ألف ملك ولا يعودون إليه»، كل يوم يدخله سبعون ألف ملك ولا يعودون إليه، **«فقال جبريل: هذا أبوك إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامْ فسلِّم عليه، فسلَّم عليه فرد عَلَيْهِ السَّلَامْ، وقال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح»**، وكل هذا دليلٌ على فضل النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، **«ثم رُفع النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ إلى سِدرَة المنتهى وإذا ورقُها كآذان الفيلة، وإذا ثمرُها كالقِلال، فغَشِيها من أمر الله ما غشيها؛ حتى لا يستطيع أحدٌ أنْ يصفها من شدة حُسنها لما غشيها من أمر الله، ثم عُرج بنبينا صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ إلى الجبَّار جلَّ جلاله فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله إلى عبده ما أوحى وفرض عليه الصلاة خمسين صلاة في كل يومٍ وليلة، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغُفرَ لمن لم يُشرك بالله شيئاً من أمته المُقحِمات»**.

✍ **هذه الثلاث أُعطِيها في أعلى مكانٍ بلغه بشر:**

- فرضت الصلاة خمسين.
- وأعطي خواتيم سورة البقرة.
- وغُفرَ لمن لم يشرك بالله من أمته شيئا المقحِمات.

فنزل صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ فمرَّ بموسى عَلَيْهِ السَّلَامْ، فقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامْ: **«مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟»** فقال نبينا صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ: **«فرض عليهم خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ»**، فقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامْ: **«إنَّ أمتك لن تطيق ذلك، وقد جربتُ الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشدَّ المعالجة فارجعْ إلى ربك فاسأله التخفيف»** فنظر النبي

صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ إلى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامْ كأنَّه يشاوره، فأشار إليه فعرج به جبريل عَلَيْهِ السَّلَامْ إلى الجبَّار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فسأل الله التخفيف، فوضع عنه عشرا فنزل إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامْ أخبره، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإنَّ أمتك لن تطيق ذلك، فما زال يراجعه حتى جعلها ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خمسًا، فنزل صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ فمرَّ بموسى عَلَيْهِ السَّلَامْ فقال: «**ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ**»، فقال نبينا صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ: «**إنِّي استحييت من ربي، ولكنِّي أرضى وأُسَلِّم**» استحييت من ربي من كثرة ما أُراجع، ولكني أرضى وأُسَلم، فناد منادٍ «**قد أمضيتُ فريضتي، وخففتُ عن عبادي، فهن خمسٌ وهن خمسون**»[1] لا إله إلا الله، قد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي فهن خمس بالعمل خمسون بالأجر، وهذا من فضل الله على أمَّة محمد صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، ورأى النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ الجنَّة ورأى النَّار، ورأى مالكَ خازن النَّار وهو لا يضحك، وليس على وجهه بِشْر؛ لأنَّه خازن النار، ورجع صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ في نفس الليلة إلى مكة، وصلى فيها الصبح.

وفي هذا أية عظيمة: المؤمن إذا آمن وأيقن بالإسراء والمعراج أخذ ذلك بمجامع قلبه، انظر إلى قدرة الله، كل هذا حصل قبل الصبح، فصلى النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ الصبح بمكة فلمَّا أصبح أخبر قريشًا الخبر، فاشتد تكذيبهم، واشتد استهزاؤهم، وقالوا: صِف لنا بيت المقدس تعجيزاً له إنْ كنت صادقًا قد ذهبت إلى بيت المقدس فصِف لنا بيت المقدس فاغتمَّ النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ بذلك لماذا؟ لأنَّه لم يكن قد نظر إلى بيت المقدس نظر تفحص حتى يصفه، فجلَّاه الله له كأنَّه ينظر إليه فوصفه فلم يردُّوا شيئاً من وصفه، ثم أخبرهم بقصة العير التي لهم، وعلموا صدقه ولكنهم -والعياذ بالله- أبوا إلا كُفُورا.

---

(١) رواه البخاري، كتاب: المناقب، باب: المعراج، برقم: (٣٨٨٧).

وهذا الإسراء والمعراج حصل للنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ بجسده حقيقةً في ليلةٍ واحدة عند جماهير العلماء، ولم يكن منامًا كما زعم الزاعمون، ولم يثبت في تاريخ وقوع الإسراء شيءٌ يعتمد عليه، فلم يثبت أنها في ليلة سبعٍ وعشرين من رجب، بل لم يثبت أنَّها في رجب، ولم يثبت أنَّها في ربيع، ولم يأت دليلٌ يُعتمد عليه في سَــنة وُقوعِها، ولذا اختلف علماؤنا في تاريخ الإســراء والمعراج اختلافًا كبيراً؛ وبهذا نعرف خطأ الذين يحتفلون بالإســراء والمعراج ليلة ســبعٍ وعشــرين، ويجعلون عيداً وإجازةً رسمية ليلة سبعٍ وعشرين من رجب فإنَّهم مخطئون من وجهين:

- **الوجه الأول**: أنَّه لم يثبت هذا التاريخ أصلًا.

- **والوجه الثاني**: أنَّ النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ وهو المنعَم عليه بهذه النِعمَة الكبرى ابتداءً لم يحتفِ بهذا، ولم يجعله عيدًا، ولم يصـــم اليوم الذي وافق يوم الإســـراء والمعراج مع أنَّه صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ صام يوم عاشوراء كما سيأتي إن شاء الله، فلماذا فرق بينهما؟ لأنَّ المسألة عبادة؛ والعبادةُ توقيفية فليس لأحدٍ أن يأتي اليوم ويقول نحن نصوم يوم الإسراء والمعراج؛ لأنّ النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ صام يوم عاشــوراء، نقول: النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ صـام يوم عاشـوراء ولم يصـم يوم الإســراء والمعراج؛ لأنَّ المســألة عبادة والعبادةُ توقيفية إنَّما تكون بالوحي وهذا أمرٌ عظيم وحكمةٌ عظيمة، والإســـراء والمعراج فيها حِكمٌ كثيرة ينبغي للمؤمنين أن يتأملوها.

قال المصــنفُ رَحِمَهُ الله: "أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْــرَ سِــنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ الْعَشْــرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ".

الشَّرْح:

يقول الشيخ رَحِمَهُ الله رحمةً واسعة وجزاه عن المسلمين خيرَ الجزاء، يقول: **"وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ"**، وذلك كما علمنا عندما عرج به صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ وهن خمس وهن خمسون، وعندما رجع إلى مكة صلى ثلاثَ سنين بناءً على القول القائل إن الإسـراء والمعراج حدثت قبل الهجرة بثلاث سـنين، وهذا ليس أمرًا متفقًا عليه ولم يدل عليه دليلٌ يعتمد عليه، ولكنه اجتهادٌ من العلماء، فبناءً على هذا يكون صـــلى في مكة ثلاث سنين وكان يصلي في مكة الرباعية ركعتين؛ لأنَّها فُرضـت هكذا عليه، ثم هاجر صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ إلى المدينة ففَرضـت عليه أربعة، كما جاء في حديث عائشـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الذي رواه البخاري.

إذن كان النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ يصلي في مكة الرباعية ركعتين، وكما قلنا إنَّ صلاته في مكة ثلاث سنين إنَّما هذا التقدير اجتهاد، وليس فيه نصٌ يُعتمد عليه.

قال رَحِمَهُ الله: "وَبَعْدَهَا أُمِرَ بالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ".

الشَّرْح:

"**وبَعْدَهَا**" أي: بعد الثلاث سنين، يعني إذن: بعد ثلاثة عشر عامًا من البعثة؛ أُمر بالهجرة إلى المدينة.

من المعلوم أنَّ نبينا صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ عندما قام بهمةٍ، ونشاط يدعو إلى التوحيد، ويحذر من الشرك لم ترض بذلك صناديد قريش، فأخذوا يؤذون الرسول صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ ويؤذون من آمن معه وأكثرهم من المستضعفين، فنزلت آياتٌ تشير إلى الهجرة، منها قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1] انظروا هنا: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ هذه مقدمة، ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ يعني: يمكن أن يُهاجَر، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فالصابر الذي يثبت على دينه يوفى أجره بغير حساب.

ومن هنا أمر النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة؛ لأنَّ فيها النجاشي ملِكاً عادلاً لا يظلم عنده أحد، فهاجر نفرٌ من الصحابة إلى الحبشة في الهجرة الأولى فراراً بدينهم، ثم هاجروا إلى الحبشة مرةً ثانية، وبقي نبينا صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ ومعه جمعٌ من أصحابه في مكة يدعو إلى الله صابراً محتسبا، وشاء الله عَزَّ وَجَلَّ أن يلقى النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ ستة نفرَ من الخزرج من المدينة بمكة، كان النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ يعرض دعوته على

(١) سورة الزمر: (١٠).

القبائل في وقت الحج، فمر فســمع نفراً يتكلمون فمال إليهم، فإذا هم ســتة نفر من الخزرج، فقال: «ألا تجلســون أحدثكم؟» قالوا: بلى، فجلســوا فدعاهم إلى الإســلام، وكان الخزرج يســمعون اليهود يقولون: إن نبيًا ســيبعث في آخر الزمان، فقالوا: إن هذا هو النبي الذي تتوعدكم به اليهود؛ لأن اليهود كانوا يقولون لهم: نقتلكم معه فاسبقوهم إليه، فأسلَموا وعادوا إلى المدينة فأخذوا يذكرون الإسلام للناس، فما بقي بيتٌ إلا وقد سمع عن محمدٍ صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، وأسلم عددٌ من أهل المدينة.

وفي السنة الثانية العشرة من البعثة جاء عددٌ من أهل المدينة هم عشرة من الخزرج، واثنان من الأوس إلى مكة، واتصلوا برسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ وبايعوه، وبعد البيعة بعث النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ معهم مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعلمهم، ويفقههم، ويدعو إلى الإسلام فذهب معهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، ودعا إلى الله دعوةً عظيمة حتى ما بقي دارٌ من دور الأنصار إلا وفيه رجالٌ ونساءٌ مسلمون إلا داراً واحدة، كل دور الأنصار أصبح فيها مسلمون إلا داراً واحدة من دور الأنصار، ثم رجع مصعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ يبشره قبل الحج، ثم في الحج جاء نفرٌ من المدينة هم بضعةٌ وسبعون إلى مكة، واتصلوا بالنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ واجتمعوا معه في وسط أيام التشريق في الشِّعب عند جمرة العقبة، وبايعوه البيعة المعروفة، وفيها بايعوه على أن ينصروه، وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم، وأزواجهم، وأعراضهم، فأخذ عليهم النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ البيعة.

وبعد البيعة بدأ المسلمون يهاجرون إلى المدينة؛ لأن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ أخبرهم أنه رأى مكان هجرتهم أرضاً ذات نخلٍ بين لابتين، يعني: بين حرتين، والأرض ذات النخل التي بين لابتين هي: المدينة، وكان النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ قبل هذا رأى في المنام شيئًا، يقول النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ: «**رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ، فَذَهَبَ وَهْلِي**» أي: ذهب ظني، «**إِلَى أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرُ، فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ**»[1]، والحديث في الصحيحين.

ثم أخبر النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ أصحابه أنه رأى موضع هجرتهم، وأنه أرضٌ ذات نخلٍ بين لابتين، فعلموا أنها المدينة، فأخذ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم يهاجرون إلى المدينة، وتجهَّز أبوبكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليهاجر إلى المدينة، فقال له النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ: «**على رسلك**» تمهل لا تهاجر، «**فإني أرجو أن يُؤذن لي في الهجرة**»، فقال له أبوبكر: «**هل ترجو ذلك بأبي أنت؟**» قال: «**نعم**»[2]، فحبس أبوبكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نفسه رجاء الفوز برفقته صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ في الهجرة.

ثم أعَدَّ أبوبكرٍ الرواحل استعداداً، وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شهر صفر من السنة الرابعة عشر من البعثة اجتمع صناديد قريش، واستقر رأيهم على أن يختاروا فتىً جَلداً حَسيبًا من كل قبيلة، ويُعطى كل فتىً سيفًا صلتًا، فيضربوا النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ ضربةً واحدة، فيضيع دمه بين القبائل فلا يستطيع أهله أن يطالبوا بدمه ويرضَوا بالدية، ففعلوا هذا فجاء النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ في وقت الظهر إلى أبي بكر بعدما نزل عليه جبريل، وأخبره بمؤامرة قريش وأن الله أذن له في الهجرة، فذهب إلى أبي بكرٍ في نحر الظهيرة، اليوم الناس في عباراتهم يقولون: (في عز الظهيرة).

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الرؤيا، باب: رُؤْيَا النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم: (٢٢٧٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب: الحوالات، باب: جوار أبي بكر في عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعقده، برقم: (٢٢٩٩).

في نحر الظهيرة يعني: في وسط الظهيرة، في وقتٍ ما كان يأتي فيه، فاستأذن على أبي بكرٍ الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأخبره بما حصل، ثم رجع النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ إلى بيته، وأمر عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يبيت في فراشه، وأن يتسجى ببرده صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ وقال: إنه لن يخلص إليك اليوم أذًى، فاجتمع الفتيان في صَفَّين عند باب رسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، فخرج رسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، وقد جعل الله على أبصارهم غِشاوة، فأخذ بطحاء تراباً وذره على رؤوسهم، فلم يبق أحدٌ منهم إلا وعلى رأسه تراب حتى وصل إلى أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وخرج من مكة، وذهبًا إلى غار ثور وحصل ما حصل مما هو معلوم.

حتى وصلًا المدينة ناحية قُباء، فتسامع الأنصارُ بمجيئه صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، فعلت التكبير في المدينة فَرحاً بقدوم النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، وخرجوا يتلقونه فحيَّوهُ بتحية طيبة، هذا الثابت: إنما كبروا وخرجوا يتلقونه، فحيوه بتحيةٍ طيبة، ونزل النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ في قُباء، ووقف أبوبكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ صامتًا، كان جالسًا صامتًا، فكان نفرٌ من الأنصار لم يروا رسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ فكان كلما جاء منهم واحدٌ حيا أبابكر يظنه الرسول صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، حتى أصابت الشمسُ الرسول صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ فذهب أبوبكر يظلِّلُه بردائه، فعلموا أنَّ الجالس رسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، ثم حصل ما حصل كما هو معلوم في السِّيَر.

قال رَحِمَهُ الله: "وَالْهِجْرَةُ الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ".

الشَّرْح:

هذا معنى الهجرة أصـــل الهجرة: مفارقة الإنســـان غيره، إمَّا بالبدن، أو باللســـان، أو بالقلب.

فالهجرة:

١) قد تقع بالبدن، المفارقة بالبدن.

٢) قد تقع باللسان، المفارقة باللسان.

٣) وقد تقع بالقلب، المفارقة بالقلب.

هذا أصـــلها، قال أبو عبيد: **((أصـــل الهجرة في اللغة: مأخوذ من الهَجْر، وهو: الترك))**.

وأمَّا في الشـرع: فقال الشـيخ: **"هي الانتقال مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ"**، وجاء في نسـخة الأنصـاري المدني من الأصـول الثلاثة: **"ومن بلد البدعة إلى بلد السُّـنة"**، ولم تأت هذه الزيادة إلا في نسخة الأنصاري، والهجرة **"الانتقال مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ"**، زاد الأنصاري: **"ومن بلد البدعة إلى بلد السُّنة"**، قال ابن القاسم سمعت مالكاً يقول: **((لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يُقِيمَ بِبَلَدٍ سُبَّ فِيهَا السَّلَفُ))**[1]؛ لأنَّ البلد التي يسب فيها السلف أرضُ بدعة.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي: (٦١١/١).

والمقصـود: إذا غلب هذا، وهذا يدل على أن الأئمة كانوا يرون الأخذ بما عليه السـلف، وأنَّ سـب السـلف بدعة، وأن من يَسـبُّ السـلف مبتدع، فالغمز للسـلف، واللَّمز للسـلف، والسـبُّ للسـلف ليس من طريقة أهل السـنة، وإنما هو من طريقة أهل البدعة، فالإمام مالك روى عنه ابن القاسـم وهو تلميذه؛ أنه كان يقول: ((**لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يُقِيمَ بِبَلَدٍ سُـبَّ فِيهَا السَّـلَفُ**))، هذا معنى هذه الزيادة؛ أنه ينتقل من بلد البدعة إلى بلد السـنة، لكنَّ الهجرة في أصل معناها: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام.

وبلد الشرك، قال العلماء: هو الذي لا تقام فيه مظاهر الإسلام، فلا يؤذن ولا يصلى.

وبلد التوحيد: هو الذي تقام فيه، أو بلد الإسلام: هو الذي تقام فيه شعائر الإسلام من الأذان، والصلاة ونحو ذلك.

قال رَحِمَهُ الله: "وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَــةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّــرْكِ إِلَى بلد الإِسْــلامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ".

الشَّرْح:

هذه الهجرة التي: هي الانتقال من بلد الشـرك إلى بلد الإسـلام، قال الشـيخ: "**فَرِيضَـةٌ**" واجبةٌ على كل مؤمن، فهل هي كذلك؟ أم أن فيها تفصيلًا؟ وما مراد الشيخ؟ هل مراد الشيخ الإطلاق؟

نقول: بل المسألة فيها تفصيل، فليست الهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام واجبةً على كل مؤمن، بل قد تكون واجبة، وقد تكون ساقطة يعني: تسقط عنه، وقد تكون مستحبة، وقد يكون البقاء في بلد الكفر مستحبًا.

إذن الهجرة:

- قد تكون واجبة.
- قد تكون ساقطة.
- قد تكون مستحبة.
- قد يكون البقاء في بلد الكفر مستحبًا.

كيف هذا؟! فأنت اليوم تأتينا بالعجائب، هذا نذكره إن شاء الله في درسنا ليوم الغد.

قال المصنف رَحِمَهُ الله تَعَالى: " وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَـةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ".

الشَّرْح:

ونحن مع الأصل الثالث وهو معرفة نبينا صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ أن نعرف هذا النبي الكريم، وقد بينا شـيئاً مما يتعلق بمعرفته، فبيَّنا نسـبه، وبينا عمره، وبيَّنا المدة التي بقيها نبيًا ورسـولًا، وبينا ما وقع له في الإسراء والمعراج، وبينا أنه صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ هاجر إلى المدينة، وبينا أن الهجرة: هي الانتقال من بلد الشـــرك إلى بلد الإســـلام، ووقفنا عند بيان حكم هذه الهجرة حيث قال الشيخ رَحِمَهُ الله رحمةً واسعة.

الهجرة: فريضةٌ واجبة على كل مؤمنٍ يقيم في ديار الكفار، ولا يستطيع أن يظهر دينه في ذلك البلد.

والعلماء قد بينوا أنَّ الناس ينقسـمون في حكم الهجرة إلى أقسـام، وأعني بهم: من كانوا في بلاد الكفر، ينقسمون إلى أقسام:

القســم الأول: القادر على الهجرة المتمكن منها مع عدم قدرته على إظهار دينه في بلاد الكفر، فهو لا يسـتطيع أن يظهر دينه، ولا يسـتطيع أن يصـلي، ولا يسـتطيع أن يصـوم، ولا يسـتطيع أن يقوم بشـعائر الإسـلام وهو قادرٌ على الهجرة، فهذا تجب عليه الهجرة، والهجرة في حقه فرضٌ، فإن لم يهاجر فهو عاصٍ مرتكبٌ لمحرم بإجماع العلماء، وستأتي الأدلة على ذلك.

أما القســم الثاني: فهو العاجز عن الهجرة الذي لا يسـتطيع أن يهاجر، إما لمرضـه كأن كان مقعداً لا يســـتطيع أن ينتقل من بلد الكفر، أو لإكراه كأن كان مكرهًا أن يبقى في بلد الكفر، اليوم مثلًا: كأن يكون جوازه مســحوبًا منه لا يسـتطيع أن يســافر، أو لضَـعفه لكونه مستضعفًا، أو لعدم وجود بلدٍ يقبل به كما هو الحال اليوم في كثيرٍ من البلدان، فإن المسلم قد لا يجد مكاناً يقبل به يهاجر إليه، فهذا عاجز والعاجز لا تجب عليه الهجرة، ولا يأثم بعدم الهجرة؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها؛ ولأن الله استثنى المستضعفين كما سيأتي إن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ.

أما القســـم الثالث: فهو القادر على الهجرة، وهو قادرٌ كذلك على إظهار دينه في بلاد الكفر، فهو يستطيع أن يهاجر ولكنه متمكنٌ من إظهار دينه في بلاد الكفر، فلا يمنع من إقامة شـعائر دينه ولا يخاف على دينه، وهنا قال العلماء: هذا يسـتحب له أن يهاجر ولا يحرم عليه البقاء، قالوا: يستحب له أن يهاجر بعداً عن الفتنة، وتكثيرًا للمسلمين، وليشارك المسلمين في الشعائر التي يقيمونها من العيد ونحوه؛ إلا إذا ظهر في بقائه في بلاد الكفر مصلحةٌ أعظم، فإنه أن ظهر في بقائه في بلاد الكفر مصـلحةٌ أعظم فإنَّ بقاءه مسـتحب، إذا كان المسـلم في بلاد الكفر طالب علم يعلم الناس، ويوجههم، ويبين لهم، وقد يؤمُّهم في الصـــلاة ولو هاجر فإن المســلمين سـيفقدون ذلك فإنه يسـتحب له أن يبقى هناك، بل إذا كان بقاء المســلمين على دينهم يرتبط ببقائه فيما يظهر بحسـب الحال قد يكون بقاؤه متعينًا عليه، ولذلك الصـحابة في الهجرة إلى الحبشـة بعضـهم لم يهاجر، وبقي مع رسـول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ يناصـر النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ في مكة.

إذن من كان في بقائه في بلاد الكفار مصـــلحةٌ أعظم، وكان قادراً على إقامة دينه فإن بقاءه مستحب، وقد يكون بقاءه متعينًا عليه في بعض الأحوال.

قال رَحِمَهُ الله: "وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ".

الشَّرْح:

الهجرة لم تنقطع، وهي عبادةٌ باقية إلى أن تقوم الساعة عند عامة أهل العلم، فعامة أهل العلم يرون أن الهجرة باقية، وسيأتي الكلام على أدلة هذا -إن شاء الله-، وعلى الجمع بين هذا الكلام وبين قول النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ» [1].

(١) رواه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل الجهاد والسير، برقم: (٢٧٨٣).

قال رَحِمَهُ الله: وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾

الشَّرْح:

هذه الآية تدل على وجوب الهجرة على من كان لا أن يظهر دينه وكان قادراً عليها يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾[١] فهذا عذرٌ لا يطابق الحقيقة، قالوا: إن الذي منعنا من الهجرة أنّا مستضعفون في الأرض، ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ وهذا دليل على أنهم متمكنون من الهجرة، ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ثم استثنى الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾[٢] هناك قالوا: إنهم كانوا مستضعفين في الأرض فلم يقيموا دينهم ولكنهم قادرون على الهجرة، والذين استثناهم الله هم مستضعفون لا يستطيعون الهجرة، يعني أولئك مستضعفون لا يستطيعون إقامة دينهم لكنهم قادرون على الهجرة هؤلاء غير معذورين، أما المستضعفون الذين لا يستطيعون الهجرة كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ ما بهم؟ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ فهم لا يستطيعون الهجرة، ﴿وَلَا

---

(١) سورة النساء: (٩٧).

(٢) سورة النساء: (٩٨).

﴿يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾، لا يجدون طريقاً إلى الهجرة، ما بهم؟ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ﴾[1] و ﴿عَسَى﴾ من الله تحقيق، أفعال الترجي من الله سُــبْحَانَهُ وَتَعَالَى تحقيق، فمعنى هذا أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يعفو عنهم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا﴾ فهذه الآية -كما قلنا- تدل على وجوب الهجرة على من كان مستضعفًا لا يستطيع أن يقيم دينه في بلاد الكفر، لكنه قادرٌ على الهجرة فإنه يجب عليه أن يهاجر.

(١) سورة النساء: (٩٩).

قال رَحِمَهُ الله: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾

الشَّرْح:

هذا استدلالٌ بديعٌ من الشيخ، ويدل على فقهه رَحِمَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ، فإنه جاء بهذه الآية ليبين أن الهجرة وإن كانت فريضةً واجبة لكن تركها لا يخرج من الإيمان، فتركها لا يخرج من الإيمان، فالذي لا يستطيع أن يقيم دينه ويستطيع الهجرة ولا يهاجر لا شك أنه عاصٍ، لكنه يبقى مؤمنًا فلا يخرج من الإيمان، لماذا؟ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ هنا قال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[1]، فخاطبهم بكونهم عبادًا له، وخاطبهم بكونهم مؤمنين، فدل ذلك على أن من لم يهاجر من أرض الكفر مع وجوب الهجرة عليه يبقى مؤمنًا.

---

(١) سورة العنكبوت: (٥٦).

قال رَحِمَهُ الله تَعَالى: "قال الْبُغَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: نزلت هَذِهِ الآيَةُ فِي المُسْـلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ ولَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ".

الشَّرْح:

هذا الكلام موجودٌ في تفسـير البغوي بمعناه، وإن لم يكن نصًـا، لكن هذا معنى الكلام؛ لأن البغوي قد نقل عن السلف هذا المعنى، فنقل آثارًا كثيرة تدل على هذا المعنى، فهذا السبب يبين أن من وجبت عليه الهجرة ولم يهاجر لا يخرج من الإيمان ولكنه ينقص إيمانه؛ لأنه فاعلٌ لمعصيةٍ عظيمة.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى: "وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ السُّـنَّةِ: قَوْلُهُ صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ: (لا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا)".

الشَّرْح:

هذا الحديث أورده المصنف للدلالة على أن الهجرة باقية؛ لأن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ قال: «لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ» فالهجرة باقية ما بقيت التوبة، «وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّـمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[1]، هذا الحديث رواه الإمام أبو داود، والإمام أحمد، والدارمي، وصـحح إسـناده جمعٌ من أهل العلم منهم الإمام الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، فهذا الحديث دليلٌ على أن الهجرة باقية ما بقي التكليف إذا قام سببها.

فإن قال قائل: فما تقولون في قول النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ»، وهذا في الصـحيحين؟ فالنبي صَـلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمْ نفى الهجرة بعد الفتح، فكيف تقولون إن الهجرة باقيةٌ إلى انقطاع التوبة؟

نقول: لا تعارض بين الحديثين، لماذا؟ لأن قول النبي صَـلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمْ: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ» يراد به: لا هجرة من مكة إلى المدينة بعد الفتح؛ لأن مكة أصـبحت دار إسـلام فليس منها هجرة، وهذا الذي قرره أهل العلم، وكذلك كل بلدٍ هو بلد إسـلام ليس منه الهجرة بمعناها الخاص الذي: هو الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسـلام، لكن قد تكون هناك صـور

(١) رواه أبي داود، كتاب: الجهاد، باب: فِي الْهِجْرَةِ هَلِ انْقَطَعَتْ؟، برقم: (٢٤٧٩)، وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، برقم: (١٢٠٨).

أخرى للهجرة، كأن تغلب البدعة على البلد حتى لا يستطيع الإنسان أن يقيم السُّنة، بل إذا فعل السُّنة قيل: إنه زنديق، أو قيل: إنه كذا أو كذا من الأوصاف، فلا يستطيع أن يقيم السُّنة، فإنه يهاجر من هذا البلد وإن كان البلد من حيث الجملة بلد مسلمين، كذلك مثلاً: إذا غلبت المعصية في البلد والإنسان، مثلاً: وقع في هذه المعصية ثم تاب إلى الله وخاف على نفسه إن بقي في البلد أن يرجع إلى هذه المعصية إذا كانت من كبائر الذنوب فإنه يهاجر من هذا البلد إلى بلدٍ آخر لا تكون فيه هذه المعصية موجودة، لكن الهجرة بمعناها الأخص وهو الانتقال من بلاد الكفر إلى بلاد المسلمين لا تشرع من بلد مسلمين أبدًا؛ وهذا معنى: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ» فلا هجرة بعد الفتح من مكة.

تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «لا هجرة اليوم، كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله تعالى، وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم، مخافة أن يُفتن عليه» انتبهوا للعلة مخافة أن يفتن عليه؛ «فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام، واليوم يعبد ربه حيث شاء، ولكن جهاد ونية»[1] والحديث عند البخاري، والأثر عند البخاري في الصحيح؛ فأمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بينت العلة وهو أن الهجرة علتها مخافة الفتنة في الدين فإذا وجدت هذه العلة بقيت الهجرة، وإذا انتفت هذه العلة انعدمت الهجرة، وهذا مقتضى قول أمنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقبل أن نغادر موضوع الهجرة؛ ينبغي أن نعلم أن المؤمن تطلب منه هجرتان: الهجرة الأولى هي هجرة المكان والتي أخصها الانتقال من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، أما الهجرة الثانية فهي هجر ما نهى الله عنه هجر السيئات، وهذه الهجرة واجبةٌ على كل مسلمٍ في كل زمانٍ ومكان

---

(١) رواه البخاري، كتاب: المناقب، باب: هجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه إلى المدينة، برقم: (٣٩٠٠).

يقول النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ: «الْهِجْرَةُ أَنْ تَهْجُرَ السُّوءَ»[1] الهجرة أن تهجر ماذا؟ السوء، رواه الإمام أحمد؛ وقال شـيخ الإسـلام: ((هَذَا مَحْفُوظٌ يُرْوَى مُرْسَـلًا تَارَةً ويُرْوَى مُسْـنَدًا تارة))[2] قال هذا محفوظ يروى مرسلاً تارة، ويروى مسندًا تارة.

وقال النبي صَـلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمْ: «الْمُهَاجِرَ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى الله عَنْهُ»[3]؛ المهاجر من هجر ما نهى الله عنه وهذا عند البخاري في الصـحيح؛ كذلك روى ابن حبان أن النبي صَـلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمْ قال: «الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ السَّيِّئَاتِ»[4] وروى الحاكم، وابن ماجه، وصـححه الألباني أن النبي صَـــلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّمْ قال: «وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ»[5] المهاجر من هجر الخطايا والذنوب.

وروى النسـائي بإسناد صححه الألباني أن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمْ سئل: فَأَيُّ الْهِجْرَةِ أَفْضَــلُ؟ قَالَ: «مَنْ هَجَرَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»[6] وقد جاء الجمع بين الهجرتين في حديثٍ جاء فيه أن النبي صَــلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمْ قال: «إِنَّ الْهِجْرَةَ خَصْـلَتَانِ: إِحْدَاهُمَا أَنْ تَهْجُرَ

(١) رواه أحمد في مسـنده، برقم: (١٧٠٢٧)، وصـححه الألباني في سـلسـلة الأحاديث الصـحيحة وشـيء من فقهها وفوائدها، برقم: (٢/٩٢).

(٢) مجموع الفتاوى: (٧/٢٦٥).

(٣) رواه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، برقم: (١٠).

(٤) رواه ابن حبان، برقم: (١٩٦).

(٥) رواه ابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: حُرْمَةِ دَمِ الْمُؤْمِنِ وَمَالِهِ، برقم: (٣٩٣٤)، وصـححه الألباني في صـحيح الجامع الصغير وزياداته، برقم: (٦٦٥٨).

(٦) رواه النسـائي، كتاب: الزكاة، باب: جهد المقل، برقم: (٢٥٢٦)، وصـححه الألباني في مشـكاة المصـابيح، برقم: (٣٨٣٣).

السَّـيِّئَاتِ، وَالْأُخْرَى أَنْ تُهَاجِرَ إِلَى اللهِ وَرَسُـولِهِ»[1] هذا الحديث رواه الإمام أحمد وصـحح إسناده الشيخ أحمد شاكر، وقال الشيخ الألباني: **((وهذا إسناد شامي حسن، رجاله كلهم ثقات، وفي ضمضم بن زرعة كلام يسير))**[2]، يعني: أن إسناده صالح.

إذن: هناك هجرتان هجرة المكان، وهجرة السـيئات، وقد يتبع هجرة السـيئات الهجر أصـحاب السـيئات كما تقدم معنا قبل أمس في الدرس عندما تكلمنا عن قضـية التعامل مع المخالف.

---

(١) رواه أحمد في مسـنده، برقم: (١٦٧١)، وصـححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السـبيل، برقم: (١٢٠٨).

(٢) إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: (٥/٣٤).

قال رَحِمَهُ الله تَعَالى: " فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَة أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ".

الشَّرْح:

فلما استقر النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ في المدينة أمر ببقية شرائع الإسلام، فأمره الله ببقية الشرائع فكان الأمر في مكة أن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ أمر بالتوحيد، والتحذير من الشرك، وأمر ببعض الشرائع على وجه الإجمال فلما هاجر إلى المدينة أُمر بالتوحيد، والتحذير من الشرك، وفصل في الشرائع فليس تفصيل الشرائع دالًا على أن الأمر بالتوحيد قد انقطع؛ بل النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ أمر بالتوحيد، وبالتحذير من الشرك حتى في المدينة، وأمر ببقية شرائع الإسلام على التفصيل والتبين.

قال رَحِمَهُ الله: " مِثلِ: الزَّكَاةِ، وَالصَّـــوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالْجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ ".

الشَّرْح:

مثل الزكاة، الزكاة فرضت أولًا في مكة من حيث الجملة، فعرف المسلمون الزكاة في مكة، غير أنها لم تفصل لهم إلا في المدينة فلم تفصل أحكامها إلا في المدينة فلم تقدر الأنصبة، ولم يقدر الواجب في كل نصاب إلا في المدينة؛ فكانت الزكاة في مكة بحسب ما يجود به المسلم من غير تعيين، ومن غير شروط، فكانت بحسب ما يجود به المسلم، فلما استقر المسلمون في المدينة عينت الزكاة، وبينت الزكاة على وجه التفصيل، كذلك الصوم فإنه إنما فرض في المدينة، وكذلك الحج فإنه إنما فرض في السنة التاسعة من الهجرة على الصحيح من أقوال أهل العلم؛ وقد تقدم معنا في دروسنا في الحج فعندما فتحت مكة وصارت بلد إسلام فرض الله الحج في السنة التاسعة على أصح أقوال أهل العلم، وقال بعض أهل العلم أن الحج فرض في السنة السادسة؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[1].

والصحيح أن الذي فرض في السنة السادسة هو إكمال الحج إذا شرع فيه الإنسان، لا الفرضية المبتدأة، أما الفرضية المبتدأة فإنما وقعت في السنة التاسعة، ثم بين النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ الحج تفصيلاً في السنة العاشرة عندما حج، وقال: «خُذُوا عني مَنَاسِكَكُمْ»[2] ففي هذه

(١) سورة البقرة: (١٩٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الحج، باب: اسْتِحْبَابِ رَمْيِ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ يَوْمَ النَّحْرِ رَاكِبًا، وَبَيَانِ قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ»، برقم: (١٢٩٧)، بلفظ: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ».

الحجة فصل النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ المناسك تفصيلًا؛ يقول الشيخ: **"وَالْجِهَادِ"** وسنقف مع الجهاد وقفة يسيرة لأهمية الأمر.

الجهاد بمعناها العام: هو بذل الجهد في تحقيق ما يحبه الله، هذا الجهاد بمعناه العام، وهو بهذا المعنى كان مفروضًا من بداية الإسلام؛ الجهاد بمعناه العام كان مفروضًا من بداية الإسلام وهو أن يبذل المسلم جهده في تحقيق ما يحبه الله، فلهذا يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: **((كَانَ الْجِهَاد نَوْعَيْنِ جِهَاد بِالْيَدِ والسنان، وَالثَّانِي الْجِهَاد بِالْحجَّةِ وَالْبَيَان))**[1].

وقال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ مبينًا المعنى العام للجهاد: **((أليس التعلم، والتعليم، والصبر على ذلك من أكبر الجهاد؟ أليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة للخلق من الجهاد؟ أليس تنفيذ الحق ونصره ورد الباطل وقمعه من الجهاد))** إلى آخر كلامه.

✍ **إذن ما المعنى العام للجهاد؟** بذل الجهد في تحقيق ما يحبه الله.

أما الجهاد بمعناها الخاص: فهو بذل الجهد في قتال من أمر الله بقتالهم؛ وقد كان المسلمون في مكة عاجزين ضعفاء لا شوكة لهم، ولا قوة لهم، ولا يتمكنون من القتال فلم يفرض عليهم الجهاد، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: **((أن المسلمين كانوا ممنوعين قبل الهجرة وفي أوائل الهجرة من الابتداء بالقتال وكان قتل الكفار حينئذ محرمًا))**، قال: **((وهذا من العلم العام بين أهل المعرفة بسيرة رسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ لا يخفى**

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم: (١/٧٠).

على أحدٍ منهم أنه كان قبل الهجرة وبعيدها ممنوعًا من الابتداء بالقتل والقتال))[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ مبيناً المراحل المتعلقة بالجهاد: **((وقد قال المحققون من أهل العلم أن مراحل الجهاد باقيةٌ لم ينسخ منها شيء بحسب حال الأمة))**، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ: **((فَأَقَامَ بِضْعَ عَشْرَةَ سَنَةً بَعْدَ نُبُوَّتِهِ يُنْذِرُ بِالدَّعْوَةِ بِغَيْرِ قِتَالٍ وَلَا جِزْيَةٍ، وَيُؤْمَرُ بِالْكَفِّ وَالصَّبْرِ وَالصَّفْحِ. ثُمَّ أُذِنَ لَهُ فِي الْهِجْرَةِ، وَأُذِنَ لَهُ فِي الْقِتَالِ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يُقَاتِلَ مَنْ قَاتَلَهُ، وَيَكُفَّ عَمَّنِ اعْتَزَلَهُ وَلَمْ يُقَاتِلْهُ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ))**[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: **((ثُمَّ كَانَ الْكُفَّارُ مَعَهُ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ))**، أصبح الكفار كم قسمًا؟ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ، يقول: **((أَهْلَ صُلْحٍ وَهُدْنَةٍ، وَأَهْلَ حَرْبٍ، وَأَهْلَ ذِمَّةٍ))**، إلى قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: **((فَصَارَ أَهْلُ الْأَرْضِ مَعَهُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ: مُسْلِمٌ مُؤْمِنٌ بِهِ، وَمُسَالِمٌ لَهُ آمِنٌ))**، يعني: كافر مسالم، **((وَمُسَالِمٌ لَهُ آمِنٌ، وَخَائِفٌ مُحَارِبٌ))**[3]، ولذا يقول المحققون: إن حكم الجهاد على هذا فإذا كان المسلمون في حال ضعف وعدم قدرة على مناوأة عدوهم بل يغلب على ظنهم أنهم إذا قاتلوا عدوهم استأصلهم العدو؛ لأن قدرة العدو أكبر من قدرتهم بكثير فإنه لا يشرع لهم الجهاد، ولكن يجب عليهم أن يستعدوا للجهاد.

---

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية: (١٠٢/١).

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم: (١٤٣/٣).

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم: (١٤٥/٣).

ولا شك أن كل مؤمنٍ يجب عليه أن يعتقد مشروعية الجهاد، ويجب عليه إذا كان رجلاً قادراً أن يعزم على الجهاد إذا قامت أسبابه وانتفت موانعه، كما تقدم في الكلمة؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ قال: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»[1] كما رواه مسلمٌ في الصحيح.

وقد نص أهل العلم على قاعدة عظيمة جداً يجب أن نفقهها حتى لا يتهور المتهورون، قال العلماء: الجهاد يتبع المصلحة، يقول الإمام السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: **((والجهاد باليد والسلاح يتبع المصلحة؛ كما كان هدي النبي صلى الله عليه وسلم هادن ووادع حيث كانت المصلحة، وحارب حيث اقتضت المصلحة، فعلى المسلمين اليوم أن يسلكوا هديه، ويتشاوروا في أمرهم ويعملوا في كل وقت ما يناسبه ويصلح له)).**

والمعلوم أن الجهاد من التقوى، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴿١٦﴾﴾[2]، ولذا يقول الإمام الفقيه الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: **((لا بد في الجهاد من شرط وهو أن يكون عند المسلمين قدرةٌ وقوةٌ يستطيعون بها القتال، فإن لم يكن لديهم قدرة فإن إقحام أنفسهم في القتال إلقاءٌ بأنفسهم إلى التهلكة، ولذا لم يوجب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على المسلمين القتال وهم في مكة؛ لأنهم عاجزون ضعفاء فلما هاجروا إلى المدينة وكون الدولة الإسلامية وصار لهم شوكة أمروا بالقتال))**، قال: **((وعلى هذا فلا بد من هذا الشرط))**، وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: **((نحن مأمورون بالجهاد))** لا شك هذه الأمة مأمورة بالجهاد يقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: **((نحن مأمورون بالجهاد، لكن هل نحن مأمورون**

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الإمارة، باب: ذَمِّ مَنْ مَاتَ، وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ، برقم: (١٩١٠).

(٢) سورة التغابن: (١٦).

بالجهاد، وإن لم يكن عندنا من الأسلحة ما عند عدونا؟ قال: لا؛ لأن هذا من باب إلقاء النفس إلى التهلكة، لكن يجب أن نسـتعد حتى نقيم واجب الجهاد؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)).

وقال الشيخ صالح الفوزان حَفِظَهُ اللَّهُ في كلمةٍ قديمةٍ له تدلنا على بصيرة علمائنا وعلى أنهم يفقهون الواقع كما يريد الله فيفهمونه فهمًا صحيحًا، لا فهمًا متلاعبًا به يسار فيه كما يريد الأعداء؛ وإنما كما جاء في الكتاب والسنة، يقول الشيخ صالح الفوزان: **((كم يقتل من المسلمين بسبب مغامرة جاهلٍ أغضب الكفار وهم أقوى منه فانقضوا على المسلمين تقتيلا، وتشريدًا، وخرابًا ولا حول ولا قوة إلا بالله ويسمون هذه المغامرة بالجهاد وهذا ليس هو الجهاد؛ لأنه لم تتوفر شروطه ولم تتحقق أركانه))**.

والشيخ الأمين رَحِمَهُ اللَّهُ صاحب أضواء البيان؛ كان من الأعلام الذين يُدرسون في هذا المسجد تكلم عن مشاكل المسلمين المعاصرة في أضواء البيان وذكر منها مشكلةً قال: **((الْمُشْكِلَةُ الْأُولَى: هِيَ ضَعْفُ الْمُسْلِمِينَ فِي أَقْطَارِ الدُّنْيَا فِي الْعَدَدِ وَالْعِدَدِ عَنْ مُقَاوَمَةِ الْكُفَّارِ، وَقَدْ هَدَى الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ إِلَى حَلِّ هَذِهِ الْمُشْكِلَةِ بِأَقْوَمِ الطُّرُقِ وَأَعْدَلِهَا، فَبَيَّنَ أَنَّ عِلَاجَ الضَّعْفِ عَنْ مُقَاوَمَةِ الْكُفَّارِ إِنَّمَا هُوَ بِصِدْقِ التَّوَجُّهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَقُوَّةِ الْإِيمَانِ بِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ، قَاهِرٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، فَمَنْ كَانَ مِنْ حِزْبِهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَغْلِبَهُ الْكُفَّارُ))**[1]، فعلى المسلمين اليوم أن يعودوا إلى كتاب الله، وإلى سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، وإلى كلام العلماء الفقهاء الأثبات، حتى يفهموا أمور دينهم، فإنا نجد أن كثيرا من شبابنا اليوم يغرر بهم باسم الجهاد، ويوقعون في منكراتٍ باسم الجهاد، ويرجعون إلى من لا يرجع إليه، تجد أن شبابنا أولعوا بمواقع إلكترونية تسمى بالمواقع الجهادية

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: (٣/٥٠).

يكتب فيها من لا يعرفون، أو يعرفون بالبدع، فإما أنه مجهول لا يدرى من هو أبو الدحداح، وأبو ما أدري من وكذا، ولا يدرى من هذا، وما حقيقته، وما حقيقة حاله، وإما أنهم معروفون ومعروفون بالبدع، وبالشطحات، وبالتكفير أبو محمدٍ المقدسي، وأبو قتادة الفلسطيني وغير ذلك ممن يعرفهم أهل العلم بالبدعة، وأنهم من البدع.

شبابنا غرروا بهذه المواقع وأخذوا يقرأون عن الجهاد في هذه المواقع وكثيرٌ منهم مساكين يحبون الخير ويريدون الخير لكنهم ما عرفوا الطريق، ولذا علينا أن نوجه شبابنا إلى الطريق الصحيح، ونقول ارجعوا إلى العلماء الأثبات، ارجعوا إلى علمائنا الذين عرفوا بالسنة، ارجعوا إلى كلام الشيخ ابن باز، وكلام الشيخ ابن عثيمين، وكلام الشيخ الألباني رَحِمَهُمْ اللَّهُ، وكلام أئمتنا من المعاصرين، افقهوا دين الله، واعرفوا أحكام دينكم وتقربوا إلى الله على الوجه الذي يحبه الله عَزَّ وَجَلَّ فليس الجهاد بالعواطف، وليس الجهاد بالعنتريات، وليس الجهاد بالأمور التي لا تبذل فيها الأسباب الشرعية.

وإنما الجهاد عبادة قد ورد بيانها في كتاب الله وفي سنة نبي الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ ووضحها العلماء توضيحاً عظيماً وبينوا شروطها وحدودها متى تكون عبادة ومتى تكون ممنوعة؟ فعلينا أن نتقي الله عَزَّ وَجَلَّ في أنفسنا، وفي أمتنا، وفي ديننا، فكم جنى المتهورون على المسلمين والإسلام باسم الجهاد، جاء بعض الجهلة فهدموا للكفار برجين فأسقط الكفّار دولتين.

ووقف في وجه الدعوة في كثيرٍ من البلدان، ومنع الخير عن كثيرٍ من المسلمين، ولا زلنا نرى شيئاً من التهور؛ نرى شباباً يقتلون إخوانهم، يقتلون كبار السن في قراهم، يقتلون النساء، يقتلون الأطفال، وقد يفعلون ذلك بالسواطير والسكاكين باسم الجهاد في سبيل الله، ويسمون أنفسهم بالتكفير والهجرة، بالجهاد والهجرة، يقتلون ويجنون على المسلمين في بلدان المسلمين،

يفجرون في بلدان المســـلمين، ويقولون أنهم يجاهدون في ســبيل الله غرر بهم من غرر، أو أنهم أخذوا العلم من الكتب بدون فقهٍ ولا بصــيرة ولا رجوعٍ إلى العلماء الربانيين، فالذي ينبغي أن نفقه هذا الأمر العظيم؛ لأنَّ والله نفرح بتوجه الشباب المسلم إلى الأعمال الطيبة، نفرح لما نراه من خير يظهر على شــباب المســلمين، لكنا نحزن حزنًا شــديداً عندما نرى أن قطاع الطرق يحولون بينهم وبين السنة، ويصرفونهم عن الاستقامة الحقيقية، ويشغلونهم بأمور ليست شرعيةً ولا مشروعة، فينصرفون عن الخير، والهدى، والسنة، والعمل الصالح إلى أمور لم تكن مشروعةً على هذا الوجه وعلى هذا الحال، فأســأل الله عَزَّ وَجَلّ أن يهدي شــباب المســلمين إلى الخير والتقى.

قال الشيخ: "**وَالأَذَان**"، فالأذان فرض في السنة الأولى من الهجرة على الراجح من أقوال العلماء، وإن كان من العلماء من قال إنه فرض في الســنة الثانية؛ لكن الأصــح والله أعلم أن الأذان فرض في السنة الأولى من الهجرة.

قال: "**وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ**"، وهذا إنما فرض في المدينة، وهذا نوع من أنواع الجهاد يجاهد فيه المنكر بأنواعه، فقد يكون هذا الإنكار باليد لمن له قدرة وســلطان كالحاكم، والقاضي، والمحتسب في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكالأب في بيته، وقد يكون باللسان لمن لم تكن له قدرة وسلطان وعنده القدرة على البيان، ولا يخاف مفسدةً أعظم من المنكر الذي ينكره، وقد يكون بالقلب وذلك أضعف الإيمان.

وأهل العلم قد بينوا أن إنكار المنكر لابد فيه أن يعلم المنكر أنه منكر، فلا يجوز للإنسان أن ينكر وهو لا يعلم، فلا بد من العلم، وأن ينكر بالمشــروع في حقه، فلا ينكر باليد من لا

يشـــرع له الإنكار باليد وهكذا، وأن يزول بإنكاره المنكر أو ينقص، فإن العلماء يقولون: إن إنكار المنكر إما أن يذهب به المنكر-يزول به المنكر-، وإما أن ينقص به المنكر وهذا مشـروع، وإما أن ينقل إلى منكرٍ مســـاو لهذا المنكر الذي يفعله، وهذا محل اجتهاد يجتهد فيه المجتهد لتســـاوي الأمرين، وإما أن ينقله إلى منكرٍ أعظم، يعني: بعض الناس لو أنكرت عليه منكره لانتقل إلى منكر أعظم، كما يذكر أن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ مر على قوم من التتار يشربون الخمر قال: ((**فأنكر عليهم بعض أصحابي فأنكرت على المنكر الذي أنكر عليهم شرب الخمر، وقال: قلت له إنما حرم الله الخمر؛ لأنها تصد عن ذكر الله، وإقام الصلاة وهؤلاء تصدهم الخمر عن العدوان**))[1]يعني: أنت إذا أنكرت عليهم شرب الخمر سيشتغلون بالمســـلمين يقتلونهم، وينتهكون أعراضـــهم فدعهم على منكرهم؛ لأنك ســـتنقلهم إلى منكرٍ أعظم.

ولذا ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أنك إذا وجدت قارئًـــــا يقرأ في كتب المجون -كتب الشـــهوات-، وعلمت أنك إذا أنكرت عليه ذلك انتقل إلى كتب الســـحر والكفر، أنه لا يجوز لك أن تنكر عليه، يعني: لو وجدت شـخصـا يحب القراءة وفي يده مجلة من مجلات الشـهوات المنتشرة اليوم وعلمت أنك إذا أنكرت عليه سينتقل إلى قراءة كتب الكفر، فإنه لا يشرع لك أن تنكر عليه، وهذا أمرٌ يجب فقهه وفهمه.

أيضًـــا ذكر أهل العلم أن إنكار المنكر إنما يكون بالأســـاليب الشـــرعية، وإلا كان منكراً يحتاج إلى إنكار، إنكار المنكر بغير الأســـاليب الشـــرعية منكر يحتاج إلى إنكار، فكون بعض الناس مثلاً ينكر ويأمر بالمعروف كما يقول ويبذل أمورًا غير مشـــروعة، بعض الناس يقول: أنا

(١) مجموع فتاوى: (٣/٢٠٧).

أنكر على الناس، وإذا ما كان معي شخص يشرب الدخان أنا أشتري له السيجارة، بل ناظرني بعضـــهم، فقال: أنه يحمل زجاجة الخمر للمدعو الذي يدعوه في حقيبته، يقول: أنا آخذه وأخرجه معنا يخرج خروج، وأضع قارورة الخمر له في حقيبتي من أجل أن أدعوه، قلت: سبحان الله هذا الفعل منكر، فأنت تحتاج إلى من يدعوك ويبين لك، ويحذرك من هذه الكبيرة التي هي من كبائر الذنوب.

أهل العلم يقولون: إن إنكار المنكر يجب أن يكون بلا منكر، يجب أن يكون بالأسـاليب الشرعية، أما أن يفعل الإنسان منكرات بحجة أنه ينكر المنكر فإن هذا لا يجوز.

قال رَحِمَهُ الله: "أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وبعدها تُوُفِّيَ صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ".

الشَّرْح:

أن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ أخذ على هذا عشر سنين، يبين التوحيد، ويفصل التوحيد، ويحذر من الشرك، ويبين الشرائع، ويفصل الشرائع، ويبين للناس بأتم بيان صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ.

"وبعدها تُوُفِّيَ صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ" بعد العشر توفي الرسول صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ كما أخبره ربه سُبْحَانَهُ في قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1]، وغداً إن شاء الله عَزَّ وَجَلّ سنقف مع قصة موت النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، كيف مات؟ ما الأحوال التي طرأت عليه؟ ماذا فعل صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ؟ ونأخذ من ذلك إن شاء الله العبر والدروس؛ لأن في حياة النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ دروساً وعبرًا، وفي موت النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ دروسًا وعبرًا.

---

(١) سورة الزمر: (٣٠).

قال رَحِمَهُ الله: "وَتُوُفِّيَ صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ".

الشَّرْح:

كنا نتكلم عن الأصل الثالث من هذه الأصول، وهو معرفة نبينا صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، وقد كان الكلام وصل بنا إلى فقرةٍ عظيمة، وهي فقرة موت النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، حيث قرأ لنا القارئ في آخر المجلس الماضي أن الشيخ قال: **"وَتُوُفِّيَ صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ"**.

بعد العشر سنين بالمدينة توفي الرسول صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ كما أخبره ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1] فهو صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ من البشر وكل بشري يموت، فما جعل الله عَزَّ وَجَلّ الخلد لبشري، يقول الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾[2]، ويقول سُبْحَانَه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[3]، ونبينا صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ عندما فتح خيبر وكان بها اليهود أهدت له يهوديةٌ شاةً مشويةً مسمومة قد دست فيها السم وزادت السم في الذراع؛ لأنها علمت أن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ يحب الذراع فقبل النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ هديتها، وأخذ من الذراع لقمةً فلاكها في فيه، ولم يسغها، ولم يستطع أن يبتلعها صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) سورة الزمر: (٣٠).
(٢) سورة الأنبياء: (٣٤).
(٣) سورة آل عمران: (١٤٤).

وَسَلَّمْ، ثم قال لأصحابه: «أَمْسِكُوا، إِنَّ هَذِهِ الشَّاةَ مَسْمُومَةٌ»[1]، وفي رواية: «فَإِنَّهَا أَخْبَرَتْنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ»[2]، ولم يظهر أثر السم على النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ فور أكله لتلك القطعة، أو فور لوكه لتلك القطعة ليعلم الناس أن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ رسول الله حقًا، وليكمل الله عَزَّ وَجَلّ به الدين إلا أن أثر السم لم يذهب من جسده الشريف صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ بل بقي، ثم ظهر عليه في آخر حياته ليعلم الناس أنه صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ بشر شرف بالرسالة، فهو بشر يضره ما يضر البشر إلا أن يشاء الله شيئًا، ومن جهة أخرى قال بعض أهل العلم: لينال النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ شرف الشهادة فإنه صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ مات مسمومًا، فمات من أثر ذلك السم، فكان صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ شهيداً.

وقد قال النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ في مرض موته: «يَا عَائِشَةُ، ما أزال أَجِدُ أَثر الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُهُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ»[3]، وكان النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ في أواخر حياته بعد أن رجع من الحج من حجة الوداع خرج إلى شهداء أحد، قالوا: كالمودع لهم، فكان صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ يودع أمته من الأحياء والأموات، فخرج إلى شهداء أحد كالمودع لهم، وكان صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ يُكثر الخروج إلى بقيع الغرقد في جوف الليل، يستغفر لأهل البقيع ويدعو لهم، وفي أواخر شهر صفر وأول شهر ربيعٍ الأول رجع صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ من جنازةٍ في بقيع الغرقد، فوجد أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وقد عصبت رأسها وهي تجد صداعًا، وتقول: «وَا رَأْسَاهُ وَا رَأْسَاهُ»، فقال صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ: «بَلْ أَنَا وَا رَأْسَاهُ»[4]، وكانت تلك بداية مرض الموت برسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، وبدأ به مرض

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه، برقم: (٤٩٦٧).

(٢) رواه أبو داود، كتاب: الديات، باب: فِيمَنْ سَقَى رَجُلًا سَمًّا أَوْ أَطْعَمَهُ فَمَاتَ أَيُقَادُ مِنْهُ، برقم: (٤٥١٢)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، برقم: (٥٩٣١).

(٣) رواه البخاري، كتاب: المغازي، باب: مرض النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ ووفاته، برقم: (٤٤٢٨).

(٤) رواه البخاري، كتاب: المرضى، باب: قول المريض: " إني وجع، أو وا رأساه، أو اشتد بي الوجع"، برقم: (٥٦٦٦).

الموت من يومه ذلك، وكان صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ حتى وهو في مرض موته يدور بين نسائه، ويمرض في بيوت نسائه إلى أن اشتد به المرض.

وكان صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ وهو يدور يقول: أين أنا غدًا؟ أين أنا غدًا؟ يُلمح إلى يوم عائشة ويلمح إلى أنه يحب أن يبقى في بيت عائشة يمرض عندها، لكنه لم يحب أن يستأذن زوجاته استئذانًا مباشرًا حتى اشتد به المرض، فلما اشتد به المرض صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ استأذن زوجاته في أن يمرض في بيت عائشة، وكان في بيت ميمونة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فأذن له رَضِيَ اللهُ عَنْهَن فخرج صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ إلى بيت عائشة وقد ضعفت قواه، خرج بين رجلين؛ بين الفضل بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وعلي رَضِيَ اللهُ عَنْه، تخط قدماه على الأرض، لا يستطيع السير من ضعفه صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، حتى انتهى إلى بيت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وفي يوم الخميس يقول ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «**وما أدراك ما الخميس**»، آخر خميسٍ لرسول الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في الدنيا قبل أن يموت بخمس، اشتد برسول الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وجعه، فقال: «**ائتوني بكتاب أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده أبدا**»، فاختلف من عنده في البيت: فمنهم من يقول: قربوا للنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ كتابًا يكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده أبدًا، ومنهم من يقول: إن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ قد غلبه الوجع وعندكم القرآن.

فلما كثر خلافهم قال النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ: «**دعوني، فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه**»[1]، وأمر صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ «**مِنْ سَبْعِ قِرَبٍ لَمْ تُحْلَلْ أَوْكِيَتُهُنَّ**»، وجاء في بعض الروايات: «**مِنْ آبَارٍ شَتَّى**»[2] لتصب عليه، لماذا؟ ليبرد الحمى صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، فقد كانت الحمى قد اشتدت عليه جدًا، قال لعلي أعهد إلى الناس، قالت عائشة رَضِيَ اللهُ

(١) رواه البخاري، كتاب: الجهاد والسير، باب: هل يستشفع إلى أهل الذمة ومعاملتهم؟، برقم: (٣٠٥٣).

(٢) المعجم الأوسط، برقم: (٥٥٢٨).

عَنْهَا: «فَأَجْلَسْنَاهُ فِي مِخْضَبٍ لِحَفْصَةَ»، ما كان النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ يستطيع أن يقوم فأجلسوه في المخضب وهو إناءٌ يغتسل فيه، قالت: «ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب، حتى طفق يشير إلينا بيده، أن قد فعلتن»[1]، أي: يكفي فقد فعلتن، ثم خرج إلى الناس عاصبًا رأسه صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ حتى جلس على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس إِنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ قَدْ خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَ اللَّهِ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ» فبكى أبوبكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْه وظن أنه يعني نفسه الشريفة صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، وقال: «فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا يَا رَسُولَ اللهِ»، وهو يبكي، قال أبو سعيدٍ الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْه: «فَعَجِبْنَا، فقال الناس: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الشَّيْخِ يُخْبِرُ رسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ عَنْ عَبْدٍ خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَ اللهِ، وَهُوَ يَقُولُ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللهِ هُوَ الْمُخَيَّرُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِهِ، فقال النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ: يا أبا بكرٍ لا تبكِ، إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ»[2]، وفي رواية: «إن أمن الناس علي في صحبته وماله أبوبكر، وإني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخوة الإسلام، لا يبقين في المسجد خوخةٌ إلا خوخة أبي بكر»[3].

وهذا يدل على: فضيلة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْه، وأنه أفضل الأمة بعد رسولها صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ، قال العلماء: والخوخة: هي أبوابٌ يدخل منها إلى المسجد، وكانت بيوت الناس إلى المسجد، وكان للناس أبوابٌ يدخلون منها إلى المسجد، فأمر النبي صَلَى اللَّهُ

(١) رواه البخاري، كتاب: الوضوء، باب: الغسل والوضوء في المخضب، والقدح، والخشب، والحجارة، برقم: (١٩٨).
(٢) رواه الترمذي، كتاب: أبواب المناقب، باب: مَنَاقِبِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، برقم: (٣٦٦٠).
(٣) رواه البخاري، كتاب: المناقب، باب: هجرة النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ وأصحابه إلى المدينة، برقم: (٣٩٠٤).

عَلَيْهِ وَسَلَّمْ بسد تلك الأبواب إلا باب أبي بكرٍ الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْه، قال العلماء: وفي ذلك إشارة إلى أنه سيكون الخليفة بعد رسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ ليدخل من ذلك الباب، ثم قال النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ في خطبته: **«إن الناس يكثرون ويقل الأنصار حتى يكونوا في الناس مثل الملح في الطعام، فمن ولي منكم عملًا، فليقبل من محسـنهم، وليتجاوز عن مسيئهم»**[1].

ثم دخل النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ بيته، وكان نساؤه يجتمعن عنده فاجتمعن يومًا فأقبلت فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْها بنت رسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ تمشي ما تخطئ مشيتها من مشية رسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ شيئًا، فلما رآها رحب بها فقال: **«مَرْحَبًا بِابْنَتِي»**، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، **«ثُمَّ سَارَّهَا»** أي: حدثها حديثًا بينها وبينه، **«فَبَكَتْ بُكَاءً شَدِيدًا، فَلَمَّا رَأَى جَزَعَهَا سَارَّهَا الثَّانِيَةَ فَضَحِكَتْ»**، فقالت لها أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها: **«خَصَّكِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَيْنِ نِسَائِهِ بِالسِّرَارِ، ثُمَّ أَنْتِ تَبْكِينَ؟ فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَأَلْتُهَا أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنها: مَا قَالَ لَكِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَتْ: مَا كُنْتُ أُفْشِي عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِرَّهُ، قَالَتْ: فَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ قالت أمنا عائشة لفاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهما: عَزَمْتُ عَلَيْكِ، بِمَا لِي عَلَيْكِ مِنَ الْحَقِّ، لَمَا حَدَّثْتِنِي»**، انظروا عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْها تقول لفاطمة بنت رسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ بعد موت النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ: **«عَزَمْتُ عَلَيْكِ، بِمَا لِي عَلَيْكِ مِنَ الْحَقِّ، لَمَا حَدَّثْتِنِي»**، فما قالت فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْها: ليس لك علي حق، بل أقرتها على حقها، وهذا دليل على رد كلام أولئك المبطلين المبتدعة الذين يطعنون في عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها وأرضاها وأبعد من سبها.

---

(١) رواه البخاري، كتاب: المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام، برقم: (٣٦٢٨).

فقالت فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْها: «أَمَّا الْآنَ، فَنَعَمْ أما الآن فأخبرك، أَمَّا حِينَ سَارَّنِي فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى، فَأَخْبَرَنِي أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُـــهُ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ سَـــنَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، وَإِنَّهُ عَارَضَـــهُ الْآنَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنِّي لَا أُرَى الْأَجَلَ إِلَّا قَدِ اقْتَرَبَ، فَاتَّقِي اللهَ وَاصْـــبِرِي، فَإِنَّهُ نِعْمَ السَّـــلَفُ أَنَا لَكِ، قالت رَضِـــيَ اللهُ عَنْها: فَبَكَيْتُ بُكَائِي الَّذِي رَأَيْتِ، فَلَمَّا رَأَى جَزَعِي سَارَّنِي الثَّانِيَةَ فَقَالَ: «يَا فَاطِمَةُ أَمَا تَرْضِيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، قالت رَضِيَ اللهُ عَنْها: فَضَحِكْتُ ضَحِكِي الَّذِي رَأَيْتِ»[١].

وتذاكر نســاء النبي صَـلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمْ عنده، فذكرت أم حبيبة وأم سـلمة رَضِـيَ اللهُ عَنْهما كنيسـةً رأيتها بالحبشة فيها تصاوير، فذكرتا من حسنها، وتصاوير فيها فرفع النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّمْ رأســـه، فقال: « أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ مِنْهُمُ الرَّجُلُ الصَّـــالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، ثُمَّ صَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، وَأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ»[٢]، وفي رواية: «أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٣].

وثَقُلَ النَّبِيُّ صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ فَقَالَ: «أَصَـلَّى النَّاسُ؟» قالوا: لَا، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُـولَ اللهِ، قَالَ: «ضَـعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَـبِ» قالت عائشـة رَضِـيَ اللهُ عَنْها: «فَفَعَلْنَا فَاغْتَسَـلَ ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ»، ذهب ليقوم صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ فأغمي عليه، ثم أفاق فقال صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ: «أَصَـلَّى النَّاسُ؟» قالوا: لَا، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُـولَ اللهِ، فَقَالَ: «ضَـعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَـبِ»، قالت رَضِـيَ اللهُ عَنْها: فقعد فَاغْتَسَـلَ ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ صَـــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّمَ، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: «أَصَـــلَّى النَّاسُ؟»[٤] فَقُلْنَا: لَا، وَالنَّاسُ

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الفضائل، باب: فَضَائِلِ فَاطِمَةَ بِنْتِ النَّبِيِّ عَلَيْهَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، برقم: (٢٤٥٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: بناء المسجد على القبر، برقم: (١٣٤١).

(٣) رواه البخاري، كتاب: المناقب، باب: هجرة الحبشة، برقم: (٣٨٧٣).

(٤) رواه البخاري، كتاب: الأذان، باب: إنما جعل الإمام ليؤتم به، برقم: (٦٨٧).

عُكُوفٌ فِي الْمَسْـجِدِ يَنْتَظِرُونَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِصَلَاةِ الْعِشَـاءِ، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**»، عجز صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الخروج بعد أن بذل ما بذل، فقال: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**»، قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها، قلت: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ، إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْـمِعِ النَّاسَ، مِنَ الْبُكَاءِ، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّي لِلنَّاسِ، قَالَتْ عَائِشَةُ، فَقُلْتُ لِحَفْصَةَ قُولِي لَهُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ الْبُكَاءِ، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ، فَفَعَلَتْ حَفْصَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مه**» -وهي عبارة زجرٍ- «**إِنَّكُنَّ لأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ**»[1]، قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها: «**لَقَدْ رَاجَعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ وَمَا حَمَلَنِي عَلَى كَثْرَةِ مُرَاجَعَتِهِ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ فِي قَلْبِي أَنْ يُحِبَّ النَّاسُ بَعْدَهُ رَجُلًا، قَامَ مَقَامَهُ أَبَدًا، وَإِلَّا أَنِّي كُنْتُ أَرَى أَنَّهُ لَنْ يَقُومَ مَقَامَهُ أَحَدٌ إِلَّا تَشَاءَمَ النَّاسُ بِهِ، فَأَرَدْتُ أَنْ يَعْدِلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ**»[2]، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**»، فأرسل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أبي بكر أن يصلي بالناس، فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمرك أن تصلي بالناس، فقال: أبوبكرٍ وكان رجلاً رقيقاً رَضِيَ اللهُ عَنْه إذا صلى لا يكاد يخرج صوته من البكاء رَضِيَ اللهُ عَنْه وأرضاه، كان رجلًا شديد الخشوع، شديد الرقة، إذا قرأ القرآن لا يملك نفسه من البكاء، فَقَالَ: «**يَا عُمَرُ صَلِّ بِالنَّاسِ، قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: أَنْتَ أَحَقُّ بِذَلِكَ، فَصَلَّى بِهِمْ أَبُو بَكْرٍ تِلْكَ الْأَيَّامَ**»[3].

---

(١) رواه البخاري، كتاب: الأذان، باب: إذا بكى الإمام في الصلاة، برقم: (٧١٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الصلاة، باب: اسْتِخْلَافِ الْإِمَامِ إِذَا عَرَضَ لَهُ عُذْرٌ مِنْ مَرَضٍ وَسَفَرٍ، برقم: (٤١٨).

(٣) سبق تخريجه.

ثم إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجد من نفسه خفة من وجعه، فخرج بين رجلين أحدهما الفضل والآخر قيل: إنه علي رَضِيَ اللهُ عَنْه، وقيل: غيره، لصلاة الظهر وأبو بكر يصلي بالناس الظهر، فلما رآه أبوبكر ذهب ليتأخر ليأمهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأومأ إليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بألا يتأخر، وقال: «**أجلساني إلى جنبه**»، فأجلس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى جنب أبي بكر، فجعل أبوبكرٍ يصلي وهو يأتم بصلاة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والناس يأتمون بصلاة أبي بكرٍ الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْه، ثم اشتد الوجع برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان يقول في وجعه: «**أَحْسِنُوا الظَّنَّ بِاللَّهِ، أَحْسِنُوا الظَّنَّ بِاللَّهِ، أَحْسِنُوا الظَّنَّ بِاللَّهِ**»[1]، واشتد الوجع برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها: ما رأيت رجلًا أشد عليه الوجع من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْه: دخلت على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يوعك، فمسسته بيدي فقلت: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلَانِ مِنْكُمْ**»، قال فقلت: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَجَلْ**»، ثم قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى مِنْ مَرَضٍ، فَمَا سِوَاهُ إِلَّا حَطَّ اللهُ بِهِ سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا**»[2].

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا، باب: الْأَمْرِ بِحُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ تَعَالَى عِنْدَ الْمَوْتِ، برقم: (٢٨٧٧) بلفظ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ**».

(٢) رواه البخاري، كتاب: المرضى، باب: أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، برقم: (٥٦٤٨).

وقال أبو سعيدٍ الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْه: دخلت على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُوعَكُ، فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَيْهِ فَوَجَدْتُ حَرَّهُ بَيْنَ يَدَيَّ فَوْقَ اللِّحَافِ، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلباسه ومتلحف بلحافه ومع ذلك وجد أبو سعيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْه حرارة الحمى فوق اللحاف، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَشَدَّهَا عَلَيْكَ، قَالَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّا كَذَلِكَ يُضَعَّفُ لَنَا الْبَلَاءُ، وَيُضَعَّفُ لَنَا الْأَجْرُ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ الصَّالِحُونَ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ، حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلَّا الْعَبَاءَةَ يَحُوبُهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ، كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ»[1].

ويزداد الوجع برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شدة، وطَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فقال وهو كذلك: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ يُحَذِّرُ مِثْلَ مَا صَنَعُوا»[2]، انظر إلى حرص النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على التوحيد، وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الحال الشديدة، وفي هذا الوجع الشديد حتى يضع الخميصة والكساء على وجهه من شدة الألم، ثم إذا اغتم منها كشفها يقول هذا القول العظيم تحذيرًا من الشرك وذرائعه، يقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ يُحَذِّرُ مِثْلَ مَا صَنَعُوا».

يحذر أمته من أن تصنع هذا الصنيع، وللأسف أن الأمة وقعت من شيء من هذا، فجعلوا قبور صالحيهم مساجد، وبنوا المساجد على قبور من يسمونهم بالأولياء، أو أدخلوا

---

(١) رواه ابن ماجة، كتاب: الفتن، باب: الصَّبْرِ عَلَى الْبَلَاءِ، برقم: (٤٠٢٤)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، برقم: (١٤٤).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةَ، باب: النَّهْيِ عَنْ بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ، عَلَى الْقُبُورِ وَاتِّخَاذِ الصُّوَرِ فِيهَا وَالنَّهْيِ عَنِ اتِّخَاذِ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ، برقم: (٥٣١).

موتاهم في داخل المساجد، وهذا من جنس صنيع اليهود، وقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحذر من هذا الصنيع.

وكان أبوبكرٍ الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْه يصلي بالناس كما علمنا حتى إذا كان يوم الإثنين وهم صفوفٌ في الفجر كشف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ستر الحجرة ينظر إليهم وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، قال العلماء: من شدة صفاء وجهه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتلألئه، ثم تبسم يضحك، تبسم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يضحك وهو في هذا المرض؛ لأنه رأى المؤمنين يصلون صلاة الفجر في جماعة.

وهذا دليل على: عظم الصلاة، وإني لأعجب أيما عجب من رجلٍ يتخلف عن صلاة الجماعة وهو يعلم أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر يومٍ من أيام حياته في الدنيا ضحك وتبسم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسبب أن المؤمنين يصلون الجماعة.

فتبسم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يضحك، فهم الصحابة أن يفتتنوا من الفرح برؤية النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنكص أبوبكرٍ على عقبيه، أي: تأخر ليصل الصف وظن أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خارجٌ إلى الصلاة فأشار إليهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أتموا صلاتكم وأرخى الستر، وانصرف الناس من صلاتهم وهم مستبشرون، يظنون أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أفاق من وجعه، لكن المرض اشتد برسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعل يتغشاه، وجعل يغمى عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيراً ما كان يوصي بالصلاة في مرض موته حتى كان آخر وصيته وهو يغرغر بها صدره وما يكاد يفيض بها لسانه: «**الصَّلَاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**»(١).

(١) رواه ابن ماجة، كتاب: الجنائز، باب: مَا جَاءَ فِي ذِكْرِ مَرَضِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم: (١٦٢٥).

ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر ضحى ومعه سواكٌ يستن به -يتسوك به-، فنظر إليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما يطيق الكلام من شدة وجعه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعرفت أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها أَنَّهُ يُحِبُّ السِّوَاكَ، فَقُلْتُ: آخُذُهُ لَكَ يا رسول الله؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ الشريفة: «**أَنْ نَعَمْ**»، وقالت: فَتَنَاوَلْتُهُ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، يعني: اشتد على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يستطع أن يتسوك به لشدة ضعفه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالت: وَقُلْتُ: أُلَيِّنُهُ لَكَ يا رسول الله؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ، قالت أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها: «**فلينته فأمره فَلَيَّنْتُهُ، فَأَمَرَّهُ**»[1]، تقول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها: فما رأيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**استن استنانًا قط أحسن منه**»[2]، وبين يديه ركوة أو علبة -يشك الراوي- فيها ماء، فجعل يدخل يديه يمسح وجهه، ويقول: «**لَا إِلَهَ إِلا اللَّهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٌ**»[3] وهو على فخذ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها فغُشي عليه ساعة، فلما أفاق أشخص بصره إلى السقف، ورفع رأسه بين سحر عائشة ونحرها رَضِيَ اللهُ عَنْها وأرضاها، وعرضت للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحة، فسمعته عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها يقول: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[4]، ويقول: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى**»[5]، ثم نصب يده الشريفة فجعل يقول: «**اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى، اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى، اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى ثلاثًا، ثُمَّ قُبِضَ**»[6] ومالت يده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تقول عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها: فلما خرجت نفسه لم أجد ريحًا

---

(١) رواه البخاري، كتاب: المغازي، باب: مرض النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووفاته، برقم: (٤٤٤٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب: المغازي، باب: مرض النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووفاته، برقم: (٤٤٣٨).

(٣) رواه البخاري، كتاب: المغازي، باب: مرض النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووفاته، برقم: (٤٤٤٩).

(٤) سورة النساء: (٦٩).

(٥) رواه الترمذي، كتاب: أبواب الدعوات، باب: مَا جَاءَ فِي عَقْدِ التَّسْبِيحِ بِاليَدِ، برقم: (٣٤٩٦).

(٦) رواه البخاري، كتاب: المناقب، باب: قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لو كنت متخذا خليلًا»، برقم: (٣٦٦٩).

قط أطيب منها، فلما مات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أظلم كل شيءٍ في المدينة، كما قال أنسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْه.

مات رسـول الله صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ وأبو بكر بالعالية -من نواحي المدينة-، فقال الناس: إن رسـول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات، فقام عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْه يقول: «وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُـولُ اللَّهِ صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللَّهُ فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ»، أي: من المنافقين، فجاء أبوبكر رَضِيَ اللهُ عَنْه على فرسه، فنزل فدخل المسـجد، فلم يكلم الناس، فدخل بيت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها، « فَكَشَـفَ عَنْ رسول الله صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ وهو مسجى، فقبله على جبينه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ اللَّهُ الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: أَيُّهَا الْحَالِفُ، عَلَى رِسْـلِكَ»، وكان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْه يتوعد ويقسـم وهو في المسـجد، فقال: «أَيُّهَا الْحَالِفُ، عَلَى رِسْـلِكَ، اجلس يا عمر فأبى عمر أن يجلس رَضِيَ اللهُ عَنْه، فأقبل الناس إلى أبي بكرٍ الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْه، وتركوا عمر رَضِيَ اللهُ عَنْه، فلما تكلم أبوبكرٍ، حمد الله وأثنى عليه وقال كلاماً عظيمًا، قال: ألا من كان يعبد محمدًا صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ، فإن محمدًا صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت وقرأ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1] وقرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾[2] فنشـج الناس يبكون»[3]؛ لأنهم أيقنوا من موت النبي صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ، قال

(١) سورة الزمر: (٣٠).

(٢) سورة آل عمران: (١٤٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب: المناقب، باب: قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لو كنت متخذا خليلًا»، برقم: (٣٦٦٨).

عمر رَضِيَ اللهُ عَنْه والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكرٍ تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي وحتى أهويت إلى الأرض، حينها سمعته تلاها علمت أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد مات.

وقف الخليفتان الراشدان موقفين كلاهما فيه خير، تقول أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها: «**فما كانت من خطبتهما من خطبةٍ إلا نفع الله بها، لقد خوف عمر الناس وإن فيهم لنفاقا فردهم الله بذلك**»، يعني: وإن فيهم منافقين، فخوف عمر المنافقين بقوله: إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يمت، وأن الله سيبعثه ويقطع أيدي رجال وأرجلهم، فخاف المنافقون فلم يفعلوا شيئاً يضر المسلمين، تقول أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها: «**ثم لقد بصر أبوبكرٍ الناس الهدى وعرفهم الحق الذي عليهم، وخرجوا من المسجد يتلون:** ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ **الآية**»[1].

وفي يوم الثلاثاء شرع الصحابة في تجهيز رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمَّا أَرَادُوا غَسْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا نَدْرِي أَنُجَرِّدُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ثِيَابِهِ كَمَا نُجَرِّدُ مَوْتَانَا، أَمْ نَغْسِلُهُ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ؟ فَلَمَّا اخْتَلَفُوا أَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّوْمَ حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَذَقْنُهُ فِي صَدْرِهِ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ مُكَلِّمٌ مِنْ نَاحِيَةِ الْبَيْتِ لَا يَدْرُونَ مَنْ هُوَ: «**أَنْ اغْسِلُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ، فَقَامُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَغَسَلُوهُ وَعَلَيْهِ قَمِيصُهُ، يَصُبُّونَ الْمَاءَ فَوْقَ الْقَمِيصِ وَيُدَلِّكُونَهُ بِالْقَمِيصِ دُونَ أَيْدِيهِمْ**»[2].

---

(١) رواه البخاري، كتاب: المناقب، باب: قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لو كنت متخذا خليلًا»، برقم: (٣٦٦٩).

(٢) رواه أبو داود، كتاب: الجنائز، باب: فِي سَتْرِ الْمَيِّتِ عِنْدَ غُسْلِهِ، برقم: (٣١٤١)، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح، برقم: (٥٩٤٨).

قال عليٌ رَضِيَ اللهُ عَنْه: **((غَسَّلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَهَبْتُ لِأَنْظُرَ مَا يَكُونُ مِنَ الْمَيِّتِ، فَلَمْ أَرَ شَيْئًا، فَقُلْتُ: كَانَ طَيِّبًا حَيًّا وَمَيِّتًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))**[1]، فلم يتغير فيه شيء بموته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكُفن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثلاثة أثوابٍ سحوليةٍ بيض، ثم صلى عليه الناس فرادى يدخل فوجٌ فيصلون، ثم يدخل فوج آخر فيصلون، ثم دخل النساء، ثم دخل الصبيان.

ودفن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة الأربعاء حيث قبض صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجرة عائشة، وكان في المدينة رجل يلحد القبر لحدًا، وآخر يضرح؛ أي: يشقه شقا، فقالوا: نستخير ربنا ونبعث إليهما، فأيهما سبق تركناه، فأرسل إليهما فسبق صاحب اللحد، فلحدوا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجُعل في قبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قطيفة حمراء ونصب عليه اللبن نصبًا، وحثي على قبره التراب، وغطي بالتراب، ورفع قبره شبرًا، فلما دفن مر أنس ببيت فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْها بنت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: **((يَا أَنَسُ: أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التُّرَابَ))**[2].

وبموت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انقطع الوحي، وقد قال أبوبكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْه بعد وفاة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمر: **((انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَزُورُهَا، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ، فَقَالَا لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))** يعني: ما يبكيك؟ ما عند الله خير للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **((فَقَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لَا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ**

---

(١) رواه أبو بزار، برقم: (٥١٩)، ورواه الحاكم في مستدركه، برقم: (١٣٣٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب: المغازي، باب: مرض النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووفاته، برقم: (٤٤٦٢).

صَــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ، وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّــمَاءِ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ، فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا))[1] رضوان الله على صحابة رسول الله صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ أجمعين.

✍ هذه قصة موت النبي صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ، وفيها المواعظ والعبر، فيها أكبر العبر:

- ففيها: بيان أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشر قد شرفه الله بالرسالة، فهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشر لا يعبد من دون الله، ولا يسأل شيئًا من دون الله، ولا يصرف له أي نوع من أنواع العبادة.
- وفيها أيضًا: تسلية المؤمنين إذا أصابهم المرض، أو أصابتهم المصيبة فإنهم يتذكرون حال النبي صَــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ؛ كيف اشــتد به المرض، فما من مؤمنٍ ينزل به المرض ويشتد به المرض إلا تسلى بما نزل بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكيف اشتد به الوجع، وما من مسلمٍ تنزل به مصيبة إلا تسلى بموت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن مصيبته، فإن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحب الخلق إلى قلب المؤمن حتى من نفســه، فإذا فقد حبيبًا تذكر أنه فقد الأحب منه وهو الرســول صَــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيتعزى بموت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- وفيها: أهمية الاهتمام بالتوحيد، وأهمية الدعوة إلى التوحيد، وشــــرف هذا العمل العظيم، وأن النبي صَــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ كان يخاف على أمته الشــرك، ولذا كان

(١) رواه مسلم، كتاب: فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، باب: مِنْ فَضَائِلِ أُمِّ أَيْمَنَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، برقم: (٢٤٥٤).

يقول في آخر حياته: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَــارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَـاجِدَ يُحَذِّرُ مِثْلَ مَا صَـنَعُوا» هذا وهو في آخر أيامه صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ، فالمؤمن المتبع لرســول الله صَــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ يعظم التوحيد، ويحب التوحيد، ويحرص على التوحيد، ويحذر من الشــرك، ويُحذر من الشــرك، ويدعو إلى التوحيد ويُحذر من الشرك، ويهتم بذلك ويجعله في المقام الأعلى لشأن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه.

- وفيها أيضًـا: بيان شـرف الصـديق رَضِيَ اللهُ عَنْه، وفضـل الصـديق رَضِيَ اللهُ عَنْه، وأنه أولى الأمة بخلافة رسـول الله صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ، فإن النبي صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بسد الأبواب كما جاء اللفظ في بعض الروايات التي تطل على المسجد إلا بـاب أبي بكرٍ الصــــديق، وقـال في خطبته الوداعية: إن أمن النـاس عليه في صـحبته وماله أبوبكر، أيضًـا أن النبي صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر أبا بكر أن يصـلي بالناس، ولما راجعته عائشـة أمر أن يصـلي بالناس أبوبكر الصـديق رَضِـيَ اللهُ عَنْه وأرضـاه، وهذا يدل على فضـيلته وأنه أولى الناس بخلافة رسـول الله صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- كما أن هذه القصـة تدل على شـرف أمنا عائشـة الصـديقة بنت الصـديق الطاهرة الشريفة المطهرة حيث أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يحب أن يُمرض في بيتها، واسـتأذن أزواجه أن يُمرض في بيتها صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ، ومات وهو بين نحرها وصـدرها، كان مسـندًا رأسـه الشـريف إلى صـدرها رَضِيَ اللهُ عَنْه وأرضـاه، وخالط ريقها ريقه عند آخر لحظاته صَــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ، وهي التي سمعت آخر كلام رسـول الله صَـلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما سمع معها أحدٌ آخر كلام رسـول الله صَـلَّى

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا يدل على فضل أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْها وأن الصحابة عرفوا لها حقها، ولذلك فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْه وأرضاه عرفت لأمها عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْه وأرضاه حقها، فلما عزمت عليها بحقها، قالت لها ما قال لها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد وفاة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- أيضًا في هذه قصة بيان فضل فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْه وأرضاها، وأن لها شرفًا عظيمًا فإنها أقبلت تمشي كمشية رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تخطئ من مشيته شيئًا، فرحب بها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في مرضه، وقال: «**مرحبًا بابنتي**»، وأجلسها عن يمينه أو عن يساره، ثم سارها بالسر الذي اختصها به، وأخبرها أنها تكون سيدة نساء المؤمنين، وهذا يدل على فضيلة فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْه وأرضاها.

هذه القصة الشريفة فيها كثيرٌ من الحكم، وكثيرٌ من الأسرار، وكثيرٌ من العبر، وعلى المؤمنين أن يتدبروا سيرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا ليتغنوا بها ولا لينشدها المنشدون، ولا لتقام بها الموالد، وإنما لتتخذ منها العبر، وتتخذ منها المواعظ، ولتكون نوراً ينير به الإنسان دربه في سيره إلى الله عَزَّ وَجَلَّ حتى يكون متبعًا لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بصيرة.

قال المصنف رَحِمَهُ الله: " وَبعدها تُوُفِّيَ صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ وَدِينُهُ بَاقٍ".

الشَّرْح:

"**وَدِينُهُ بَاقٍ**" أي: يا عبد الله لا تحسب أن الدّين ذهب بموت النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن الدين محفوظ؛ وهذا معنى قول أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإن مُحَمَّدٌ قد مَات، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله فَإِنَّ الله حَيٌّ لَا يَمُوتُ**»[1]؛ فدين الله باقي لم يذهب بموت النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل هو محفوظ بحفظ الله عَزَّ وَجَلَّ، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[2]؛ أي: لحافظون ذلك الذكر الذي هو القرآن وتتبعه السنة؛ حافظون هذا الذكر من الزيادة فلا يزيد فيه أحدٌ شيئًا، ومن النقصان فلا ينقص منه أحدٌ شيئًا؛ بل يبلغ الأمة في كل زمان كاملًا؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ حفظ هذا الدين فبلغنا اليوم كما أُنزل على محمد صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يتغير منه شيء من جهة التشريع؛ من جهة كونه مشروعًا لم يتغير منه شيء ولم ينقص منه شيء؛ فجعل الله عَزَّ وَجَلَّ أصحاب محمد صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزراء لنبيه صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنهم أطيب القلوب بعد قلوب الأنبياء فحفظوا ما جاء به محمد صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنقلوه لمن بعدهم؛ ولازالت هذه الأمة المباركة تتناقل ما جاء به محمد صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غضًا طريًا كأنه أنزل اليوم فالله عَزَّ وَجَلَّ حفظه، وقال النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقّ ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سورة الحجر: (٩).

اللَّهِ»[1]؛ فهذا الدين باقًا ببقاء هذه الطائفة الذين يبقون ظاهرين حتى يأتي أمر الله، فالدين محفوظ بحمد الله وباقًا حتى يأتي أمر الله.

يقول شيخ الإسلام بن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: ((**فَأَمَّا الْعِلْمُ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ مَضْبُوطٌ وَمَحْرُوسٌ كَمَا قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ:** ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾))[2].

(١) رواه مسلم، كتاب: الأمارة، باب: قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ»، برقم: (١٩٢٠).

(٢) مجموع الفتاوى: (٤/٥١٧).

قال رَحِمَهُ الله: "وَهَذَا دِينُهُ".

الشَّرْح:

هذه جملة بديعة من الشـيخ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: **"وَهَذَا دِينُهُ"** الإشـارة تكون للموجود؛ يعني: وهذا الدين الموجود الذي بلغنا هو دين النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما أُنزل إليه؛ فالشيخ يشير إلى أن دين النبي صَـلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ باق محفوظ؛ وأنه هو الموجود في زمنه رَحِمَهُ اللَّهُ؛ ونحن نقول: إن ما سُطر في كتب السـنن وكان في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ قبل دينًا للنبي صَـلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو باقًا في زماننا حتى يأتي أمر الله.

قال رَحِمَهُ الله: "لا خَيْرَ إلا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إلا حَذَّرَهَا مِنْهُ".

الشَّرْح:

نعم ورب الكعبة ما من خير إلا دلنا عليه محمد بن عبد الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول الله؛ والله ما كتم خيرًا ولا قصَّر بل اجتهد، وشمَّر، وبلغ البلاغ المبين صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما من شر إلا حذرنا منه، ولذا قال رجل لسلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةَ**»؛ يعني: علمكم نبيكم كل شيء حتى آداب قضاء الحاجة؟ قال: «**أَجَلْ**»[1]، والحديث في صحيح مسلم.

فالنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علمنا كل شيء، وقال أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**تَرَكْنَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي الْهَوَاءِ، إِلَّا وَهُوَ يُذَكِّرُنَا مِنْهُ عِلْمًا**»، وقال رسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبينًا أنه ما بقي شيء يُتقرب به إلى الله إلا وقد بينه فليس لأحد بيان بعد بيانه صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يقول النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا بَقِيَ شَيْءٌ يُقَرِّبُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ، إِلَّا وَقَدْ بُيِّنَ لَكُمْ**»[2] رواه الطبراني، وصححه الألباني.

فالنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيّن لنا كل خير فما لم يبينه فليس خيرًا وإن توهم المتوهمون، المولد ليس خيرًا وإن توهم المتوهمون، وحذرنا من كل شر صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الطهارة، باب: الاستطابة، برقم: (٢٦٢).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم: (١٦٤٧)، وصححه الألباني في السلسلة الأحاديث الصحيحة، برقم: (١٨٠٣).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ((وقد تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي السَّــمَاءِ إِلَّا ذَكَرَ لِلْأُمَّةِ مِنْهُ عِلْمًا، وَعَلَّمَهُمْ كُلَّ شَــيْءٍ حَتَّى آدَابَ التَّخَلِّي وَآدَابَ الْجِمَاعِ وَالنَّوْمِ وَالْقِيَامِ وَالْقُعُودِ، وَالْأَكْلِ وَالشُّــرْبِ، وَالرُّكُوبِ وَالنُّزُولِ، وَالسَّفَرِ وَالْإِقَامَةِ، وَالصَّمْتِ وَالْكَلَامِ، وَالْعُزْلَةِ وَالْخُلْطَةِ، وَالْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَالصِّحَّةِ وَالْمَرَضِ، وَجَمِيعِ أَحْكَامِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، وَوَصَــفَ لَهُمْ الْعَرْشَ وَالْكُرْسِــيَّ وَالْمَلَائِكَةَ وَالْجِنَّ وَالنَّارَ وَالْجَنَّةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا فِيهِ حَتَّى كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ، وَعَرَّفَهُمْ مَعْبُودَهُمْ وَإِلَهَهُمْ أَتَمَّ تَعْرِيفٍ حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ وَيُشَاهِدُونَهُ بِأَوْصَافِ كَمَالِهِ وَنُعُوتِ جَلَالِهِ، وَعَرَّفَهُمْ الْأَنْبِيَاءَ وَأُمَمَهُمْ وَمَا جَرَى لَهُمْ، وَمَا جَرَى عَلَيْهِمْ مَعَهُمْ حَتَّى كَأَنَّهُمْ كَانُوا بَيْنَهُمْ)) نعم والله؛ جاءنا قصــص الأنبياء في كتاب الله وفي ســنة النبي صَــلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ كأننا بينهم نعرفها ونعرف ما وقع فيها.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ((مِنْ طُرُقِ الْخَيْرِ وَالشَّــرِّ دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا مَا لَمْ يُعَرِّفْهُ نَبِيٌّ لِأُمَّتِهِ قَبْلَهُ، وَعَرَّفَهُمْ صَــلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ مِنْ أَحْوَالِ الْمَوْتِ وَمَا يَكُونُ بَعْدَهُ فِي الْبَرْزَخِ وَمَا يَحْصُــلُ فِيهِ مِنْ النَّعِيمِ وَالْعَذَابِ لِلرُّوحِ وَالْبَدَنِ مَا لَمْ يُعَرِّفْ بِهِ نَبِيٌّ غَيْرُهُ، وَكَذَلِكَ عَرَّفَهُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَدِلَّةِ التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ وَالرَّدِّ عَلَى جَمِيعِ فِرَقِ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالضَّــلَالِ مَا لَيْسَ لِمَنْ عَرَفَهُ حَاجَةٌ مِنْ بَعْدِهِ، اللَّهُمَّ إِلَّا إِلَى مَنْ يُبَلِّغُهُ إِيَّاهُ وَيُبَيِّنُهُ وَيُوَضِّحُ مِنْهُ مَا خَفِيَ عَلَيْهِ)).

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ((وَكَذَلِكَ عَرَّفَهُمْ صَــلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ مِنْ مَكَايِدِ الْحُرُوبِ وَلِقَاءِ الْعَدُوِّ وَطُرُقِ النَّصْرِ وَالظُّفْرِ مَا لَوْ عَلِمُوهُ وَعَقَلُوهُ وَرَعَوْهُ حَقَّ رِعَايَتِهِ لَمْ يَقُمْ لَهُمْ عَدُوٌّ أَبَدًا)) تأمل هذه الجملة العظيمة، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: ((عَرَّفَهُمْ صَــلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ مِنْ مَكَايِدِ الْحُرُوبِ وَلِقَاءِ الْعَدُوِّ وَطُرُقِ النَّصْــرِ وَالظُّفْرِ مَا لَوْ عَلِمُوهُ وَعَقَلُوهُ وَرَعَوْهُ حَقَّ رِعَايَتِهِ)) فلم يلتمسوا غيره لا من أصحاب الكفر، ولا من الفرق الضالة، وإنما تلمسوه في سنة النبي صَلَى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ((لَمْ يَقُمْ لَهُمْ عَدُوٌّ أَبَدًا، وَكَذَلِكَ عَرَّفَهُمْ صَــلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ مِنْ مَكَايِدِ إبْلِيسَ وَطُرُقِهِ))، إلى قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: ((وَبِالْجُمْلَةِ فَجَاءَهُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِرُمَّتِهِ، وَلَمْ يُحْوِجْهُمُ اللَّهُ إلَى أَحَدٍ سِوَاهُ))[1] فهذه الشريعة كاملة لا يحتاج الأمر فيها إلى التكميل.

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم، برقم: (٤/٢٨٥).

قال رَحِمَهُ الله: "وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ التَّوْحِيدُ، وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ".

الشَّرْح:

قال: **"وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ التَّوْحِيدُ"** والتوحيد رأس الخير وأعلى الخير؛ وأعلى مصالح الخلق على الإطلاق هو التوحيد؛ فما صلح حال بأعظم من التوحيد، وما رُزق عبد خيرًا أعظم من التوحيد، والله إن التوحيد أعظم من الدنيا وما فيها من الكنوز؛ التوحيد للموحد أعظم من الدنيا وما فيها من الكنوز وأعظم من كل خير، ولذا خصه الشيخ فقال: **"وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ التَّوْحِيدُ"** وإلا فهو يدخل في قوله: **"وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ"**؛ لأن التوحيد يحبه الله ويرضاه؛ لكن لأن التوحيد رأس الخير، وأعظم الخير، وأعظم ما ينبغي أن يُعتنى به خصه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بالذكر قال: **"وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ"**؛ هذا كما تقدم معنا هو العبادة من الأقوال، والأعمال، الظاهرة والباطنة؛ والقاعدة عند أهل السنة والجماعة: ((**أن كل ما أمر الله به، أو أمر به رسوله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فالله يحبه**)) إذا وجدت أمرًا في الكتاب بشيء فاعلم أن الله يحب ذلك الشيء، إذا وجدت أمرًا في السنة فاعلم أن الله يحب ذلك الأمر، وهذا يقوله أهل السنة والجماعة.

قال رَحِمَهُ الله: " وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنْهُ الشِّرْكُ، وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُ اللهُ وَيَأْبَاه".

الشَّرْح:

الشر الذي حذّر منه الشرك؛ رأس الشر، وأكبر الشر، وأعظم دركات الشر هو الشرك؛ فالشرك يبغضه الله ويأباه، وهو رأس الشر فما ابتلي عبد من الجن أو الإنس بشر أعظم من الشرك، ولا خير ينفع مع الشرك؛ فلا ننظر إلى قوة المشركين، ولا ننظر إلى زخارف الدنيا التي عندهم؛ فإن من وقع في الشرك فإنه في شر عظيم ولن ينفعه خير بل ما يكون في الدنيا إما أن تكون عاقبته وبالًا عليه، وإما أن يكون استدراجًا له، ولو تأملنا أحوال الأمم الكفارة نجد أنها تتساقط دائمًا؛ يكون عندها قوة، ويكون عندها عزة ثم تتآكل وتتساقط؛ فالشرك رأس الشر.

قال الشيخ: **"وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُ اللهُ وَيَأْبَاه"**؛ وهذه هي المعاصي؛ المنهيات ويقول أهل السنة والجماعة: **((إنَّ ما نهى الله عَزَّ وَجَلَّ عنه فإنه يكرهه ويأباه))**.

إذن نبينا صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين الخير أصوله وفروعه ودعى إليه، وبين الشر أصوله وفروعه وحذر منه، فلم يبق عذر لأحد بل على الجميع أن يطلبوا الخير فيما جاء به النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يتعلموا الشر الذي حذّر منه النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخافة أن يدركهم؛ فإن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: **((كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي))**[1]؛ فيتعلم المؤمن الشر الذي حذّر منه النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما الذي حذّر منه النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ حذّر من الشرك حذّر من البدع، حذّر من المعاصي، حذّر من الفتن حتى يكون على بصيرة في دينه.

---

(١) رواه البخاري، كتاب: الإمارة، باب: الْأَمْرِ بِلُزُومِ الْجَمَاعَةِ عِنْدَ ظُهُورِ الْفِتَنِ وتحذير الدعاة إلى الكفر، برقم: (١٨٤٧).

قال رَحِمَهُ الله: " بَعَثَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً".

الشَّرْح:

النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول الله إلى الناس أجمعين، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[1]، وكما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[2]، يقول ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: **((أَرْسَلْنَاكَ كَافَّةً لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، الْعَرَبِ مِنْهُمْ وَالْعَجَمِ، وَالْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ))**[3].

فالنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول الله إلى الناس أجمعين؛ فما من إنسي بعد مبعث النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا والنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسوله؛ ليس لأحد أن يأتي فيقول: أنا نصراني نبيِّي عيسى فلا أتبع محمدًا صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس ليهودي أن يقول: إنه يهودي يتبع موسى عليه السلام فلا يلزمه أن يتبع النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول الله إلى الناس أجمعين بعد مبعثه صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يسمع به يهودي أو نصراني أو غير ذلك ولا يُؤْمِن به إلا دخل النار، وليس لأحدٍ الخروج عن متابعته ظاهرًا وباطنًا؛ ليس لأحد أن يخرج عن ما جاء به النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعض المسلمين دخلت عليهم خرافات، فيقولون: إن الولي إذا بلغ منزلة معينة يخرج عما جاء به النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيسقط عنه التكليف، يقولون: هذا الولي سقط عنه التكليف؛ التكليف في الشرع لا يسقط إلا

(١) سورة الأعراف: (١٥٨).

(٢) سورة سبأ: (٢٨).

(٣) تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن: (١٩/٢٨٨).

عن مجنون، الولاية ليست سببًا لسقوط التكاليف؛ بل الولاية سبب لزيادة العمل؛ بعض المؤمنين يقولون: فلان ولي تسـألهم تقول: لم لا ينزل يصـلي معنا؟ يقولون: لا هو واصـل؛ لا يمكن أن يكون كذلك إلا إذا وصـل إلى الجنون، أما إذا وصـل إلى الولاية والله لا يكون كذلك، لا يسـع أحد كائنًا من كان أن يخرج عما جاء به النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولا يشرف أحد كائنًا من كان إلا بالعمل بما جاء به النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إذا أردنا أن نعرف هل هذا الرجل شـريف أو ليس بشـريف؛ هل هذا الرجل ولي أو ليس بولي فللنظر إلى متابعته للنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبقدر المتابعة لهذا الرسول الكريم صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكون الشرف وتكون الولاية؛ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1] وأتقانا هو أشدنا متابعة للنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) سورة الحجرات: (١٣).

قال رَحِمَهُ الله: "وَافْتَرَضَ الله طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ".

الشَّرْح:

طاعة النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مفروضة على الإنس والجن، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[1]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[2] وهذا يشمل الجن والإنس؛ فرسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول إلى الجن والإنس قاصيهم ودانيهم؛ كلهم مأمور بطاعة الرسول صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فليس بعد النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبي يُنتظر، ولا كتاب يُرتقب؛ فالنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول الله إلى الناس أجمعين وإلى الجن أجمعين من بعثه صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهذا من شرفه صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) سورة الأنبياء: (١٠٧).

(٢) سورة الفرقان: (١).

قال رَحِمَهُ الله: "وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ وَكَمَّلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾".

الشَّرْح:

أكمل الله عَزَّ وَجَلَّ بالنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدين الذي يرتضيه الذي هو الإسلام؛ فلم يبق في ديننا زيادة تُزاد؛ فمن زاد في الدين ما ليس منه فليس من الدين؛ لأن الله قد أكمله وما كمل ما أضيف إليه نقص؛ كل كامل فما يضاف إليه نقص فلم يبق لأحد أن يزيد على ما جاء به النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيادة؛ وليس لأحد أن يشرع في دين النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما لم يأتي به النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فالدين كامل ومادام أنه كامل فهو مبني على التوقيف يؤخذ عن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإذا جاءنا شخص بعبادة وقال: اعبدوا الله هكذا، قلنا له: أين هذا مما جاء به النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فإن أثبت لنا أنه قد جاء به النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبلناه وعلى الرأس وعلى العين، وإن لم يثبت رددناه عليه ونصحناه بتركه.

ولذا لهاذا الأمر العظيم يقول النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»(١)؛ وفقه علماء الإسلام ذلك فكان الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ إمام دار الهجرة

---

(١) سبق تخريجه.

كان يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: ((مَنِ ابْتَدَعَ فِي الْإِسْلَامِ بِدْعَةً يَرَاهَا حَسَنَةً، زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَانَ الرِّسَالَةَ، لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾[1]))[2].

✍ **فالذي يأتي ببدعة يفعلها ويرى أنها عبادة من الدين؛ نسأله سؤالًا واحدًا فنقول: هل ترى هذه من الدين أو ليست من الدين؟**

إن قال: ليســـت من الدين؛ قلنا: إذن هي عبث كيف تعبث بالدِّين؟ الذي يأتينا ويقيم المولد ويحتفل بالمولد، ويتغنون، ويتراقصـــون، نقول له: هذا الفعل من الدين أو ليس من الدين؟ إن قال: ليس من الدين؛ قلنا: كيف تعبث بأمر يتعلق برسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!

وإن قال: من الدين؛ سألناه سؤالًا هل جاء به النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو لم يأت به؟ إن قال: لم يأت به، نقول: كيف والله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾؟!

وإن قال: جاء به. قلنا: له أثبت فديننا محفوظ لم يغب منه شـــيء فهات الدليل من الكتاب، أو الســنة ودون ذلك خرق القتات ولن يســتطيع أن يأتي بدليل؛ والدليل على أن الله أكمل به الدين قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ والكامل كما قلنا لا يحتمل الزيادة، ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ إذن نعمة الله تمت، أو لم تتم على الأمة بالدِّين؟ تمت إذن من جاء بشيء لم يأتي به النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هل هو نعمة، أو نقمة إذا كان من الأمور التي يتقرب بها إلى الله؟ من جاء بشيء يُتقرب به إلى الله لم يأت به النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو نقمة وليس نعمة؛ لأن النعمة قد تمت، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ أي: أن هذا الدين الذي قد أكملته لكم، وأتممت عليكم به

---

(١) سورة المائدة: (٣).

(٢) الاعتصام للشاطبي: (١/٦٥).

النعمة قد رضيته لكم دينًا؛ فما لم يكن في زمن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دينًا فلن يرضاه الله؛ وإنما رضي الله الدين الذي أكمله للنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال رَحِمَهُ الله: "وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾".

الشَّرْح:

الشـيخ لما بين أن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات وأن موته لا يعني ذهاب دينه أقام الدليل على موته؛ لأن بعض الناس يقولون: أن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يمت، وبعض المسلمين يقولون: إن موت النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس كموت البشر، فأراد الشيخ أن يرد على الطائفتين بهذه الآية قال: **"وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾"[1]، فقول الله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ خبر؛ وخبر الله لا يتخلف فهو خبر صدقٍ قطعًا فالذي يقول إن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما مات يرد خبر الله.

ثم قال الله: ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾؛ وهذا دليل على أن موت النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كموت البشر فأنت ميت كما أنهم ميتون؛ وهذا يدل على أن موت النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كموت بقية البشر.

ولذلك الذين يزعمون أن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحضر الحضـرة، فيخرج في الموالد ويحضر في الموالد وقد يزعم بعضهم أنه ولي وأن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يزوره هؤلاء كذبة؛ لأن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ميت بإخبار الله عَزَّ وَجَلَّ، وهو صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قبره كما تقدم معنا.

---

(١) سورة الزمر: (٣٠).

قال رَحِمَهُ الله: "وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُواْ يُبْعَثُونَ".

الشَّرْح:

"وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُواْ يُبْعَثُونَ" والنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الناس وسيبعث؛ وهو أول من تنشق عنه الأرض صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول من يبعث، وإنما شك النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في موسى عَلَيْهِ السَّلَام هل بعث قبله أم لم يبعث قبله؟ والظاهر والله أعلم أن أول من يبعث هو النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم.

وقد تقدم معنا ما يتعلق بالإيمان بالبعث عندما تكلمنا عن الإيمان باليوم الآخر؛ والشيخ ذكره هنا للمناسبة لما ذكر موت النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر البعث، ثم في ذلك وعظ لقلوب المؤمنين فالنبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات وسيبعث؛ وأنتم يا معاشر المؤمنين ستموتون وستبعثون؛ والنَّاس يلتقون يوم القيامة فانظروا ماذا تقدمون؛ ستَرِدون على النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويعرفكم جميعًا بآثار الوضوء قال العلماء: وهذا دليل على أن الذي لا يصلي ليس من أمة محمد صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم أمته يوم القيامة بآثار الوضوء والذي لا يصلي لا يتوضأ فلا تكون فيه آثار الوضوء؛ إذن هو ليس من أمة محمد صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا الصواب من أقوال أهل العلم، وهذا دليل من أدلة القول الراجح في المسألة؛ يعرف الناس بآثار الوضوء صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويرد الناس على حوضه الشريف الذي تقدم الكلام عنه ويُذاد عنه أهل البدعة؛ أهل الإحداث فإذا كُنتُم تريدون ورود حوض النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فطريق حوضه سنته، طريق حوضه الشريف صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سنته؛ وطريق المنع والذود عن حوضه الشريف البدع والإحداث في الدين.

قال رَحِمَهُ الله: "وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ وقَوْلُهُ تعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِم".

الشَّرْح:

وقد تقدم تقرير هذا عندما تكلمنا عن لإيمان بالبعث.

"وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ".

الشَّرْح:

تقدم معنا أن من الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالحساب، وأن الناس محاسبون، وأنهم في الحساب طرائق؛ فمن المؤمنين من أتباع النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب هؤلاء الكُمَّل الخلص لا يحاسبون فيدخلون الجنة من غير حساب ولا عذاب، ومن أمة محمد صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من يدنيه الله عَزَّ وَجَلَّ ويقرره بذنوبه، ويكلمه، ولا ينكر منها شيئًا فيقول الله: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»[١] فهذا يُحاسب حسابًا يسيرًا بأن تعرض عليه أعماله، ومن أمة محمد صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من يناقش «ومن نوقش الحساب هلك»[٢] كما قال النبي صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأما الكفار والمنافقون فينادون على رؤوس الأشهاد وقد تقدم معنا تقرير ما يتعلق بهذا.

---

(١) رواه مسلم، كتاب: التوبة، باب: قَبُولِ تَوْبَةِ الْقَاتِلِ وَإِنْ كَثُرَ قَتْلُهُ، برقم: (٢٧٦٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: {فسوف يحاسب حسابا يسيرا}، برقم: (٤٩٣٩).

قال رَحِمَهُ الله: "وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ **وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ".**

الشَّرْح:

كما تقد تقدم معنا؛ لأنه من الإيمان باليوم الآخر ومن كذب باليوم الآخر فهو كافر.

"**وَالـدَّلِيـلُ قَوْلُـهُ تَعَـالَى**: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ **وَأَرْسَـلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُـلِ مُبَشِّـرِينَ وَمُنْذِرِينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ ١٦٥﴾".

الشَّرْح:

تقدم معنا ما يتعلق بالإيمان بالرسل، وفصلنا الكلام هناك والرسل جميعًا مبشرون لمن حقق التوحيد، ومنذرون لمن أشرك بالله شيئًا؛ فمهمة الرسل كما تقدم معنا هي الدعوة إلى التوحيد، والتحذير من الشرك، وبيان الخير، وبيان الشر.

"وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ".

الشَّرْح:

تقدم معنا وجمعنا بين كوّن آدم عَلَيْهِ السَّلَامْ نبيًا، وبين كوّن أول الرسل نوح عَلَيْهِ السَّلَامْ.

"وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ صَــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾".

الشَّرْح:

هذه الآية دليل كما تقدم؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾[1] فجعل نوحًا مبتدئًا والنبيين بعده؛ والمقصود بالنبي هنا هو الرسول؛ ليس المقصود النبي بالاصطلاح الخاص وإنما المقصود النبي الرسول؛ فأول الرسل هو نوح، أما أول الأنبياء بالاصطلاح الخاص فهو آدم عَلَيْهِ السَّلَامْ كما تقدم تقريره معنا عندما تكلمنا عن الإيمان بالرسل.

(١) سورة النساء: (١٦٥).

قال رَحِمَهُ الله: " وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهِا رَسُولًا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾".

الشَّرْح:

وقد تقدم تقرير هذا عندما تكلمنا عن الإيمان بالرسل.

"وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ".

الشَّرْح:

هذا هو الأصل الذي لم تختلف فيه الشرائع؛ فكل الشرائع فيها هذا، والشيخ بعد هذا سيتكلم عن معنى الطاغوت، ويبين أنواع الطواغيت.

قال رَحِمَهُ الله: "وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا رَسُولًا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ".

الشَّرْح:

هذا الأمر الذي لم تختلف فيه الأنبياء، ولم تختلف فيه الشـــرائع فما من نبيٍ إلا وقد أمر بالكفر بالطاغوت والإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ، فالله عَزَّ وَجَلَّ أوجب على العباد، يعني: على جميع العباد فـ(أل) هنا للجنس تشـمل جميع العباد منذ أن خلق الله عَزَّ وَجَلَّ، آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لا يخرج عبدٌ واحدٌ من هذا أوجب على الجميع الكفر بالطاغوت والإيمان بالله.

وبدأ المؤلف كما ترون بالكفر بالطاغوت، قبل الإيمان بالله موافقةً للنص، والحكمة:

أما النص؛ فلأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]، فالله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ بدأ بالكفر

(١) سورة البقرة: (٢٥٦).

بالطاغوت، ﴿وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ وهكذا صـــنع الشـــيخ فابتدأ بالكفر بالطاغوت قبل الإيمان بالله.

وأما الحكمة فإن في الكفر بالطاغوت تخليةً للقلب، وتخليصًـا من الشـوائب من كل شـر وفي الإيمان بالله تحليةً للقلب، فبدأ الشـيخ بالتخلية قبل التحلية، والمعلوم أنه لا يسـتقيم الإيمان بالله إلا بالكفر بالطاغوت؛ فإذا صفا القلب وخَلُصَ من كل شائبةٍ من الشرك استقام التوحيد.

إذن الشـــيخ، بدأ بالكفر بالطاغوت قبل الإيمان بالله موافقةً للنص وبيانًا الحكمة في هذا الأمر العظيم، فالشـيخ أورد هذا ليبين ما اتفقت عليه الشـرائع، ثم بين الشـيخ معنى الطاغوت الذي يجب الكفر به.

قال رَحِمَهُ الله: " قالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: مَعْنَى الطَّاغُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ".

الشَّرْح:

كأن الشيخ قد سئل: يجب علي أن أكفر بالطاغوت، فما الطاغوت؟ فبينه رَحِمَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ بهذه العبارة التي ذكرها الإمام ابن القيم في إعلام الموقعين.

والطاغوت في لغة العرب: مأخوذٌ من الطغيان؛ والطغيان: هو مجاوزة الحد فإذا جاوز الشيء حده، يقال: طغى أي: زاد، فأصل الطاغوت قال: بعض أهل العلم الطغووت، الطغووت بواوين، من قول القائل: طغى فلانٌ يطغوا إذا عدا قدره فتجاوز حده، ذكر هذا الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره.

إذن الطاغوت في اللغة: مأخوذ من الطغيان الذي هو مجاوزة الحد.

❖ وأما في الشرع، ما المراد بالطاغوت؟

فقد تنوعت عبارات علمائنا؛ علماء أهل السنة في بيان المراد بالطاغوت؛ ويجمعها أن الطاغوت: كل ما عبد من دون الله بنوعٍ من أنواع العبادة، قال الإمام مجاهد ابن جبر رَحِمَهُ الله: الطاغوت الشيطان في صورة إنسانٍ يتحاكمون إليه وهو صاحب أمرهم، مجاهد يقول: الطاغوت هو الشيطان يأتي للناس في صورة إنسان يظهر الحكمة فيتحاكمون إليه دون شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقال: ابن العربي المالكي في كتابه "أحكام القرآن" قال: مالك أي: مالك ابن أنس أحد الأئمة الأربعة إمام دار الهجرة قال: مالك: ((**الطَّاغُوتُ كُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ صَنَمٍ أَوْ**

كَاهِنٍ أَوْ سَـاحِرٍ أَوْ كَيْفَمَا تَصَـرَّفَ الشِّـرْكُ فِيهِ))[1]، وتأمل في عبارة الإمام مالك فإنه قال: **((كُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ))** وهذا جنس مثل له من صنم الصنم يعبد ويتقرب إليه.

أو كاهنٍ: الكاهن يصـــدقه الناس فيما يدعيه من علم الغيب، وإن كانوا لا يعبدونه كما يعبدون الأصنام، لكن لما صدقوه في ادعائه بعلم الغيب كانوا كمن عبده في هذا.

أو ساحر: فالساحر كافرٌ يستعين به الجن، ويستعين به بعض الناس بكفره.

قال: **((أَوْ كَيْفَمَا تَصَـرَّفَ الشِّـرْكُ فِيهِ))**: ليدل الإمام رَحِمَهُ الله على أنه ليس محصـوراً في هؤلاء الثلاثة.

وقال الإمام ابن جريرٍ الطبري اختلف أهل التأويل في معنى الطاغوت، فقال: **((بَعْضُــهُمْ هُوَ الشَّيْطَانُ))**، وقال: **((آخرون الطاغوت الساحر))**[2].

وقال: شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله في تعريفه: **((الطاغوت اسْمُ جِنْس لكل ما عبد من دون الله، يَدْخُلُ فِيهِ الشَّـــيْطَانُ وَالْوَثَنُ وَالْكُهَّانُ وَالدِّرْهَمُ وَالدِّينَارُ))**[3] كل ما عبد من دون الله، وأنواع العبادة كما تعلمون تختلف أحكامها كما هو مقررٌ في الكتاب العظيم النافع في كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ الله.

وقال الإمام عبد الله أبو بطينّ: **((الطاغوت يشـــمل كل معبودٍ من دون الله، وكل رأسٍ في الضـلالة يدعو إلى الباطل ويحسـنه، ويشـمل أيضًا كل ما نصـبه الناس بينهم بأحكام الجاهلية المضادة لحكم الله ورسوله ويشمل أيضًا الكاهن، والساحر، وسدنة الأوثان))**.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي: (١/٥٧٨).

(٢) تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن: (٤/٥٥٥).

(٣) مجموع الفتاوى: (١٦/٥٦٦).

إذن الطاغوت حده أنه كل ما يعبد من دون الله، وأجمع عبارة بينت هذا عبارة شيخ الإسلام ابن القيم عَزَّ وَجَلَّ التي ذكرها الشيخ: **"مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ"** هذا مأخوذ من ماذا؟ من المعنى اللغوي.

"مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ"، " مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ" معناها أي: ما تعدى به العبد ما حدَّه الشرع له وجعله مقامًا له؛ بمعنى: أن الله عَزَّ وَجَلَّ جعل للعباد مقامًا، وجعل لهم حدًا فمن تجاوز هذا الحد وبغى فهو طاغوت؛ فالله مثلًا جعل الجميع عبادًا لا معبودين، جعل جميع المخلوقين عباداً لا معبودين فمن تجاوز حده فجعل نفسه معبودًا فهو طاغوت.

أيضًـــا الله عَزَّ وَجَلَّ، جعل الناس جميعًا تابعين لدين الله فمن نقل نفســـه من كونه تابعًا لدين الله إلى كون دين الله تابعًا له فقد جعل نفسه طاغوتًا؛ من نقل نفسه من كونه تابعًا لدين الله يُحكم عليه بما جاء في دين الله إلى كون دين الله تابعًا له فهو طاغوتٌ؛ لأنه تجاوز حده، **"مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ"** المعبود هنا: من صُرف له نوعٌ من أنواع العبادة وكان عالمًا بهذا راضـــيًا به إن كان من أهل ذلك، وســـأشـــرح هذا انتبهوا هذه مســـألة مهمة جداً ليس الطاغوت من عبد من دون الله بإطلاق، وإنما الطاغوت من عبد من دون الله وكان عالمًا بهذا، راضيًا به، وهو أهلٌ لذلك أعني كان أهلًا لإظهار الرضـى، والعلم فمن صرف له نوعٌ من أنواع العبادة فدعي مثلًا: أو ذبح له ونحو هذا وكان عالمًا بهذا راضيًا، وكان ممن يمكن أن يرضـى فهو طاغوت، فهؤلاء الشـيوخ الذين ينتشـرون في بعض بلدان المسـلمين ويذبح لهم وهم يباركون هذا وتقدم لهم القرابين وهم يفرحون بهذا، ويستغاث بهم وهم يشـجعون هذا فهؤلاء من الطواغيت؛ لأنهم عبدوا من دون الله بعلمهم ورضاهم.

وقولنا **"وكان عالمًا به"** هذا احتراز مما لو صــــرف له نوعٌ من أنواع العبادة وهو لا يعلم كنبيٍ الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامْ، فعيسى عَلَيْهِ السَّلَامْ صرفت له النصارى بعد موته أنواع العبادة وجعلوه ابنًا لله –تعالى الله عما يقولون علواً كبيرًا–؛ عيســـى عَلَيْهِ السَّـــلَامْ لم يعلم بهذا، وإنما عندما كان معهم كان يدعوهم إلى التوحيد، وينهاهم عن الشـــرك فلما رفعه الله إليه اتخذه النصارى إلهًا فصرفوا له نوعًا من أنواع العبادة، وعندما سينزل في آخر الزمان لن يرضى بهذا فهو لم يعلم به ولن يرضى به، ولذلك هو سيكسر الصليب عندما ينزل، ويحكم بشريعة محمدٍ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

✍ إذن هل يصــح أن يســمى عيســى عَلَيْهِ السَّـلَامْ طاغوتًا كما فهمه بعض طلاب العلم؟

نقول: لا؛ عيســى نبي الله عَلَيْهِ السَّـلَامْ، نعم صــرفت له أنواع العبادة لكن بغير علمٍ منه عَلَيْهِ السَّلَامْ، ولا رضى.

وقولنا **"راضيًا به"**: احترازاً مما لو علم ولم يرض؛ ابتليّ بالناس غلوا فيه فصرفوا له أنواعٍ من العبادة، فلم يرضــى بهذا فإنه لا يســمى طاغوتًا؛ من ذلك مثلًا: ما جاء أن قومًا غلوا في عليًا رَضِــيَ اللهُ عَنْهُ في زمنه، وجعلوه ربًا، وصــرفوا له نوعًا من أنواع العبادة فلما علم رَضِــيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهْ وأعلى منزلته في الجنة لم يرضى بهذا بل غضب وأنكر عليهم، وقال: **((لَمَّا رأيتُ الأمرَ أمراً منكراً، أجَّجتُ ناري ودَعَوتُ قُنبرَا))**[1]؛ قَنْبَرَا غلامه، أو قُنْبُرَا يضــــبط هكذا ويضــــبط هكذا، يقول: **((لَمَّا رأيتُ الأمرَ أمراً منكراً))** حيث صرفوا له أنواعاً من العبادة، قال: أجحت

---

(١) العرش للذهبي: (١/١٢٣).

ناري ليحرقهم فيها ودعوت قنبر يؤجج النار ويأتي بهؤلاء الضُلال لكنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لم يفعل؛ لأنه لا يعذب بالنار إلا رب النار، فعلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لم يرضى، وكذلك اليوم هناك من الضُلال من يصرف لعليٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ ولآل بيته الكرام من أنواع العبادة، لكن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وآل البيت لا يعلمون بهذا.

✍ فهل يسمى عليٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ طاغوتا؟

أبداً؛ بل هو صاحبٌ عظيم من أصحاب رسول الله صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المبشرين بالجنة، إذن نقول: **"وكان عالمًا وراضيًا"**.

وقولنا: "إن كان من أهل ذلك"؛ ما المقصود به؟ المقصود به إن كان ممن يمكنه العلم، والرضى يشترط أما إذا كان ممن لا يمكنه العلم والرضى كالأصنام؛ الأصنام ما يمكن أن تعلم، ولا يمكن أن ترضى؛ فهل نقول لا تسمى طواغيت؛ لأنها لم تعلم؟

الجواب: لا؛ بل الأصنام طواغيت.

إذن هذا القيد عندما نقول: وكان عالِمًا به، وكان راضيًا هو قيدٌ لمن عبد من دون الله وهو يمكن أن يعلم ويمكن أن يرضى، أما من لا يمكن أن يعلم كالأصنام، ولا يمكن أن يرضى فهو طاغوت، ولا يشترط أن نقول: إنه لا بد أن يعلم وأن يرضى؛ يعني: من عبد النار؛ النار لا تعلم عن عبادتهم شيئًا ولا ترضى، لكن هل نقول إنها لا تسمى طاغوتًا؟

نقول: لا؛ تسمى طاغوتًا؛ لأنه لا يمكنها العلم ولا يمكنها الرضى فيما نعلم؛ كذلك الأشجار بعض الناس يصرفون أنواع العبادة للأشجار؛ بعض المسلمين في بعض بلدانهم يقدسون بعض الأشجار يقولون: هذه شجرة مباركة، يأتون يربطون فيها الأربطة، والأقمشة؛ المرأة إذا أرادت الولد ذهبت إما أن تنام تحت تلك الشجرة، أو تفعل شيئًا تحت تلك الشجرة

هذا صـرف نوعٌ من أنواع العبادة لتلك الأشـجار؛ هل نقول إن تلك الأشـجار لا تسـمى طواغيت؛ لأنها لا تعلم؟

نقول: لا؛ بل تسمى طواغيت؛ إذن نفهم هذا ونعيه.

قال شـيخ الإسـلام ابن القيم: " أَوْ مَتْبُوعٍ" أي: من يتبع في الكفر، والضـلال كعلماء السـوء الذين يدعون الناس إلى الكفر، ويدعون الناس إلى الشـركيات يقولون للناس: اذبحوا للأولياء هذا يقربكم من الله اتركوا الوهابية هؤلاء يكرهون الأولياء، يخطبون خطب الجمعة ويحثون الناس على الكفر بالله، يصلون صلاة عظيمة هي صلاة الجمعة ويضمّنونها الأمر بالكفر، والشـرك، ويطعنون فيمن يأمر بالتوحيد، هؤلاء طواغيت يتبعهم الناس في ما يأمرون به يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1].

"أَوْ مُطَاعٍ": المطاع هو من يُطاع في تحليل الحرام، أو تحريم الحلال قاصـدًا ذلك؛ **انتبهوا الذي يحلل الحرام ويحرم الحلال نوعان:**

١) نوع يعلم أنه حرام ويحلله؛ يعلم أنه حرام لكن يقول للناس هذا حلال؛ بعض الناس مثلًا: يعلم أن المولد بدعة وحرام لكن يقول: للناس هذا حلال؛ لأنه يعيش على هذا المولد يعيش بين الفقراء من الأغنياء، والأثرياء على أموال الفقراء المسلمين في أيام الموالد يقدموها للشـيخ فيقول للناس: هذا حلال، وهو يعتقد ويعلم أنها حرام.

٢) أو يحرم الحلال، ويقول: هذا حرام، وهو يعلم ويعتقد أنه حلال فهذا طاغوت.

(١) سورة التوبة: (٦٠).

لكن تنبهوا أن العلماء يقولون: إن الطاغوت لا يعني أنه كافر؛ أن وصفه بكونه طاغوتًا لا يعني كونه كافرًا بل تلحقه الأحكام بحســـب حاله، وهذا أمر يجب أن نتنبه له تلحقه الأحكام بحسب حاله.

قال رَحِمَهُ الله: "وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ".

الشَّرْح:

قال الشيخ: **"وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ"** نعم كثيرون كما سمعنا في المعنى كل من صُرف له نوعٌ من أنواع العبادة وهو عالِمٌ وراض إن كان من أهل ذلك فهو طاغوت، لكنهم يرجعون إلى أصول؛ قال بعض الأئمة الطاغوتُ حاصله ثلاثة أنواع:

١) طاغوت حكمٍ.

٢) وطاغوت عبادة.

٣) وطاغوت طاعةٍ ومتابعة.

ثلاثة أنواع الطواغيت لابد أن ترجع إلى واحد من هؤلاء الثلاثة؛ إما طاغوت حكم كما سيأتي، أو طاغوت عبادة، أو طاغوت طاعةٍ ومتابعة.

قال ابن جريرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفســـيره: ((**اختلف أهل التأويل في معنى الطاغوت، قال بَعْضُهُمْ هُوَ الشَّيْطَانُ، وقال: آخرون الطاغوت الساحر**))[1]-وقد تقدم معنا هذا-.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ((**والصواب من القول عندي في "الطاغوت"، أنه كل ذي طغيان على الله، فعبد من دونه، إما بقهر منه لمن عبده**))، هذا الحكم ((**وإما بطاعة ممن عبده له، وإنسانا كان ذلك المعبود، أو شيطانا، أو وثنًا، أو صنمًا، أو كائنا ما كان من شيء**))[2].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري: (٥/٤١٩).

قال الشيخ: "وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ": رأس الشيء أعلاه؛ رأس الإنسان أعلى الإنسان، رأس الجبل أعلى الجبل، فأعلى الطواغيت والمقدمون في الطواغيت هم خمسة، وحصرهم في خمسة دل عليه الاستقراء؛ بمعنى أنه لا يوجد دليل يَنُص على أنهم خمسة لا من الكتاب، ولا من السنة، لكن الاستقراء والتتبع يدل على أنهم خمسة، رأس الخمسة إبليس فرؤوس الطواغيت خمسة؛ ورأس الخمسة، ومقدمهم، وحامل رايتهم وكلٌ منهم يتبعه هو إبليس، فإبليس إمام الطواغيت، ومقدم الطواغيت وكل الطواغيت يتبعونه، إبليس هو أساس الشر وينبوع الفساد، هو أكبر الطواغيت وأعظمها شرًا، وأكبرها خطرًا، وأشدها طغيانًا، سأل الله أن يُنظره لما لم يستجب لأمر الله، سأل الله أن ينظره لما ليتوب ليجعل أمره إلى آخر الدنيا طاعةً لله لعله أن يكفر لا، وإنما من أجل أن يغوي الناس: ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾[1]، فأخره الله: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[2] هذا الطاغوت إبليس يقول هذا أمام الله عَزَّ وَجَلَّ، يقول: ما دمت انظرتني إلى يوم يبعثون فلأقعدن لبني آدم صراطك المستقيم أصدهم عنه، ثم لأتين من بين أيديهم، ومن خلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، فلا أترك شيئًا أقدر عليه إلا فعلته من صغيرٍ، أو كبير ولا تجد أكثرهم شاكرين، فهو رأس الطواغيت، والدليل على أنه يسمى طاغوتًا قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾[3].

(١) سورة الأعراف: (١٤ – ١٥).
(٢) سورة الأعراف: (١٦ – ١٧).
(٣) سورة البقرة: (٢٥٦).

قال: بعض المفسرين من الصحابة وغيرهم الطاغوت: هو الشيطان؛ كذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾[1]، قال: جماعةٌ من أهل التفسير هو الشيطان، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾[2]، والطاغوت هنا عند جماعةٍ من العلماء هو الشيطان.

(١) سورة النساء: (٥١).

(٢) سورة النساء: (٧٦).

قال رَحِمَهُ الله: "وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ".

الشَّرْح:

الثاني من رؤوس الطواغيت: "وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ" يعني: علم بهذا، ورضـــي به، وقد تقدم الكلام على هذا، فعندما عبد ورضـي بهذا فإنه يقول: بلسـان حاله إنه إله، هذا لم يدعوا الناس إلى عبادته انتبهوا، لم يدعوا الناس إلى عبادته، ولكن لما صـــرف له نوعٌ من أنواع العبادة فرضـــي فحاله يقول: اعبدوني، فهو يدعو إلى عبادته بلســـان حاله؛ لأن الذين يدعون إلى عبادتهم إما أن يكون ذلك بلسان الحال، أو بلسان المقال، هذا النوع الثاني هو الذي يدعو إلى عبادته بلسان الحال فهو من الطواغيت.

وكل ما تقدم مما ورد فيه لفظ الطاغوت فإنه يشـــمل هذا، وقد جاء في الصـــحيحين عن أبي هريرة أن الناس قالوا: «يَا رَسُـــولَ اللهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» ســؤالٌ عظيم، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هل تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ» يعني: هل تضارون في رؤية القمر في ليلة البدر، قَالُوا: لَا يَا رَسُـولَ اللهِ، قَالَ: «هَلْ تُضَـارُّونَ فِي الشَّـمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» يعني: هل تضـارون في رؤية الشـمس ليس دونها سـحاب، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ، كَذَلِكَ يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَـــيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّـــمْسَ الشَّـــمْسَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَـانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيـتَ» أي: من عُبـد من دون الله وهو راضٍ «وَتَبْقَى هَـذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا»[1].

---

(١) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: مَعْرِفَةِ طَرِيقِ الرُّؤْيَةِ، برقم: (١٨٢).

والشـــاهد: أن النبي صَـــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّمَ قال: «**وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيت الطَّوَاغِيتَ**» أي: من عبد من دون الله وهو راضٍ.

قال رَحِمَهُ الله: " وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ".

الشَّرْح:

هذا الثالث من رؤوس الطواغيت: " وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِـهِ" أي: بلسان مقاله، إما مباشرَةً، أو بواسطة الأتباع، بعض الناس يدعو الناس إلى عبادته، إما أن يأتي ويقول: رأيت الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المنام، وقال لي: أنت ولي في أمتي من كان مريضًا فاشفه، ومن كان عقيمًا فارزقه ونحو ذلك حتى يأتيه الناس فيسألونه هذا، فهذا دعا الناس إلى عبادته بلسانه، أو بلسان أتباعه؛ فبعض الناس يجعل له اتباعاً يدعون الناس إلى عبادته ينتشرون في البلد، يقولون: القرية الفلانية فيها شيخ ذهبت إليه امرأة تسأله الولد فرزقت بعشرة، وجاءه كذا فحصل له كذا ينشر ذلك بأتباعه بين الناس، هذا يدعو الناس إلى عبادته بلسان مقاله، وهذا طاغوت دعا الناس إلى عبادته بلسان مقاله.

قال رَحِمَهُ الله: "وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ".

الشَّرْح:

"وَمَنْ ادَّعَى شَـيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ" **علم الغيب**: هو ما غاب عنا، وهو نوعان عند أهل العلم:

النوع الأول: غيبٌ مطلق.

والنوع الثاني: غيبٌ نسبي إضافي.

أما النوع الأول: وهو الغيب المطلق فهو الذي اسـتأثر الله بعلمه فلا يعلمه نبيٌ مرسـل، ولا ملكٌ مقرب، استأثر الله بعلمه وهو مجموعٌ في مفاتحه الخمسة في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾[1] هذه مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله، فمن ادعى علمها فهو طاغوت؛ من ادعى علم هذه الخمسـة فهو طاغوت، كذلك منها ما غاب واستأثر الله بعلمه ولم يجعل دليلاً عليه؛ يعني: لم يجعل دليلاً شـرعيًا، ولا كونيًا عليه فهذا أيضًـا كذلك، فالذي يدَّعي علم بعض الأمور التي تحدث من غير دليلٍ نصـبه الله عَزَّ وَجَلَّ فهو طاغوت؛ ومن ذلك مثلًا: الكهان يدعون علم الغيب يقول الكاهن: أنت ترزق بولد، وأنت لا ترزق بولد، وأنت في كذا وكذا من غير دليلٍ يدل على ذلك، أو إبلك التي ضـاعت في المكان الفلاني، غائبتك مالك الذي فقدته من خزنتك موجود

---

(١) سورة لقمان: (٣٤).

في المكان الفلاني هذا كله من الغيب الذي اســـتأثر الله عَزَّ وَجَلَّ بعلمه؛ إما إنه من مفاتيح الغيب، وإما إنه مما غاب ولم يجعل الله عليه دليلاً، وهذا الذي يتكلم عنه الشيخ.

أما النوع الثاني: فهو الغيب النسبي وهذا يجب أن نفهمه؛ **الغيب النسبي**: **هو قسمان أيضًا**:

القســـم الأول: ما غاب عنا وجعل الله له أدلة وأســـبابًا، فمن عرف الأســـباب عرف أن هذا سيقع، فهذا ليس من ادعاء علم الغيب لكن المسببات قد تتخلف عن أسبابها مثلاً: الآن يعلنون لنا من سنة، أو سنين أنه في اليوم الفلاني سيحصل كسوف، أو خسوف هذا ليس من ادعاء علم الغيب؛ لأن الله نصب أدلة كونية وعلاماتٍ كونية يعرف بها العباد ذلك، فمن قالها: بعلاماتها فليس مدعيًا للغيب لكنا نعلم أن المسببات قد تتخلف عن أسبابها.

والقســـم الثاني: ما غاب عن المخلوق لضـعفه، فهذا إضـافي قد يغيب عني ويعلمه زيد مثلاً: مرض خالدٍ من الناس؛ خالد من الناس مرض أنا لا أعلمه لأني لم أطلع عليه لضـــعفي لكن جاره يعلم أنه مريض، فهذا غيب إضافي بالنسبة لي.

✍ إذن الغيب النسبي نوعان:

نوعٌ غاب عن المخلوقين، وجعل الله له أســـبابًا تُدرك، فمن أدرك الأســـباب، وقال: أن الشـــيء الفلاني بتلك الأســـباب المعلومة فليس مدعيًا للغيب، لكن الذي يدَّعي وقوعها بغير معرفة الأسباب فهذا مدعٍ للغيب وهكذا.

والذي يدعي ويقول: أنه يعلم الغيب فهو طاغوت، فمن ادعى شـــيئًا من علم الغيب الذي لا يطلع عليه البشـر فهو طاغوت؛ لأنه طغى وتجاوز، وقد جاء في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾[1] أن بعض السلف فسر الطاغوت بالكاهن فسر الطاغوت بالكاهن، بعض الناس الآن يختلفون في قضية في أنت سرقت مالي يقول: لا أنا ما سرقت مالك أنا لم أسرق مالك يقول: تعال نذهب للشيخ الفلاني الولي الفلاني ما يسمونه كاهنًا، ولا يسمونه مشعوذاً يسمونه الشيخ، وقد يكون هو معه سبحة طويلة يلعب بها، وقد يقرأ شيئًا من القرآن يقولون: نذهب للشيخ يحكم بيننا؛ يا شيخ هل هذا سرق مالي؟ فإن قال لهم: نعم؛ أثبتوا عليه هذا، وإن قال: لا، نفوا عنه هذا أهذا من التحاكم إلى الطاغوت؛ من الذهاب إلى الكاهن فالكاهن هو الذي يخبر عن المغيّبات في المستقبل، فعلى هذا يكون كل من أخبر عن المغيّبات في المستقبل بدون أسبابها المعلومة يكون طاغوتًا.

فمعنى كلام الشيخ أن من ادعى علم الغيب الذي لا يكون معلومًا لأحدٍ إلا الله وحده، أو من شاء الله أن يطلعه أحد من الرسل في غيب معين، من ادعى علمه فهو طاغوت فهو يُكذب الله.

✍ هنا مسألة تحدث عند الناس اليوم وهي أن الأطباء يخبرون بنوع الجنين فيقولون: الجنين ذكر أو الجنين أنثى:

نقول: إنما يخبرون بهذا بعد تشكل الجنين، أما قبل تشكل الجنين فلا طريق وهم هنا يخبرون بأسباب ما يأتي الطبيب مثلًا ويقول: المولود ذكر بدون أن يطلع بالآلة الموجودة اليوم وإنما بالعلامات التي جعلها الله علامات فهذا ليس من ادعاء علم الغيب، بعض المسلمين يتحرج يقول: أنا أقول للطبيب لا تخبرني بنوع الجنين؛ لأن هذا من علم الغيب نقول: لا؛ ليس

(١) سورة النساء: (٦٠).

من علم الغيب الذي اســـتأثر الله به، وإنما الله جعل لعباده طريقًا إليه، وما دام أن الله جعل لعباده طريقًا إليه إن اتبعوا ذلك فليس ذلك من علم الغيب.

أما ادعاء أن فلانًا سـيموت في اليوم الفلاني بعض الناس يقول: أنت تموت بعد شـهرين، أنت ستموت بعد سنة بعد كذا؛ هذا إن كان جزمًا فلا شك أنه من ادعاء علم الغيب، **أما إذا كان ظنا فهذا له حالان**(١):

الحالة الأولى: أن يكون بالأسباب؛ يعني: بما يعرفه الناس بمقدار علمهم، فيقول الطبيب مثلاً: بحسب خبرتنا أن مثل هذا المريض يعيش سنتين في الغالب والله أعلم قد يكمل السنتين، وقد لا يكمل السنتين وقد يعيش بعد السنتين سنين لكن بحسب الأسباب التي يعرفها الأطباء مثل هذا المريض يعيش إلى كذا، هذا ليس من علم الغيب؛ لكن هناك قضـية وقعت هذا الزمان وهي مســـألة الرؤى فبعض المعبرين للرؤى يدخلون في علم الغيب بتعبير الرؤى وهذا يدل على أنهم ليسـوا من أهل التعبير؛ بعض المعبرين يسـأله شـخص فيقول: أنت سـترى الدجال هذا من علم الغيب، بعضـهم يقول مثلاً: أنت سـتموت بعد عشـرين، بعد أربعين سـنة، بعد شـهر ذي الحجة بالرؤيا هذا في الحقيقة لا يجوز أن يقال، لكن هل هم طواغيت؟

الجواب: لا؛ لأن الرؤيا شبهة سبب؛ الرؤيا شبهة سبب فتمنع وصفهم بكونهم طواغيت وهذه قضايا فقهية علمية دقيقة يجب فهمها حتى لا يخطئ الإنسان في إلحاق الأحكام بالناس.

إذن نقول: من ادعى علم الغيب مما لا يعلمه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ فهو طاغوت.

ونحن في الحقيقة نحذر تحذيرًا كبيرًا من إشاعة الكلام في الغيبيات بغير دليل، فإن هذا يُجَرِّؤُ الناس ويجعلهم يقعون فيما حرم الله؛ ســواء كان عن طريق الرؤى الآن نجد أن بعض الأشــرطة

(١) الشيخ حفظه الله لم يذكر الحالة الثانية.

توزع والأنترنت وفيها رؤى تفسر فيها أنه سيقع كذا في الدنيا، ويقع كذا في الدنيا من غير ذلك من الأمور وإلى غير ذلك، وهذه الأمور التي ينبغي يعني اجتنابها.

قال المُصَنِّف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: "وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ".

الشَّرْح:

"وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ" الحكم بما أنزل الله فريضةٌ محكمةٌ على المسلمين، فيجب على كل مسلم أن يعتقد اعتقادًا جازمًا وُجوب الحكم بما أنزل الله عَزَّ وَجَلّ، وأن الحكم بما أنزل الله هو الذي يحقق العدل، ولا يوجد نظامٌ يُدانيه فضلًا عن أن يُساويه، وهذا الأمر من مُحكَمات الشريعة، ومن الأمور المعلومة من الدّين بالضرورة، وللشيخ الإمام الفقيه العلَّامة حقًّا وصدقًّا ابن باز رَحِمَهُ الله نصيحةٌ عظيمةٌ في هذا الباب نصح فيها الأمة نُصحًا عظيمًا أحببت أن أنقلها للإخوة؛ لأنها من الدُّرر التي ينبغي أن تُشاع بين المسلمين، وأن يحرص طلاب العلم على بيانها وتوضيحها؛ يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلّ: **((فهذه رسالة موجزة ونصيحة لازمة في وجوب التحاكم إلى شرع الله، والتحذير من التحاكم إلى غيره، كتبتها لما رأيت وقوع بعض الناس في هذا الزمان في تحكيم غير شرع الله، والتحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، من العرافين، والكهان، وكبار عشائر البادية، ورجال القانون الوضعي وأشباههم، جهلًا من بعضهم لحكم عملهم ذلك، ومعاندة ومحادة لله ورسوله من آخرين، وأرجو أن تكون نصيحتي هذه معلمة للجاهلين، ومذكرة للغافلين، وسببًا في استقامة عباد الله على صراطه المستقيم))**[(١)].

(١) مجموع الفتاوى لابن باز رَحِمَهُ الله: (١/٧٢).

يقول الشيخ: ((أيها المسلمون لقد خلق الله الجِنَّ والإنس لعبادته؛ قال اللهُ سُبْحانَه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، وقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[2]، وقال: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[3]، وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: كنت رديف النَّبِيِّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ على حمار، فقال: «يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ؟» قلت: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا، قال قلتُ يا رسول الله: أفلا أُبَشِّرُ الناس؟ فقال: لا تُبَشِّرْهُم فَيَتَّكِلوا» قال: رواه البخاري ومسلم، وقد فَسَّر العلماء رَحِمَهُمُ الله العبادة بمعانٍ متقاربة من أجمعها ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ إذ يقول: العبادة اسم جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة))[4]؛ وكل هذا تقدم معنا في شرح الكتاب.

قال الشيخ رَحِمَهُ الله: ((وهذا يدل على أن العبادة تقتضي الانقياد التَّامَّ لله تعالى أمرًا ونهيًا واعتقادًا، وقولًا، وعملًا، وأن تكون حياة المرء قائمةً على شريعة الله؛ يُحِلُّ ما أحلَّ الله ويُحَرِّمُ ما حَرَّم الله، ويخضع في سلوكه، وأعماله، وتصرفاته كلها لشرع الله مُتجرِّدًا من حظوظ نفسه ونوازع هواه ليستويَ في هذا الفرد والجماعة، والرجل والمرأة فلا يكون عابدًا لله مَن خضع لربه في بعض الجوانب وخضع للمخلوقين في جوانب أخرى؛ وهذا

---

(١) سورة الذاريات: (٥٦).

(٢) سورة الإسراء: (٢٣).

(٣) سورة النساء: (٣٦).

(٤) مجموع الفتاوى لابن باز رَحِمَهُ الله: (١/٧٣).

المعنى يؤكـده قول الله تعـالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1]، **قال: فلا يتم إيمان العبد إلا إذا آمن بالله ورَضِيَ حُكمَهُ بالقليل والكثير وتحاكم إلى شريعته وحدها في كل شـأنٍ من شـئونه؛ في الأنفس والأموال والأعراض وإلا كان عابدًا لغيره، كما قال تَعالى:** ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[2])).

قال: ((**والعبودية لله وحده والبراءة من عبادة الطَّاغوت، والتَّحاكم إليه من مقتضى شهادة ألَّا إلٰه إلَّا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمدًا عبده ورسوله؛ فالله سُبْحَانَه هو رَبُّ النـاس وإلههم، وهو الـذي خلقهم وهو الـذي يـأمرهم وينهـاهم، ويحييهم ويميتهم، ويحاسـبهم ويجازيهم، وهو المُسـتَحِقُّ للعبادة دون كل ما سـواه؛ قال تَعَالى:** ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[3])).

قال الشـيخ: ((**وقد حكى الله عن اليهود والنصـارى أنهم اتَّخَذوا أَحبارَهُم، وَرُهبانَهُم أَربابًا مِن دونِ اللَّهِ لمَّا أطاعوهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال، قال اللهُ تَعَالى:** ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ﴾[4]**، وقد رُوِيَ عن عَدِي بن**

---

(١) سورة المائدة: (٥٠).

(٢) سورة النحل: (٣٦).

(٣) سورة الأعراف: (٥٤).

(٤) سورة التوبة: (٣١).

حاتم رَضِـــيَ اللهُ عَنْه أنه ظَنَّ أن عبادة الأَحبار والرُّهبان إنما تكون في الذَّبح لهم والنَّذر لهم والسُّـــجود والرُّكوع لهم فقط، وذلك عندما قَدِمَ على النَّبِيِّ صَـــلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَمَ مســـلما وســـمعه يقرأ هذه الآية، فقال: «يا رســـول الله، إنا لســـنا نعبدهم، يريد بذلك النصـــارى حيث كان نصـــرانيا قبل إســـلامه، قال صـــلى الله عليه وســـلم: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم فتحلونه؟ قـال: بلى قـال: فتلك عبـادتهم»[1] وراه أحمد والترمذي وحسَّنه)).

قال الشـيخ: ((إذا عُلِمَ أن التَّحاكم إلى شـرع الله من مقتضـى شـهادة ألَّا إلٰه إلَّا الله وأنَّ محمدًا عبده ورسوله؛ فإن التَّحاكم إلى الطَّواغيت والرؤساء والعرَّافين ونحوهم ينافي الإيمان بالله عَزَّ وَجَلّ وهو كفرٌ وظلمٌ وفســـق؛ يقول الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2] وبَيَّنَ تَعَالَى أن الحكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه حكم الجاهلين، وأن الإعراض عن حكمه تعالى ســـببٌ لحلول عقابه وبأســـه الذي لا يُرَدُّ عن القوم الظـالمين يقول ســُـبْحَـانَـه: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[3])).

---

(١) رواه الترمذي، كتاب: أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة، برقم: (٣٠٩٥)، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، برقم: (٣٢٩٣).

(٢) سورة المائدة: (٤٤).

(٣) سورة المائدة: (٤٩ – ٥٠).

يقول الشـــيخ: ((وإن القارئ لهذه الآية والمتدبر لها يتبين له أن الأمر بالتحاكم إلى ما أنزل الله، أكد بمؤكدات ثمانية)) ثمان مؤكدات للآية قال: ((الأول: الأمر به في قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[1]، الثاني: ألَّا تكون أهواء الناس ورغباتهم مانعةً من الحكم به بأي حالٍ من الأحوال؛ وذلك في قوله ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾[2] الثالث: التَّحذير من عدم تحكيم شرع الله في القليل والكثير والصغير والكبير بقوله سُبْحَانَه: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[3]، الرابع: أن التَّولِّي عن حكم الله وعدم قبول شيءٍ منه ذنبٌ عظيم موجبٌ للعقاب الأليم، قال تَعَالَى: ﴿أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ الخامس: التَّحذير من الإغترار بكثرة المُعرضين عن حكم الله فإن الشَّكور من عباد الله قليل، يقول تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ الســادس: وصــف الحكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه بأنه حكم الجاهلية، يقول سُــبْحَانَه: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾[4]، الســابع: تقرير المعنى العظيم بأن حكم الله أحسن الأحكام وأعدلها، يقول عَزَّ وَجَلّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ الثامن: أن مقتضى اليقين هو العلم بأن حكم الله هو خير الأحكام وأكملها وأتَمُّها وأعدلها وأن الواجب الانقياد له مع الرِّضا والتسليم، يقول سُبْحَانَه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾)).

---

(١) سورة المائدة: (٤٨).

(٢) سورة المائدة: (٤٨).

(٣) سورة المائدة: (٤٩).

(٤) سورة المائدة: (٥٠).

قال الشــــيخ: ((وهذه المعاني موجودة في آياتٍ كثيرة من القرآن؛ ومعنى هذا أن العبد يجب عليه الانقياد التَّام لقول الله تَعَالى وقول رســوله صَــلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَمْ وتقديمهما على قول كل أحد)).

قال الشـيخ: ((وهذا أمرٌ معلومٌ من الدين بالضـرورة، ولهذا كان من مقتضـى رحمته وحكمته سُـبْحَانَه وتعَالى أن يكون التَّحاكم بين العباد بشـرعه ووحيه؛ لأنه سُـبْحَانَه هو المُنَزَّهُ عمَّا يصـيب البشـر من الضَّـعف والعجز والهوى والجهل فهو سُـبْحَانَه الحكيم العليم اللطيف الخبير)).

قال الشيخ: ((ومما تقدَّم يتبيَّن لك أيها المسلم أن تحكيم شرع الله، والتَّحاكم إليه مما أوجبه اللّهُ ورَسولُه صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ وأنه مقتضى العبودية والشهادة بالرسالة لنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَــلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَمْ وأن الإعراض عن ذلك، أو شــيءٍ منه موجبٌ لعذاب الله وعقابه وهذا الأمر ســواء بالنســبة لما تعامل به الدولة رعيتها، أو ما ينبغي أن تدين به جماعة المسـلمين في كل زمانٍ ومكان))؛ أي: أن هذا التحكيم ليس خاصًّـا بالحكام الذين يحكمون الدول بل يشمل جميع المكَلَّفين، فكل مُكَلَّف يجب عليه أن يحكم بما أَنزَلَ اللَّه.

قال الشـيخ مُوَجِّهًا نصـيحته: ((فالواجب على عامَّة المسـلمين وأمرائهم وحُكَّامهم وأهل الحَلِّ والعقد فيهم أن يتَّقوا اللهَ عَزَّ وَجَلّ ويُحَكِّموا شـريعته في بلدانهم وسـائر شـئونهم، وأن يقوا أنفسـهم ومَن تحت ولايتهم عذاب الله في الدنيا والآخرة، وأن يعتبروا بما حَلَّ في البلدان التي أعرضت عن حكم الله وسارت في ركاب مَن قَلَّدَ الغربيين واتَّبع طريقتهم من الاختلاف والتَّفَرُّق، وضـروب الفتن، وقلة الخيرات، وكون بعضـهم يقتل بعضًا، ولا يزال الأمر عندهم في شدة)).

قال الشيخ: ((**ولن تصلح أحوالهم، ويُرفَع تسلُّط الأعداء عليهم سياسيًّا، وفكريًّا إلا إذا عادوا إلى اللهِ سُـبْحَانَه وسـلكوا سـبيله المسـتقيم الذي رضـيه لعباده، وأمرهم به، ووعدهم به جنَّات النَّعيم وصـدق سُـبْحَانَه إذ يقول:** ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[1])).

ثم ختم الشـيخ كلمته بقوله: ((**أسـأل الله أن يجعل كلمتي هذه مُذَكِّرَةً للقوم، ومُنَبِّهَةً لهم للتَّفكُّر في أحوالهم؛ وأرجو ممن بلغته موعظتي هذه أن يتوب إلى الله**))؛ وهذا مُوَجَّه إلى كل مَن خالف حكم الله، وحكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه في دقيقٍ، أو جليل في صـغيرٍ، أو كبير من الحُكَّام، أو الأمراء، أو الوزراء، أو رؤسـاء الجماعات، أو أفراد الناس فالكل يُوَجَّه إليهم الشـيخ هذه النصـيحة: ((**وأرجو ممن بلغته موعظتي هذه أن يتوب إلى الله، وأن يَكُفَّ عن تلك الأفعال المُحَرَّمة، ويسـتغفر الله، ويندم على ما فات، وأن يتواصـى مع إخوانه ومَن حوله على إبطال كل عادةٍ جاهلية، أو عُرفٍ مخالفٍ لشـرع الله سـواء كان هذا العُرف عُرف القبائل كما هو معروف عند أهل البادية**)) يقولون: هذا المذهب، هذا العُرف، هذه العادة لا نستطيع أن نتركها مع أنها مخالفة لشرع الله، أو عُرف ما يُعرَف اليوم عندنا بالجماعات الإسـلامية؛ تأتي للشـخص وتقول: يا أخي افعل كذا فقد ثبت في القرآن كذا، أو في السُّنَّة كذا يقول: لا عُرف جماعتنا كذا، نصـوص الإمام تقول كذا فلا أترك هذا؛ هذا كله يجب على المسلمين أن يبطلوه.

---

(١) سورة طه: (١٢٤/١٢٦).

يقول الشيخ: ((**وأن يتواصى مع إخوانه، ومَن حوله على إبطال كل عادةٍ جاهلية، أو عُرفٍ مخالفٍ لشــرع الله، فإن التوبة تَجُبُّ ما قبلها، والتَّائب من الذنب كمن لا ذنب له وعلى وُلاة أمور أولئك الناس وأمثالهم أن يحرصـوا على تذكيرهم وموعظتهم بالحق وبيانه لهم**))[1] إلى آخر كلامه رَحِمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلّ.

وهذه نصـــيحةٌ عظيمةٌ بليغة، وعلى كل واحدٍ مِنَّا أن يتنَبَّه لما فيها؛ أنا وأنت وعمرو كلنا مخاطبون بالحكم بما أَنزَلَ اللَّه؛ كثير من المســـلمين إذا سمع بالحكم بما أَنزَلَ اللَّه ذهب فكره إلى الحكام ولم يفكر في نفسه فتجده قد لا يكون مُحَكِّمًا لما أَنزَلَ اللَّه في نفســه، ولكن لا يفكر في نفسه، تجده قد لا يكون مُحَكِّمًا لما أَنزَلَ اللَّه في بيته ولكنه لا يفكر في نفسه، تجده لا يُحَكِّم ما أَنزَلَ اللَّه في جيرانه لكنه لا يفكر في نفســه، وإنما يظُنّ أن المخاطَب بذلك الحُكَّام؛ لا شـك أن الحُكَّام مُخاطَبون، لكن أنا وأنت وزيد وعمرو أيضًا مُخاطَبون بأن نحكم بما أَنزَلَ اللَّه بأن نعبد الله بما جاء في الكتاب والسُّـــنَّة، وألَّا نَرُدَّ الدليل الذي صَــحَّ وثَبَت لقول أحد من الناس كائنًا مَن كان، وألَّا نُقدِّم أحكام العادات، ولا أحكام الكبار مِنَّا على ما ثَبَت في الكتاب والسُّنَّة.

ولا شـــك أن الحكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه مصـــيبةٌ عظيمة ومَن حكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه فهو طاغوتٌ من جهة فعله كما قال تَعَالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾[2] فجعل طلب الحكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه تَحاكُمًا للطاغوت، وهذه الآية نزلت بسبب؛ وذلك أن منافقًا من المنافقين في المدينة اختصم مع يهودي، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد؛ هو لا يؤمن به لكنه يعلم أنه صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ حَكَمٌ عدل، فقال: نتحاكم إلى محمد؛ لأنه يعلم أن النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ حَكَمٌ عدل، ولا يأخذ رشوة، ولا يحيف بسببٍ من أسباب الدنيا؛ فقال المنافق: لا؛ وهو الذي يزعم أنه يؤمن بمحمدٍ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ قال المنافق: لا؛ نتحاكم إلى اليهود

(١) مجموع الفتاوى لابن باز رَحِمَهُ الله: (١/٨٠).

(٢) سورة النساء: (٦٠).

إلى قومك؛ لأنه يعلم أن اليهود يأخذون الرشـــوة ويحيفون في الحكم، فأنزل اللهُ عَزَّ وَجَلّ هذه الآيــات: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾[1]، فجعل اللهُ عَزَّ وَجَلّ طلب الحكم من اليهود إعراضًا عن حكم النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ تَحاكُمًا إلى الطاغوت.

✍ ومما ينبغي أن نعلمه أنه ليس كل نظامٍ يَسُنُّه البشـر يكون التَّحاكم إليه تَحاكُمًا إلى الطاغوت؛ بل ما يضعه البشر من الأنظمة نوعان:

- نوعٌ يُحَقِّق مصــالح الناس، ولا يرفع حُكمًا شـرعيًا، ولا يُعارض الكتاب والسُّـنَّة، وهـذا أمرٌ طيـب ومن واجبـات وُلاة الأمور؛ مثلًا: اليوم نظـام المرور، ووضــع الإشــارات أنك تقف عند الحمراء وتسـير عند الخضـراء ونحو ذلك نظام وضـعه البشر لكنه لا يخالف ما في الكتاب والسُّنَّة؛ فليس التَّحاكُم إليه والعمل به عملًا بالتَّحاكُم إلى الطاغوت أبدًا.

- أما القسـم الثاني فهو الذي يخالف شـرع الله؛ يأتون مثلًا يقولون: المرأة إذا كانت راضـــية بالزِّنا وثبت عليها الزِّنا ما نقيم عليها الحَدّ؛ لأنها راضـــية وهذه حرية شـــخصـــية ما لم تفعل ذلك في الشــارع، أو يقولون: الذي يسـرق وتجتمع فيه الشـروط ما نقطع يده قطع اليد وحشـية، ولكن نجعل له نظامًا يُسـجَن شـهرًا أو شهرين أو نحو ذلك؛ هذا حكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه، وهو تَّحاكُم إلى الطاغوت.

---

(١) سورة النساء: (٦٠).

۞ لكن إذا علمنا أن الحكم بغير مـا أَنزَلَ اللَّـه هو من جهـة الفعـل تَّحـاكُم إلى الطاغوت، فما حكم الفاعل؛ ما حكم مَن حكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه ســـواءً من الحكام، أو من الأفراد إذا تحاكم مثلًا: تحاكم إلى القانون الوضعي، أو حكم بالقانون الوضعي؟

أقول: إن التَّتبُع لأقوال أهل العلم يدل على أن الحكم على مَن حكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه يَتَنَوَّع بِتَنوُّع الأحوال، وليس حكمًا واحدًا، كما قال الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1]، كما قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2]، وقـال سُــبْحَـانَـه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله: قالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَصْحَابُهُ: ((**كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ، وَظُلْمٌ دُونَ ظُلْمٍ، وَفِسْقٌ دُونَ فِسْقٍ، وَكَذَلِكَ قَالَ أَهْلُ السُّنَّةِ كَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِ**))[4].

وقال أيضـًــا: ((**وقال ابن عباسٍ وغير واحدٍ من السَّـــلَف في قوله تَعَالَى:** ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ **كُفرٌ دون كُفر، وفِســقٌ دون فِسـق، وظلمٌ دون ظلم، وقد ذكر ذلك أحمد والبخاري وغيرهما، فمن حكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه جاحدًا ما أَنزَلَهُ اللَّه فهو**

---

(١) سورة المائدة: (٤٤).

(٢) سورة المائدة: (٤٥).

(٣) سورة المائدة: (٤٧).

(٤) مجموع الفتاوى: (٧/٦٧).

كافر الذي يحكم بما أَنزَلَ اللَّه جاحدًا ما أَنزَلَهُ اللَّه مُنكِر لما أَنزَلَهُ اللَّه عَزَّ وَجَلّ فهو كافر)).

قال ابن جريرٍ رَحِمَهُ الله في الآية: ((**إن الله تعالى عَمَّ بالخبر بذلك عن قومٍ كانوا بحكم الله الذي حكم به في كتابه جاحدين، فأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكمَ، على ســـبيل ما تركوه**))؛ ما هو السبيل الذي تركوه؟ على سبيل الجحود؛ ((**فأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكم على سبيل ما تركوه كافرون**))[1]، قال: ((**وكذلك القول في كل مَن لَم يَحكُم بِما أَنزَلَ اللَّه جاحدًا به هو بالله كافر كما قال ابن عباس؛ لأنه بجحوده حكم الله بعد علمه أنه أنزله في كتابه نظير جحوده نُبُوَّة نَبِيِّه بعد علمه أنه نَبيّ**)).

إذن مَن عَلِمَ بحكم الله، ثم جحده، وأنكره وحكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه فهو كافر؛ وقولنا كافر كما نَبَّه عليه الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ الله؛ المقصود: أنه يستحق الكفر؛ أما الحكم عليه بعينه فهذا سنذكر ضوابطه إن شاء اللَّهُ عَزَّ وَجَلّ.

ومَن حكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه مُقِرًّا بحكم الله ليس جاحدًا لكنه يرى أن الحكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه هو الذي يحقق العدل أما حكم الله فلا يصـــلح، يعني الفرق بين هذا والأول أن هذا مُقِرًّا بالحكم لكن يرى أنه لا يصـــلح؛ وهذا أيضًـــا كافر، وهذا يقع حتى بمجرد الاعتقاد حتى لو لم يحكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه لكنه اعتقد أن حكم غير الله أصلح وأعدل فهو مُستحقٌّ للكفر؛ يعني مثلًا: قد يعيش بعض الناس معنا في هذا البلد، وهذا البلد بحمد الله يحكم بما أَنزَلَ اللَّه لكن بعض الناس قد يعتقد في قلبه أن القانون الفرنسي أحسن من هذا الحكم، وأن القانون الوضعي أحســن من هذا الحكم وأعدل من هذا الحكم؛ فهو هنا لم يحكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه، لكن اعتقد أن حكم غير الله أصلح من حكم الله فهذا مُستحقٌّ للكفر.

---

(١) تفسير الطبري: (١٠/٣٥٨).

والحال الثالثة: مَن حكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه؛ لأنه يرى أنه أفضل وأصلح من حكم الله؛ فهو أيضًا كافر، ما الفرق بينه وبين الذي قبله؟ الذي قبله يرى أن حكم الله لا يَصلُح؛ مُقِرّ به لكن يرى أنه لا يَصلُح؛ هذا يرى أن حكم الله يَصلُح ولكن حكم غيره أَصلَح؛ فهذا أيضًا كافرٌ باتفاق أهل العلم.

والحال الرابعة: مَن حكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه لكونه مساويًا لحكم الله؛ قال: حكم الله صالح وهذا الحكم صالح كلها سواء؛ كلها تحقق العدل إن حكمنا بهذا حقق العدل، وإن حكمنا بهذا حقق العدل؛ فهذا أيضًا كافرٌ أي: أنه مُستحقٌّ للكفر، وهذه الأحكام التي تقدمت مُجمَعٌ عليها لا نزاع فيها بين أهل العلم.

أما الحال الخامسة: فهو مَن حكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه وهو يعتقد وجوب الحكم بما أَنزَلَ اللَّه، وأن حكم الله أَصلَح وأنفع لكنه حكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه للدنيا غلبته من أجل الكرسي؛ لولا هذه الدنيا لحكم بما أَنزَلَ اللَّه لكنه ظنَّ أنه لو حكم بما أَنزَلَ اللَّه لذهبت عنه الدنيا مع اعتقاده أن حكم الله أَصلَح؛ فهذا على خطرٍ عظيم، وعلى جُرمٍ جسيم لكنه لا يكون كافرًا كفرًا أكبر يكون خارجًا به من دائرة الإسلام مادام يعتقد أنه يجب أن يحكم بشرع الله، وأن شرع الله أَصلَح وأنفع وأنه إنما حكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه لأمرٍ دنيوي؛ **وهذا عند العلماء على قسمين؛ لا يكون كافرًا وهو على قسمين:**

القسم الأول: مَن حكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه لوصفٍ عارض ليس دائمًا لكن لوصفٍ عارض؛ كأن حكم في قضية بغير ما أَنزَلَ اللَّه لرشوةٍ دُفِعَت لَهُ؛ وهذا فاسق ومرتكبٌ لذنبٍ عظيم.

والقسم الثاني: مَن حكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه لوصفٍ مستمر ليس لوصفٍ عارض في قضية واحدة، ولا في قضيتين؛ بل في كل الحكم لوصفٍ مستمر؛ كخوفه على سلطانه مثلًا: أو مُجاراةً

للناس فحكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه مع اعتقاده أن حكم الله أحسن فهذا لا يكفر لكنه أشدُّ جُرمًا من الأول، وأعظم قُبحًا وأخطر من الأول بمراحل وهو ظالمٌ لنفسه، وظالمٌ لغيره قال اللهُ عَزَّ وَجَلّ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ هذا ظالم، وظلمه مراتب، ويتفاوت فيه أهل هذه المرتبة.

هذا التفصيل هو الوارد عن سلف الأمة فيما نعلمه، وقد ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله، وشيخ الإسلام ابن القيم رَحِمَهُ الله، ومن علمائنا المعاصرين الشيخ الألباني رَحِمَهُ الله، والشيخ ابن باز رَحِمَهُ الله، وقد استقرئ كلام السلف في هذا فثبت هذا التقسيم والتفصيل عن أكثر من خمسين عالمًا من علماء أهل السُّنَّة والجماعة، وقد تَطلَّبت بقدر ما أستطيع كلامًا لأهل السُّنَّة والجماعة ليس فيه تفصيل أعني من العلماء المتقدمين فلم أجد هذا؛ وإنما الذي رأيته في كلام العلماء المتقدمين إنما هو التفصيل الذي ذكرنا.

قال ابن العربي المالكي: **((قالَ طَاوُسٌ وَغَيْرُهُ: لَيْسَ بِكُفْرٍ يَنْقُلُ عَنِ الْمِلَّةِ، وَلَكِنَّهُ كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ))**[1]، قال ابن العربي: **((وهذا يختلف إن حكم بما عنده على أنه من عند الله فهو تبديل له يوجب الكفر، وإن حكم به هوًى ومعصية فهو ذنبٌ تدركه المغفرة على أصل أهل السُّنَّة في الغفران للمذنبين))**.

وقال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ الله عن الحكم بغير ما أَنزَلَ اللَّه: **((هذا فيه تفصيل وهو أن يقال: من حكم بغير ما أنزل وهو يعلم أنه يجب عليه الحكم بما أنزل الله، وأنه خالف الشرع ولكن استباح هذا الأمر، ورأى أنه لا حرج عليه في ذلك، وأنه يجوز له أن يحكم**

(١) الجموع البهية للعقيدة السلفية: (٢/٣٨٩).

بغير شـريعة الله فهو كافر كفرا أكبر عند جميع العلماء))[1]؛ ثم ذكر التفصـيل الذي ذكرته، ثم قال رَحِمَهُ الله: **((وهذا القول هو المعروف بين أهل العلم))**.

✍ إذا كان ذلك كذلك فإن وجدنا عالمًا، أو طالب علم لا يُفَصِّـل في المسـألة فهل نَصِفُه بأنه تكفيريّ، وأنه خارجٌ عن قول أهل السُّنَّة والجماعة؟

الجواب: لا؛ لا يكون ذلك على الإطلاق، وإنما الأمر فيه تفصـيل: فإن كان القائل مِمَّن يقول بطريقة أهل السُّـنَّة والجماعة، ويَسـتَدِّل باسـتدلال أهل السُّـنَّة والجماعة، ولا يُسَـلِّط هذا القول لتكفير المعينين بإطلاق فهو من أهل السُّـنَّة والجماعة، وإن كنا نعتقد أنه مخطئ في عدم التفصيل، وأن الموافق لقول المتقدمين من أهل السُّنَّة والجماعة هو التفصيل.

أما إن كان القائل مِمَّن لا يُعَرف بطريقة أهل السُّـنَّة والجماعة، ويقول بعدم التفصـيل من أجل أن يُكَفِّر المعينين بإطلاق فهذا نعم يُعَرف أنه من التَّكفيريّين المخالفين لأهل السُّـنَّة والجماعة، ولا ينبغي أن يوضَـع التمر مكان الجمر؛ لا ينبغي على طالب العلم أن يضـع التمر مكان الجمر بل يوضَع كل شيءٍ في موضعه.

أقول هـذا لمـاذا؟ لأني رأيـت بعض طلاب العلم لما رأى أن بعض التَّكفيريّين المخالفين للحق لا يقولون بالتفصيل أصبح يُطلق لسانه في كل من لا يقول بالتفصيل، ولو كان من أهل السُّـنَّة المعروفين بل حتى لو كان من علماء السُّـنَّة المعروفين، ورأيت بعض طلاب العلم لما رأى بعض أهل السُّـنَّة من علماءنا المعاصـرين يرون عدم التفصـيل لا يُطلق على مَن لا يُفَصِّـل أنه تكفيريٌّ أبدًا، ويقول: قال ببعض أقوال أهل العلم المعتبرين؛ وهذا أيضًـا خطأ بل كل شـيءٍ يوضَع في موضعه.

---

(١) مجموع الفتاوى لابن باز رَحِمَهُ الله: (٥/٣٥٥).

وأختم هذا الكلام بوصيةٍ عظيمة للشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ في المسألة وأمثالها، حيث قال: **((فالواجب على كل مسلم، ولاسيما أهل العلم التَّثَبُّتُ في الأمور والحكم فيها على ضوء الكتاب والسُّنَّة، وطريق سلف الأُمَّة، والحذر من السبيل الوخيم الذي سلكه الكثير من الناس بإطلاق الأحكام وعدم التفصيل، وعلى أهل العلم أن يعتنوا بالدعوة إلى اللهِ سُبْحَانَه بالتَّفصيل وإيضاح الإسلام للناس بأدلته من الكتاب والسُّنَّة وترغيبهم في الاستقامة عليه، والتَّواصي، والنُّصح في ذلك مع التَّرهيب من كل ما يخالف أحكام الإسلام))**[1]؛ وهذه وصيَّةٌ عظيمة لكل مسلم أن يَتَّقِيَ اللهَ عَزَّ وَجَلّ، وأن يسلك طريق السَّلف الصَّالح رِضْوانَ اللهِ عَلَيْهِمْ وأن يعرف تفصيل أهل العلم وألَّا يقع في السبيل الذي يسلكه بعض الناس بترك التفصيل حيث يجب التفصيل؛ فهذه هي المسألة.

ولابد أنه يرد في قلب الإنسان مِنَّا جميعًا سؤال: وهو إذا كانت هذه الاحتمالات موجودة فكيف نحكم على الفاعل؟ يعني: أنتم قلتم إذا حكم وهو يعتقد، إذا حكم وهو يعتقد، إذا حكم وهو يعتقد، إذا حكم وهو يعتقد؛ كل هذه محتملة فأنا كيف أحكم على الفاعل؟ هذه قضيةٌ مهمةٌ جدًا سَنُأَصِّلها غدًا في مجلس الغد الذي سَنُخَصِّصُه إن شاء الله عن قواعد وضوابط في التَّكفير؛ بحيث نعرف موقف المسلم الصحيح في مثل هذه الأمور، ونكمل ما ذكره الشيخ في المسألة حيث قال.

(١) مجموع الفتاوى لابن باز رَحِمَهُ اللهُ: (٥/٣٥٧).

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: " وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾".

الشَّرْح:

يعني: الدليل على وجوب الكفر بالطَّاغوت، وبجميع أنواعه وأقسـامه، وعلى وجوب الإيمان بالله قوله تَعَالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ الآية.

قوله تَعَالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾؛ هذه الجملة يجب فهمها ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾؛ معناها: أن هذا الدين لا يحتاج إلى إكراه؛ لأن آياته بيِّنةٌ ظاهرة فلا يحتاج إلى إكراه وليس معناه أن الناس أحرارٌ في دينهم كما يفهمه بعض مَن لا علم عنده، فيقولون: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾؛ يعني: كل واحد حر في دينه، ليس هذا معنى الآية، بل معنى الآية أن هذا الدين لا يحتاج إلى إكراه؛ لماذا؟ لوضـوح آياته وعلاماته فمن بلغه هذا الدين، فقد وضـحت له الآيات فلا يحتاج إلى إكراه، ولكن يجب عليه الانقياد والتسـليم؛ لأنه لا يبلغ أحدًا من الناس فيُترَك إلا إعراضًـا، لا يبلغ الإسـلام أحدًا من الناس فيُترَك إلا إعراضًـا، وهذا معنى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، يفَسِّره قول الله: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾، فهذه الجملة كالتَّعليل ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ لماذا؟ لأنه ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ فهذا الدين بَيِّنٌ فيه الصِّـراط المسـتقيم، وأن ما يخالفه ضـلال؛ فيجب على الجميع اتِّباعه فهو متينٌ ظاهر: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ شرطان

مَن شـــرطية، شـــرطان: ﴿يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾؛ ومعنى هذا أن مَن لم يكفر بالطَّاغوت لم يَســـتَمسِـــك بِالعُروَةِ الوُثقى، ومَن لم يؤمن بالله لم يَستَمسِك بِالعُروَةِ الوُثقى؛ وهذا هو معنى لا إِلهَ إِلّا الله نَفيٌّ وإثبات كما تقدَّم معنا.

قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: " وَهَذَا هُوَ مَعْنَى لا إله إِلا اللهُ".

الشَّرْح:

هذا هو معنى قول لا إلهَ إلّا الله؛ الكفر بالطَّاغوت والإيمان بالله، لا معبود حقٌ إلّا الله نَفيٌّ وإثبات، فهذا تقرير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلّ لمسألة الطَّواغيت.

ثم إن الشيخ رَحِمَهُ الله سيختم كتابه خاتمةً نفيسة تعود إلى كل ما تقدَّم في الكتاب، وهذا ما سنُبَيِّنُه إن شاء الله في مجلسنا ليوم غد نختم به الكتاب، ثم نذكر لإخواننا قواعد أهل السُّنَّة والجماعة، والضَّوابط في التَّكفير، لماذا؟ لأهمية هذا الأمر فإننا نرى الفساد المستطير الذي وقع في كثيرٍ من بلدان المسلمين، وفي كثير من قلوب الشباب المسلمين بسبب عدم معرفة ضَوابط أهل السُّنَّة والجماعة في مسألة التَّكفير، فوجدنا بعض شبابنا الذين يحبون الخير ويريدون الخير محرقةً لأقوامٍ اصطادوهم بمسألة التَّكفير؛ ولأن شبابنا جهلةٌ بالحكم وعندهم عاطفة، ولا يعرفون ضَوابط أهل السُّنَّة والجماعة سقطوا في فِخاخ أولئك القوم، ومَن عرف قواعد أهل السُّنَّة والجماعة في الباب سار على بصيرة وكان من أرحم الخلق بالخلق، وهذا ما سنُبَيِّنُه إن شاء الله ويتَّضِح في مجلس الغد إن شاء الله.

في هذا المجلس نختم شـــرحنا إن شـــاء الله عَزَّ وَجَلّ للكتاب النافع العظيم **"الأصـــول الثلاثة"**، ونلحقه إن شـاء الله ببعض مباحث التكفير، وكنا قد تكلمنا عن مسـألة الحكم بغير ما أنزل الله، وأحب أن أنبّه على مسـألة مهمة لها أثر في فهم هذه المسـألة؛ وهي أنا ذكرنا أن الحكم على مَن حكم بغير ما أنزل الله يتنوع بتنوع الأحوال، وذكرنا أن في الحكم تفصـيلًا فما ثمرة هذا التفصيل، أو بعبارة أخرى ما الفرق بين المفصّلين وغير المفصّلين في المسألة؟ لأن فقه الجواب على هذا السؤال مهم حتى لا تزل القدم فيها.

✍ **فأقول: إذا نظرنا إلى الأحكام التي ذكرناها نجد أنا قلنا:**

- أن من حكم بغير ما أنزل الله جاحدا لما أنزله الله هو كافر، إذن هذا ليس فيه فرق بين المفصّلين وغير المفصّلين هو كافر بالاتفاق.

- وأن مَن حكم بغير ما أنزل الله؛ لأن ما أنزل الله لا يصـــلح للحكم فهو كافر بالاتفاق، إذن لا فرق بين المفصّلين وغير المفصّلين.

- وأن مَن حكم بغير ما أنزل الله؛ لأنه أفضل من حكم الله فهو كافر بالاتفاق فلا فرق بين المفصّلين وغير المفصّلين.

- وأن مَن حكم بغير ما أنزل الله؛ لأنه يســـاوي الحكم بما أنزل الله فهو كافر بالاتفاق فلا فرق بين المفصّلين وغير المفصّلين.

- أما مَن حكم بغير ما أنزل الله وهو لا يستحلّ الحكم بغير ما أنزل الله، ويرى أن حكم الله أحســـن لكنه حكم بغير ما أنزل الله لهوى، أو غرض دنيوي، فقلنا إن هذا لا يكفر؛ **وقلنا إنه ينقسم إلى قسمين:**

القسـم الأول: مَن حكم بغير ما أنزل الله في مسـألة، أو مسـألتين لوصـف عارض كأن دفعت له رشـوة وقلنا هذا مجرم ومرتكب كبيرة من كبائر الذنوب، لكنه لا يكفر ولا أعلم أحدًا يكفره إلا المعتزلة، والخوارج لكونه مرتكبًا للكبيرة.

وأما القسم الثاني: فهو الذي يحكم بغير ما أنزل الله لوصف مستمر، فيحكم باستمرار لأمر دنيوي مع اعتقاده أن حكم الله أحســـن، قلنا هذا لا يكفر ولكنه مجرم إجرامًا أعظم من الأول، وعليه خطر عظيم كما قرره علماء الســـنة، وهذا هو محط الرحل بين المفصّـــلين وغير المفصّـلين، ثمرة القول بالتفصيل هي هذه المسـألة؛ وأنبه لهذا لماذا؟ لأنه خرج أناس يموهون على طلاب العلم فيقول أنا أقول بالتفصيل، ولكن هذه المسـألة أرى أنه يكفر فيها، هنا في الحقيقة لم يقل بالتفصـيل؛ لأنه رجع إلى قول غير المفصّـلين، فهذا الباب ينبغي أن يتنبّه له حتى تُفهم المسألة فهما صحيحًا.

✍ ثم أنبه إلى أمرين:

الأمر الأول: هل هناك من أهل الســـنة والجماعة من قال إنه يكفر في هذه المســـألة الأخيرة؟ أشـــرت إلى ذلك البارحة وأعيد وأقول أما المتقدمون من الأئمة والعلماء فلم أرى في كلامهم ما يدل على كفره؛ بل كل كلامهم المنقول يدل على أنه مرتكب كبيرة من كبائر الذنوب، وأما علماؤنا المتأخرون من أهل السنة المعاصرون فنعم بعضهم يقول إنه يكفر، ونقول والله أعلم إنه أخطأ في هذا.

الأمر الثاني: هل هذه المسـألة هي مسـألة التبديل؟ هل مسـألة الحكم بغير ما أنزل الله لوصف مستمر هي مسألة التبديل؟

والجواب: لا؛ بل هذه مسألة حكم، أما مسألة التبديل عند العلماء فهي مَن يأت ليزيح الشـرع، ويأتي بنظام جديد، يعني: يأت فيبدل الشـرع، ويأت ويضـع نظامًا جديدًا هذه هي

مسألة التبديل التي لأهل العلم فيها كلام خارج عن مسألة الحكم يغير ما أنزل الله؛ لأن الحكم فيها يتعلق بالتبديل لا بالحكم يغير ما أنزل الله.

هذه بعض الإشارات التي أحببت أن أنبه إليها في مطلع درس اليوم، ثم إني سأشير إن شاء الله قبل بدء الإجابة على الأسئلة إلى مسألة فقهية أفتيت فيها البارحة وستشكلها بعض طلاب العلم، وسأنبه عليها إن شاء الله عند بداية الأسئلة، وهي مسألة: البيع في المسجد؛ حيث قلت إن البيع في المسجد حرام وإنه لا ينفُذ، وإنه باطل، ولا زلت أقول بهذا لكن؛ لأنه قد استشكل بعض طلاب العلم المسألة فسأشير إليها، فذكروني إن نسيت قبل أن أجيب على الأسئلة أشير إلى المسألة إن شاء الله، وأبسطها بعض البسط.

قال الشيخ رَحِمَهُ الله تَعَالى: "وَفِي الْحَدِيثِ، رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ".

الشَّرْح:

يقول الشـــيخ: **"وَفِي الْحَدِيثِ"** هذا الحديث معروف، وهو جزء من حديث معاذ الذي رواه الترمذي، والنســـائي، وابن ماجه، وصـــححه جمعٌ من أهل العلم منهم الإمام الألباني رَحِمَ الله الجميع.

يقول الشيخ: **"وَفِي الْحَدِيثِ، رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ"** رأس أمر الإنسـان الإسـلام فيجب عليه أن يســـلم، والإســـلام هو الإيمان بالله والكفر بالطاغوت، وهو معنى لا إله إلا الله وهذه مناسـبة الحديث للكتاب فإن كل ما تقدم من الكتاب هو في رأس الأمر، فكأن الشـيخ يقول: قد تعلمت يا طالب العلم فاحرص على ما تعلمته فإنه رأس الأمر، وأعظم الأمر، وأعلى الأمر وهذه خاتمةٌ بديعةٌ من الشــيخ رَحِمَهُ الله حيث يحث فيها طالب العلم على أن يتمســـك بالعلم الذي أخذه في هذا الكتاب فهو رأس الأمر وهو الإسلام.

قال: **"وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ"** عمود الإسلام الصلاة، ومن هنا أخذ بعض أهل العلم أن تارك الصلاة يكفر؛ لأن عمود الشيء إذا سقط ذلك الشيء، فإذا كانت الصلاة عمود الإسلام فإذا سـقطت الصـلاة سـقط الإسـلام، وهذا هو القول الراجح من أقوال أهل العلم كما تقدم معنا مرارًا.

قال: **"وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ"**، **"وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ"** أي: أعلاه، ولا يعني هذا أن الجهاد أفضـل من الإسـلام بل الرأس أفضـل من السّـنام، فالرأس هو الذي تقوم به الحياة؛ ولكن ذروة السّنام أعلى ما في الجمل أعلى ما في البعير فهي تدل على العلو.

والجهاد الشرعي بأنواعه المتقدمة التي تقدمت معنا دليلٌ على صلاح الإنسان، فإذا كان الجهاد صالحًا شرعيًّا على سنة النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ بجميع أنواعه فهو دليلٌ على صلاح الإنسان، وهو من أعلى الأمور، وأكملها، وأفضلها، وأتمها، وقد تقدم معنا ما يتعلق بذلك.

قال رَحِمَهُ الله تَعَالى: "وَاللهُ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ".

الشَّرْح:

بهذا يختم الشـــيخ رَحِمَهُ الله هذا الكتاب قليل الألفاظ، قليل الأوراق عظيم المعاني عظيم الأثر لمن تفقّه فيه، وتدبّر، وأدرك أســـراره التي ذكرها الشـــيخ رَحِمَهُ الله فإن فيه حياة القلوب، وسعادة الدارين سعادة الدنيا والآخرة؛ جمع الشيخ فيه كليات الشريعة العظيمة التي يحتاجها كل مسلم، وبهذا نكون بحمد الله عَزَّ وَجَلّ قد أتممنا الكلام على شرح **"الأصول الثلاثة"**.

وســـنلحِق ما وعدت به وهو الكلام عن قواعد وضـــوابط التكفير، وذلك لأهمية الأمر وعظيم شـــأنه لاســـيما في زماننا هذا فإنا نجد كثيرًا من المســـلمين نجد فيهم خيرًا، ونجد أنهم يبحثون عن نصـرة الدين إلا أنهم يقعون في انحراف بسـبب جهلهم بهذه المسـألة العظيمة فكم احترق من شـاب، وكم احترق من قلب أب أو أم بسـبب جهل شـابٍ بهذه المسـألة العظيمة، وكم قتل من المسلمين بأيدي المسلمين بسبب الجهل بهذه المسألة العظيمة.

ولذا ناسب أن نشير إلى بعض أحكام هذه المسألة، وأتكلم عنها في نقاط:

النقطة الأولى: ما التكفير الذي نتحدث عنه؟ التكفير الذي نتحدث عنه هو إلحاق وصـف الكفر بمسـلمٍ؛ هذا هو الذي سـيكون مدار حديثنا إلحاق وصـف الكفر بمسـلم؛ أي: تقدم إسلامه فيلحق به وصف الكفر، وهذا هو المعروف عند الفقهاء بالرِدّة.

النقطة الثانية: خطورة التكفير.

لماذا يهتم أهل السنة والجماعة بضبط باب التكفير؟

نقول: إن التكفير له خطورةٌ كبرى على المكفِّر، وعلى المكفَّر معًا فله خطورةٌ كبرى على المكفِّر، وله خطورةٌ كبرى على المكفَّر، ولذا جاءت النصوص محذرة من التسرع فيه، يقول النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا»[1] متفقٌ عليه، وجاء عن أبي ذرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْه عن النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ أنه قال: «لَا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلًا بِالْكُفْرِ إِلَّا ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ» متفق عليه.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ الله: ((أي فَقَدْ بَاءَ الْقَائِلُ بِذَنبٍ كَبِيرٍ، وَإِثْمٍ عَظِيمٍ وَاحْتَمَلَهُ بِقَوْلِهِ ذَلِكَ، وَهَذَا غَايَةٌ فِي التَّحْذِيرِ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ، وَالنَّهْيِ عَنْ أَنْ يُقَالَ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ يَا كَافِرُ))[2].

ويقول الحافظ ابن دقيق العيد: ((وَهَذَا وَعِيدٌ عَظِيمٌ لِمَنْ أَكْفَرَ أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، وَهِيَ وَرْطَةٌ عَظِيمَةٌ وَقَعَ فِيهَا خَلْقٌ كَثِيرٌ))[3].

ويقول الحافظ بن حجر رَحِمَهُ الله: ((وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الْحَدِيثَ سِيقَ لِزَجْرِ الْمُسْلِمِ عَنْ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ))[4]، ومعناه: رجعت عليه نقيصته لأخيه ومعصية تكفيره.

فمعنى الحديث: فقد رجع عليه تكفيره، فالراجع التكفير لا الكفر هذا يجب أن يفهم الراجع التكفير يعني: معرة الفعل لا الكفر، فلا يعني هذا أنه كافر.

---

(١) رواه البخاري، كتاب: الأدب، باب: من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، برقم: (٦١٠٣).

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد للقرطبي: (٢٢/١٧).

(٣) إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد: (٢١٠/٢).

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر: (٤٦٦/١٠).

وقال القرطبي: ((**وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْمَقُولَ لَهُ إِنْ كَانَ كَافِرًا كُفْرًا شَرْعِيًّا فَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ وَذَهَبَ بِهَا الْمَقُولُ لَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَجَعَتْ لِلْقَائِلِ مَعَرَّةُ ذَلِكَ الْقَوْلِ وَإِثْمُهُ**))[1].

أيضًا في حديثٍ آخر، يقول النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: «**وَمَنْ قَذَفَ مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ**»[2] رواه البخاري في الصحيح.

قال الحافظ ابن عبد البر: ((**فالقرآن والســنة ينهيان عن تكفير المســلم إلا ببيانٍ لا إشكال فيه**))[3] ولغِلظ أمر التكفير، وشدة خطورته كان أصحاب النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ يمتنعون من إطلاق التكفير على أهل القبلة إلا بأمرٍ بيّنٍ لا شك فيه.

روى ابن عبد البر عن أبي ســفيان قال: ((**قُلْتُ لِجَابِرٍ رَضِــيَ اللهُ عَنْه أَكُنْتُمْ تَقُولُونَ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ كَافِرٌ؟ قَالَ: لَا، قُلْتُ: فَمُشْــرِكٌ؟ قَالَ: مَعَاذَ اللَّهِ وَفَزِعَ**))[4] فما كانوا يتسرعون في إطلاق الألفاظ، ولذا حذّر علماؤنا تحذيرًا عظيمًا من التساهل، والتسرّع في إطلاق التكفير.

يقول الشــوكاني رَحِمَهُ الله: ((**اعلم أن الحكم على الرجل المســلم بخروجه من دين الإســلام، ودخوله في الكفر، لا ينبغي لمســلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه إلا ببرهانٍ أوضح من شمس النهار**))[5] ثم ساق الأحاديث التي ذكرتها في التنفير من ذلك.

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر: (١٠/٤٦٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب: الأدب، باب: ما ينهى من السباب واللعن، برقم: (٦٠٤٧).

(٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد للقرطبي: (١٧/١٤).

(٤) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد للقرطبي: (١٧/٢١).

(٥) قال الإمام الشوكاني في السيل الجرار، فصل: والردة باعتقاد أو فعل أو زي أو لفظ كفري: (٤/٥٧٨).

إذن التكفير له خطره الكبير على المكفِّر، وأيضًا له خطره الكبير على المكفَّر فهو عظيم الأثر، والخطر على المكفَّر، فالتكفير كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية: ((**حكمٌ شرعي يرجع إلى إباحة المال، وسفك الدماء، والحكم بالخلود في النار**))[1] وكل واحدة أعظم من الجبل يرجع إلى إباحة المال، وسفك الدماء، والخلود في النار، والحكم بالكفر تقرير لأمور خطيرة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله: ((**إِذَا تَبَيَّنَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ " مَسَائِلَ التَّكْفِيرِ وَالتَّفْسِيقِ " هِيَ مِنْ مَسَائِلِ " الْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ " الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِهَا الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ وَتَتَعَلَّقُ بِهَا الْمُوَالَاةُ وَالْمُعَادَاةُ وَالْقَتْلُ وَالْعِصْمَةُ وَغَيْرُ ذَلِكَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا**))[2]، فتبين أن للتكفير خطرًا عظيمًا على المكفَّر فإنه لا يحل لزوجته البقاء معه، ويجب أن يفرَّق بينها وبينه؛ لأن المسلمة لا تحل للكافر، ولا يجوز أن يبقى أولاده تحت ولايته؛ لأنه لا ولاية لكافرٍ على مسلم، وينقلب عدوًا مباينًا بعد أن كان وليًا مناصرًا، ويجب أن يحاكم لينفذ فيه حكم المرتد بعد أن يستتاب، وإذا مات لا تجري عليه أحكام المسلمين، فلا يغسل، ولا يصل عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ولا يورث ولا يرث، ويستوجب لعنة الله وطرده من رحمة الله، والخلود الأبدي في نار جهنم، وكل هذه الآثار خطيرةٌ جدًا تزجر المؤمن من أن يتسرع في التكفير، فإذا تزخرف التكفير لمؤمن فليتذكر هذا الخطر، وليتذكر أنه يقف على بابٍ عظيم قد يرتد الأمر عليه بإثمٍ كبير.

النقطة الثالثة: التكفير حكمٌ شرعي فلا يطلق الكفر إلا على ما سُمي في الكتاب والسنة كفرًا على ما هو مقصودٌ في الكتاب والسنة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله: ((**الكفر**

---

(١) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية لابن تيمية: (١/٣٤٥).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية: (١٢/٤٦٨).

حكمٌ شـــرعي مُتلقى عن صــاحب الشــريعة))[1]، وقد تطلق كلمة الكفر، أو كلمة كفرٍ في الكتاب والســـنة ويراد بها الكفر المخرج من الملة، وقد تطلق ويراد بها ما دون ذلك، ومن ذلك مثلًا: ما ورد في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْه قال، قال رسول الله صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»[2] ولا شـك أن كفر هنا لا تعني الكفر الأكبر المخرج من الملة، بل المقصود بها أنها معصيةٌ كبيرة لكن النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ بالغ في الزجر بهذا الوصف.

إذن يجب على المؤمن أن يتلقى أحكام التكفير من الكتاب والسنة على ضوء فهم سلف الأمة، وإن المتتبع لمنهج أهل السـنة والجماعة خلفًا عن سـلف بسلسـلة نور لا تنقطع إلى يومنا هذا ليجد أن لأهل السـنة والجماعة ضــوابط تعصــم بحمد الله من الوقوع في أخطار التكفير، وتعصم الأمة من آثار التكفير بفضل الله وهي مأخوذةٌ من الكتاب والسنة، ووالله إن الخير لأمة المسـلمين أن يأخذوا بما قرره السـلف في جميع أبواب الدين، ومنه هذا الباب العظيم، **وسـأذكر بعض تلكم الضوابط مستشهدًا بكلام الأئمة:**

الضابط الأول: يثبُت الإسلام بالشهادتين، ولا ينظر إلى القرائن التي قد يُفهم منها عدم صــدق القائل؛ فإذا نطق العبد بالشــهادتين ثبت له الإســلام حتى لو رأى الناظر بعض القرائن التي قد تدل على أنه غير صــادقٍ في نطقه؛ يدل على ذلك أدلة: ففي حديث أســامة بن زيدٍ رَضِــيَ اللهُ عَنْهما يقول: «**بَعَثَنَا رَسُــولُ اللهِ صَــلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ إِلَى الْحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَصَـبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَـارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا غَشِـينَاهُ**» أي: علوناه بالســيف، «**قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» تأملوا هذا الحال رجل يقاتل المســلمين فلما انكســر

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: (١/٢٤٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، برقم: (٤٨).

الكفار انهزم فارًا فأدركه أسامة رَضِيَ اللهُ عَنْه ورجلٌ من الأنصار فلما غشياه بالسيف «قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» فكفّ الأنصاري عنه، قال أسامة رَضِيَ اللهُ عَنْه: «وطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لِي: يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا» أي: لاجئًا إليها حتى يسلم من الموت، قال رَضِيَ اللهُ عَنْه: «فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ»[1] متفقٌ عليه.

وفي صحيح مسلم عن جندبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْه قال: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ بَعْثًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قَوْمٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَإِنَّهُمُ الْتَقَوْا فَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِذَا شَاءَ أَنْ يَقْصِدَ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَصَدَ لَهُ فَقَتَلَهُ» يعني: رجل من المشركين يكثر القتل في المسلمين، «وَإِنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَصَدَ غَفْلَتَهُ، قَالَ: وَكُنَّا نُحَدَّثُ أَنَّهُ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، فَلَمَّا رَفَعَ عَلَيْهِ السَّيْفَ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَقَتَلَهُ، فَجَاءَ الْبَشِيرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ، حَتَّى أَخْبَرَهُ خَبَرَ الرَّجُلِ كَيْفَ صَنَعَ، فَدَعَاهُ فَسَأَلَهُ فَقَالَ: «لِمَ قَتَلْتَهُ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوْجَعَ فِي الْمُسْلِمِينَ، وَقَتَلَ فُلَانًا وَفُلَانًا، وَسَمَّى لَهُ نَفَرًا، وَإِنِّي حَمَلْتُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى السَّيْفَ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» انظروا الحال والقرائن، قال رسول الله صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: «أَقَتَلْتَهُ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: «وَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ: فَجَعَلَ لَا يَزِيدُهُ عَلَى أَنْ يَقُولَ: «كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2] هذا صحابيٌ جليل أسامة رَضِيَ اللهُ عَنْه ابن

---

(١) رواه البخاري، كتاب: المغازي، باب: بعث النبي صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة، برقم: (٤٢٦٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: تَحْرِيمِ قَتْلِ الْكَافِرِ بَعْدَ أَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، برقم: (١٦٠).

حِبّ رسول الله صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ وحِبُّه اجتهد وقتل الرجل بعدما قال لا إله إلا الله لما ظهر له من القرائن الدالة على عدم صدقه لكن النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ لم يقره على ذلك.

ومثله أيضًا ما جاء في الصحيحين عن المقداد ابن الأسود رَضِيَ اللهُ عَنْه أنه قال لرسول الله صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: «أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلًا مِنَ الْكُفَّارِ فَقَاتَلَنِي، فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَهَا، ثُمَّ لَاذَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ، فَقَالَ: أَسْلَمْتُ لِلَّهِ، أَفَأَقْتُلُهُ يَا رَسُولَ اللهِ» هذا في ساحة المعركة يقاتل مع الكفار، وضرب الرجل، وقطع يده بالسيف ثم لاذ بالشجرة، وقال أسلمت لله، انظروا القرائن «أَفَأَقْتُلُهُ يَا رَسُولَ اللهِ» بعد أن قالها، فقال رسول الله صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: «لَا تَقْتُلْهُ فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ، وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ»[1].

ومعنى: «فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ» أي: أنه كان معصوم الدم بلا إله إلا الله، كما أنك كنت معصوم الدم، «وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ» أي: أنك غير معصوم الدم بسبب قتله لولا التأويل، وإلا كان يقتص منك فلا تكون معصوم الدم لولا أنك متأول، وهذا أصح أقوال أهل العلم في معنى هذه الجملة.

الضابط الثاني: مَن ثبت إسلامه بيقين لا يرتفع إلا بيقين، فمن ثبت إسلامه بالشهادتين لم يجز إخراجه منه إلا بيقينٍ مثله بأن يُجمع على كفره، أو يدل نصٌ صريحٌ على كفره يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله: ((فَلَيْسَ لِأَحَدِ أَنْ يُكَفِّرَ أَحَدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَإِنْ أَخْطَأَ وَغَلِطَ حَتَّى تُقَامَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ وَتُبَيَّنَ لَهُ الْمَحَجَّةُ. وَمَنْ ثَبَتَ إيمَانُهُ بِيَقِينِ لَمْ يَزُلْ ذَلِكَ عَنْهُ بِالشَّكِّ؛ بَلْ لَا يَزُولُ إلَّا بَعْدَ إقَامَةِ الْحُجَّةِ وَإِزَالَةِ الشُّبْهَةِ))[2]، ويقول الحافظ بن

(١) رواه البخاري، كتاب: المغازي، باب: شهود الملائكة بدرًا، برقم: (٤٠١٩).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية: (١٢/٥٠١).

عبد البر: ((وَمِنْ جِهَةِ النَّظَرِ الصَّحِيحِ الَّذِي لَا مِدْفَعَ لَهُ أَنَّ كُلَّ مَنْ ثَبَتَ لَهُ عَقْدُ الْإِسْلَامَ فِي وَقْتٍ بِإِجْمَاعٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا أَوْ تَأَوَّلَ تَأْوِيلًا فَاخْتَلَفُوا بَعْدُ فِي خُرُوجِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ لَمْ يَكُنْ لِاخْتِلَافِهِمْ بَعْدَ إِجْمَاعِهِمْ مَعْنًى يُوجِبُ حُجَّةً وَلَا يُخْرِجُ مِنَ الْإِسْلَامِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ إِلَّا بِاتِّفَاقٍ آخَرَ أَوْ سُنَّةٍ ثَابِتَةٍ لَا مُعَارِضَ لَهَا)) قال: ((وَقَدِ اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةُ وَهُمْ أَهْلُ الْفِقْهِ وَالْأَثَرِ عَلَى أَنَّ أَحَدًا لَا يُخْرِجُهُ ذَنْبُهُ وَإِنْ عَظُمَ مِنَ الْإِسْلَامِ)) قال: ((فَالْوَاجِبُ فِي النَّظَرِ أَنْ لَا يُكَفَّرَ إلا ن اتفق الجميع على تكفيره أوقام عَلَى تَكْفِيرِهِ دَلِيلٌ لَا مِدْفَعَ لَهُ مِنْ كِتَابٍ أَوسُنَّةٍ))[1].

الضابط الثالث: إذا حصل شكٌ في كفر مسلم فواجب أن يُحمل على الإسلام، وهذا متفرعٌ عما تقدم، فاليقين هو إسلامه فلا يرفع الإسلام بالشك، فإذا دار الأمر بين أن يكون مسلمًا، أو كافرًا فإنه يجب حمله على الإسلام؛ يعني: مثلًا نحن قلنا إن الحكم بغير ما أنزل الله فيه تفصيل قد يكون كفرًا، وقد لا يكون كفرًا فإن اشتبه علينا حاله فإنا نحمله على الإسلام، ولا نحمله على الكفر إلا بيقين، وإذا حصل الشك حمِل على الإسلام، يقول عبد الله ابن شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب: ((فما تنازع العلماء في كونه كفرًا فالاحتياط للدين التوقف وعدم الإقدام ما لم يكن في المسألة نصٌ صريح))[2]، والمقصود بالتوقف هنا ليس التوقف في الشخص، وإنما المقصود الوقوف عن التكفير يفسره أنه قال: ((وعدم الإقدام))، يعني: عدم الإقدام على التكفير، ((إلا إذا كان في المسألة نصٌ صريح))، وقد ذكر بعض الفقهاء أن الذي ينبغي أن يميل إليه المؤمن الاحتراز من التكفير ما وجد إليه سبيلًا فإن استباحة الدماء، والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله خطرٌ عظيم، قال: ((والخطأ في ترك ألف كافرٍ في الحياة أهون من الخطأ في سفك قطرةٍ من دم مسلم))

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد للقرطبي: (٢١/١٧).

(٢) منهاج أهل الحق والاتباع في مخالفة أهل الجهل والابتداع: (٧٧/١).

وهذا فقهٌ عظيم، المسـلم الواحد أعظم من الكفار جميعًا، فيقول: **((الخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سـفك قطرةٍ من دم مسـلم))** ويا ليت شـبابنا، وإخواننا يفقهون هذا فإنهم يقدمون على دم المسلم في أقل شبهة، واسألوا بلادنا التي أنَّت، اسألوا بلاد الجزائر، واسألوا بلاد السودان، واسألوا هذا البلد كيف أنَّت، وتوجعت، وتفجَّعت، وتيتم من تيتم فيها بسبب الجهل بهذا الفقه العظيم.

الضـابط الرابع: لا يلزم من وصـف الفعل بالكفر كفر الفاعل له، ففرقٌ بين الكفر المطلق، وتكفير المعين فقد يوصـف القول، أو الفعل بكونه كفرًا، ولا يوصـف قائله، أو فاعله بكونه كافر، يقول شـيخ الإسـلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله: **((يَجِبُ التَّفْرِيقُ بَيْنَ الْإِطْلَاقِ وَالتَّعْيِينِ))**[1]، والأصل لهذه العاصمة من خطر التكفير، وهذا الضابط العظيم قصة الرجل الذي جلده النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ في شرب الخمر مرارًا فأُتِي به يومًا فأمر بجلده، فقال: رجلٌ من القوم اللهم ألعنه ما أكثر ما يؤتى به، فقال النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: **«لا تلعنوه، فوالله ما علمت إنه يحب الله ورسوله»**[2] رواه البخاري في الصحيح.

تأمل هنا هذا الرجل يشرب الخمر، بل وشرب الخمر مرارًا والنَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ جاء عنه في حديث أنس بن مالك أنه: **«لَعَنَ فِي الخَمْرِ عَشَرَةً: عَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَشَارِبَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالمَحْمُولَةُ إِلَيْهِ، وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا، وَآكِلَ ثَمَنِهَا، وَالمُشْتَرِي لَهَا، وَالمُشْتَرَاةُ لَهُ»**[3] رواه الإمام أحمد، وابن ماجة، وصححه الألباني؛ تأمل هنا لعن النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ شارب الخمر لعنًا مطلقًا لكن عندما جاء هذا المعين، وقد شرب الخمر ليس مرةً

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: (٣٠/٢٣٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب: الحدود، باب: ما يكره من لعن شارب الخمر، وإنه ليس بخارج من الملة، برقم: (٦٧٨٠).

(٣) رواه ابن ماجة، كتاب: الأشربة، باب: لُعِنَتِ الْخَمْرُ عَلَى عَشَرَةِ أَوْجُهٍ، برقم: (٣٣٨١)، وقال الألباني حسن صحيح في صحيح الترغيب والترهيب، برقم: (٢٣٥٧).

بل مرارًا، فقال رجل: «اللهم ألعنه» فلعن المعين ماذا قال النَّبِيّ صَـلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَمْ؟ قال: «لا تلعنه» ففرقٌ بين إنزال اللعنة على المطلق، وإنزال اللعنة على المعين.

ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله: ((ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ كَانَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ يُدْعَى حِمَارًا، وَكَانَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ، وَكَانَ كُلَّمَا أُتِيَ بِهِ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَلَدَهُ الْحَدَّ، فَلَمَّا كَثُرَ ذَلِكَ مِنْهُ أُتِيَ بِهِ مَرَّةً فَأَمَرَ بِجِلْدِهِ فَلَعَنَهُ رَجُلٌ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: لَا تَلْعَنْهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَنَهَى عَنْ لَعْنِهِ مَعَ إصْرَارِهِ عَلَى الشُّرْبِ لِكَوْنِهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، مَعَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ فِي الْخَمْرِ عَشَرَةً، وَلَكِنْ لَعْنُ الْمُطْلَقِ لَا يَسْتَلْزِمُ لَعْنَ الْمُعَيَّنِ الَّذِي قَامَ بِهِ مَا يَمْنَعُ لُحُوقَ اللَّعْنَةِ لَهُ))، قال: ((وَكَذَلِكَ التَّكْفِيرُ الْمُطْلَقُ وَالْوَعِيدُ الْمُطْلَقُ)) أحكامها واحدة كحكم اللعن، قال: ((وَلِهَذَا كَانَ الْوَعِيدُ الْمُطْلَقُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مَشْرُوطًا بِثُبُوتِ شُرُوطٍ وَانْتِفَاءِ مَوَانِعَ))[1].

ويقول رَحِمَهُ الله: ((فَتَكْفِيرُ الْمُعَيَّنِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْجُهَّالِ وَأَمْثَالِهِمْ بِحَيْثُ يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مِنْ الْكُفَّارِ، لَا يَجُوزُ الْإِقْدَامُ عَلَيْهِ إلَّا بَعْدَ أَنْ تَقُومَ عَلَى أَحَدِهِمْ الْحُجَّةُ الرسالية الَّتِي يَتَبَيَّنُ بِهَا أَنَّهُمْ مُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَقَالَةُ لَا رَيْبَ أَنَّهَا كُفْرٌ، وَهَكَذَا الْكَلَامُ فِي تَكْفِيرِ جَمِيعِ الْمُعَيَّنِينَ))[2]، وقال: ((وَالتَّحْقِيقُ فِي هَذَا: أَنَّ الْقَوْلَ قَدْ يَكُونُ كُفْرًا كَمَقَالَاتِ الْجَهْمِيَّةِ الَّذِينَ قَالُوا: إنَّ اللَّهَ لَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَرَى فِي الْآخِرَةِ؛ وَلَكِنْ قَدْ يَخْفَى عَلَى بَعْضِ النَّاسِ أَنَّهُ كُفْرٌ فَيُطْلِقُ الْقَوْلَ بِتَكْفِيرِ الْقَائِلِ))[3] يعني: أنه كفر مطلق، ((فيطلق

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: (١٠/٣٢٩).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية: (١٢/٥٠٠).

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية: (٧/٦١٩).

القول بتكفير القائل كما قال السـلف من قال القرآن مخلوق فهو كافر ومن قال إن الله لا يرى في الآخرة فهو كافر)).

قال الشيخ: ((وَلَا يَكْفُرُ الشَّخْصُ الْمُعَيَّنُ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ))، ثم تأمل الأمثلة ماذا سيقول الشيخ؟ انظر إلى الأمثلة الكبار، قال: ((كَمَنْ جَحَدَ وُجُوبَ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةَ وَاسْتَحَلَّ الْخَمْرَ؛ وَالزِّنَا وَتَأَوَّلَ، فَإِنَّ ظُهُورَ تِلْكَ الْأَحْكَامِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَعْظَمُ مِنْ ظُهُورِ هَذِهِ فَإِذَا كَانَ الْمُتَأَوِّلُ الْمُخْطِئُ فِي تِلْكَ لَا يُحْكَمُ بِكُفْرِهِ إلَّا بَعْدَ الْبَيَانِ لَهُ وَاسْتِتَابَتِهِ كَمَا فَعَلَ الصَّحَابَةُ فِي الطَّائِفَةِ الَّذِينَ اسْتَحَلُّوا الْخَمْرَ فَفِي غَيْرِ ذَلِكَ أَوْلَى وَأَحْرَى))، وعلى هذا يُخرج الحديث المعروف للرجل الذي كان قبلنا، وسيأتي أيضًا.

يقول شيخ الإسلام: ((أَن طَائِفَة من أَصْحَاب أَحْمد)) يعني: أحمد بن حنبل، ((تَحْكِي عَنْ أَحْمَد فِي تَكْفِيرِ أَهْلِ الْبِدَعِ رِوَايَتَيْنِ مُطْلَقًا حَتَّى تَجْعَلَ الْخِلَافَ فِي تَكْفِيرِ الْمُرْجِئَةِ وَالشِّيعَةِ الْمُفَضِّلَةِ لِعَلِيٍّ وَرُبَّمَا رَجَّحَتْ التَّكْفِيرَ وَالتَّخْلِيدَ فِي النَّارِ))[1] قال: ((وَلَيْسَ هَذَا مَذْهَبَ أَحْمَد وَلَا غَيْرِهِ مِنْ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ بَلْ لَا يَخْتَلِفُ قَوْلُهُ أَنَّهُ لَا يُكَفِّرُ الْمُرْجِئَةَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: الْإِيمَانُ قَوْلٌ بِلَا عَمَلٍ وَلَا يُكَفِّرُ مَنْ يُفَضِّلُ عَلِيًّا عَلَى عُثْمَانَ بَلْ نُصُوصُهُ صَرِيحَةٌ بِالِامْتِنَاعِ مِنْ تَكْفِيرِ الْخَوَارِجِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ. وَإِنَّمَا كَانَ يُكَفِّرُ الْجَهْمِيَّةَ الْمُنْكِرِينَ لِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ؛ لِأَنَّ مُنَاقَضَةَ أَقْوَالِهِمْ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَاهِرَةٌ بَيِّنَةٌ))[2].

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: (٣٤٨/٢٣).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية: (٣٤٨/٢٣).

وذكر عن شـــيخ الإســـلام الإمام أحمد مســـألة عظيمة قال: ((كَانَ يُكَفِّرُ الْجَهْمِيَّة الْمُنْكِرِينَ لِأَسْـمَاءِ اللَّهِ وَصِـفَاتِهِ؛ لِأَنَّ مُنَاقَضَـةَ أَقْوَالِهِمْ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُـولُ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ ظَاهِرَةٌ بَيِّنَةٌ)) تأمل معي الأوصــاف التي يذكرها شـيخ الإســلام ابن تيمية فهي مهمة جدًا، يقول: ((وَلِأَنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمْ تَعْطِيلُ الْخَالِقِ وَكَانَ قَدْ أُبْتُلِيَ بِهِمْ حَتَّى عَرَفَ حَقِيقَةَ أَمْرِهِمْ وَأَنَّهُ يَدُورُ عَلَى التَّعْطِيلِ وَتَكْفِيرُ الْجَهْمِيَّة مَشْـهُورٌ عَنْ السَّـلَفِ وَالْأَئِمَّةِ، لَكِنْ مَا كَانَ يَكْفُرُ أَعْيَانُهُمْ))، يعني: انظر ماذا وصف شيخ الإسلام ابن تيمية في الجهمية، وأن الإمام أحمد كان يكفرهم أي بإطلاق، قال: ((لَكِنْ مَا كَانَ يَكْفُرُ أَعْيَانُهُمْ)) فإن الذي يدعو إلى القول أعظم من الذي يقول به، والذي يعاقب مخالفه أعظم من الذي يدعو فقط، والذي يكفر مخالفه أعظم من الذي يعاقبه، ومع هذا فالذين كانوا من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية إن القرآن مخلوق، وإن الله لا يُرى في الآخرة، ويدعون الناس إلى ذلك، ويمتحنونهم، ويعاقبونهم إذا لم يجيبوهم، ويكفرون من لم يجبهم حتى أنهم كانوا إذا أمسكوا الأسير لم يطلقوه حتى يقرّ بقول الجهمية أن القرآن مخلوق؛ بل سـجنوا الإمام أحمد وضـربوه ضـربًا شـديدًا، وأدموا جلده وحشـو جلده بالملح إلى من له.

يقول: ((وَمَعَ هَذَا فَالْإِمَامُ أَحْمَد رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى تَرَحَّمَ عَلَيْهِمْ، وَاسْـــتَغْفَرَ لَهُمْ بل عندما ذكر أنه يبيحهم)) قيل له في ذلك يعني: يبيحهم مما صـنعوه به، قيل له في ذلك، قال: ((وما ينفعك أن يعذب الله أخاك المسلم بسببك)) مع كل ما صنعوه فيه.

قال: ((وما ينفعك أن يعذب الله أخاك المسـلم بسـببك))، قال: ((لعلمه بأنهم لم يتبين لهم أنهم مكذبون للرسـول، ولا جاحدون لما جاء به، ولكن تأولوا فأخطأوا، وقلدوا مَن قال لهم ذلك)).

✍ وكلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله في هذا كثير، لكن قد يقول لي قائل: أذكر لنا أدلة تدل على عدم إلحاق التكفير بالمعين مع أنه قال كفرًا، أو فعل كفرًا؟

نقول: الأدلة كثيرة من ذلك ما ثبت في الصحيح: أن النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ دخل على حمزة رَضِيَ اللهُ عَنْه ومعه بعض أصحابه بيتًا قبل تحريم الخمر، وكانوا قد شربوا الخمر فثملوا، فكلّمه النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ في أمرٍ قد اشتكى منه علي رَضِيَ اللهُ عَنْه، فقال حمزة: «**وَهَلْ أَنْتُمْ إِلَّا عَبِيدٌ لِأَبِي**»[1]، يعني: يقول للنَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ كيف تكلمني بهذا الكلام، وما أنت إلا عبدٌ عند أبي وهذا شتمٌ للنَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ وهي مقولة كفر، لكن ماذا قال الراوي؟ قال: «**فعلم أنه ثملٌ فتركه وخرج**» هذا غاية ما صنعه النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ علم أنه ثمل فتركه، وخرج.

وهذه أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تقول للنَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: «**يا رسول الله مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللهُ**»، تسأل «**مَهْمَا يَكْتُمِ النَّاسُ يَعْلَمْهُ اللهُ**» قال الرسول صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: «**نَعَمْ**»[2]، وهذا في صحيح مسلم، فعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا هنا تسأل عن علم الله مهما يكتم الناس في صدورهم يعلمه الله، فقال لها النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: «**نَعَمْ**» علمها مع أنها في سؤالها ما يوحي بأنها جهلت سعة علم الله.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ الله: **((وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ذَلِكَ، وَلَمْ تَكُنْ قَبْلَ مَعْرِفَتِهَا بِأَنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ يَكْتُمُهُ النَّاسُ كَافِرَةً))**[3]؛ لأنها لم تكن تعلم فلم تكن

---

(١) رواه البخاري، كتاب: فرض الخمس، برقم: (٣٠٩١).

(٢) رواه مسلم، كتاب: الكسوف، باب: مَا يُقَالُ عِنْدَ دُخُولِ الْقُبُورِ وَالدُّعَاءِ لِأَهْلِهَا، برقم: (٩٧٤).

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية: (١١/٤١٢).

كافرة، قال: ((تَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ كُفْرٌ وَلَكِنَّ تَكْفِيرَ قَائِلِهِ لَا يُحْكَمُ بِهِ حَتَّى يَكُونَ قَدْ بَلَغَهُ مِنْ الْعِلْمِ مَا تَقُومُ بِهِ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ الَّتِي يَكْفُرُ تَارِكُهَا))[1].

أيضًا جاء في الصحيحين: «أن رجلًا كان يسرف على نفسه» يعني: كثير الذنوب «فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا، فلما مات فعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خشيتك، فغفر له»[2]، يقول ابن قتيبة: ((وهذا رجلٌ مؤمنٌ بالله مقرٌّ به خائفٌ منه إلا أنه جهل صفةً من صفاته لشدة خشيته فظنّ أنه إذا حرّق وذرّي في الريح أنه يفوت الله تعالى فغفر الله له بمعرفته ما بنيته)) ، ويقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: ((فَهَذَا رَجُلٌ شَكَّ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ وَفِي إعَادَتِهِ إذَا ذُرِّيَ، بَلْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ لَا يُعَادُ، وَهَذَا كُفْرٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، لَكِنْ كَانَ جَاهِلًا لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ وَكَانَ مُؤْمِنًا يَخَافُ اللَّهَ أَنْ يُعَاقِبَهُ فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ))[3].

أيضًا هناك قصة حدثت مع النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ هذه القصة حدثت للنَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ حيث بعث أبا جهم رَضِيَ اللهُ عَنْه مصدقًا فلاجّه رجلٌ في صدقته، يعني خاصمه وتلاحيا، فضربه أبو جهمٍ فشجّه فأتوا النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ فقالوا: «الْقَوَدَ يَا رَسُولَ اللَّهِ» هؤلاء المسلمون أبو جهم ذهب يأخذ منهم الصدقة فجاؤوا فقالوا: «الْقَوَدَ يَا رَسُولَ اللَّهِ»، فقال النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ: «لَكُمْ كَذَا وَكَذَا» فَلَمْ يَرْضَوْا، فَقَالَ: «لَكُمْ كَذَا وَكَذَا» فَلَمْ يَرْضَوْا، فَقَالَ: «لَكُمْ كَذَا وَكَذَا» فَرَضُوا، فقال النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: حديث الغار، برقم: (٣٤٨١).

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية: (٣/٢٣١).

«إِنِّي خَاطِبٌ الْعَشِيَّةَ عَلَى النَّاسِ وَمُخْبِرُهُمْ بِرِضَاكُمْ» فَقَالُوا: نَعَمْ، فخطب رسول الله صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ انظروا إلى الخبر، فقال: «إِنَّ هَؤُلَاءِ اللَّيْثِيِّينَ أَتَوْنِي يُرِيدُونَ الْقَوَدَ، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِمْ كَذَا وَكَذَا فَرَضُوا، أَرَضِيتُمْ؟» قالوا: لا؛ هم رضوا مع النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ فلما خطب، وأخبر أنهم رضوا قالوا: لا؛ ما رضينا فكأنهم كذّبوا النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ في خبره فهَمَّ المهاجرون بهم فأمرهم رسول الله صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ أن يكفوا عنهم فكفوا، ثم دعاهم فزادهم فَقَالَ: «أَرَضِيتُمْ؟» فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «إِنِّي خَاطِبٌ عَلَى النَّاسِ وَمُخْبِرُهُمْ بِرِضَاكُمْ» قَالُوا: نَعَمْ، فَخَطَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «أَرَضِيتُمْ؟» قَالُوا: «نَعَمْ»[1] رواه أبو داوود، وابن ماجة، وصححه الألباني.

والشاهد: من القصة أنهم لما أخبر النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمْ أنهم رضوا، وسألهم أرضيتم؟ يعني أحقًا ما قلت؟ قالوا: لا، وهذا تكذيب للنَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ في خبر.

قال ابن حزمٍ رَحِمَهُ الله: **((وفي هذا الخبر عذر الجاهل، وأنه لا يخرج من الإسلام بما لو فعله العالم الذي قامت عليه الحجّة لكان كافرًا))**.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله: **((وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ قَدْ يَنْشَأُ فِي الْأَمْكِنَةِ وَالْأَزْمِنَةِ الَّذِي يَنْدَرِسُ فِيهَا كَثِيرٌ مِنْ عُلُومِ النُّبُوَّاتِ حَتَّى لَا يَبْقَى مَنْ يُبَلِّغُ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ فَلَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا يَبْعَثُ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ وَلَا يَكُونُ هُنَاكَ مَنْ يُبَلِّغُهُ ذَلِكَ وَمِثْلُ هَذَا لَا يَكْفُرُ))**، قال: **((وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْأَئِمَّةُ عَلَى أَنَّ مَنْ نَشَأَ بِبَادِيَةٍ بَعِيدَةٍ عَنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَكَانَ حَدِيثَ الْعَهْدِ بِالْإِسْلَامِ فَأَنْكَرَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَحْكَامِ الظَّاهِرَةِ**

(١) رواه أبو داود، كتاب: الديات، باب: الْعَامِلِ يُصَابُ عَلَى يَدَيْهِ خَطَأً، برقم: (٤٥٣٤)، وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: (٣/٣٦٦).

الْمُتَوَاتِرَةِ فَإِنَّهُ لَا يُحْكَمُ بِكُفْرِهِ حَتَّى يَعْرِفَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُـــولُ))[1] والكلام في هذا طويلٌ، وكلام أهل السنة والجماعة فيه كبيرٌ وعظيم.

الضـــابط الخامس: وهذا مهم جدًا؛ الأصـــل في هذا الباب أن لا يتكلم فيه إلا أهل البصيرة؛ إصدار الحكم بالتكفير لا يكون لكل أحد لا يكون لآحاد الناس، وإنما يكون للعلماء الراسخين أهل السنة الربانيين المشهود لهم بالعلم، والحكمة فإنهم هم أهل الميثاق، كما قال الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[2] فالله عَزَّ وَجَلّ أخذ على أهل الكتاب الميثاق: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾.

والمقصود بهم أهل العلم منهم: يقول عبد الله بن محمد ابن عبد الوهاب: **((وبالجملة فيجب على من نصح نفسه ألا يتكلم في هذه المسألة إلا بعلمٍ وبرهانٍ من الله))**، والأصل في العلم: أن يُطلب من العلماء الأكابر فكيف بهذه المسألة العظيمة، يقول النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ: «**إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ثَلَاثًا: إِحْدَاهُنَّ أَنْ يُلْتَمَسَ الْعِلْمُ عِنْدَ الْأَصَاغِرِ**»[3] يعني: أن يترك الأكابر إلى الأصاغر، وهذا الحديث رواه الطبراني، وصححه الألباني.

فمن أشراط الساعة أن يترك العلم من الأكابر، ويلتمس من الأصاغر، ويرد كلام الأكابر كما هو حال كثيرٍ من الشـــباب اليوم قد يظهر عليهم أنهم طلاب علم، وقد تظهر عليهم علامات الخير، ولكنهم يردّون علم الكبار، ويأخذون بكلام الصـــغار، فإن قلت لهم: قال ابن باز، قالوا مَن؟ قال الألباني، قالوا مَن؟ قال ابن عثيمين، قالوا مَن؟ قال صالح الفوزان، قالوا من؟ لكن إذا قلت فلان أو فلان من علماء الفضـــائيات قال: نعم، وهذا من أســـباب الخطأ الذي وقع فإن ردّ علم الأكابر بكلام الأصـــاغر من جنس ردّ المحكم بالمتشـــابه، يقول ابن قتيبة رَحِمَهُ

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: (١١/٤٠٧).

(٢) سورة آل عمران: (١٨٧).

(٣) رواه الطبراني، برقم: (٩٠٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته، برقم: (٢٢٠٧).

الله: ((لا يزال الناس بخيرٍ ما كان علماؤهم المشايخ ولم يكن علماؤهم الأحداث))؛ لأن الشيخ قد زالت عنه حدة الشباب، ومتعته، وعجلته، واستصحب التجربة في أموره فلا تدخل عليه في علمه الشبه، ولا يستميله الهوى، ولا يستذله الشيطان، والحدث قد تدخل عليه هذه الأمور التي أُمنت على الشيخ فإذا دخلت عليه أفتى فهلك، وأهلك بعض الشباب عندما يُسألون في بعض الأمور التي تثور فيها عواطف الناس يدخل عليه الهوى، يقول: لو منعتهم الآن ما يصبح لي جمهور فقد يفتيهم ليظهر أنه شجاع، أو أنه لا يخاف في الحق لومة لائم، أما الكبار فالغالب أنهم يؤمن عليهم هذا، وهذه المسألة تدخل دخولًا أوليًّا في قول الله عَزَّ وَجَلّ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾[1].

✍ والعلم بمسألة التكفير يؤخذ من العلماء الأكابر من جهتين:

- الجهة الأولى: هل القول أو الفعل كفرٌ؟ من حيث ذاته.
- والجهة الثانية: هل القائل أو الفاعل كافرٌ؟ فيؤخذ هذا، وهذا من أهل العلم الكبار الراسخين.

ولا يصح قياس فردٍ على فردٍ في هذا، فلا تجرّ فتوى عالمٍ كبير في معين إلى معينٍ آخر؛ لأن مثل هذه الفتاوى تكون خاصةً لا تنقل إلى معينٍ آخر، فقد تجتمع الشروط وتنتفي الموانع في معين، وتتخلف الشروط في آخر قال بمثل قوله، أو فعل مثل فعله، فلا بد من الرجوع إلى العلماء الربانيين الكبار في هذا؛ لأن مسألة التكفير دقيقة، وتحتاج أن يُعرف توفر الشروط فيها وانتفاء الموانع وتترتب عليها آثار كبيرة، ويظهر لي والله أعلم: من كلام العلماء أنه يُستثنى من

(١) سورة النساء: (٨٣).

ذلك ما إذا كان الكفر بالفعل الذي يدركه كل واحد وهو ترك الصـــلاة عند من يرى الكفر بتركها، فمن ترك الصـــلاة فإنه يحكم عليه الإنســـان الذي يعلم أنه ترك الصـــلاة بأنه كافر في الأعمال التي لا تتعدى، يعني: في الأعمال التي تخصــه هو كالاســتغفار له فلا يســتغفر له، ولا يترحم عليه إن مات على هذا، ولا يحجّ عنه، ولا يعتمر عنه ونحو هذا.

أما الأفعال المتعدية كالتفريق بينه وبين امرأته، وإســـقاط ولايته عن بناته، وعدم توريثه والإرث منه فلا بد من الرجوع فيها إلى القاضي؛ لأن القاعدة عند أهل العلم: ((أن ما اختلف فيه في الأفعال المتعدية لا يفصـل فيه إلا القاضـي)) فيرجع فيه إلى القاضـي؛ أعطيكم مثالًا: لو أن شـابًا يعلم أن والده لا يصلي أبدًا، وهو يعتقد أن تارك الصلاة كافر، فهل له أن يزوج أخته بغير إذن أبيه؟ نقول: لا، ليس له ذلك ليس له أن يســـقط ولاية أبيه، بل يرجع في ذلك إلى القاضي، فإن لم يكن قاضي يرجع إلى من يقوم بأمر المسلمين.

إذن تارك الصـــلاة من جهة الحكم عليه من علم أنه تاركٌ للصـــلاة وهو يعتقد أن تارك الصـلاة كافر فإنه يحكم عليه بأنه كافر، ومن جهة الأفعال غير المتعدية يلتزم بهذا، أما من جهة الأفعال المتعدية فلا بد من الرجوع إلى القاضي.

✍ أختم بضابطين باختصارٍ شديد:

أحدهما: أنه يجب التثبت في الأخبار لا ســيما ما يتعلق بالتكفير، فإنه يترتب عليه آثارٌ كبيرة، وخطيرة لا يجوز أن تنســـب الأفعال الكفرية، والأقوال الكفرية إلى مســـلمٍ ولو لم يُكفَّر بعينه إلا بتثبت، وكانت يقولون، وهذا معروف لا يجوز أن تســـتعمل في الأخبار، والأفعال، والأقوال الكفرية، فلا يجوز أن ينسـب القول الكفري إلى مسـلم إلا بتثبت، ولا يجوز أن ينسـب الفعل الكفري إلى مسلم إلا بتثبت، فإذا لم يثبت بيقين فإنه يردّ ولا يلتفت إليه.

والضـابط الثاني: وهو نافع ومهم جدًا في أمور كثيرة، وهو: أنه لا يلزم المسلم إن اعتقد الحكم على أحد أن ينطق بلسانه؛ أعطيكم مثالًا: لو أن طالب علم سأل عالمًا كبيرًا معتبرًا عن معين، فقال له العالم: إنه كافر فاعتقد كفره هل يلزم أن ينطق، ويخبر الناس، ويتكلم ويقول إنه كافر؟ نقول: لا، بل النطق يتبع المصلحة الشرعية؛ النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ كان يعلم أسماء المنافقين، وأعيان المنافقين، ويعتقد أنهم في الدرك الأسفل من النار، لكن هل أخبر بأسمائهم؟ لم يخبر إلا حذيفة رَضِـيَ اللهُ عَنْه واستكتمه السر، ولم يخبر حذيفة أحدًا إلا عمر رَضِـيَ اللهُ عَنْه بالنفي عنه أيضًا مع أن معرفة المسلمين بأسماء المنافقين قد تترتب عليها مصالح كثيرة منها ألا يُصلى عليهم، منها ألا يستغفر لهم، منها أن يحذر شرهم ومكرهم؛ لكن كانت هنالك مصلحة أعظم فترك النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ بيان أسمائهم، وهذا أصل فقد تعتقد في رجلٍ أنه مبتدع، قد تعتقد في رجلٍ أنه كافر لكن لا يلزمك أن تقول ذلك بلسانك، وإنما حكم ذلك يتبع المصلحة الشرعية، فإن دلت المصلحة الشرعية على التلفظ تلفظت، وإن لم تدل المصلحة الشرعية على التلفظ فإنك تكفّ لسانك.

هذه بعض النقاط التي أحببت أن أشير إليها، وقد جمعت كثيرًا من نصوص أهل السنة والجماعة فيها؛ لكن الوقت يكفي لإيراد ما أوردت، ولعل فيه كفاية إن شاء الله عَزَّ وَجَلّ، وبهذا كما قلت مقدمًا نختم مجالسنا العلمية في مسجد نَبِيِّنَا صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ لحج هذا العام، وهذا آخر درسٍ لنا في هذه الأيام في هذا المكان، ولعلنا نجيب فيما بقي من الوقت على بعض أسئلة إخواننا.

وأبدأ بالمسألة التي نوهت عنها في أول الكلام: وهي مسألة البيع في المسجد، وذلك أني سئلت مرارًا من سنين، وآخر ما سئلت البارحة وجوابي:

أن البيع في المسجد حرامٌ لا يجوز، وأنه باطلٌ لا ينعقد فاستشكل عليَّ بعض طلاب العلم الجواب، وقال لي: إن الشوكاني نقل الإجماع على صحة البيع، قلت: ما نقله الشوكاني ذكره بعض فقهاء الشافعية، وقالوا: إن الجميع قد اتفقوا على أن ما أمضي في المسجد يمضى، ولا ينقض مع اختلافهم في حكمه، وهذا الإجماع غير صحيح، وإنما اختلف العلماء في حكم البيع في المسجد ابتداءً فذهب الجمهور إلى أنه مكروه، وذهب الحنابلة إلى أنه محرم، وذهب بعض التابعين إلى أنه لا بأس به، والصحيح: أنه محرم؛ لأن المساجد لم تبن لهذا، والنَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ قال ذلك في منشد الضالّة، لكن هذا التعليل عام فيلحق به يلحق بإنشاد الضالّة كل ما لم تبن له المساجد، وأيضًا: **«نهى النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ عن البيع في المسجد»**[1] رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وحسنه الألباني.

وجاء عن النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ أنه قال: **«إِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ فِي المَسْجِدِ، فَقُولُوا: لَا أَرْبَحَ اللَّهُ تِجَارَتَكَ»**[2] رواه الترمذي، وصححه الألباني، وهذا لا شك يدل على التحريم فإن النَّبِيّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ نهى، وقال للمسلمين ادعوا عليه وهذه عقوبة فيدل على أنه معصية.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب: الجهاد، باب: فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ السَّبْيِ، برقم: (٢٦٩٦)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود، برقم: (٢٦٩٦).

(٢) رواه الترمذي، كتاب: أبواب البيوع، باب: النَّهْيِ عَنِ البَيْعِ فِي المَسْجِدِ، برقم: (١٣٢١)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، برقم: (٤٥).

وأما الصحة فأكثر أهل العلم يقولون: العقد صحيح؛ لكن جاءت روايةٌ عن الإمام أحمد استظهرها جمعٌ من الحنابلة، وقدمها صاحب منار السبيل أن البيع باطل فيحرم، ولا يصحّ، وهذا الذي يظهر لي والله أعلم؛ لأن النَّبِيَّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ نهى عنه، والمنهي عنه الأصل فيه الفساد؛ لأن النَّبِيَّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ قال: **«مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»**[1]، ومن فعل المنهي فقد أحدث ما ليس عليه أمر الرسول صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ؛ ولأن النهي هنا لحق الله، والجمهور يقيسون البيع في المسجد على التصرية يقول النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ نهى عن التصرية وصحّ البيع قالوا فكذلك هنا نقول: لا؛ هنالك فرق، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ضابطًا نافعًا في مسائل النهي في البيوع، فقال: **((ما نُهي عنه من البيوع لحق الله فهو فاسد، وما نُهي عنه لحق المخلوق أوقف على رضا صاحب الحق))**[2] نهى النَّبِيُّ صَلَى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَمْ عن البيع في المسجد هذا لحق الله فهذا يدل على الفساد؛ نهى عن التصرية هذا لحق المخلوق فيوقف على رضا صاحب الحق المشتري فإن رضي أمضين البيع، وإن ردّ فإنه يردها وصاعًا من تمر كما ثبت بذلك الحديث؛ هذا ما أحببت بيانه جوابًا لاستشكل بعض إخواني علي لما سمعوا أني أقول أن البيع في المسجد لا يصح.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الفتاوى الكبرى لابن تيمية: (٥/١٤٠).

﴿ فهرس الموضوعات ﴾

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٢
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ	٨
اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ	١٤-١٧
الْعِلْمُ	١٨
الْعَمَلُ بِهِ	٢٣
الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ	٣٠
الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ	٣٤
وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾	٤٠
لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ	٤٣
وَقَالَ البُخَارِيُّ: بَابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ	٤٥
يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ هَذِهِ المسَائِلِ الثَّلاثِ	٤٧
أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا	٥٠
بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا	٥٢
فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ	٥٣
وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾	٥٦
أَنَّ اللهَ لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ	٥٧

لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ	٥٩
أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ	٨٤
أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ	٨٦
وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا	٨٨
وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ	٩٠
وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْه الشِّرْكُ	٩٣
الأُصُولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا	٩٩
الأصل الأول: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ	١٠٠
فإذَا قيلَ لكَ بِمَ عرفْتَ ربَّك؟ فقُل: بآياتِه ومخلوقاتِه	١٠٤
ومِنْ آياتِه الليلُ والنهارُ والشمسُ والقمر	١٠٦
وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ	١٠٧
والرَّبُّ هو المعبودُ	١١٠
قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءَ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ	١١٢
وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ	١١٣
وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾	١٢٨
الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ	١٣١
وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ﴾	١٣٣
وَدَلِيلُ الخَوْفِ	١٣٤
وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ	١٣٧
ودليلُ التَّوكُّلِ	١٣٨
وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالخُشُوعِ	١٤١

وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ	١٤٢
وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ	١٤٣
وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ	١٤٤
وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ	١٤٧
وَدَلِيلُ الاسْتِغَاثَةِ	١٥٠
وَدَلِيلُ الذَّبْحِ	١٥٣
وَدَلِيلُ النَّذرِ	١٥٨
الأَصْلُ الثَّانِي: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ	١٦١
وَهُوَ: الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ	١٦٦
وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسْلامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ	١٧٠
وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ، فأركان الإسلام خمسة	١٧١
شَهَادَةُ أَن لا اله إلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ	١٧٦
ودليلُ شهادةِ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ	١٨١
وَمَعْنَى شَهَادَة أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ	١٨٢
ودليلُ الصَلَاةِ والزكاة وتفسير التوحيد	١٨٥
ودَلِيلُ الصِّيَامِ	١٨٨
ودَلِيلُ الْحَجِّ	١٩٠
الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ	١٩٢
وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ	٢٠٧
وَمَلائِكَتِهِ	٢١١
وكُتُبِهِ	٢١٨

وَرُسُلِهِ	٢٢٣
وَالْيَوْمِ الآخِرِ	٢٤٣
وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ	٣٠٨
والدليل على هذه الأركان الستة	٣٢٩
ودليل القدر	٣٣٠
الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ	٣٣١
الإِحْسَانُ رُكْنٌ وَاحِدٌ	٣٣٦
دليل الإحسان	٣٣٧
الأَصْلُ الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ	٣٤٣
وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً	٣٤٧
نُبِّئَ بـ(اقْرَأ)، وَأُرْسِلَ بـ (الْمُدَّثِّرْ)	٣٤٨
وَبَلَدُهُ مَكَّةُ، وَهَاجَرَ إلى المدِينَة	٣٥١
بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَبالَدْعُوة إِلَى التَّوْحِيدِ	٣٥٢
أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ	٣٥٨
وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ	٣٦١
وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ	٣٧٠
وَبَعْدَهَا أُمِرَ بالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ	٣٧١
وَالْهِجْرَةُ الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ	٣٧٦
فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ	٣٨٩
وبعدها تُوُفِّيَ صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ	٤٠٠
وَافْتَرَضَ اللهُ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ	٤٢٧

وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ	٤٣١
وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُواْ يُبْعَثُونَ	٤٣٢
وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ	٤٣٦
وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ	٤٤٠
أنواع الطَّوَاغِيت	٤٥٠
وَاللهُ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ	٤٨٤

